

المختصر
من صحيح السيرة النبوية

دراسة علمية ووقفات تربوية

تأليف

أ.د. سليمان بن حمد العودة

أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة القصيم



شركة دار
رسالة البيان
للنشر والتوزيع

ح دار رسالة البيان للنشر والتوزيع، ١٤٤٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العودة، سليمان بن حمد

المختصر من صحيح السيرة النبوية ((دراسة علمية ووقفات
تربوية)). / سليمان بن حمد العودة - الرياض، ١٤٤٠هـ

٤٥٠ ص ٢٤ × ١٧ سم

ردمك: ٧-٢-٩١١٦١-٦٠٣-٩٧٨

أ. العنوان

١ - السيرة النبوية

١٤٤٠ / ٢٠٨٧

ديوي ٢٣٩

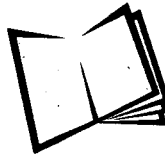
رقم الإيداع: ١٤٤٠ / ٢٠٨٧

ردمك: ٧-٢-٩١١٦١-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

(١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م)



شركة دار
رسالة البيان
للنشر والتوزيع

هاتف: +٩٦٦١١ ٢٢٠٥٥٤٧٣ فاكس: +٩٦٦١١ ٢٢٥٠١٦٧

www.bayanbooks.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بين يدي الكتاب

الحمد لله صاحب الفضل والإحسان، وأشكره وهو المعبود والمستحق للشكر على الدوام، وأصلي وأسلم على خير خلقه وأفضل رسله، والمبعوث رحمة للعالمين، وبعد:

فحين تكون الكتابة عن محمد ﷺ فهي كتابة عن أعظم رجل في تاريخ الإنسانية، وأفضل وأعظم رسول بعثه الله، الشافع المشفع في المحشر حين يقول غيره من الرسل (نفسي نفسي)، ومن هنا تتعاضم مسؤولية الكاتب عن هذه السيرة، وتتعاظم معها مسؤولية القارئ، فليست المسألة تحبيراً مجرداً، ولا قراءة خلواً من الاعتبار.. إنها سيرة خاتم المرسلين، الرحمة المهداة، والمعجزة الكبرى من المعجزات النبوية، حتى قال ابن حزم: (لو لم يكن من المعجزات لمحمد ﷺ غير سيرته لكفى...) (١).

• يحقُّ لكاتب هذه السيرة - وهو يتأمل أحداثها- أن يكتبها بقلبه قبل أن يسبق قلمه، وأن تسبق دموعه قبل أن يسطر مداده؛ تعظيماً وإجلالاً لصاحب هذه السيرة، وحباً وتقديراً لأصحابه البررة الذين شاركوه جهده وجهاده، حتى بلغ هذا الدين ما بلغ.

• وحين يسر الله لي كتابة هذه السيرة - في خريف عمري - وقد بلغت الستين عاماً، فقد كانت فكرة تأليف كتاب في السيرة تراودني منذ زمن، لكن ما ساعد في تحقيقها - بعد فضل الله وتوفيقه - إلحاح عدد من الزملاء عليّ بذلك، ثم جاء تكليف اللجنة العلمية لكرسي الشيخ عبد الله بن صالح الراشد الحميد

(١) الفصل في الملل والنحل (٢/ ٩٠).

لخدمة السيرة والرسول ﷺ - حين كنت مشرفاً على الكرسي - دافعاً قوياً، وقد أحسن الزملاء بي الظنَّ، وكان مقترحهم يتجاوز التأليف في السيرة باللغة العربية إلى ترجمة الكتاب إلى عدد من اللغات الحية، ليعمَّ نفعه، وأسأل الله أن ييسر ذلك قريباً، وأن أكون عنده حسن ظنهم، وأنا أحسن الظنَّ بربي.

• وحيث أمضيت بفضل الله في تدريس هذه السيرة والقراءة فيها والكتابة في بعض أحداثها قرابة أربعين عاماً.. فأرجو أن تكون هذه الكتابة خلاصة تجربة، وبلوغ مرحلة من العمر اشتعل الرأس شيباً، واشتقت إلى مرافقة صاحب هذه الرسالة وصحبه، ما جعلني أودع هذا المؤلف من (الوقفات والدروس والعبر) ما يحسن به الكتابة عن هذه السيرة، دون تكلف أو مبالغة.. لكنها السيرة العظيمة توحى لمن قرأها بعمق وإخلاص بمزيد من الدروس والعبر والأسوة وحسن الاقتداء، وهو ثمرة العلم، وحق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ﴿فِيهِدْنَاهُمْ أَقْتَدَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

• وحق هذه السيرة أن تُحمى من الزيادة فيها -دون نص صحيح- أو يُنقص فيها -بلا حجة وبرهان- وأن يجتهد كاتبوها في اختيار النقل الصحيح، ففيما صحَّ منها غنية عن غير الصحيح، وقد اجتهدت في تحصيل ذلك من كتب الصحاح والسنن والسير والطبقات والتراجم وغيرها، وفي مقدمة ذلك الصحيحان، وسيرة ابن إسحاق، وابن هشام، وطبقات ابن سعد.. ونحوها من كتب المتقدمين المعتبرة، ولم أخلها من تعليقات وتوضيح من جاء بعدهم كابن القيم، والذهبي، وابن كثير، وابن حجر وأمثالهم، ولم أقصرها عن كتابات المعاصرين لمزيد التحقيق والدرس والعبرة.. وأخذت في



الاعتبار التسهّل - أحياناً - في النقل عن من اشتهروا بتدوين السيرة والعناية بأحداثها ومواقعها وإن لم ترق أحاديثهم إلى رتبة الصحيح؛ وذلك لمزيد الفائدة واكتمال حلقات السيرة، وقد كان للعلماء الأوائل تسامح في مرويات السيرة مقارناً بغيرها من أحاديث الحلال والحرام كما يروى عن الإمام أحمد رحمه الله وغيره.

• ومع ذلك فقد حرصت على الصحيح ما وسعني الجهد، وحرصت كذلك على بيان الضعيف فيما نقلت، لأن لدي قناعة أن تدوين أحداث السيرة النبوية إذا اجتمع فيها صحة الحدث أو تحسينه، وعمق المصدر وأصالته، مع سلاسة في الأسلوب، وعناية بالدروس والعبر، كان ذلك أدعى لقبولها وتأثيرها، وأرجو أن يكون ذلك أو جلّه قد اجتمع في هذه الدراسة التي أقدمها لعموم الناس وخواصهم، وكبارهم وصغارهم، وذكورهم وإناثهم، والمتعلمين منهم في مقاعد الدراسة، وسواهم.

• كما أنني حرصت على الاختصار قدر الإمكان حتى لا أطيل على القارئ، ومن هنا سميت الكتاب (المختصر من صحيح السيرة النبوية «دراسة علمية ووقفات تربوية»).

• وإنني على يقين أن دراسة السيرة النبوية، وقراءة أحداثها الجسام ليست تسلية للفراغ، ولا قراءة كسائر ما يُقرأ من القصص والأخبار، إنها سيرة (نبي) اختاره الله لرسالته، وهي ملحمة وجهاد (نبوة) كان الله يُحيط صاحبها ويعصمه، ويبين له بالوحي ويهديه، ويهدي به إلى صراط مستقيم ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

إنها (السيرة النبوية)، يحتاج إليها (عوام) الناس حيث تُجدد إيمانهم، وتحسن أخلاقهم، وتُهذب سلوكياتهم، وفيها حلٌّ لمشكلاتهم، ويجدون فيها (العزاء) لآلامهم، و(الطريق) الأمثل للخروج من أزماتهم، كما يجدون فيها تسلية وأملًا (وفألاً حسناً) لمستقبلهم.

ويحتاج إليها (خواص) الناس وعلماؤهم، حين تضيق بهم المهاجر، ويرون (غربة) الدين تستحکم، والحق يُحاصر، والباطل يتمدد، وكلما أقبلت أعاصير الفتن والظلمات، رأوا في سيرة النبي ﷺ دليلاً ومخرجاً من الظلمات إلى النور، و(السيرة) خير معين لهم للخروج من (المضائق) وملهمة في الأزمات والشدائد.

• ألا إن زهد (العامة أو الخاصة) في السيرة العطرة خسارة لا تُعوض وكسرٌ لا يُجبر، ومصيبة تستحق التنادي والعودة للرحيق المختوم، ومن يجهل أو يُنكر أن سبيل الدعوة للمؤمنين هو سبيل الأنبياء؟ ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، بل إن سبيل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هو سبيل النجاة عموماً.

• ورُبَّ قائل يقول: وما الجديد في التأليف في السيرة النبوية اليوم؟ فأقول: نعم، لقد كثرت الكتابات والمصنفات في السيرة، وتنوعت مناهجها، واختلفت أساليب مؤلفيها، حتى تجاوز التأليف في أحداثها إلى التأليف في أسماء المصنفات فيها^(١).. ولكن تظل السيرة معيناً لا ينضب.

(١) ومن أبرز من كتب في ذلك د. صلاح الدين المنجد في كتابه (معجم ما أُلّف عن رسول الله ﷺ)، أما الكتابة في مصادر السيرة ومؤلفاتها، فقد تناولها عدد من الباحثين بالدراسة والاستقصاء (انظر على سبيل المثال: د. فاروق حمادة: مصادر السيرة وتقويمها، د. أكرم العمري في مقدمة كتابه: السيرة النبوية الصحيحة، د. مهدي رزق الله في مقدمة كتابه: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. سليمان بن حمد العودة في كتابه: قضايا ومباحث في السيرة النبوية.. وغيرهم.

ومن خلال بحثي واطلاعي رأيت اختلافاً في العرض، وتنوعاً في الأسلوب والدروس والعبر والاستنباطات - بين مؤلف وآخر في القديم أو الحديث - وهذا مؤشر إلى عظمة سيرة محمد ﷺ، وعمق أحداثها، بحيث يجد كل كاتب فيها ما يسعفه للدرس والتحليل والاستنباط، ولئن كنتُ وقفت على ما وقع تحت يدي من كتابات المتقدمين والمتأخرين، فقد حرصت على أن أستفيد مما كتبوا، وأضيف ما استطعت بما فتح الله به عليّ، وأرجو أن يجد القارئ جديداً فيما كتبت - إن في الأسلوب، أو في العبر، أو في محاولة ربط السيرة بواقعنا المعاصر - فتلك قيمة كبرى حتى لا تظل السيرة النبوية نصوصاً جامدة في زمنها، فالأسوة في السيرة محل اعتبار نصّ عليها الوحي بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، وليست سيرة محمد ﷺ لمدة زمنية مضت، بل هي علم للسائرين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

- لقد اعترف أكابر الروم بعظمة الرسالة وصدق الرسول ﷺ - زمن النبوة - ثم اعترف أكابر المستشرقين المنصفين بعظمة هذه السيرة ومنجزاتها في واقعنا المعاصر.

وحيث كانت هذه السيرة محل الاعتناء والاعتبار لدى المسلمين عبر القرون والأجيال المتتابعة فالיום تشتد الحاجة لعرض هذه السيرة بمنجزاتها الحضارية والقيمية على العالم، حتى يفىء العالم إلى رشده، ويحلّ العدل مكان الظلم، وينتشر النور حيث ما وجد الجهل والظلم والظلمات، والسيرة النبوية كنز حضاري يملكه المسلمون وينبغي أن يصل إلى غيرهم من البشر، حيث رسالة محمد ﷺ (للناس كافة) (ورحمة للعالمين)، ولئن قصر المسلمون مدة في حمل هذا النور وتعميمه، ففي زمن العولمة وثورة المعلومات واتصال الحضارات، وتقدم وسائل التقنية والإعلام، لا عذر اليوم في تعميم هذه الثقافة الراشدة، ونشر هذه القيم النبوية الرفيعة.

حين أقدم اليوم هذا السّفر المتواضع في السّيرة النَّبَوِيَّة، فإنني أرجو أن ينفع الله به كاتبه وقارئه، وأن يجد فيه مطالعة مادة تعينه على الخير، وتدعوه للتأسي والافتداء، وتحبيه بخيرة الأنبياء ﷺ وخير القرون ﷺ أجمعين.

اللَّهُمَّ أوردنا حوضه، وأكرمنا بشفاعته، ولا تحرمني دعوة في ظهر الغيب، واعفُ عني التقصير والخلل، إنك سميع الدعاء.

المؤلف

suliman-alodah@gmail.com

٠٥٠٥١٤٣٤٩١

١٤٣٩/١٠/٢٠هـ



تنويه وشكر

رغبة مني في بلوغ هذا الكتاب ما يليق بسيرة المصطفى ﷺ من الدقة والجمال، فقد عرضته على (نخبة) من المتخصصين والتربويين، فقرأوا الكتاب وأفادوني بملحوظاتهم وتعليقاتهم، وحفظًا لوفائهم وتقديرًا لجهودهم، فإنني أثبت أسماءهم وأشكرهم وأعترف بجميلهم، وهم كل من: الأستاذ الدكتور/ محمد إبراهيم أبا الخيل (الأستاذ بقسم التاريخ بجامعة القصيم)، والأستاذ الدكتور/ محمد بن صامل السلمي (الأستاذ بقسم التاريخ بجامعة أم القرى)، والأستاذ الدكتور/ عبد الرحمن بن علي السنيدي (الأستاذ بقسم التاريخ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية)، والأستاذ الدكتور/ عبد الرحمن بن عبد العزيز العقل (الأستاذ بقسم السنة بجامعة القصيم)، والأستاذ/ محمد بن ناصر البرادي (معلم في التعليم العام)، والأستاذ/ أحمد بن عبد الله الشاوي (معلم في المعهد العلمي ببريدة)، والأستاذ/ محمد بن ناصر الدغيري (معلم في التعليم العام)، وابني: عاصم وأحمد، وقد شاركاني هم الكتاب، وقرأه وأفدت من ملحوظاتهم.

وأخيرًا ومسك الختام الشيخ الحافظ، حافظ السنة وشيخ حفاظها يحيى بن عبد العزيز اليحيى، فقد قرأ الكتاب وعلق عليه، وأثنى عليه خيرًا، واستفدت من تعليقاته الجياد.

فللجميع شكري وتقديري ودعواتي.



أُطْرُ السِّيَرَةِ وَتَقْسِيمَاتُهَا

أولاً: تُقَسِّمُ السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ مِنْ حَيْثُ الزَّمَنِ إِلَى فَتْرَتَيْنِ:

(١) الفِترَةُ المَكِّيَّةُ: وَهِيَ أَحْدَاثُ السِّيَرَةِ فِي مَكَّةَ أَوْ خَارِجِهَا، مِنْذُ وِلَادَتِهِ ﷺ إِلَى نِهَآيَةِ أَحْدَاثِ الهِجْرَةِ.

(٢) الفِترَةُ المَدِينِيَّةُ: وَهِيَ أَحْدَاثُ السِّيَرَةِ وَالمَغَازِي مِنْذُ وَصُولِهِ ﷺ إِلَى المَدِينَةِ حَتَّى وَفَاتِهِ، سِوَا وَوَقَعَتْ أَحْدَاثُهَا فِي المَدِينَةِ أَوْ خَارِجِهَا، (وَسَنَاتِي عَلَى أَحْدَاثِ الفَتْرَتَيْنِ فِي مَكَانِهَا).

ثَانِيًا: كَمَا تُقَسِّمُ السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ مِنْ حَيْثُ مَوْضُوعَاتِهَا وَالتَّأْلِيفِ فِيهَا إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

أولاً: الأَخْلَاقُ وَالشَّمَائِلُ المَحْمُودِيَّةُ.

ثَانِيًا: دَلَالَةُ النُّبُوَّةِ وَمَعْجَزَاتِهَا.

ثَالِثًا: السِّيَرُ وَالمَغَازِي.

وَحَيْثُ جَرَتْ عَادَةٌ كَثِيرٌ مِنَ المَصْنُوفِينَ فِي السِّيَرَةِ بِتَغْلِيْبِ القِسْمِ الثَّلَاثِ (السِّيَرِ وَالمَغَازِي) عَلَى القِسْمَيْنِ الأَوَّلَيْنِ فِي الحَدِيثِ، فَإِنَّ حَلَقَاتِ السِّيَرَةِ تَكْتَمِلُ بِالحَدِيثِ عَنِ القِسْمَيْنِ الأَوَّلَيْنِ وَلَوْ بِشَكْلِ مُخْتَصِرٍ، يَكْشِفُ عَنِ شَيْءٍ مِنَ أَخْلَاقِهِ وَشَمَائِلِهِ وَبَعْضُ مِنْ دَلَالَةِ نُبُوَّتِهِ وَمَعْجَزَاتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثُمَّ يَكُونُ الاسْتِطْرَادُ وَالتَّفْصِيلُ فِي سِيرَتِهِ وَمَغَازِيهِ.



أولاً: الأخلاق والشمائل المحمدية

والمقصود بذلك صفات محمد ﷺ الخَلْقِيَّة والخُلُقِيَّة وشمائله، وسنأتي على بيان شيء من هذا، ويدخل في ذلك أيضاً خصائص اختصَّ بها رسول الله ﷺ عن غيره من الأنبياء، أو عن غيره من أمته، وقد قسّم ابن كثير هذه الخصائص إلى قسمين: أحدهما: ما اختصَّ به عن سائر إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

الثاني: ما اختصَّ به من الأحكام دون أمته، ثم فصل ذلك فليراجعه من شاء^(١). ولأهمية التعرف إلى شيء من صفاته الخَلْقِيَّة والتأسي بأخلاقه الكريمة، أعرض لذلك بإيجاز، ومن رام المزيد فليرجع إلى كتب الشمائل والأخلاق^(٢). ولكني هنا أكتفي غالباً بما ورد من وصفه في الصحيحين بما يكشف عن شكله وهيئته إجمالاً:

صفاته الخَلْقِيَّة: كان النبي ﷺ من أحسن الناس وجهًا، حتى قال أبو هريرة ؓ: لم أر بعده مثله^(٣)، وحينما سُئل البراء ؓ: أكان وجه النبي ﷺ مثل السيف؟ قال: لا، بل مثل القمر^(٤). وفي رواية: بل كان مثل الشمس والقمر، وكان مستديرًا^(٥)، وورد أنه

(١) الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ ص (٢٥٠-٣١٠).

(٢) مثل كتاب: الأنوار في شمائل النبي المختار، للحسين بن مسعود البغوي (٥١٦هـ) وكتاب الشمائل للترمذي وقد اختصره وحققه الألباني، وأخلاق النبي ﷺ وآدابه، لأبي الشيخ.

(٣) البخاري (٥٨/٧): كتاب اللباس، باب الجعد، ومسلم (٨١٩/٤) كتاب الفضائل: صفة النبي ﷺ.

(٤) البخاري (١٥٦/٤): كتاب المناقب: باب صفة النبي ﷺ.

(٥) مسلم (١٨٢٣/٤) كتاب الفضائل، باب شبيهه ﷺ.

كان ﷺ مليح الوجه^(١).

أما فمه وعينه فقد كان ضليع الفم، أشكل العين، والمعنى - كما فسره أحد رواة الحديث - عظيم الفم، وطويل شق العين^(٢).

أما شعره ﷺ فقد وُصف بأنه ليس بالجعد القطط، ولا بالسبط، بل كان رَجَلًا^(٣)، وكان له جمّة عظيمة تصل إلى شحمة أذنيه^(٤).

أما لونه فكان ﷺ يوصف بالبياض، ولكنه لم يكن بالأبيض الأمهق، ولا بالأدم^(٥)، وإنما كان أزهر اللون^(٦).

أما هيئته فلم يكن ﷺ بالطويل البائن ولا بالقصير^(٧)، بل كان مربوعًا^(٨)، وكان مقصّدًا^(٩)، وكان بعيد ما بين المنكبين^(١٠).

(١) المصدر السابق: كتاب الفضائل: باب كان النبي ﷺ أبيض مليح الوجه.

(٢) المصدر السابق: باب صفة فم النبي ﷺ وعينه وعقبه (ح/ ٢٣٣٩).

(٣) البخاري (٥٧/٧، ٥٨-٥٧/٧) كتاب اللباس، ومسلم (١٨١٩/٤) ومعنى (رَجَل) أي لم يكن شديد الجعودة ولا السبوطة بل بينهما (النهاية ٢/٢٠٣).

(٤) البخاري (١٦٥/٤)، ومسلم (١٨١٨/٤)، والجمّة: ما سقط على المنكبين من شعر الرأس (النهاية ١/٣٠٠).

(٥) البخاري (١٦٤/٤، ٥٧/٧)، ومسلم (١٨٢٤/٤) والأدمة في الناس: السمرة الشديدة.

(٦) البخاري (١٦٤/٤)، ومسلم (ح/ ٢٣٣٠) قال ابن الأثير: الأبيض المستنير، والرّجّل والزّهرة: البياض النير وهو أحسن الألوان (النهاية ٢/٣٢١).

(٧) البخاري (١٦٤-١٦٥/٧، ٥٧/٧)، ومسلم (١٨١٨-١٨٢٤/٤).

(٨) المصدر السابق.

(٩) مسلم (١٨٢٠/٤) قال في النهاية: كان أبيض مقصّدًا: هو الذي ليس بطويل ولا قصير، ولا جسيم، كأن خلّقه نحى به القصد من الأمور، والمعتدل الذي لا يميل إلى أحد طرفي التفريط والإفراط (النهاية ٤/٦٧).

(١٠) البخاري (١٦٥/٤)، ومسلم (١٨١٨/٤).

أما يده ورجلاه فكان ﷺ ضخم اليدين والقدمين، بسط الكفين^(١)، وكان ليين الكف، حتى قال أنس ؓ: ما مسست خزة ولا حريرة ألين من كف رسول الله ﷺ^(٢)، وكان منهوس العقبين^(٣).

أما ظهره فكان به خاتم النبوة، كأنه زر الحجلة كما في البخاري^(٤)، وفي مسلم: مثل بيضة حمام^(٥)، وكان ذلك بين كتفيه^(٦).

أما صفاته الخُلُقِيَّة: فيكفي محمدًا ﷺ أن الله زكاه في كتابه العزيز فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ووصفه بآيات ذكره الحكيم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وهو في التوراة موصوف كما وصف في القرآن، فقد ثبت في صحيح البخاري (عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ؓ، فقلت أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٧).

ولقد نقل البيهقي رحمه الله صفة رسول الله ﷺ في التوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب، وصفة أمته^(٨)، ثم ساق ما أخبر الله سبحانه فيما أخبر أنه كلم به موسى صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ

(١) البخاري (٥٨/٧).

(٢) البخاري (٢/٢٤٤) كتاب الصوم، باب ما يذكر من صوم النبي ﷺ وإفطاره، ومسلم ح (٢٣٣٠).

(٣) مسلم (٤/١٨٢٠) وفسره أحد رواة الحديث فقال: قليل لحم العقب.

(٤) ح (١٩٠)، ومسلم ح (٢٣٤٥) وهو: طائر معروف في حجم الحمام، وزرها: بيضها.

(٥) مسلم (٤/١٨٢٣).

(٦) البخاري (٤/١٦٦٣)، ومسلم (٤/١٨٢٣).

(٧) البخاري برقم (٢١٢٥) (٣/٢١)، (٦/٤٤).

(٨) دلائل النبوة (١/٣٧٣).

الرَّكُوعَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥٧﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]، ثم ساق البيهقي مرويات عن الأنبياء عليهم السلام، وإخبارهم عن محمد ﷺ وأمه (١).

وقال القاضي عياض رحمه الله: اعلم أن في كتاب الله العزيز آيات كثيرة مفصحة بجميل ذكر المصطفى ﷺ، وعدّ محاسنه، وتعظيم أمره، وتنويه قدره، اعتمدنا منها على ما ظهر معناه، وبان فحواه، وجمعنا ذلك في عشرة فصول (٢)، حيث بدأ بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فقد علق عليها بالقول: ... ثم وصفه بعد بأوصاف حميدة، وأثنى عليه بمحامد كثيرة، من حرصه على هدايتهم ورشدهم وإسلامهم، وشدة ما يعتنهم ويضرب بهم في دنياهم وأخراهم، وعزته ورأفته ورحمته بمؤمنهم... إلى قوله: قال بعضهم: أعطاه اسمين من أسمائه: رؤوف رحيم (٣).

وحيث تكاثرت نصوص الكتاب العزيز مفصحة بجميل ذكر المصطفى ﷺ وكريم أخلاقه، فقد ورد في صحاح السنن والمسانيد وكتب السير من ذلك شيء كثير، يكفي الاستشهاد ببعض عن الإحاطة بكله.

(١) دلائل النبوة (١/٣٧٤-٣٨٣).

(٢) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ (١/١٥).

(٣) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى (١/١٦)، وقال ابن تيمية في التدمرية (ص ٣٣): (سمى نفسه بالرؤوف الرحيم فقال (إن الله بالناس لرؤوف رحيم) وسمى بعض عباده بالرؤوف الرحيم فقال: (لقد جاءكم... وليس الرؤوف بالرؤوف، ولا الرحيم بالرحيم).

ولعلّ في العناوين الآتية ما يكشف عن عمق وشمولية أخلاقه عليه الصلاة والسلام، وتحت كل عنوان سأكتفي بالاستشهاد بنصٍّ أو نصّين فقط:

١ - أخلاقه ﷺ مع أهل بيته:

حسن خلق الإنسان في بيته مؤثر على علو خلقه مع الآخرين، حيث البيوت والأهل مظنة لطول العشرة وعدم المجاملة، والنبّي محمد ﷺ مع مسؤولية حمل الرسالة وهموم الأمة، إلا أنه كان في بيته مثلاً للتواضع وحسن المعاملة والخدمة، فقد سُئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: ماذا كان يصنع رسول الله ﷺ في بيته؟ فقالت: (كان يكون في مهنة أهله - تعني خدمة أهله - فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة)^(١).

قال ابن بطال: (من أخلاق الأنبياء التواضع والبعد عن التمتع، وامتهان النفس، لِيُسْتَنَّ بهم، ولئلا يخلدوا إلى الرفاهية المذمومة، وقد أشير إلى ذمها بقوله تعالى: ﴿وَدَرَزْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١].

وَرَبَطَ (الخيرية) بحسن التعامل مع الأهل، وشهد لنفسه بذلك فقال: (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي)^(٢).

وعن جابر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ رجلاً سهلاً، إذا هَوِيَتْ لشيء تابعها عليه (يعني عائشة رضي الله عنها)^(٣).

(١) صحيح البخاري ح (٦٠٣٩).

(٢) أحمد ح (٢٤٢٠٤)، والدارمي ح (٢٣٠٦)، والترمذي برقم (٣٨٩٥) وصححه الألباني: صحيح سنن الترمذي (٣/٢٤٥)، ورواه ابن ماجه (١/٦٣٦ ح ١٩٧٨).

(٣) صحيح مسلم ح (١٢١٣).



٢ - أخلاقه ﷺ مع أصحابه ﷺ:

كما كان ﷺ حسن المعشر طيب الخلق مع أصحابه، يمازحهم ويؤنسهم ويستشيرهم ويرفق بهم ويواسيهم ويعلمهم ما ينفعهم ويُتخولهم بالموعظة، ويضع كل واحد منهم في الموضوع المناسب له، حتى استثمر جهودهم، وملك قلوبهم، وأخرج الله به جيلاً فريداً ملاً الدنيا علماً وعدلاً، فتحوا الفتوح ودانت لهم الممالك، ومدّوا رواق الإسلام في أنحاء المعمورة، ويشهد أحدهم ممن طالت ملازمته النبي ﷺ بكريم أخلاقه وحسن تعامله معهم، يقول أنس بن مالك ﷺ: (خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي أف، ولا لِمَ صنعت؟ ولا ألا صنعت)^(١).

قال ابن حجر: ويستفاد من الحديث (ترك العتاب على ما فات... وتنزيه اللسان عن الزجر والذم، واستئلاف خاطر الخادم بترك معاتبته...)^(٢)، قلت: وتلك وربي من أخلاق الأنبياء، وإذا كان هذا مع الخدم وصغار السن - وهم مظنة الخطأ والتقصير أكثر من غيرهم - فلا تسأل عن أخلاقه ﷺ مع الكبار، على أن ذلك لا يعني التسامح والتساهل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - كما لفت إلى ذلك ابن حجر رحمه الله -^(٣).

٣ - أخلاقه ﷺ مع أعدائه من المشركين:

ومع بغضه ﷺ للشرك والمشركين تحقيقاً لعقيدة الولاء والبراء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المتحنة: ١]، إلا أن معاملته لهم كانت نموذجاً للرحمة والعدل والرفق والمداراة؛ تأليفاً لهم ورغبة في إسلامهم، فمحمد

(١) صحيح البخاري كتاب الأدب (ح ٦٠٣٨)، ومسلم (ح ٢٣٠٩).

(٢) الفتح (٤٦٠/١٠).

(٣) المصدر السابق (٤٦٠/١٠).

رحمة للعالمين، وهنا أسوق نموذجا لرجل من المشركين هم بقتل النبي ﷺ فلم يقدر، ثم عفا عنه النبي ﷺ، ففي صحيح البخاري عن جابر رضي الله عنه قال: (كنا مع النبي ﷺ بذات الرقاع... إلى قوله: فجاء رجل من المشركين وسيف النبي ﷺ معلق بالشجرة، فاخترطه، فقال له: تخافني؟ فقال له: لا، قال: فما يمنعك مني؟ قال: الله، فتهدده أصحاب النبي ﷺ وأقيمت الصلاة، فصلى بطائفة ركعتين ثم تأخروا...^(١)، وصرح البخاري باسمه (غورث بن الحارث)^(٢).

وفي رواية في الصحيحين: (ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ)^(٣)، وفي رواية: (فجاء الرجل إلى أصحابه فقال: جئتكم من عند خير الناس)^(٤).

٤ - أخلاقه ﷺ مع أهل الكتاب:

وهم اليهود والنصارى الذين يعرفون محمداً ﷺ كما يعرفون أبناءهم، فكاتبهم المنزلة ورسلمهم تشهد لمحمد ﷺ بالنبوة، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، وقد ظلَّ النبي ﷺ يدعوهم للإسلام ويزورهم في مدراسهم، ويعود مريضهم، حتى أسلم من كتب الله له السعادة منهم.

وأكتفي هنا بإيراد نموذج لأخلاقه عليه الصلاة والسلام مع اليهود، وآخر مع النصارى:

(فزيد بن سعة) حَبْرٌ من أحيار اليهود، أراد أن يتعرف إلى علائم نبوة النبي ﷺ، وتقصد التعامل معه والإساءة إليه، حتى إذا تجاوز النبي ﷺ إساءة اليهودي، وعامله

(١) البخاري (ح/٤١٣٦)، ومسلم (ح/٨٤٣).

(٢) (ح: ٤١٣٦).

(٣) (ح: ٤١٣٥)، ومسلم (ح/٨٤٣).

(٤) أحمد (ح/١٤٩٢٩)، والفتح (٧/٤٢٨).

بالحسنى (في قصة طويلة) عاد الحَبْرُ يعلن إسلامه ويشهد للنبي ﷺ بحسن المعاملة، ويقول زيد: (لم يبقَ من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه، إلا اثنتين: يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا، فقد خبرتهما، وأشهدك يا عمر أنني قد رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًّا، وأشهدك أن شطر مالي صدقة على أمة محمد ﷺ)^(١).

والنجاشي ملك الحبشة، وأحد زعماء النصرانية في زمنه، أنثى النبي ﷺ على عدله ولم يره، وهو على غير دينه، وطلب من صحابته أن يهاجروا إلى أرضه ويأمنوا عنده، فهاجر المسلمون الهجرتين إلى الحبشة، وأكرم النجاشي وفادتهم، ومنع الأعباش من ظلمهم، وبرغم أنه لم يلق النبي ﷺ، فقد عرف صدق نبوته من خلال ما يجده مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، ومن خلال أخلاق صحابته وحسن منطقتهم وصدقهم معه، وأسلم النجاشي وآمن بمحمد ﷺ ولم يستطع الوصول إليه، وقال حين سمع القرآن: (إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة)^(٢)، وشهد له النبي ﷺ بالإسلام، وصلى عليه (صلاة الغائب) هو وأصحابه حين عرف موته، وفي الصحيحين: (أن رسول الله ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج إلى المصلى، فصف بهم وكبر أربعًا)^(٣)، وفي رواية أخرى عندهما قال النبي ﷺ: (قد توفي اليوم رجل صالح من الحبش فهلّم، فصلوا عليه...)^(٤).

(١) انظر القصة بطولها وحوارها عند: البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٢٧٨-٢٨٠)، والحاكم في المستدرک (٣/ ٦٠٤-٦٠٥)، وصححه ووافقه الذهبي في التلخيص، والطبراني ووثق رجاله الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٤٠)، وابن حجر في الإصابة (٤/ ٥٥) وقال: رجال الإسناد موثقون.

(٢) انظر: السيرة لابن هشام (١/ ٤١٣-٤١٧) بسند صحيح كما قال المحقق.

(٣) صحيح البخاري (٢/ ٧١ ح ١٢٤٥)، ومسلم ح (٩٥١).

(٤) صحيح البخاري (٢/ ٨٨ ح ١٣٢٠)، ومسلم ح (٩٥٢).

وحيث تشهد كتب السيرة على مصالحة النبي ﷺ لليهود في المدينة، فقد حارب من نقض العهد منهم وأجلاهم، كما صالح النصارى في نجران والأطراف الشمالية من الجزيرة العربية، وحارب الذين عرفوا رسالته وصدقته - وكادوا أن يسلموا - مثل هرقل؛ وذلك لتهديدهم دولة الإسلام وإرادتهم السوء بالمسلمين^(١).

٥ - أخلاقه ﷺ مع المنافقين:

وهؤلاء شرار الخلق، وهم العدو الذين توعدهم الله بالدرك الأسفل من النار، لأنهم يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، ورأوا النبي ﷺ وعانوا صدقه وعلامات نبوته، ومع ذلك أبت قلوبهم الإيمان، وتسلبوا بألسنتهم ومكرهم على المسلمين، ولم يسلم النبي ﷺ من أذاهم، فهم الذين خذلوه في أحد، وهم الذين جاؤوا بالإفك، وحاولوا قتل النبي ﷺ في غزوة تبوك... إلى غير ذلك من أعمالهم ومواقفهم المشينة، ومع ذلك عاملهم النبي ﷺ بالرفق والستر والمداراة تأليفاً لهم على الإسلام وجمعاً لكلمة المسلمين.

وفي صحيح مسلم سَمَّاهم: أصحابي^(*) وقال: (في أصحابي اثنا عشر منافقاً، فيهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمّ الخياط)^(٢)، وقد كان فيهم من البذاءة والجفاء والسخرية ما يستحقون به العقاب الأليم، ومع ذلك لم يفعل بهم رسول ﷺ ذلك.

وروى مسلم في صحيحه - في قصة الحديدية -: (أن المسلمين بايعوا رسول الله ﷺ (وكانوا ألفاً وأربعمائة) غير (جد بن قيس الأنصاري) اختبأ تحت بطن بعيره)^(٣).

(١) قصة هرقل مشهورة في كتب السنة والسيرة وغيرها.

(٢) صحيح مسلم (٤/٢١٤٣ ح ٢٧٧٩). (*) والمقصود بالصحة هنا صحة لغوية لا شرعية.

(٣) مسلم (٣/١٤٨٣ ح ١٨٥٦).

وفي رواية أخرى عند مسلم قال ﷺ: (كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر، فأتيناه فقلنا له: تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ فقال: والله لأن أجد ضالتي أحب إليّ من أن يستغفر لي صاحبكم)^(١).

قال القاضي عياض: والقائل (لأن أجد ضالتي أحب إليّ من أن يستغفر لي صاحبكم)، قيل: هو الجدّ بن قيس المنافق^(٢).

وتأمل الفرق بين عبارة النبي ﷺ مع المنافقين: (أصحابي)، وبذاءة المنافقين وأحدهم يقول: (صاحبكم).

وحين نتأمل إعراض النبي ﷺ عن قتلهم، نجد معنى التأليف وجمع كلمة المسلمين حاضرًا في ذهن النبي ﷺ وهو يقول: (لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه)^(٣).

ويعلق ابن القيم رحمه الله على ذلك ويقول: (كان في ترك قتل المنافقين في حياة النبي ﷺ مصلحة تتضمن تأليف القلوب على رسول الله ﷺ، وجمع كلمة المسلمين عليه، وكان في قتلهم تنفير، والإسلام في غربة، ورسول الله ﷺ أحرص شيء على تأليف الناس، وأترك شيء لما ينفرهم عن الدخول في طاعته، وهذا أمر كان يختص في حياته ﷺ)^(٤).

وقبله قال القاضي عياض رحمه الله: (فلو قتلهم النبي ﷺ لنفاقهم وما بدر منهم لَوَجَدَ الْمُتَنَفِّرُ مَا يَقُولُ، ولا رتاب الشارد، وأرجف المعاند، وارتاع من صحبة النبي ﷺ والدخول في الإسلام غير واحد...)^(٥).

(١) مسلم (٤/٢١٤٤-٢١٤٥ ح ٢٧٨٠).

(٢) إكمال المعلم: (٣١٢/٨).

(٣) البخاري ح (٣٥١٨)، ومسلم ح (٢٥٨٤).

(٤) زاد المعاد (٣/٥٦٨).

(٥) الشفاء (٢/٩٦٤).



٦ - أخلاقه ﷺ مع المرأة:

لم تحظ حضارة من الحضارات بإكرام المرأة كما حظيت بها حضارة الإسلام، فكتابه المقدس (القرآن) أعلى من شأن المرأة وحفظ لها حقوقها، وسمى عددًا من السور باسمها، وجاءت أخلاق محمد ﷺ -وهي أخلاق القرآن- لتؤكد هذا الإكرام للمرأة، أمّا كانت، أو أختًا، أو زوجة، أو بنتًا، أو عمّة، أو خالة، أو سواها.

وبرغم أن محمدًا ﷺ عاش في بيئة يقوم بعض أهلها بؤاد البنات وهُنَّ (حيات)، وتعزلها حقها، وتعدها من (سقط المتاع)، فقد نأى محمد ﷺ عن هذه المعاملة وارتقى بتعامله مع المرأة وحبها والوفاء لها حتى بعد مماتها، وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة يقول: أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة)، قالت: فأغضبته يومًا فقلت: خديجة! فقال رسول الله ﷺ: إني قد رزقت حبّها^(١).

وبلغ إكرام الصحابة لنسائهم حدّ (المدارة) خشية أن ينزل فيه شيء على رسول الله ﷺ، ففي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (كنا نتقي الكلام والانبساط إلى نسائنا على عهد النبي ﷺ هيبة أن ينزل فينا شيء، فما توفي النبي ﷺ تكلمنا وانبسطنا)^(٢)، وقد ساق البخاري هذا الحديث في باب (الوصاة بالنساء)، وساق معه حديث: (استوصوا بالنساء خيرًا)^(٣).

(١) صحيح مسلم ح (٢٤٣٥) وهو في البخاري ح (٦٠٠٤) بلفظ: ((ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة... وإن كان ليذبح الشاة ثم يهدي في خلعتها منها))، وبوب عليه فقال: (باب حسن العهد من الإيمان).

(٢) صحيح البخاري ح (٥١٨٧).

(٣) البخاري ح (٥١٨٦)، ومسلم ح (١٤٦٨).

والمتتبع لأحداث السيرة النبوية يرى أن النبي ﷺ أفسح المجال للمرأة للمشاركة في الحياة العامة للمجتمع، ولم تفقد (حياءها) أو تتجاوز (أنوثتها)، وكان لحسن خلقه معهن أثر بالغ، فهاجرت، وبايعت، وكانت في طليعة المؤمنين (خديجة)، وفي مقدمة العلماء (عائشة)، وحيث ارتقت همتها إلى الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، فقد استأذنت (أم ورقة الأنصارية) رسول الله ﷺ في الخروج معه إلى (بدر) لتمرير المرضي، وطلب الشهادة، فقال لها النبي ﷺ: (قَرِّي في بيتك، فإن الله يرزقك الشهادة، فكانت تسمى الشهيدة)^(١).

وحين سألته (أم حرام بن ملحان) أن تكون في طليعة الغازين على ثبج البحر، دعا لها أن تكون منهم، وبالفعل خرجت مع زوجها (عبادة بن الصامت) في زمن عثمان (رضي الله عنهما) فسقطت من دابتها فماتت^(٢).

لقد كان للمرأة في زمن النبوة إسهام فاعل في الدعوة والصدقة والإحسان والحسبة^(٣)، وكان النبي ﷺ يحضهن، ويتعامل مع المرأة في كل شؤونها ومشاركاتها بأرقى الأخلاق، وأحسن التوجيهات، حتى غدت المرأة - في المجتمع النبوي - رقماً مهماً، ونموذجاً يُحتذى به ويُقتدى.

ومع هذا الاهتمام البالغ فقد كان محافظاً أشد المحافظة على حفظ ورعاية جانب العفاف معهن، فما مست يده امرأة قط كما تقول عائشة رضي الله عنها، وإنما كان

(١) رواه أحمد (ح ٢٧٢٨٢)، وأبو داود في سننه (ح ٥٩١)، وحسن إسناده الألباني في صحيح أبي داود

(٣/١٤٢)، وينظر ابن حجر الإصابة (١٣/٣٠٤).

(٢) صحيح البخاري ح (٢٨٧٧-٢٨٧٨)، ومسلم ح (١٩١٢).

(٣) للمزيد: يراجع كتاب (المرأة والدعوة في زمن النبوة) أ.د سليمان بن حمد العودة، وكتاب (المرأة في دواوين السنة) د. يحيى اليحيى.

يباعهن بالكلام^(١)، وأرشد أصحابه للمحافظة على هذا الأمر، فقال: لا يخلونَّ رجل بامرأة إلا مع ذي محرم^(٢)، ونهى المرأة أن تسافر بلا محرمٍ تَكْرِيماً لها^(٣)، وقال: (أخرجكم حقَّ الضعيفين: المرأة واليتيم)^(٤).

٧ - أخلاقه ﷺ مع الطفل:

الطفل يُعذر في تصرفاته، ويحتاج إلى مزيد صبر وعطف وتربية؛ لقلّة خبرته وعدم اكتمال عقله، ومع ذلك تعامل النبي ﷺ مع الطفل أحسن معاملة، فرحمه وبكت عيناه لموته^(٥).

وكان ﷺ يتجوّز في الصلاة حين يسمع بكاء الأطفال^(٦)، وكانوا يرتحلونه وهو يصلي كما كانت تصنع (أمامة بنت الربيع)، فإذا ركع وضعها، وإذا رفع رفعها^(٧).

وكان ﷺ يمازح الأطفال، وقد قال لطفل يدعى (أبا عمير): (يا أبا عمير ما فعل النُّغَيْر؟) (لنغر كان يلعب به)^(٨)، والنغير طائر يُشبه العصفور^(٩).

ومع المزاح توجيه وتربية، فقد قال ﷺ لأنس بن مالك ﷺ: (يا ذا الأذنين)^(١٠)، والمقصود التنبيه على حسن الاستماع لما يقال له.

(١) البخاري ح (٧٢١٤)، ومسلم ح (١٨٦٦).

(٢) البخاري ح (٥٢٣٣)، ومسلم ح (١٣٤١).

(٣) المصدر السابق.

(٤) ابن ماجه ح (٣٦٧٨) وأحمد ح (٩٦٦٦).

(٥) صحيح البخاري ح (١٣٠٣)، ومسلم ح (٢٣١٥).

(٦) صحيح البخاري ح (٧٠٧)، ومسلم ح (٤٧٠).

(٧) صحيح البخاري ح (٥٩٩٦)، ومسلم ح (٥٤٣).

(٨) صحيح البخاري ح (٦٢٠٣)، ومسلم ح (٦١٢٩).

(٩) ينظر: ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر (٨٦/٥).

(١٠) أبو داود ح (٥٠٠٢)، والترمذي ح (١٩٩٢)، وأحمد ح (١٢١٦٤)، وصححه همام سعيد وابنه

في (موسوعة صحيح الشرائع النبوية) ص (٥٣٥).

ويؤكد عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه توجيه النبي صلى الله عليه وسلم له في الأكل ويقول: (كنت غلامًا في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا غلام، سمِّ الله وكُلْ بيمينك، وكُلْ مما يليك، فما زالت تلك طعمتي بعد)^(١).

وكان صلى الله عليه وسلم يؤكد حبّه ورحمته للأطفال ويدعو لهم، فقد أقعد أسامة بن زيد رضي الله عنه على فخذه وأقعد الحسن بن علي رضي الله عنه على فخذه الأخرى وقال: (اللَّهُمَّ ارحمهما فإني أرحمهما)^(٢).

وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم -بحسن خلقه ودعائه وتربيته- من الصغار كبارًا، فهذا ابن عباس رضي الله عنه حبر الأمة وترجمان القرآن، وكان صغيرًا حين البعثة، ومع ذلك ثبت في البخاري: أن النبي صلى الله عليه وسلم ضمّه إلى صدره وقال: اللَّهُمَّ علّمه الحكمة، وفي رواية: اللَّهُمَّ علّمه الكتاب^(٣).

وقد روى الفسوي في تاريخه -بسند صحيح كما قال ابن حجر- أن ابن عباس رضي الله عنهما (قرأ سورة النور ثم جعل يفسرها، فقال رجل: لو سمعتُ هذا الدّيلم لأسلمتُ)^(٤).

وابن عمر رضي الله عنهما -هو الآخر- كان غلامًا صغيرًا عَزَبًا، ينام في المسجد في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، حتى رأى رؤيا فقصّها على أخته حفصة رضي الله عنها، فقصّتها على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (نعم الرجل عبد الله لو كان يقوم من الليل، فكان عبد الله -بعدها- لا ينام من الليل إلا قليلًا)^(٥).

(١) البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٨٣).

(٢) البخاري (٦٠٠٣).

(٣) ح (٣٧٥٦).

(٤) الفتح (٧/١٠٠).

(٥) البخاري ح (٣٧٣٨-٣٧٣٩)، ومسلم ح (٢٤٧٩).

وأخيراً - وليس آخرًا - فقد عقل الغلام الحسن بن علي ؑ عن النبي ﷺ قوله: (إن ابني هذا سيد، ولعلَّ الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين)^(١)، وقد كان، فوقع الصلح بين الحسن ومعاوية رضي الله عنهما، واجتمعت كلمة المسلمين.

٨ - أخلاقه ﷺ مع السادة والأمراء:

في أيِّ مجتمع من المجتمعات توجد فئة من الناس حباها الله من السلطان أو المال أو العجاة ما تتميز به على غيرها، وهؤلاء يحتاجون إلى نوع من المعاملة تحفظ لهم قدرهم، لا سيِّما إذا قُصدوا بالدعوة وبالبلاغ، وقد كان هذا حاضرًا في ذهن النبي ﷺ - وهو يدعو الملأ إلى الإسلام - ولذا أسلم من هؤلاء من أراد الله له الهداية، ثم كان لأخلاق النبي ﷺ وحسن تعامله مع هؤلاء أثر في محبتهم النبي ﷺ ودخولهم في الإسلام.

وفي قصة تعامل النبي ﷺ مع (ثمامة بن أنال) سيد بني حنيفة نموذج لهذه الأخلاق النبوية، التي جعلت ثمامة ينتقل - طائعًا مختارًا - من الكفر إلى الإسلام، ومن العداوة للنبي ﷺ والمسلمين، إلى المدافعة والمحبة لهم.

والقصة - كما رواها البخاري ومسلم في صحيحيهما - ابتدأت بأسر المسلمين (ثمامة) وربطه بسارية من سواري المسجد - بالمدينة - فمرَّ عليه النبي ﷺ وحاوره أكثر من مرة، ثم أمر ﷺ بإطلاقه وفك أسره، فتأثر ثمامة بهذا الخلق والإكرام، حتى ذهب بنفسه واغتسل ودخل المسجد وأعلن إسلامه، وقال للنبي ﷺ بكل صدق وصراحة: (والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبَّ الوجوه إليَّ، والله ما كان من دين أبغض إليَّ من دينك، فأصبح دينك أحبَّ الدين

(١) البخاري ح (٣٧٤٦).



إِلَى... إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ (١).

واستخلص الحافظ ابن حجر من قصة (ثمامة) فوائد عدّة، منها: تعظيم أمر العفو عن المسيء، لأن ثمامة أقسم أن بغضه انقلب حبًّا في ساعة واحدة، لما أسداه النبي ﷺ إليه من العفو والمنّ بغير مقابل، والملاطفة بمن يُرجى إسلامه، لا سيّما من يتبعه على إسلامه العدد الكثير من قومه (٢).

والمتبع لسيرة النبي ﷺ يرى أن (إكرام كريم القوم) منهجٌ تمثّله وحضُّ أمته عليه وقال: (إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه) (٣)، ومع هذا الإكرام هدف نبيل للتأليف والدعوة، ولهذا لم تقف دعوته ﷺ دون هؤلاء السادة والأمراء، فراسلهم، وكتبهم، وأعطاهم، وألّف قلوبهم حتى عاد عدد منهم إلى الإسلام، وكُتِبَ السّيرة والسنة مليئةً بنماذج تؤكد سموّ هذه المعاملة النَّبَوِيَّةِ وأثرها، وليس ذلك على حساب غيرهم من ضعفاء الناس وأرقائهم كما تكشفه الفقرة الآتية.

٩- أخلاقه ﷺ مع الضعفاء والأرقاء:

وحيث كان (العدل) و(التواضع) من أخلاقه ﷺ، فلم يكن يهمل شأن الضعفاء، أو يزدرى الأرقاء، كيف وقد وجهه ربّه فقال: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

(١) البخاري ح (٤٣٧٢)، ومسلم ح (١٧٦٤).

(٢) الفتح (٨٨/٨).

(٣) ابن ماجه ح (٣٧١٢)، ورواه الطبراني في المعجم الأوسط ح (٥٢٦١)، والكبير ح (٢٢٦٦)، والبخاري في شرح السنة (١٢٨/١٣)، وتبع السخاوي طرق الحديث وقواها كما في المقاصد الحسنة ص (٣٣-٣٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٦٩).

عن خباب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ...﴾ إلى قوله: ﴿فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري، فوجدا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صهيب وبلال، وعمار، وخباب، قاعدًا في ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حول رسول الله صلى الله عليه وسلم حقروهم، فأتوه فخلوا به وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلسًا، تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترانا العرب مع هذه الأعباء، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت، قال: نعم، قالوا: فاكتب لنا كتابًا. فدعا بصحيفة ودعا عليًا ليكتب ونحن قعود في ناحية، فنزل جبريل بقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ...﴾، إلى قول خباب: فكنا نقعد مع النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا بلغنا الساعة التي يقوم فيها قمنا، وتركناه حتى يقوم^(١).

وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: في نزلت ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، قال: نزلت في ستة، أنا وابن مسعود منهم، وكان المشركون قالوا له: تُدني هؤلاء؟^(٢).

وبلغ حب الرسول صلى الله عليه وسلم للمساكين أنه كان يدعو إلى حب المساكين، ويقول في دعائه: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَسْكِينًا، وَأَمْتِنِي مَسْكِينًا، واحشرنني في زمرة المساكين^(٣).

كما بلغ به التواضع مع الضعفاء والأرقاء ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنتطق به حيث شاءت)^(٤).

(١) رواه ابن ماجه، وصححه الالباني: (صحيح سنن ابن ماجه ٢/٣٩٧)، وانظر تفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (٦/٤٣٢-٤٣٣) و(١٠/٣٩٠-٣٩١).

(٢) ح (٢٤١٣).

(٣) الترمذي ح (٢٣٥٢)، وصحيح سنن ابن ماجه للالباني (٢/٣٩٦).

(٤) رواه البخاري ح (٦٠٧٢).

قال ابن حجر: وقد اشتمل الحديث، على أنواع من المبالغة في التواضع لذكره المرأة دون الرجل، والأمة دون الحرة... إلى قوله: وهذا يدل على مزيد تواضعه وبراءته من جميع أنواع الكبر^(١).

ودعا ﷺ إلى حسن التعامل مع الضعفاء فقال: (هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلِبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم)^(٢).

وأوصى ﷺ - وهو على فراش الموت - بِمَلِكِ الْيَمِينِ^(٣)، وكان ﷺ يُحَرِّجُ أُمَّتَهُ حَقَّ الضَّعِيفِينَ (اليتيم والمرأة)^(٤).

وبالجملة فقد كان ﷺ حَفِيًّا بِالضَّعْفَاءِ عَمُومًا، وكان يقول: (أبغوني الضعفاء فإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم)^(٥).

١٠ - أخلاقه ﷺ في السلم والحرب والصحة والمرض:

لم تختلف أخلاقه ﷺ في الحرب عنها في السلم، ولا في حال المرض عنها في حال العافية والصحة، وبرغم لمعان السيوف وقطع الرقاب في حال الحرب للمعتدين

(١) الفتح (١٠/٤٩٠).

(٢) البخاري ح (٣٠)، رواه مسلم ح (١٦٦١).

(٣) سنن ابن ماجه ح (١٦٢٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١/٢٧١) من حديث أم سلمة، وأبو داود ح (٥١٥٦) من حديث علي ﷺ وأحمد ح (٥٨٥).

(٤) رواه النسائي بسند حسن: صحيح سنن النسائي (٢/٢٩٨)، وابن ماجه ح (٤٦٧٨) وحسنه الألباني، وأحمد ح (٩٦٦٦)، وقال السندي: إسناده صحيح، رجاله ثقات (حاشية ابن ماجه ٤/١٩٣)، وقال النووي في رياض الصالحين (ح/٢٧١): حديث حسن، رواه النسائي بإسناد جيد.

(٥) رواه أبو داود ح (٢٥٩٤) والترمذي ح (١٧٠٢) وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي ح (٣١٧٩) وأحمد (٥/١٩٨) بسند صحيح، وفي رواية: (هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم؟) البخاري ح (٢٨٩٦) وانظر د. مهدي رزق الله (السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص ٧٢٤).

والمعاندين والمحاربين، فقد كانت للنبي ﷺ أخلاق وقيم في الحرب روتها كتب السير ووعتها وأثبتها كتب الصحاح والمسانيد والسنن، وقبل ذلك نزل على محمد ﷺ في محكم التنزيل وفي سورة مدنية: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠]، كما نزل: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَا يَنْصِبُوا حَبْلًا عَلَى حَبْلٍ ﴾ [النحل: ١٢٦]، وهذه الآية مدنية رغم أن السورة التي نزلت فيها (النحل) مكية، فقد قال القرطبي عنها: أطبق جمهور أهل التفسير أن هذه الآية مدنية، نزلت في شأن التمثيل بحمزة ﷺ في يوم أحد، ووقع ذلك في صحيح البخاري وفي كتاب السير^(١).

وفي سيرته العملية كان يوصي أمراء جيشه وسراياه: (لا تَغْلُوا، ولا تَغْدُرُوا، ولا تَمَثِّلُوا، ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم)^(٢).

وحين رأى ﷺ امرأة مقتولة - في بعض مغازيه - أنكره، ونهى عن قتل النساء، والصبيان^(٣)، كما نهى ﷺ عن قتل أصحاب الصوامع.

وتعامل مع الأسرى بأحسن معاملة حتى أسلم بعضهم بطوعه واختياره، كما مرَّ في قصة ثمامة بن أثال ﷺ، وفي صحيح البخاري (باب الكسوة للأسارى)، وبه ساق قصة أسر العباس وكسوته^(٤).

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٠١/١٠).

(٢) صحيح مسلم (٣/١٣٥٧ ح ١٧٣١).

(٣) صحيح البخاري ح (٣٠١٤)، ومسلم (٣/١٣٦٤ - ح ١٧٤٤) وانظر الفتح (٦/١٤٧-١٤٨).

(٤) البخاري ح (٣٠٠٨).

أما في حال مرضه ﷺ فلم تتغير أخلاقه، ويكفي أنه ﷺ وهو يعاني المرض شدة - في مرض موته - كان ينصح لأمته في أعظم فريضة - بعد الشهادتين - وهي الصلاة، ويوصيهم بالخدم - وهم من الضعفاء - ويقول - في كلماته الأخيرة من الدنيا - (الصلاة، وما ملكت أيمانكم) (١).

إنها أخلاق الأنبياء، ورحمة الله للناس كافة كان توجيهها وأدبها من السماء: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

١١ - أخلاقه ﷺ ورحمته بالحيوان والطيور والجماد:

تجاوز محمد ﷺ بأخلاقه ورحمته وكرمه الإنسان إلى الحيوان والطيور، وحتى الجماد شملته رحمته ﷺ، وهذا سمو سبق به الإسلام في مضمار الحضارات، وقد حنَّ جملٌ وذرفت عيناه حين رأى النبي ﷺ، فمسح رسول الله ﷺ ذفره - مؤخرة رأسه - فسكت البعير، ثم سأل عن صاحبه وإذا به لفتى من الأنصار، فوجه النبي ﷺ قائلاً: (أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكا إلي أنك تُجيعه وتُدثِّبه) (٢).

وأثنى ﷺ وبشَّر بالمغفرة رجلاً (أو امرأة). سقى كلبًا يلهث يأكل الثرى من العطش (٣)، وفي المقابل أخبر ﷺ عن امرأة دخلت النار في هرة حبستها، لا هي

(١) رواه ابن ماجه ح (١٦٢٥) وصححه الألباني: صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٢٧١) وصححه الذهبي في السيرة ص (٣٩٠) من حديث أم سلمة، وهو عند أبي داود ح (٥١٥٦) وابن ماجه ح (٢٦٩٨) وأحمد ح (٥٨٥) من حديث علي.

(٢) رواه أبو داود ح (٢٥٤٩) وأحمد ح (١٧٤٥) وصححه د. همام وابنه في موسوعة صحيح أحاديث السمائل النبوية ص (٢٨٢) ومعنى تُدثِّبه: أي تتعبه وتكرهه (عون المعبود: ١٥٩/٧)، وقال في النهاية ٢/ ٩٥ (تكلمه وتعبه).

(٣) صحيح البخاري ح (٣٢٨٠)، ومسلم ح (٢٢٤٥).

أطعمتها وسقتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض^(١)، ونهى عليه الصلاة والسلام صحابته - والأمة من بعدهم - أن يضار الطير في ولده^(٢).

بل تجاوز ﷺ الحيوان والطيور وشمل بعطفه وحنانه ورحمته الجماد، فحنَّ الجذع إليه، وضمَّ عليه الصلاة والسلام (النخلة) التي صاحت صياح الصبي على ما كانت تسمع من الذكر عندها، كما ثبت ذلك في صحيح البخاري^(٣).

قال البيهقي: وأحاديث (حنين الجذع) كلها صحيحة وأمرها من الأمور الظاهرة والأعلام النيرة التي أخذها الخلف عن السلف^(٤).

وقال ابن حجر: ومن فقه حديث حنين الجذع: أن الجمادات قد يخلق الله لها إدراكاً كالحيوان، بل كأشرف الحيوان، وفيه تأييد لقول من يحمل (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) على ظاهره، ثم نقل عن الشافعي أن ما أعطي محمد ﷺ من حنين الجذع أكبر مما أعطي عيسى عليه السلام من إحياء الموتى^(٥).

ومع تسكين (الجذع) رحمةً وثناءً وحبًّا وتقديرًا لجبل عظيم في المدينة، ورسول الله ﷺ يقول عن جبل أحد: (هذا جبل يحبنا ونحبه)^(٦).

وأي رحمة، وأي رفق، وأي عطف، وأي حنان، إنه ﷺ يرحم الحياة بكاملها^(٧).



(١) رواه البخاري ح (٦٠٠٩).

(٢) رواه أبو داود (٥٢٦٨) كما في حديث الحمرة، وانظر: مهدي رزق الله: القيم النبوية في السيرة النبوية، وقد أشار إلى صحة الحديث.

(٣) البخاري ح (٣٥٨٣-٣٥٨٤-٣٥٨٥).

(٤) دلائل النبوة (٢/٥٦٣).

(٥) الفتح (٦/٦٠٣).

(٦) البخاري ح (٢٧٢٢)، ومسلم ح (١٣٩٢).

(٧) د. راغب الحنفي السرجاني: الرحمة في حياة الرسول ﷺ ص (٥٤).

ثانياً: دلائل النبوة ومعجزات النبي ﷺ

حين اصطفى الله رسله وقال: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وبعثهم برسالاته إلى الناس ليوحده وبعده، كان لا بد من تأييدهم بآيات ومعجزات خارقة للعادة وفوق طاقة البشر، هي دلائل للنبوة ومعجزات للنبي حتى يؤمن البشر ويصدقوا النبي المرسل، وفي الصحيحين: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)^(١).

قال البيهقي: وأيد الله كل واحد من رسله بما دل على صدقه من الآيات والمعجزات باينوا بها من سواهم، مع استوائهم في عين ما أُيدوا به، ومعجزات الرسل كانت أجناساً كثيرة...^(٢).

وبعد ذكره عدداً من آيات الرسل كالعصا لموسى، وإلانة الحديد لداود وسخر له الجبال والطير، وأقدر عيسى على الكلام في المهد، وكان يُحيي له الموتى، ورفع من اليهود لما أرادوا قتله وصلبه... قال: فأما النبي المصطفى، والرسول المجتبي، المبعوث بالحق إلى الخلق كافة من الجن والإنس، فإنه أكثر الرسل آيات وبيانات، وذكر بعض أهل العلم أن أعلام نبوته تبلغ ألفاً^(٣).

(١) البخاري (٦/٩٧٧) و(٤٩١٨) و(٨/١٣٨) ح (٧٢٧٤)، ومسلم (١/١٣٤) ح (١٥٢).

(٢) دلائل النبوة (٧/١).

(٣) دلائل النبوة (١/٨-١٠).

وحيث ذكر البيهقي هذا الرقم (ألفاً) لدلائل نبوته عليه الصلاة والسلام، فقد زاد عليه النووي حيث قال: والمصطفى بمعجزات آخر زائدات على الألف والمئتين^(١).
كما نقل الحافظ ابن حجر أزيد من ذلك (ثلاثة آلاف معجزة)^(٢).

وأيّ ما كان الأمر في عدد المعجزات وكثرتها وثبوتها وتنوعها، فمنها ما وقع قبل بعثته ﷺ، ومنها ما وقع بعد البعثة، ومنها ما حصل بمكة، ومنها ما وقع بالمدينة، ومنها الحسيّ (كانشق القمر، والإسراء والمعراج، ونبع الماء من تحت أصابعه، وتكثير الطعام بين يديه، وتسييح الحصى، وحنين الجذع، ونحوها مما انتهى الإعجاز به في حياته ﷺ)^(٣)، ومنها المعنوي، والبقية بعد مماته وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو أعظم المعجزات وعلمها، ألا وهو القرآن الكريم (البرهان والمعجزة الخالدة).

يقول البيهقي: فأما العَلَمُ الذي اقترن بدعوته ولم يزل يزداد أيام حياته ودام في أمته بعد وفاته، فهو القرآن العظيم، المعجز المبين^(٤).

وحكى الخطابي عن بعض أهل العلم: أن الذي أورده المصطفى ﷺ على العرب من الكلام الذي أعجزهم عن الإتيان بمثله (يعني القرآن)، أعجب في الآية وأوضح في الدلالة من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، لأنه أتى أهل البلاغة وأرباب الفصاحة ورؤساء البيان المتقدمين في الألسن بكلام مفهوم المعنى عندهم، فكان أعجزهم أعجب من عجز من شاهد المسيح عن إحياء الموتى؛ لأنهم لم يكونوا يطيقون فيه، ولا في إبراء الأكمه والأبرص، ولا يتعاطون علمه، وقريش كانت تتعاطى

(١) شرح مسلم (٢/١).

(٢) الفتح (٥٨٣/٦).

(٣) ينظر في بيان وتفصيل هذه الدلائل كتب دلائل النبوة للبيهقي، والأصبهاني وغيرها، وقد مرّ وسيمرّ الحديث عن شيء منها.

(٤) دلائل النبوة (١٠/١).

الكلام الفصيح والبلاغة والخطابة، فدلَّ على أن العجز عنه إنما كان لأن يصير علمًا على رسالته وصحة نبوته، وهذا حجة قاطعة وبرهان واضح^(١).

ثم يضيف البيهقي وجهين آخرين لإعجاز القرآن ودلالته على نبوة محمد ﷺ هما:

(١) ما فيه من الخبر عن الغيب، وذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣]، وقوله: ﴿وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ٣]، وغير ذلك من وعده إياه بالفتوح في زمانه وبعده، ثم كان كما أخبر، ومعلوم أنه كان لا يعلم النجوم ولا الكهانة ولا يجالس أهلها.

(٢) ما فيه من الخبر عن قصص الأولين من غير خلاف ادَّعى عليه فيما وقع الخبر عنه من أهل تلك الكتب، ومعلوم أنه كان أميًا لا يقرأ كتابًا ولا يخطه، ولا يجالس أهل الكتب للأخذ عنهم^(٢).

ويؤكد البيهقي أن كون رسالة محمد ﷺ (عامّة) للجن والإنس و(خاتمة) حيث خُتم بها نبوءات السماء، أحوج إلى كثرة معجزاته ودلائل نبوته ﷺ، حتى إذا شُدَّت واحدة (من هذه الدلائل) عن فريق بلغتهم أخرى، وإن لم تنجع واحدة نجعت أخرى، وإن درست على الأيام واحدة بقيت أخرى^(٣).

ويضيف ابن حجر من وجوه إعجاز القرآن: الهيئة التي تقع عند تلاوته، والخشية التي تلحق سامعه، وعدم دخول السامة على قارئه وسامعه، مع تسهيل حفظه لمتعلميه وتسهيل سرده لتاليه، ولا ينكر شيئًا من ذلك إلا جاهل أو معاند، ولهذا أطلق الأئمة

(١) دلائل النبوة للبيهقي (١/١٦-١٧).

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (١/١٧).

(٣) دلائل النبوة (١/١٩).

أن معجزات النبي ﷺ القرآن، وأشهر ذلك تحديه اليهود أن يتمنوا الموت، فلم يقع ممن سلف منهم ولا خلف من تصدى لذلك وأقدم، مع شدة عداوتهم لهذا الدين وحرصهم على إفساده والصد عنه، فكان في ذلك أوضح معجزة^(١).

على أنه ينبغي أن يُعلم أن ثمة دلائل أخرى لنبوة محمد ﷺ بعد مماته (غير القرآن)، حيث أخبر عليه الصلاة والسلام عن أمور وقعت بعد وفاته - كما أخبر - ومن ذلك: إخباره عن فتوح وكنوز ستفتح على أمته كما قال لعدي بن حاتم: وَلَئِن طالت بك حياة لَتُفْتَحَنَّ كَنُوزُ كَسْرَى. قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: كسرى بن هرمز، وَلَئِن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب وفضة يطلب من يقبله فلا يجد أحدا يقبله. قال عدي: وكنت ممن فتح كنوز كسرى بن هرمز^(٢).

كما أخبر عليه الصلاة والسلام: أن ابنته فاطمة رضي الله عنها أول أهله لحوقاً به^(٣)، فكانت كذلك، كما أخبر عن فتح مصر والشام والعراق وغيرها^(٤)، وأخبر أن زوجته زينب بنت جحش رضي الله عنها هي أسرع زوجاته لحاقاً به^(٥)، فكانت كذلك.

كما أخبر عن قتل عمار بن ياسر ﷺ على يد الفئة الباغية، ثم يقع الصلح بين المسلمين على يد الحسن بن علي ﷺ مع معاوية ﷺ^(٦)، ووقع الأمر كما أخبر عليه الصلاة والسلام.

(١) فتح الباري (٦/٥٨٢).

(٢) صحيح البخاري ح (٣٥٩٥)، ومسلم ح (١٠١٦) مختصراً.

(٣) صحيح البخاري ح (٣٦٢٦)، ومسلم ح (١٤٥٠).

(٤) انظر البداية والنهاية لابن كثير (٩/١٤١، ١٥٠، ١٤٤).

(٥) البخاري ح (١٤٢٠)، ومسلم ح (٢٤٥٢).

(٦) البخاري ح (٤٤٧-٢٧٠٤)، ومسلم ح (٢٩١٦).

بل أخبر عليه الصلاة والسلام عن فتح يقع لأهل الإسلام ويفصله عن زمن النبوة أكثر من ثمانية قرون حين سئل: (أي المدينتين تفتح أولاً: قسطنطينية أم رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: مدينة هرقل تفتح أولاً، يعني القسطنطينية)^(١)، وقد بشر المصطفى ﷺ بهذا الفتح وأثنى على أمير الفتح بقوله: (لَتُفْتَحَنَّ القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش)^(٢)، وفتح المسلمون القسطنطينية عام (٧٥٨هـ) على يد السلطان العثماني محمد الفاتح يرحمه الله كما هو مشهور ومعروف في كتب التاريخ، ولعل ذلك هو الفتح المقصود بخبر النبي ﷺ.

ولئن كان البيهقي يرحمه الله في زمنه (ت: ٨٥٤هـ) ينتظر قضاء الله في فتح القسطنطينية كما ذكر ذلك في دلائل النبوة^(٣)، فنحن نتظر ونثق بوعد رسول الله ﷺ بفتح رومية (إيطاليا) حيث لا ينطق عن الهوى.

وبالجملة فقد أخبر النبي ﷺ عن أشياء كثيرة تقع بعده إلى قيام الساعة، كما في حديث حذيفة ؓ قال: (قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا ما ترك فيه شيئًا إلى قيام الساعة، إلا ذكره، علمه من علمه، وجهله من جهله، وقد كنت أرى الشيء قد كنت نسيته، فأعرفه كما يعرف الرجل الرجل إذا غاب عنه فرآه فعرفه)^(٤).

ومن رام المزيد فليراجع ما كتبه البيهقي في (دلائل النبوة)، وابن كثير في (البداية والنهاية)، ونحوها من كتب الدلائل، وسيعلم حينها كثرة دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام وتنوعها، ووقع شيء كثير منها كما أخبر، وذلك من مثبتات الإيمان، وزيادة

(١) رواه أحمد ح (٦٦٤٥)، والدارمي ح (٥٠٣) وابن أبي شيبه، وحسنه المقدسي، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٨/١).

(٢) حسن إسناده ابن عبد البر في الاستيعاب بهامش الإصابة (٧/٢-٨) وضعفه الألباني في: ضعيف الجامع الصغير (٩/٥).

(٣) دلائل النبوة (٦/٣٢٥).

(٤) صحيح البخاري ح (٦٦٠٤)، ومسلم ح (٢٨٩١).

محبة النبي ﷺ، واليقين بظهور الإسلام مهما كثر الباطل وطمع المبطلون.

وكم نحن بحاجة للتذكير بهذه الدلائل لا سيما في زمن انكسار المسلمين وضعفهم وتفرقهم، فالأيام دول، والظهور للإسلام، والغلبة للمسلمين ولو كره الكافرون، ولو تردد أو شكك المنافقون، وكل ذلك مرهون بقدر الله ووعدته ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] فهل من مُدَّكِر؟



ثالثاً: السَّير والمغازي

قبل البعثة:

حين يقف المرء على حالة العالم -والعرب خاصة- قبل بعثة محمد ﷺ يدرك حجم الحاجة لهذه الرسالة المنقذة، والرحمة المهداة، وقد وصف الرسول ﷺ حالة أهل الأرض قبل رسالته فقال: (إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب)^(١).

وعبر القرآن أصدق تعبير عن حالة العرب قبل بعثته ﷺ فقال: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ومن فقه هذه الآية كما يقول السعدي رحمه الله: إن من أعظم ما يذكر من نعمه نعمة الهداية للإسلام واتباع الرسول ﷺ^(٢).

وفي صحيح البخاري ما يكشف جهل العرب وشركهم، فعن ابن عباس: ﷺ (إذا سرك أن تعرف جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)^(٣))، وفي المسند شهادة من أحد الذين عاشوا الجاهلية وأدركوا الإسلام حيث يقول المقداد بن الأسود ﷺ عن جاهلية العرب: (والله لقد بعث الله النبي ﷺ

(١) رواه مسلم ح(٢٨٦٥)، والمراد بأهل الكتاب هنا: الباقون المتمسكون بدينهم الحق دون تبديل.

(٢) تفسير السعدي / مكتبة الرشد ص(١٤٢).

(٣) صحيح البخاري (٤/١٦٠-١٦١) في باب: جهل العرب.

على أشدّ حال بُعث عليها نبي من الأنبياء في فترة وجاهلية ما يرون أن ديننا أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرّق بين الحق والباطل وفرّق بين الوالد وولده^(١).

وفي البخاري عن أبي رجاء العطاردي رضي الله عنه قال: (كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حُثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه، ثم طفنا به)^(٢).

ومع الانحراف العقدي انحراف في كثير من القيم والأخلاق والسلوكيات والعلاقات، فالربا، والزنا، وشرب الخمر، وواد البنات، والميسر، وأكل أموال الناس بالباطل والظعن في الأنساب، والتعصب للقبيلة، والقتل للأنفس المعصومة، والحروب الطاحنة، كل ذلك وغيره من أخلاق رديئة جاء بيانه والتحذير منه في نصوص القرآن والسنة وأحداث السيرة النبوية (وليس هذا محل تفصيله).

ولا يعني ذلك أن أمة العرب ليس لديها أي قيم أخلاقية، فقد كانت الشجاعة، والكرم والمروءة ونحوها أخلاقاً عربية، لكنها كانت بحاجة إلى توجيه واستثمار، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق، وفي رواية صالح الأخلاق^(٣).

الحاجة إلى رسالة الرسل:

ومن هنا جاءت الحاجة لبعثة محمد صلى الله عليه وسلم هادياً ومنقذاً للبشرية كلها والعرب في مقدمة هؤلاء الحيارى، ولم تكن الحاجة إلى مصلح سياسي أو خبير اقتصادي أو متخصص في إصلاح القيم والسلوكيات أو نحو ذلك من جوانب الإصلاح الأخرى،

(١) المسند (٢٩/٢٣٠ ح ٢٣٨١٠).

(٢) صحيح البخاري ح (٤٣٧٦).

(٣) مالك في الموطأ ح (٢٦٣٣)، وأحمد والبخاري في الأدب المفرد، والحاكم والبيهقي في الشعب انظر: المسند (٨٠/١٧ ح ٨٩٣٩) تحقيق أحمد شاكر، والألباني: السلسلة الصحيحة (١/٧٥).

بل الحاجة تدعو إلى إصلاح كل ما فسد، وتقويم كل ما اعوجَّ، كانت الحاجة تدعو إلى رسالة سماوية، وإلى نبي يعلمه الله ما لم يكن يعلم، ويهدي الله به من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، وهذه الحاجة (للهداية) لا تقلّ عن حاجة الإنسان للطعام والشراب.

يقول ابن القيم رحمه الله: ومن هنا تعلم اضطراب العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضا الله البتة إلا على أيديهم^(١).

إرهاصات المولد^(٢):

لم تكن ولادة محمد ﷺ وبعثته حدثًا مفاجئًا لأهل العلم والإيمان - وإن كانت عظيمة ومؤثرة في عالم الأرض والسماء - فأبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام أخبر عنه، وعيسى عليه السلام وهو آخر أنبياء بني إسرائيل بشر به، ولهذا قال محمد ﷺ: (أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة أخي عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأن نورًا خرج منها أضواء له قصور بصرى من أرض الشام)^(٣)، فدعوة إبراهيم هي قوله: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وبشارة عيسى في قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾ [الصف: ٦]، وفي آية الأعراف: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

(١) زاد المعاد (٣/٦٩).

(٢) يقصد بالإرهاصات (البشائر والمقدمات والدلالات).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٢٧، ٥/٢٦٢)، وقال عنه الهيثمي: إسناده أحمد حسن (مجمع الزوائد ٨/٢١٢)، ورواه الحاكم في المستدرک وصححه، ووافقه الذهبي: (٢/٦١٦-٦١٧)، وانظر السيرة لابن هشام (١/٢١٩)، وقال ابن كثير عن سنده: هذا إسناده جيد قوي (البداية والنهاية ٣/٤١٣).

أما أهل الكتاب فيعرفونه كما يعرفون أبناءهم كما في آيتي البقرة والأنعام^(١)، وفي أحداث السيرة ما يؤكد علم أهل الكتاب بمحمد ﷺ قبل ولادته بمكة، وقبل بعثته بالمدينة، ففي مكة تبرز قصة اليهودي الذي سأل في يوم مولده ﷺ: (يا معشر العرب أولد فيكم الليلة مولود؟)، حتى إذا وقف اليهودي على المولود محمد ﷺ وتفحص علائم النبوة فيه فوجدها فيه خَرَّ مغشياً عليه وقال: (ذهبت النبوة من بني إسرائيل وخرج الكتاب من أيديهم)، إلى آخر القصة^(٢).

وفي المدينة أخبر يهودي آخر عن بعثته واستغرب الخبر حينها الأوس والخزرج (كما سيأتي بيان ذلك).

وهل تعلم أن حادثة الفيل التي جاء ذكرها في القرآن الكريم، ووافقت عام مولده ﷺ، من إرهابات مولده عليه الصلاة والسلام، فإن قلت كيف ذلك؟ أجابك ابن القيم رحمه الله بقوله: لا خلاف أنه ولد ﷺ بجوف مكة، وأن مولده كان عام الفيل، وكان أمر الفيل مقدمة قدمها الله لنبيه وبيته، وإلا فأصحاب الفيل كانوا نصارى أهل كتاب وكان دينهم خيراً من دين أهل مكة إذ ذاك، لأنهم كانوا عبّاد أوثان، فنصرهم الله على أهل الكتاب نصراً لا صنُع للبشر فيه، إرهاباً وتقدمة للنبي ﷺ الذي خرج من مكة، وتعظيماً للبيت الحرام^(٣).

وقبله قال ابن إسحاق (تعليقاً على حادثة الفيل): فلما بعث الله محمداً ﷺ كان مما يعدّ الله على قريش من نعمته عليهم وفضله ما ردّ عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومُدَّتْهم، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، وقد

(١) البقرة رقم (١٤٦) والأنعام رقم (٢٠).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢/٦٠١-٦٠٢) وصححها وخالفه الذهبي، وحسن إسناده ابن حجر في الفتح (٦/٥٨٣)، وأخرجه ابن سعد في الطبقات (١/١٦٢-١٦٣).

(٣) زاد المعاد (١/٧٦).

روى ابن إسحاق حادثة الفيل مطولة^(١)، كما أخرجها الحاكم في مستدركه مختصرة وصحح إسنادهما، ووافقه الذهبي^(٢).

ونقل الذهبي رحمه الله: أن قريشاً - بعد الفيل - سُميت (آل الله) وعُظمت في العرب^(٣). وقال ابن كثير رحمه الله عن حكمة رد أصحاب الفيل: ولسان حال القدر يقول: لم نصركم - يا معشر قريش - على الحبشة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة خاتم الأنبياء محمد ﷺ^(٤).

ويطول بنا الحديث لو ذهبنا نستقصي كل إرهاصات مولده، لا سيما أن فيها شيئاً قد لا يصح سنده أو يستغرب متنه.

ولادة محمد ﷺ:

صح الخبر أن يوم ولادة محمد ﷺ يوم الاثنين^(٥)، واشتهر أن ولادته عام الفيل^(٦)، بل هو المجمع عليه كما يقول خليفة^(٧)، ومن حكمة الله وتدبيره أن يولد محمد ﷺ يتيم الأب - كما نص على ذلك ابن إسحاق ومسلم^(٨) - حتى يتولى الله أدبه وهدايته ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٦، ٧].

(١) السيرة لابن هشام (١/٨٤-٩٤).

(٢) المستدرک (٢/٥٣٥).

(٣) السيرة/٦.

(٤) تفسير ابن كثير (٨/٥٠٣).

(٥) صحيح مسلم (٢/٨١٩-٨٢٠ ح ١١٦٢)، والسيرة لابن هشام (١/١٧١).

(٦) السيرة لابن هشام (١/٢١١) تحقيق همام، وأبي صعيليك، (والمستدرک ٢/٦٠٣) وروايتا ابن هشام والحاكم أقوى ما وصل إلينا من روايات عن عام الفيل كما يقول د. أكرم العمري (السيرة الصحيحة/٩٦).

(٧) تاريخ خليفة بن خياط ص (٥٣).

(٨) صحيح مسلم (٣/١٣٩٢) وقد نقله مسلم عن ابن شهاب، وانظر السيرة لابن هشام (١/٢١٠).

وقد صح أن ثوبية - مولاة أبي لهب - أرضعته^(١)، كما أرضعته حليلة السعدية في بادية بني سعد (كما سيأتي).

وتولت أمه (أمنة) رعايته حتى توفيت وعمره ست سنين، فكفله جده (عبد المطلب) حتى توفي وعمره ثماني سنين، ثم تولى رعايته والدفاع عنه (عمه أبو طالب) وهو على غير دينه، قرابة أربعين عامًا.

وهذا كله من تدبير الله وحكمته، وإذا كان موسى عليه السلام عاش وأرضع في بيت فرعون خصمه العتيد، فمحمد ﷺ أرضعته ثوبية مولاة عدوه الأكبر وعمه الأقرب (أبو لهب)، وإذا سخر الله لموسى من يدافع عنه في بيت فرعون ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩]، فكذلك دافع عن محمد ﷺ وحماه من كيد كفار قريش أحد صنائدهم (أبو طالب)، وهكذا يحفظ الله أوليائه من حيث لا يحتسب أعداؤه.

نسبه الشريف وكنيته:

ثبت من نسبه ﷺ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن عدنان^(٢).

قال الذهبي: وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم بإجماع الناس^(٣)، وما بعد ذلك فمحل اختلاف بين أهل العلم بالسير^(٤).

(١) صحيح البخاري (ح ٥١٠١)، ومسلم (ح ١٤٤٩).

(٢) صحيح البخاري (٢٣٨/٤).

(٣) السيرة النبوية للذهبي (ص ١).

(٤) انظر السيرة النبوية في الصحيحين. د. سليمان العودة (ص ١١٢).

وإذا كانت البيئة التي عاش فيها محمد ﷺ تُعظّم أمر الأنساب وتفاخر بها، فقد شاء الله وقدر أن يكون محمد ﷺ عالي النسب، مصطفى من بطون العرب، حتى قال عن نفسه: (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)^(١).

ولم تستطع قريش أن تنال من نسبه -حتى في وقت عداوتهم له- وحين سأل هرقل (أبا سفيان): كيف نسبه فيكم؟ أجاب: هو فينا ذو نسب، فقال هرقل: وكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها^(٢).

وأمه: آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، فهي أقرب نسباً إلى كلاب من زوجها عبد الله برجل كما يقول الذهبي^(٣).

وهكذا يجتمع له شرف النسب وعلوّه من جهة أبيه، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

أما كنيته ﷺ فأبو القاسم^(٤)، وتعني أنه بُعث قاسماً يقسم بينهم^(٥)، وكان يقول: أنا قاسم أضع حيث أمرت^(٦)، ولهذا نهى ﷺ عن التكني بكنيته، وأباح التسمي باسمه^(٧).

(١) صحيح مسلم (١٧٨٢/٤) ح (٢٢٧٦).

(٢) صحيح البخاري (١/٥-٦ ح ٧) (٤/٣ ح ٢٩٤١)، ومسلم ح (١٧٧٣).

(٣) السيرة النبوية (ص ١).

(٤) صحيح البخاري (٤/١٦٣)، ومسلم (٣/١٦٨٢).

(٥) صحيح البخاري (٤/٤٩)، ومسلم (٣/١٦٨٣).

(٦) صحيح البخاري (٤/٤٩).

(٧) صحيح البخاري (٤/٤٩-١٦٣)، ومسلم (٣/١٦٨٢).

إرضاع حليلة وشق الصدر:

حليلة السعدية إحدى مرضعته عليه الصلاة والسلام في ديار بني سعد، وكان من عادة العرب إخراج أبنائهم للرضاعة في البوادي. وهنا حدثان مهمان لا بد من الوقوف عليهما:

(١) البركة التي أخبرت عنها حليلة وزوجها بسبب أخذهما الغلام اليتيم محمد ﷺ، سواء في زيادة لبن حليلة، أو في نشاط راحلتها، أو كثرة الخير في مراعيهم في بني سعد، حتى قال زوج حليلة (الحارث بن عبد العزى): (والله لقد أصبنا نسمة مباركة)، وتقول حليلة: (حتى قدمنا منازلنا من حاضر بني سعد بن بكر، فقدمنا على أجذب أرض الله، فوالذي نفس حليلة بيده إن كانوا ليسرحون أغنامهم إذا أصبحوا ويسرح راعي غنمي فتروح غنمي بطاناً لبناً حفلاً، وتروح أغنامهم جياً ما هالكة ما بها من لبن، قالت حليلة: وكان ﷺ يشبُّ في اليوم شباب الصبي في شهر، ويشبُّ في الشهر شباب الصبي في سنة^(١))، فأبي غلام هذا؟ وأي بركة حلت بسببه، وإن كانوا في البداية أخذوه مكرهين لأنه غلام يتيم؟

(٢) شق صدر ﷺ - وهو غلام في بني سعد - عناية إلهية به ﷺ، وإعداد للنبوة والرسالة، والحادثة جاء تفصيلها في كتب السيرة، والسنة النبوية، وغيرها^(٢)، وأكتفي هنا برواية مسلم - وإن كانت مختصرة - فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه،

(١) رواه أبو يعلى والطبراني ورجالهما ثقات: الهيثمي: مجمع الزوائد (٨/ ٢٢٠-٢٢١).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢١٧-٢١٨-٢٢٠)، والطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ١١٢)، وحددت رواية ابن سعد عمر النبي ﷺ بأربع سنين حين شق صدره.

فاستخرج القلب فاستخرج منه علقه فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعني ظئره) - حليلة - فقالوا: إن محمد قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون، قال أنس: وكنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره^(١).

دروس الحادثة وعبرها:

(١) من حَكَم وأسرار شق صدره ﷺ تنقية قلبه من مغمز الشيطان، وتطهيره من كل خلق ذميم، وحتى لا يكون في قلبه شيء إلا التوحيد كما قال السهيلي^(٢).

(٢) وحيثما شكك مشكك أو أول متأول - من المتقدمين أو المتأخرين - في هذه الحادثة العظيمة، فهي قدرة إلهية، وشق حسي - كما شهد أنس وثبت في الصحيحين -، وجميل ما قاله ابن حجر رحمه الله: وجميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له، دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحيه القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك^(٣).

وفاة أمه ﷺ واكتمال اليتم:

وحتى تكتمل حلقات يتمه ﷺ، توفيت أمه (آمنة بنت وهب) وهو ابن ست سنين، في الأبواء (بين مكة والمدينة)، فقد ذهبت أمه به ﷺ إلى أخواله من بني عدي بن النجار، تزيه إياهم، فماتت وهي راجعة إلى مكة^(٤).

(١) صحيح مسلم (كتاب الإيمان ١/١٤٧ ح ١٦٢).

(٢) السهيلي: الروض الأنف (٢/١٧٣).

(٣) فتح الباري (٧/٢٠٥).

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية (١/٢٢٢) وقد صرح ابن إسحاق فيه بالتحديث، ووثق رجاله إبراهيم العلي في صحيح السيرة النبوية (ص ٤١).

وفي صحيح مسلم: أن النبي ﷺ زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله، وقال: استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور، فإنها تذكروا الموت^(١).

وإذا أُذن للنبي ﷺ في زيارة قبر أمه - ولم يؤذن له في الاستغفار لها - فكيف بمن يُفترط في زيارة قبر أبويه وقد عاشا في الإسلام؟

أما على أي شيء مات أبو النبي ﷺ، وجده، فقد سبق حديث مسلم في نهيه ﷺ عن الاستغفار لأمه، وهذا دليل على موتها على غير ملة الإسلام، وأما (أبوه) فالحديث صريح في كونه في النار، كما روى مسلم: أن رجلاً قال: يا رسول الله أين أبي؟ قال: في النار، فلما قفي دعاه فقال: إن أبي وأباك في النار^(٢)، وعند أحمد ما يفيد موت جده ﷺ على الكفر^(٣).

وقد علق البيهقي رحمه الله على هذه النصوص بقوله: (وكيف لا يكون أبواه وجده بهذه الصفة في الآخرة وكانوا يعبدون الوثن حتى ماتوا، ولم يدينوا دين عيسى بن مريم عليه السلام، وهذا لا يقدح في نسب رسول الله ﷺ، لأن أنكحة الكفار صحيحة...) ^(٤).

كفالة الجدِّ وحبِّ الحفيد:

كفل النبي ﷺ - بعد وفاة أمه - جدُّه عبد المطلب، وكان يُحبُّه ويُقرِّبه، ويخاف عليه، وقد أرسله يوماً في طلب إبله، فتأخر عليه، فطاف بالبيت وهو يرتجز:

رب ردِّ راكبي محمداً ردّه لي واصطنع عندي يداً

(١) كتاب الجنائز ح (٩٧٦).

(٢) ح (٢٠٣).

(٣) المسند (١٦٨/٢) وسنده حسن، انظر: ابن كثير: البداية والنهاية (٤٢٨/٣).

(٤) دلائل النبوة (١٩٢/١).

فما برح حتى قدم النبي ﷺ وجاء بالإبل - ولم يبعث به في حاجة إلا نجح - فقال: يا بني لقد حزنت عليك كالمرأة حزناً لا يفارقني أبداً، وقال: لا أبعث بك في حاجة^(١). ونقل ابن سعد: أنّ عبد المطلب - من فرط حبه لمحمد ﷺ - كان يُقربُه منه ويدنيه، ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام، وكان يجلس على فراشه فيقول إذا رأى ذلك: دعوا ابني إنه ليؤنس مُلكاً^(٢).

العمّ وطول الكفالة:

توفي عبد المطلب وعمرُ النبي ﷺ ثمانين سنين، وقد رُوي النبي ﷺ يومئذ يبكي خلف سرير عبد المطلب حزناً على فراقه^(٣).

ثم كفله عمه (أبو طالب) واستمرت كفالته وحمايته للنبي ﷺ حتى السنة العاشرة للبعثة (قراءة أربعين سنة)، وقد سخره الله تعالى لكفالته في الصغر (قبل النبوة) وحمايته (بعد النبوة) من أذى المشركين، وإن بقي أبو طالب على دين قومه - كما سيأتي - وكذلك سخر الله لنبيه ﷺ جنداً من جنده ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفتح: ٤]، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].



(١) ابن سعد: الطبقات (١١٢/١-١١٣)، والحاكم في المستدرک (٢/٦٠٣-٦٠٤) وصححه ووافقه الذهبي، ورواه أبو يعلى، والطبراني وقال الهيثمي: إسناده حسن (مجمع الزوائد: ٨/٢٢٤).

(٢) الطبقات (١١٨/١).

(٣) الطبقات (١١٩/١).

حياة محمد ﷺ وأعماله قبل البعثة

لم يشارك محمد ﷺ قومه في عبادتهم الأوثان، ومقارفة الفجور، ولم يكن منعزلاً عن الحياة أو عاطلاً عن العمل، بل شارك في المجتمع بأعمال شريفة، وحفظه الله من أضرار^(١) الجاهلية، وإليك بيان ذلك:

أ - رعيه الغنم وحكمة ذلك:

حين قدّر الله أن يعيش محمد ﷺ يتيمًا، كان لا بد للغلام اليتيم أن يبحث عن مصدر رزق يستغني به عن مسألة الناس، فرعى الغنم لأهل مكة على قراريط^(٢)، وقد أكسبته هذه المهنة خبرة بأمور الحياة، فعن جابر رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ بمرّ الظهران نجني الكباث (وهو ثمر الأراك)^(٣)، فقال: عليكم بالأسود منه، فإنه أيطب (أطيب)، فقيل: أكنت ترعى الغنم؟ قال: نعم، وهل من نبي إلا رعاها^(٤).

وحيث كان محمد ﷺ والأنبياء قبله قد رعوا الغنم، فقد قال العلماء: والحكمة في إلهام الأنبياء رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعايتها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم من الحلم والشفقة، لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة وعرفوا اختلاف طباعها، فجبروا كسرها

(١) الوضر: وسخ الدسم واللبن (القاموس المحيط: ٤٩٢/١).

(٢) صحيح البخاري (ح ٢٢٦٢).

(٣) كما صوّبه ابن حجر في الفتح (٥٧٦/٩).

(٤) البخاري (ح ٥٤٥٣)، ومسلم (ح ٢٠٥٠).

ورفقوا بضعيفها وأحسنوا التعاهد لها، وفي هذا كذلك يُعلم ما عليه الأنبياء من عظيم التواضع لربهم^(١).

ب - ذهابه ورحلته الأولى للشام وقصة بحيرى:

حين بلغ النبي ﷺ الثانية عشرة^(٢) من عمره، خرج مع عمه أبي طالب في أشياخ من قريش إلى الشام (ولعلها أول رحلة للنبي ﷺ خارج الجزيرة)، وفي هذه الرحلة وقعت قصة (بحيرى الراهب) وما رآه من علامات النبوة في محمد ﷺ ونصحه لعمه بالألا يذهب به إلى الروم في الشام خشية أن يعرفوا صفات النبوة فيقتله اليهود، فرده عمه تخوفاً عليه، والقصة وإن حملت عبارات منكرة كذكر بلال في هذه الرحلة، فقد صححها عدد من أهل العلم - دون هذه الزيادة المنكرة -^(٣).

ج - مشاركته ﷺ في بناء الكعبة وحفظه عن عوائد الجاهلية:

شاء الله أن يكون البيت الحرام بوادٍ غير ذي زرع، ولذا كانت الكعبة مهددة بالسيول إذا كثرت، وهي كذلك عُرضة للحريق إذا جُمّرت، (وسواء أكانت تهدم الكعبة نتيجة سيل جارف، أم تطاير شرر من تجمير امرأة للكعبة)^(٤)، فقد ثبت أن النبي ﷺ شارك في بنیان الكعبة مع قريش، وكان إلى جانب عمه العباس ينقلان الحجارة،

(١) ابن حجر: الفتح (٤/٤٤١) بشيء من الاختصار.

(٢) ذكره ابن سعد عن الواقدي: الطبقات (١/١٢١) والنووي في سيرته (ص ٢٢) وذكر السهيلي أن عمره تسع سنين أو اثنا عشر سنة الروض الأنف (٢/٢٢٠) وقيل عمره عشر سنين: صحيح الأثر وجميل العبر من سيرة خير البشر د. محمد السلمي وزملاؤه (ص ٨٤).

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (١/١٢١)، والسيرة لابن هشام (١/٢٣٦)، والترمذي في سننه وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/١٩١)، والحاكم في مستدركه (٢/٦١٦) وصححها، وخالفه الذهبي، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/٢٦)، وقال: إن القصة مشهورة عند أهل المغازي، وابن الأثير في جامع الأصول (١١/٢٥٩-٢٦١)، وحسنها المحقق الأرناؤوط وابن القيم.

(٤) انظر: الفتح (٣/٤٤١-٤٤٢).

فقال العباس للنبي ﷺ: يا ابن أخي، لو حللت إزارك فجعلته على منكبك دون الحجارة، فحلّه فجعله على منكبه فسقط مغشياً عليه، فما رؤي بعد ذلك عرباناً^(١).

وقد اختلف في زمن وقوع الحادثة، فمنهم من يقول: وقعت وعمره ﷺ خمس وثلاثون سنة (يعني قبل البعثة بخمس سنوات)^(٢)، ومنهم من قال: إن بنيان الكعبة كان قبل المبعث بخمس عشرة سنة^(٣).

وحيث اتفقت هذه الأقوال على أن ذلك كان قبل بعثته ﷺ، فالدرس المهم هو حفظ الله لنبيه ﷺ من التعري (وهي عادة جاهلية)، قال ابن حجر: وفي الحديث أنه ﷺ كان مصوناً عما يُستقبح قبل البعثة وبعدها^(٤).

على أن هذه الحادثة ليست هي الوحيدة التي خالف النبي ﷺ فيها عوائد قومه الجاهلية، فقد خالفهم مرة أخرى في الوقوف بعرفة، ووقف فيها كما يقف بقية الحجاج، أما قريش فكانت تفيض من جمع (مزدلفة) ولا يتجاوزونها إلى (عرفات)، وكانوا يقولون: نحن أهل الحرم فليس لنا أن نخرج من الحرم، نحن الحُمس والحُمس أهل الحرم^(٥).

وقد نزل القرآن الكريم مؤيِّداً موقف النبي ﷺ حيث أفاض مع الناس من عرفات، ومُعَرِّضاً بموقف قريش، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَيْضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَأَسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

(١) صحيح البخاري (ح ٣٦٤ - ح ١٥٨٢) وفي صحيح مسلم (١/٢٦٨ ح ٣٤٠٦).

(٢) ابن إسحاق: السيرة لابن هشام (١/٢٠٩-٢١٤)، وعده ابن حجر الأشهر (الفتح ٣/٤٤٢).

(٣) قاله مجاهد ورواه ابن عبد البر، وجزم به موسى ابن عقبة في مغازيه (ابن حجر: الفتح ٣/٤٤٢).

(٤) الفتح: (١/٤٧٥).

(٥) انظر: صحيح البخاري (٢/١٧٥)، ومسلم (٢/٨٩٤) وسيرة ابن إسحاق الجزء المطبوع بتحقيق

سهيل زكار (ص ١٠١) والسيرة لابن هشام (١/٢١٦).

وهكذا كان الله يُهَيِّئُ نبيه ﷺ للرسالة، وينأى به عن عوائد الجاهلية المستقبحة، أو تميزاتها الباطلة، وفي ذلك تأسيس لكرائم الأخلاق، والعدل، والمساواة.

د - حفظه عن اللهو والغناء وقبيح الجاهلية:

واستمر حفظ الله لنبيه ﷺ - قبل البعثة - من أوضاع الجاهلية وعوائدها، وفوق ما سبق، فقد حُفِظَ عن قبيح الجاهلية كاللهو والغناء، فقد قال النبي ﷺ عن نفسه: (ما هممت بقبيح مما كان أهل الجاهلية يهتمون به إلا مرتين من الدهر، كلاهما يعصمني الله تعالى منهما، قلت ليلة لفتى كان معي من قريش في أعلى مكة في أغنام لأهلها ترعى، أبصر لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما تسمر الفتيان، قال: نعم، فخرجت فلما جئت أدنى دار بمكة سمعت غناءً وصوت دفوف وزمر، فقلت: ما هذا؟ قالوا: فلان تزوج فلانة لرجل من قريش تزوج امرأة، فلهوت بذلك الغناء والصوت حتى غلبتني عيني فنمت، فما أيقظني إلا مسُّ الشمس، فرجعت فسمعت مثل ذلك، فقيل لي مثلما قيل لي، فلهوت بما سمعت وغلبتني عيني فما أيقظني إلا مسُّ الشمس، ثم رجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئاً، قال رسول الله ﷺ: فوالله ما هممت بعدها أبداً بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله تعالى بنبوته)^(١).

(١) رواه الحاكم عن ابن إسحاق (من رواية يونس بن بكير) وقال: حديث صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي: المستدرک (٢٤٥/٤)، ورواه البيهقي في دلائل النبوة (٣٣/٢-٣٤) عن يونس عن ابن إسحاق، والبوصيري في المطالب العالية (١٧٨/٤)، وقال: رواه إسحاق ابن راهويه بإسناد حسن وحسنه الحافظ ابن حجر، وصححه إبراهيم العلي في صحيح السيرة النبوية (ص ٤٢)، وقال الهيثمي: رواه البزار ورجاله ثقات (مجمع الزوائد ٢٢٦/٨)، ونقله الصالحي في سبل الهدى (٢٠٠/٢) وقال إسناده حسن متصل.

هـ - مشاركته ﷺ في حلف الفضول:

وهو حلف يُحسب لعدد من قبائل قريش في نُصرة المظلوم، ورد الظالم الغشوم، تداعت هذه القبائل (بنو هاشم، وبنو المطلب، وبنو أسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة) في دار عبد الله بن جدعان (لسنّه وشرفه فيهم)، وتعاقدوا على ألا يجدوا مظلوماً بمكة من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا كانوا معه، وكانوا على مَنْ ظَلَمَهُ حتى يردوا عليه مظلّمته، وقد حضره النبي ﷺ وقال عنه: (لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحبُّ أن لي به حُمْرُ النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت)^(١).

والحادثة تشير إلى أن العرب رغم جاهليتهم وعوائدهم السيئة يوجد عندهم عوائد وأخلاق كريمة، وقد وفق الله نبيه - قبل البعثة - لمشاركتهم فيها، على حين عصمه من عوائدهم السيئة وعاداتهم الجاهلية - كما سبق -.

و - المشاركة في التجارة والزواج بخديجة:

قال ابن هشام: فلما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وعشرين سنة تزوج خديجة بنت خويلد (فيما حدثني به غير واحد من أهل العلم)، وذكر ابن إسحاق أن سبب هذا الزواج خروج النبي ﷺ بمالها إلى الشام مضارباً، حين بلغها عن صدق حديثه، وعظيم أمانته، وكرم أخلاقه، فعرضت عليه التجارة بمالها على أن تعطيه أفضل ما كانت تعطي

(١) رواه ابن إسحاق رسلاً كما في السيرة لابن هشام (١/١٨٢-١٨٣)، ورواه أحمد في مسنده (١/١٩٠-١٩٣)، بلفظ (حلف المطيبين) من غير طريق ابن إسحاق، وقال محققه أحمد شاكر: إسناده صحيح، ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/١٧٢)، وقال رواه أحمد وأبو يعلى والبخاري ورجاله رجال الصحيح، وصحح الحديث إبراهيم العلي في: صحيح السيرة (ص ٤٥)، والطرهوني في صحيح السيرة النبوية (١٦٥ هامش ٢١٩) وذكر عدة طرق للحديث ومنها طريق ابن سعد في الطبقات (١/١٢٩).

غيره من التجار، فقبل النبي ﷺ وخرج بمالها إلى الشام، ومعه غلامها (ميسرة)، وقد باع النبي ﷺ لخديجة واشترى، وأعجب خديجة ما قصه عليها غلامها (ميسرة) من أحوال وقعت للنبي ﷺ في هذه الرحلة، كخبر الزاهب عن نبوته ﷺ وإظلال الملائكة له حين يشتد الحرّ، فضلاً عن كريم خلقه وأمانته، ما دعا خديجة إلى رغبتها في الزواج منه، وعرض نفسها عليه، وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهنّ شرفاً، وأكثرهنّ مالاً، وكل قومها كان حريصاً على الزواج منها لو يقدر عليه^(١).

وأياً ما كان السبب في الزواج بخديجة رضي الله عنها، فقد بَوَّب البخاري في صحيحه (باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها)، ثم ساق في الباب عدة أحاديث تؤخذ دلالتها بطريق اللزوم على زواجه بخديجة - كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر^(٢).

وكانت خديجة نِعْم الزوج للنبي ﷺ، واسْتَه بنفسها، وثبتته في الشدائد (خاصة عند نزول الوحي) كما واسْتَه بمالها، ولها مناقب أخرى حتى قال النبي ﷺ عن مناقبها: (لقد آمنت بي حين كفر الناس، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس، ورزقني منها الولد وحرمني من غيرها)^(٣).

وحيث ثبت أن خديجة رضي الله عنها من خير نساء أهل السماء والأرض^(٤)، ومحمد ﷺ سيد الأولين والآخرين، وخيرة الأنبياء والمرسلين، فأكرم بالخيرين كليهما - وإن تفاضلا - وبيت محمد ﷺ وخديجة نموذج رائع للبيوت المسلمة وخير قدوة لها.



(١) السيرة لابن هشام (١/٢٤٥).

(٢) الفتح (٧/١٣٥).

(٣) رواه أحمد (٦/١١٧-١١٨)، ونقله الذهبي في السير (٢/١١٧)، وابن حجر في الإصابة (٢١٧/١٢).

(٤) متفق عليه (خ ٤/٢٣٠) (م ٤/١٨٨٦).

إرهاصات البعثة ومقدمات النبوة

سبق نزول الوحي على محمد ﷺ وتشريفه بالنبوة، وتكليفه بالرسالة، مبشرات ومقدمات مهّدت وهيأت للنبوة ومن ذلك:

أ - أخبار أهل الكتاب وعلمهم ببعثة محمد ﷺ:

كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وأكتفي هنا بخبر اليهودي في المدينة حين أخبر الأوس والخزرج ببعثته، والقصة كما رواها أحمد وابن إسحاق وغيرهم، عن سلمة بن سلامة بن وقش: (أن يهوديًا خرج عليهم من بني عبد الأشهل قبل مبعث النبي ﷺ يبسير، فذكر البعث والقيامة والحساب والجنة والنار، فاستغرب أهل المدينة - وهم حينها أهل شرك وأصحاب أوثان، لا يرون بعثًا كائنًا بعد الموت، ولا علم لهم بالرسول والرسالات - حتى إذا سألوا اليهودي: وما علامة صحة ذلك الذي تخبر عنه؟ قال: نبي مبعوث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده إلى مكة واليمن، قالوا: ومتى تراه؟ قال سلمة: فنظر إليّ وأنا أحدثهم سنًا فقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه، قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمدًا رسول الله ﷺ واليهودي حيّ بين أظهرنا، فأمننا به وكفر به بغيًا وحسدًا^(١).

(١) انظر السيرة لابن هشام (١/ ٢٧١)، ومسند أحمد (٣/ ٤٦٧)، وابن حبان في الموارد (ص ٥١٨)، وأشار ابن حجر إلى تصحيحه (الفتح ٦/ ٥٨٣)، والهيثمي في المجمع (٨/ ٢٤) وقال رجاله ثقات، والصحيح المسند من دلائل النبوة للوادعي (ص ٦٧-٦٨) وغيرهم، وانظر: (قضايا ومباحث في السيرة د. سليمان بن حمد العودة ص ٧٤).

ب - أخبار الكهان من العرب:

قال ابن إسحاق: وكانت الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى والكهان من العرب، قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه، لما تقارب من زمانه، أما الأحبار والرهبان فعلمًا وجدوه في كتبهم من صفة وصفة زمانه، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه، وأما الكهان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع - وكانت لا تُحجَب عن ذلك - فلما تقارب مبعثه ﷺ حُجبت الشياطين عن السمع ورموا بالنجوم، فعرفت الجن أن ذلك لأمر حدث من أمر الله في العباد، وقد أخبر الله عن حجب الشياطين من استراق السمع من السماء حكاية عن الجن بقوله: ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ۗ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۗ﴾ [الجن: ٩، ١٠] (١)، وقصة عمر ﷺ مع الكاهن الذي أخبره عن حديث الجن وبعثة النبي ﷺ - قبل أن يسلم عمر - وبوب لها البخاري (باب إسلام عمر ﷺ) (٢)، تؤكد أخبار الكهان، وتعد من إرهاصات البعثة.

ج - تسليم الحجر والشجر على النبي ﷺ:

روى مسلم في صحيحه من حديث جابر بن سمرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (إني لأعرف حجرًا بمكة كان يُسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن) (٣)، وزاد ابن إسحاق وابن سعد: (فلا يمرُّ رسول الله ﷺ بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله، فيلتفت رسول الله ﷺ حوله وعن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر

(١) انظر السيرة لابن هشام (١/٢٦٢).

(٢) البخاري (٤/٢٤٣).

(٣) (٤/١٧٨٢ ح ٢٢٧٧).

والحجارة، فمكث كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث، ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء في شهر رمضان^(١).

وحيث ثبت في الصحيح تسليم الحجر، وتضافرت مرويات السيرة على تسليم الحجر والشجر على النبي ﷺ قبل بعثته، فقد أراد الله إكرام نبيه، وأنطق الحجر والشجر - وهو الذي أنطق كل شيء - ليسلم عليه.

د - الرؤيا الصادقة:

ثبت في البخاري ومسلم أن أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وهي أول ما بُدئ به من الوحي^(٢).

وإذا كانت الرؤيا الصالحة تسلي وتبشر - عموماً - فإن رؤيا الأنبياء إرهاصات ومبشرات للنبوّة^(٣).

هـ - العزلة والتحنث:

لم تكن أجواء مكة صحيحة المعتقد ولا سليمة الفكر - قبل مبعث النبي ﷺ - وحين عصم الله نبيه من أوضاع الجاهلية حُبب إليه - قبيل البعثة - الخلاء، فكان يخلو بغار حراء ويتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاء الحق وهو في غار حراء، هكذا ثبت في صحيح البخاري ومسلم^(٤).

(١) السيرة لابن هشام (٢٩٨/١)، والطبقات لابن سعد (١٥٧/١).

(٢) البخاري (١/٣) (٨٧/٦) (٦٧/٨)، ومسلم (١/١٣٩ ح ١٦٠).

(٣) كما جاء في البخاري ح (٦٩٨٣ - ٦٩٨٧ - ٦٩٩٤)، ومسلم ح (٢٢٦٣).

(٤) البخاري (٣/١)، ومسلم (١/١٤٠)، ورواه ابن سعد في الطبقات (١/١٩٤).



وقد حدد بعض الروايات مدة هذه المجاورة بـ (حراء) بشهر^(١)، كما حددت رواية أخرى أن هذا الشهر هو رمضان^(٢).

وورد أنه خلال هذه العزلة والتحنث كان يُطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى جواره بحراء كان أول ما يبدأ به الطواف بالكعبة قبل أن يدخل بيته^(٣).

ويميل أحد الباحثين إلى أن تعبدته ﷺ في خلواته قبل البعثة كان أساسه التفكير في آيات الله^(٤).

وإذا كان يصعب القطع بأن تعبدته ﷺ - قبل مبعثه - بشرع أحد من الأنبياء كنوح، أو إبراهيم - وهو الذي يميل إليه ابن كثير - وقيل: موسى، وقيل: عيسى، وقيل كل ما ثبت أنه شرع عنده اتبعه وعمل به، بل اختلف العلماء: هل تعبدته كان على شرع أو لا؟^(٥).

فإن من دروس هذه العزلة وفقه هذه العبادة: أهمية الخلو في حياة المسلم يخلو فيها إلى نفسه ويراجعها، ويستشعر ضعفه أمام عظمة الله، ويفكر في عظمة هذا الكون، وهدف الحياة، وعظم الخالق والافتقار إليه^(٦).

و - شق صدره ﷺ:

وقد سبق الحديث عن ذلك - في ديار بني سعد - وأضيف هنا أن ابن سعد ذكر علامات النبوة في رسول الله ﷺ قبل أن يوحى إليه، وابتدأها بحديث: (أنا دعوة أبي

(١) مسلم (١/١٤٤).

(٢) السيرة لابن هشام (١/٢٩٨-٣٠٠).

(٣) انظر: السيرة لابن هشام (١/٣٠٠).

(٤) محمد صادق عرجون: السيرة النبوية (١/٢١٦-٢١٧).

(٥) انظر: ابن كثير البداية والنهاية (٤/١٤).

(٦) انظر: د. زيد الزيد (فقه السيرة ص ١١٩).



إبراهيم، وبشّر بي عيسى ابن مريم، واسترُضعت في بني سعد)، ثم ذكر حادثة شق الصدر^(١)، ولا شك أن شق صدره ﷺ تهيئة للرسالة، وحتى لا يكون في قلبه شيء إلا التوحيد، كما قال السهيلي^(٢).



(١) الطبقات (١/١٥٠).

(٢) الروض الأنف (٢/١٧٣).

نزول الوحي ودروسه والتكليف بالنبوة والرسالة

ليست النبوة دعوى وإنما تكريم واختيار ﴿ وَأَعْلَمَ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، (وقد نظر الله في قلوب الرجال فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه وبعثه برسالته)^(١).

ولم يكن النبي ﷺ قبل النبوة يتطلع إليها، ولم يكن يدري ما الكتاب ولا الإيمان - كما أخبر الله تعالى عنه - وكان عليه الصلاة والسلام أمياً لا يقرأ ولا يكتب كما وصفه الله بقوله: ﴿ النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وكل ذلك يؤكد نبوته، ويقطع دابر التفتول عليه، وينفي ارتياب المبطلين لدعوته ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِبَيْمِينِكَ إِذًا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

كل هذه المعاني تؤكد الروايات الصحيحة، حيث تشير إلى أن الوحي فجأة وهو ﷺ بغار حراء، وأن جبريل عليه السلام غطه حتى بلغ منه الجهد - ثلاث مرات - ويقول له: (اقرأ)، فيجيب النبي ﷺ: (ما أنا بقارئ)، حتى قال له الملك جبريل بعد الثالثة: ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ - ٥]، فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف هوادره حتى دخل على خديجة فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، وقال لخديجة: لقد خشيت على نفسي، فقالت له: كلا، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق في الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتُقري

(١) رواه أحمد ح (٣٦٠٠)، والبزار والطبراني في الكبير ح (٨٥٨٢) ورجاله موثوقون كما قال الهيثمي (مجمع الزوائد ١/ ١٧٧-١٧٨).

الضيف، وتُعين على نوائب الحقّ، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل -ابن عم خديجة- وكان امرءاً تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي -ولديه علم بالرسالة والرسالات- ولذا طمأن النبي ﷺ بقوله: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى، ليتني أكون حيّاً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا. ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي^(١).

وتتفق روايات الصحيحين مع ابن إسحاق على أن عمر النبي ﷺ أربعون سنة حين نزل عليه الوحي أول مرة^(٢)، وعند ابن إسحاق أن ذلك وقع في شهر رمضان^(٣)، وهو المشهور كما قال ابن كثير^(٤)، وثبت عند مسلم وابن سعد أن اليوم الذي أنزل عليه فيه يوم الاثنين^(٥)، قال ابن كثير: وهذا مما لا خلاف فيه بينهم^(٦).

وبهذه الشدة والمفاجأة كانت نبوة محمد ﷺ ونزل الوحي عليه والحكمة في ذلك -والله أعلم- حتى يأخذ الكتاب بقوة، ويترك الأناة، فإنه أمر ليس بالهويني^(٧).

وبالعلم والإيمان ابتدأت نبوة محمد ﷺ، فأول الآيات نزل عليه: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١، ٢].

(١) انظر: صحيح البخاري (٣/١، ٨٧/٦، ٦٧/٨)، ومسلم (١٣٩/١)، والسيرة لابن هشام (٣٠٠/١-٣٠١).

(٢) صحيح البخاري (ح ٣٩٠٢)، ومسلم (ح ٢٣٥١)، والسيرة لابن هشام (٢٩٦/١).

(٣) السيرة لابن هشام (٢٩٨/١-٣٠٠).

(٤) السيرة (١/٣٩٢).

(٥) مسلم (٢/٨١٩-٨٢٠)، وابن سعد في الطبقات (١/١٩٣).

(٦) السيرة (١/٣٩٢).

(٧) السهيلي: الروض الأنف (٢/٤٠٠).

وحيث ثبت (فترة الوحي) واختلف في مدتها، ويرى ابن عباس أنها أربعون يوماً^(١).

ويرى ابن حجر أن فترة الوحي ليست عدم مجيء جبريل إلى النبي ﷺ، بل تأخر نزول القرآن فقط^(٢)، ولعل من حكم فتور الوحي عن النبي ﷺ ليذهب عنه ما وجده من الروع، وليتشوف لعودته^(٣).

وإذا كانت خديجة رضي الله عنها أول من آمن بالله وبرسوله ﷺ، وصدقت بما جاء به، فقد خفف الله بها عن نبيه ﷺ، وَثَبَّتَهُ وَوَأَسَّتَهُ^(٤)، وكذلك ينبغي أن تكون المرأة مع زوجها في حال الشدائد والكروب.

أما ورقة بن نوفل فهو رمز للعلم والإيمان ونموذج للتوجيه والتثيت، وكذلك يفضل العالم على الجاهل، ولهذا رفع الله العلماء المؤمنين درجات ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقد صح الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لا تسبوا ورقة، فإني رأيت له جنة أو جنتين)^(٥)، على أن هناك من يرى موت ورقة على النصرانية^(٦)، ولا منافاة بينهما، إذ الدين المأمور به زمن حياته النصرانية.

(١) ابن حجر: الفتح (٢٧/١).

(٢) الفتح: (٢٧/١).

(٣) المصدر السابق: (٢٧/١).

(٤) ابن هشام: السيرة (٣٠٥/١).

(٥) رواه الحاكم في مستدركه (٦٠٩/٢)، وصححه ووافقه الذهبي، وعزاه ابن كثير للبخاري وابن عساكر وجوّد إسناده (السيرة لابن كثير ٣٩٨/١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١٥٣/٦).

(٦) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب (ص ١٢٠، ٤١٩)، وقال ابن حجر: وفي إثبات الصحبة له نظر (الإصابة ٣٠٤/١٠)، وقد ضعف عبد الرحمن الوكيل حديث رؤية النبي ﷺ لورقة في الجنة، بل نقل عن ابن عساكر قوله: (لا أعرف أحداً قال إنه أسلم)، حاشية الروض الأنف للسيوطي (٣٥٥/٢) قلت: وهذا غريب من ابن عساكر.

وقد ثبت أن أول ما نزل على النبي ﷺ بعد فترة الوحي ﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّتُّرُ﴾ ① قُمْ فَأَنْذِرْ ② وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ⑤ [المدثر: ١ - ٥] ①، وقال ابن تيمية رحمه الله: أول ما نزل اقرأ، وبها صار نبياً، وقوله: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾، أمرٌ بالإندار، وبها صار رسولا منذراً ②.



(١) صحيح البخاري (١/٤، ٤/٨٤)، ومسلم (١/١٤٣).

(٢) الفتاوى (١٦/٢٥٤-٢٥٥).

الدعوة في مرحلتها السرية

بعد أن نزل الوحي على النبي ﷺ وكُلف بتبليغ الرسالة والإنذار، تحمل عليه الصلاة والسلام هذا الأمر رغم شدة التكليف، والعدوان المتوقع من قوم لا علم لهم بالرسالة والمرسلين، وكان على رسول الله ﷺ أن يبدأ الأمر (في الإنذار والدعوة) من طرق آمنة، وأن يعطي دعوة ربه ميداناً للرسوخ، وسبباً للمحافظة على المؤمنين الأوائل، وهو بذلك يُعلم الأمة كلها والدعاة خاصة مشروعية (السرية) في الدعوة -إذا لزم الأمر- وإلا فالأصل علانية الدعوة، ووضوح الهدف، فإن قيل: ما الدليل على هذه الدعوة السرية؟ وما طبيعتها؟ وما نتائجها؟ وكم كانت مدتها؟ كانت الإجابة بالأحداث والنصوص الآتية:

(أ) روى ابن إسحاق -دون سند-: فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما أنعم الله به عليه وعلى العباد به من النبوة سراً إلى من يطمئن إليه من أهله^(١).

(ب) ونقل ابن سعد عن الواقدي: فكان ﷺ يدعو من أول ما نزلت عليه النبوة ثلاث سنين مستخفياً إلى أن أمر بظهور الدعاء^(٢).

(ت) كما نقل ابن سعد عن الواقدي عن معمر بن راشد عن الزهري قال: دعا رسول الله ﷺ إلى الإسلام سراً وجهراً^(٣).

(١) السيرة لابن هشام (١/٣٠٩).

(٢) الطبقات (١/١٩٩).

(٣) الطبقات (١/١٩٩).

ث) وروى مسلم في صحيحه - في قصة إسلام عمرو بن عبسة وقدمه إلى مكة - قوله: وقعدت على راحلتي فقدمت عليه ﷺ فإذا برسول الله ﷺ مستخفٍ، جُراءً عليه قومه فتلطفت حتى دخلت عليه مكة... إلى قوله: فقلت له: من معك على هذا (الإسلام)؟ قال: حرٌّ وعبد، ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به، قلت: إني متبعك، قال: إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني^(١).

ج) روى البخاري ومسلم في صحيحيهما في قصة إسلام أبي ذر - وقدمه إلى مكة - ووصوله إلى النبي ﷺ في غاية التكتم والحذر، وبعد إسلامه قال له النبي ﷺ: (يا أبا ذر، اكنم هذا الأمر وارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل)^(٢).

ح) وفي صحيح البخاري في خبر حوار النبي ﷺ للمقداد حين قتل رجلاً يخفي إيمانه، وتذكيره إياه بإخفاء إيمانه، وقول النبي ﷺ له: (وكذلك كنت أنت تخفي إيمانك بمكة قبل)^(٣).

خ) وفي خبر عفيف الكندي، وحواره مع العباس - قبل أن يسلم - ووصفه لخروج النبي ﷺ في منى من خباء، وخروج خديجة وعلي رضي الله عنهما معه يصليان، ومقولة العباس: هذا ابن أخي، ولم يتبعه على أمره إلا امرأته وابن

(١) (١/٥٩٦ ح ٨٣٢) باب إسلام عمرو بن عبسة.

(٢) البخاري (٤/٢٤١، ٤/١٥٨، ٧/٨١)، ومسلم (٤/١٩٢٣).

(٣) (٨/٣٥) والخبر معلق، وقد وصله غير البخاري انظر الفتح: (١٢/١٩٠)، وتعليق التعليق (٥/٢٤٢).

عمه، وهو يزعم أنه نبي^(١).

(د) وفي قصة إسلام سعد بن أبي وقاص قال عن نفسه: لقد رأيتني وأنا ثلث الإسلام^(٢)، وقوله: ما أسلم أحد إلا في اليوم الذي أسلمت فيه، ولقد مكثت سبعة أيام وإني لثلث الإسلام^(٣)، ما يفيد السرية - في هذه المرحلة - وابن كثير وابن حجر يؤكدان هذه السرية في تعليقيهما على خبر سعد رضي الله عنه.

قال ابن كثير: قول سعد: ما أسلم أحد إلا في اليوم الذي أسلمت فيه مُشكَل، إذ يقتضي أنه لم يسبقه أحد بالإسلام، وقد عُلِمَ أن الصديق وعلياً، وخديجة، وزيد بن حارثة، أسلموا قبله، وأما قوله: (لقد مكثت سبعة أيام وإني لثلث الإسلام) فمشكَل، وما أدري على ماذا يوضع عليه، إلا أن يكون أخبر بحسب ما علمه^(٤).

وقال ابن حجر: قول سعد: (وإني لثلث الإسلام)، قال ذلك بحسب اطلاعه، والسبب فيه أن من كان أسلم في ابتداء الأمر كان يخفي إسلامه^(٥).

(ذ) ما رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما - في قوله تعالى -: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]، قال: (نزلت ورسول الله ﷺ مختفٍ بمكة)، ولفظ مسلم: (متوارٍ بمكة)^(٦).

(١) رواه أحمد (١/٢١، ٢٠٩)، والحاكم في مستدركه (٣/١٨٣)، وصححه ووافقه الذهبي وابن عبد البر في الاستيعاب - بهامش الإصابة - (٩/٨٢-٨٣)، وقال: (حديث حسن جداً) كما ذكره إبراهيم العلي في صحيح السيرة النبوية (ص ٥٣).

(٢) البخاري (٤/٢١٢).

(٣) البخاري (٤/٢١٢) و(٢٤٠).

(٤) السيرة (١/٤٤٣).

(٥) الفتح (٧/٨٤).

(٦) البخاري ح (٤٧٢٢)، ومسلم ح (٤٤٦).

وبالجملة فهذه نصوص وأحداث تؤكد سرية الدعوة واختفاء المؤمنين بإيمانهم في بداية الدعوة، وكانت ضرورة لحماية الدعوة والحفاظ على المؤمنين، وكذلك ينبغي أن يستفيد الدعاة من هذه الدروس أينما كان التضييق على الدعوة، وكلما حوَصر الدعاة إلى الله.

والمأمل في طبيعة الدعوة السرية يرى أنها دعوة للأفراد وليست للقبائل، وأنها لمن يوثق به وليست لكل أحد، وكانت للقرييين من بيت النبوة أكثر (زوجة - موالى - أقارب - أصدقاء)، ولم تكن السرية في كل شيء، أو عن كل أحد، فالعباس - كما مرّ - يعلم عن نبوة محمد ﷺ، بل خبر الرسالة الجديدة تجاوز مكة إلى خارجها، وعلم عمرو بن عبسة، وأبي ذر) بها يؤكد انتشار خبرها.

وإنما تتركز السرية في تحديد مكان أو زمان اجتماع النبي ﷺ بمن يدعو للإسلام وما يدور في هذه الاجتماعات من دعوة وتعليم وتواصٍ بالحق وإخفاء الشعائر الظاهرة كالصلاة، وكذا أهداف الدعوة الكبرى وتطلعاتها المستقبلية، وعدم مجابهة قريش بما يكرهون من سب الآلهة، وإعلان منابذتهم وإنكار ما هم عليه، وكل ذلك تؤكد نصوص سبقت، وأخرى أشير إليها هنا مثل:

(أ) اختيار النبي ﷺ دار الأرقم مكاناً لاجتماعه بمن أسلم من الصحابة^(١)، ودار الأرقم، وصاحبها (الأرقم)، تجمع عدة مواصفات تجعلها مكاناً مناسباً للاجتماع في هذه المرحلة^(٢).

(ب) قال ابن إسحاق: وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من

(١) السيرة لابن هشام (١/٢٥٣).

(٢) انظر: د. السلمي وزملاؤه (صحيح الأثر من سيرة خير البشر ص ١٠٣).



أبيه أبي طالب^(١).

كما قال ابن إسحاق: وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا في الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، ثم ذكر قصة سعد بن أبي وقاص، وضربه لرجل من قريش عاب عليه وعلى أصحابه صلاتهم^(٢).

أما ما يتعلق بمدة هذه السرية، فقد اتفق ابن إسحاق والواقدي وابن سعد وأبو نعيم وغيرهم، على أنها ثلاث سنين^(٣)، وحددها غيرهم بأربع سنين^(٤)، أو تزيد^(٥).



(١) السيرة لابن هشام (٣١٣/١).

(٢) المصدر السابق (٣٢٦/١).

(٣) السيرة لابن هشام (٣٢٥/١)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٢١٦/١)، ودلائل النبوة (ص ١٠١).

(٤) البلاذري أنساب الأشراف (١١٦/١).

(٥) الزهري: المغازي (ص ٧٤).

أوائل المؤمنين

كان من نتائج المرحلة السرية إسلام نفر من المسلمين، أصبحوا فيما بعد طلائع لهذا الدين، وحملة دعوة، وأسلم بإسلامهم آخرون، وإليك البيان:

(١) خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وابن عمها ورقة بن نوفل (رضي الله عنهما)، وقد سبقت الإشارة إلى قدم إسلامهما^(١)، حتى قال ابن الأثير: أول خلق الله أسلم بإجماع المسلمين^(٢)، وقال الذهبي: أول من آمن به وصدقه قبل كل أحد، وثبتت جأشه^(٣).

(٢) علي بن أبي طالب عليه السلام، وقد روى الحاكم عن بريدة الأسلمي رضي الله عنه قال: (أوحى الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين، وصلى عليّ يوم الثلاثاء)^(٤)، وعند أحمد، والترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنه: (أول من صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم بعد خديجة عليّ)^(٥).

(٣) أبو بكر الصديق رضي الله عنه، روى البخاري في صحيحه عن أبي الدرداء -في خصومة أبي بكر وعمر- وفيها قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله بعثني إليكم فقلتم

(١) ولهذا قال من قال: أول من أسلم من النساء خديجة، ومن الرجال ورقة بن نوفل الشيخ محمد بن عثيمين: شرح العقيدة الواسطية (٢/٢٨٠).

(٢) أسد الغاية (٧/٧٨).

(٣) السير (٢/١٠٩).

(٤) المستدرک (٣/١١٢) وصححه ووافقه الذهبي.

(٥) المسند (١/٣٣٠-٣٣١)، وجود إسناده الساعاتي في الفتح (٢٠/٢١٤)، وسنن الترمذي وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/٢١٥).

كذبت وقال أبو بكر صدق، وواساني بنفسه وماله^(١)، وعلق عليه ابن كثير قائلاً: وهذا كالنص على أنه أول من أسلم^(٢)، وقال أيضاً: وهو المشهور عند جمهور أهل السنة^(٣).

وروى البخاري من حديث عمار رضي الله عنه قال: (رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد، وامرأتان، وأبو بكر)^(٤)، قال ابن حجر: وفي هذا الحديث أن أبا بكر أول من أسلم من الأحرار مطلقاً^(٥)، وعند الترمذي عن أبي بكر: (ألست أول من أسلم؟)^(٦).

وهؤلاء الثلاثة (خديجة، وعلي، وأبو بكر) يمكن القول بأنهم أول من أسلم لاعتبار، قال الترمذي: وقال بعض أهل العلم: أول من آمن من الرجال أبو بكر الصديق، وأسلم علي وهو غلام ابن ثمانين سنين^(٧)، وأول من أسلم من النساء خديجة^(٨).

٤ زيد بن حارثة رضي الله عنه، ويضيف أبو حنيفة رحمه الله: أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر، ومن النساء خديجة، ومن الموالى زيد بن حارثة، ومن الغلمان علي بن أبي طالب رضي الله عنه أجمعين^(٩).

(١) البخاري ح (٣٦٦١).

(٢) السيرة (١/٤٣٤).

(٣) المصدر السابق (١/٤٣٥).

(٤) البخاري ح (٣٦٦٠).

(٥) الفتح (٧/٢٤).

(٦) وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/٢٠١).

(٧) وعند ابن إسحاق: أول ذكر آمن برسول الله ﷺ وصلى معه، وصدق بما جاءه من الله تعالى علي بن

أبي طالب وهو يومئذ ابن عشر سنين، انظر: السيرة لابن هشام (١/٣١٢).

(٨) صحيح سنن الترمذي (٣/٢١٥).

(٩) ابن كثير: السيرة النبوية (١/٤٣٧).

وعند ابن إسحاق: وكان زيد أول ذكر أسلم وصلى بعد علي بن أبي طالب^(١).

- (٥) بلال بن رباح.
- (٦) عامر بن فهيرة.
- (٧) أبو فكيهة مولى صفوان بن أمية.
- (٨) عمار بن ياسر.
- (٩) شقران، (هؤلاء هم الذين فُسر حديث البخاري بهم: خمسة أعبد، مع زيد بن حارثة، والاختلاف بين أبي فكيهة وعمار)^(٢).
- (١٠) عثمان بن عفان.
- (١١) الزبير بن العوام.
- (١٢) عبد الرحمن بن عوف.
- (١٣) سعد بن أبي وقاص.
- (١٤) طلحة بن عبيد الله، وهؤلاء أسلموا بدعوة أبي بكر الصديق - ﷺ - أجمعين - لهم كما قال ابن إسحاق^(٣).
- (١٥) أبو عبيدة عامر بن الجراح.
- (١٦) أبو سلمة بن عبد الله بن الأسد.
- (١٧) الأرقم بن أبي الأرقم.

(١) السيرة لابن هشام (١/٣١٤).

(٢) كما نقل ذلك ابن حجر في الفتح (٧/٢٤).

(٣) السيرة لابن هشام (١/٣١٧).

١٨) عثمان بن مظعون، وهؤلاء كذلك أسلموا بدعوة أبي بكر الصديق - ﷺ أجمعين - كما ذكر ابن كثير^(١).

ويقدر ما يُذكر لهؤلاء السابقين سبقهم للإسلام، يُذكر لأبي بكر ﷺ فضله وجهوده في الدعوة حيث أسلم بدعوته ثلثة من خيار الصحابة (ومنهم عدد من المبشرين بالجنة). وكان أبو بكر ﷺ رجلاً مألوفاً لقومه، محبوباً، سهلاً، وكان أعلم قريش بأنسابها، وتاجراً وذا خلق ومعروف، وحسن مجالسة، فأسهمت هذه الخلال والأخلاق، وفوقها الإيمان واليقين والتوفيق، في استجابة الناس لدعوته^(٢).

ولم تقتصر فضائل الصديق ﷺ على السبق للإسلام ودعوة الآخرين، بل كانت له فضيلة الاستجابة دون تردد، وهي التي قال عنها النبي ﷺ: (إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدق)، كما سبق.

وإذا عجبت من جهود أبي بكر في سبق الإيمان والدعوة، فلا بد أن يعجبك سبق الشباب للإيمان، وعليّ وزيد ﷺ نموذجهما^(٣).

على أن قافلة السابقين للإسلام لم تقف عند هؤلاء، بل جاوزتهم إلى مجموعة من الرجال والنساء عُدوا في السابقين للإسلام، وقد ذكر ابن إسحاق أسماء ما يزيد على الخمسين - ما بين رجل وامرأة - أسلموا في تلك المرحلة^(٤)، وأوصلهم أحد الباحثين إلى ثلاثة وستين سبقوا إلى الإسلام^(٥).

(١) السيرة النبوية (١/٤٣٩).

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية (١/٣١٧).

(٣) قوَى ابن حجر أن يكون عمر علي ﷺ حين المبعث عشر سنين (الفتح ٧/١٧٤) اعتماداً على موقفه مع أبي ذر في قصة إسلامه.

(٤) انظر: السيرة لابن هشام (١/٣١٢-٣٢٤).

(٥) مهدي رزق الله (السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص ١٦١).



ومما يلفت النظر في هذه القائمة قول بعض الباحثين: إن معظمهم من بطون قريش وساداتها، ولم تكن نسبة الموالي منهم والمستضعفين إلا قليلاً (نحو الخُمس)^(١)، وإن كان ابن كثير يرى أن غالب من اتبعه في أول البعثة ضعفاء الناس من الرجال والنساء، والعبيد، والإماء، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل^(٢)، ويؤيد قول ابن كثير حديث أبي سفيان مع هرقل: (فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم)^(٣).

ومما يلفت النظر كذلك مشاركة المرأة للرجل في السبق للإسلام في تلك المرحلة الحرجة، وفي قائمة ابن إسحاق (السابقة) عدّ منهم عشر نساء (نحو الخُمس)^(٤).

ويكفي النساء فخراً تقدّم خديجة بإسلامها وتثبيتها ومواساتها، حتى قال ابن حجر - وهو يعدد فضائلها -: وهي أول من أجاب الإسلام ودعا إليه، وأعان على ثبوته بالنفس والمال والتوجه التام، فلها مثل أجر من جاء بعدها، ولا يقدر قدر ذلك إلا الله^(٥).



(١) مهدي رزق الله (المصدر السابق ص ١٦١)، والشامي من معين السيرة (ص ٣٧-٣٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/٢٥٥).

(٣) البخاري (ح ٧)، ومسلم (ح ١٧٧٣).

(٤) انظر: السيرة لابن هشام (١/٣٠٥-٣١٩-٣٢٣).

(٥) الفتوح (٧/١٠٩).

الجهر بالدعوة

روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون من قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ٢١، ٢٢].^(١)

وفي الصحيحين واللفظ لمسلم من رواية أبي هريرة ؓ: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا، فعمَّ وخصَّ فقال: يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبدالمطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحماً سأبُلُّها ببلاها^(٢).

وثمة روايات أخرى في الصحيحين أو في أحدهما تختلف في عبارتها واختصارها، ولكنها تتفق في الجهر بالدعوة وإنذار قومه^(٣).

(١) البخاري (١٦/٦)، ومسلم ح (٢٠٨).

(٢) البخاري ح (٢٧٥٣)، ومسلم (١٩٢/١) واللفظ له.

(٣) انظر: (السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق...) أ.د. سليمان العودة (ص ٢٤٨-٢٥١).

وروى ابن سعد عن شيخه الواقدي بسنده إلى ابن عباس - في الجهر بالدعوة - قريباً من الروايات السابقة وإن اختلفت في بعض ألفاظها^(١).

أما ابن إسحاق فجاء سياقاً للجهر بالدعوة هكذا: ثم دخل الناس في الإسلام إرسالاً من الرجال والنساء، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة، وتحدث به، ثم إن الله ﷺ أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه، وأن ينادي الناس بأمره وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله بإظهار دينه ثلاث سنين - فيما بلغني - من مبعثه، ثم قال الله تعالى: ﴿فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]^(٢).

والمأمل في هذه المرحلة (الجهرية) يرى أنها تختلف عن سابقتها (السرية)، فإذا كانت السرية دعوة أفراد، ففي الجهرية دعوة مجموعات، بل قبائل، ففي إحدى روايات البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ جعل النبي ﷺ يدعوهم قبائل قبائل^(٣).

وهذا يعني أن عدد المسلمين سيزيد وسيكون لهم شأن وتأثير في المجتمع، الأمر الذي سيثير حفيظة المشركين؛ حيث إن عقائدهم الشركية وعوائدهم الفاسدة المنحرفة ستكون محل النقد والنقض، وحيثما كان للنبي ﷺ وأصحابه شوكة فسيبادي قومه بما يكرهون من عيب آلهتهم، وستقابل قريش ذلك بالعدوان، وهذا ما وقع فعلاً، قال ابن إسحاق - في معرض حديثه عن هذه المرحلة الجهرية -: فلما بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام وصدع بما أمره الله، لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه - فيما

(١) الطبقات (١/ ٢٠٠).

(٢) السيرة لابن هشام (١/ ٣٢٥) وهي دون إسناد.

(٣) صحيح البخاري (٤/ ١٦١).

بلغني - حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته، إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام، وهم قليل مستخفون^(١).

وهذا شأن الجاهليات كلها - في قديم الزمان وحديثه - إذا نُوزعت سلطانها وأنكر الأختيار مسالكها ومناهجها المنحرفة عادت عليهم وعادتهم، وألّبت الناس ضدهم، وما مقولة فرعون عن موسى والمؤمنين معه ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۖ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ۗ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٤ - ٥٦]، وما قيل عن آل لوط ﴿ أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٢]، وتُهم الإرهاب المعاصر، وإيذاء المؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها - مما نرى ونسمع - عنا وعن المؤمنين بمكة في زمن النبوة ببعيد، والتاريخ يُعيد نفسه، وتشابهه قلوب المفسدين وأساليبيهم.



(١) السيرة لابن هشام (١/٣٢٦).

أساليب قريش في محاربة الدعوة وإيذاء المؤمنين

وإذا كان هذا شأن الجاهليات كلها - إيذاء المؤمنين والصدّ عن سبيل الله - فمن عجب أن تتشابه القلوب وتتقارب الوسائل رغم تباعد الزمان، واختلاف الأجيال من بني الإنسان، وهذا بيان لشيء من وسائل قريش لمحاربة الدعوة وإيذاء المؤمنين بمكة يكشف عن حجم المعاناة والشدة التي عاشها الرسول ﷺ والمؤمنون معه، ويثبت ويُسلي المؤمنين بعدهم وأين كانت مواقعهم حين تصيهم الشدائد ويتسلط عليهم الأعداء:

١ - التهم الباطلة والسب والشتم:

لم يتورع كفار قريش عن إصاق التهم الباطلة بنبي الرحمة حين عاب آلهتهم، وإن كانوا من قبل يسمونه بالصادق الأمين، فقد اتهموه بالجنون ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر: ٦]، ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ [القلم: ٥١]، وتولى الله الدفاع عنه فقال: ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم: ٢]، وقال: ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [القلم: ٥٢]، كما اتهموه بالسحر والكذب ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذٰبٌ ﴾ [ص: ٤]، ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ [الفرقان: ٨]، وهذا شأن الأمم المكذبة مع رسل الله ﴿ كَذٰلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ ﴿ اتَّوَاصُوا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طٰغُوْنَ ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

واتهموه بالإتيان بالأساطير يكتبها ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥]، وقال ابن إسحاق: ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون^(١).

(١) السيرة لابن هشام (١/٣٥٨).

ومن باب أولى أن تلحق التهم المؤمنين معه ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢]، وتولى الله الدفاع عن المؤمنين وبشرهم - وهم في الدنيا - بنعيم الآخرة فقال: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۝ هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٤ - ٣٦] (١).

٢ - السخرية والاستهزاء والغمز واللمز:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۝ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ﴾ [المطففين: ٢٩، ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، قال ابن كثير في تفسيرها: إن مشركي قريش كانوا يسخرون مَن آمن من ضعفائهم ويعذبون من يقدرون عليه منهم، وكانوا يقولون: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟ أي ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير ويدعنا، كما قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] (٢).

ويسوق البخاري نموذجاً لاستهزاء المشركين بالنبي ﷺ، فعن جندب بن سفيان البجلي قال: اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد إنني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١ - ٣] (٣).

وبلغ من سخرية المشركين من محمد ﷺ وكراهيتهم له أن يسموه (مذمماً) بدل (محمداً)، وهنا حكمة ربانية، فقد صرف الله عن نبيه شتمهم ولعنهم، وقد جاء عند البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (ألا تعجبون كيف صرف

(١) انظر تفسير ابن كثير (٨/ ٣٧٥-٣٧٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٦).

(٣) البخاري ح (٤٩٥٠)، ومسلم ح (١٧٩٧).

الله عني شتم قريش ولعنهم؟ يشتمون مذممًا، ويلعنون مذممًا، وأنا محمد^(١).

قال ابن حجر: كان الكفار من قريش من شدة كراحتهم للنبي ﷺ لا يسمونه باسمه الدال على المدح فيعدلون إلى ضده فيقولون: مذمم، ومذمم ليس هو اسمه ولا يُعرف به، فكان الذي يقع منهم في ذلك مصروفًا إلى غيره^(٢).

كما كفى الله نبيه المستهزئين بقوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]، قال الثوري: عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: المستهزئون في الآية هم: الوليد بن المغيرة، والأسود بن يغوث الزهري، وأبو زمعة الأسود بن عبد المطلب، والحارث بن عيطل السهمي، والعاص بن وائل. ثم ساق كيف كفى الله نبيه هؤلاء المستهزئين وأهلكهم^(٣).

٣ - اللغو في القرآن والتشويش عليه وسبّه ومن أنزله:

القرآن الكريم كلام الله المنزل من السماء، وهو معجزة النبي ﷺ الكبرى، والمنهج الذي تربي عليه المؤمنون، وقد تحدى العرب أن يأتوا بمثله (وهو بلغتهم)، فما كان من كفار قريش إلا أن قالوا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

قال ابن إسحاق: أي اجعلوه لغواً وباطلاً، واتخذوه هزواً لعلكم تغلبونه بذلك، فإنكم إن ناظرتموه أو خاصتمتموه يوماً غلبكم^(٤).

(١) صحيح البخاري (ح ٣٥٣٣).

(٢) الفتوح: (٥٥٨/٦).

(٣) انظر: البيهقي دلائل النبوة (٣١٦/١)، والذهبي: السيرة.. (ص ١٤٣)، وقال: حديث صحيح وقال د. أكرم العمري: الرواية لم تثبت من طريق صحيحة، ثم وافق الذهبي في تصحيح الإسناد الوارد (السيرة النبوية الصحيحة ١/١٥٢).

(٤) السيرة لابن هشام: (٣٨٦-٣٨٧).

وقد أمر النبي ﷺ بمكة بالتوسط بين الجهر بالقرآن والمخافتة فيه لتجنب أذى المشركين، وحتى لا يحرم الصحابة من سماع القرآن، وفي البخاري ومسلم من حديث ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠] قال: نزلت ورسول الله ﷺ مخنف بمكة، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾؛ أي: بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن، ﴿وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم، ﴿وَأَبْتَعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠] بين الجهر والمخافتة^(١)، قال ابن حجر: قوله (مخنف بمكة) يعني في أول الإسلام^(٢).

٤ - التحريض على النبي ﷺ واستعداد القبائل على المؤمنين والتعذيب

الجسدي:

من وسائل قريش الدنيئة استخدام العشيرة والقبيلة في محاربة الدعوة في مجتمع تسود فيه القبيلة، فمع النبي ﷺ حاولوا في عمه أبي طالب (وهو على دينهم) أن يكف ابن أخيه عن سب آلهتهم وأذيتهم في نواديهم (بزعمهم)، فجاء أبو طالب وقال للنبي ﷺ: إن بني عمك هؤلاء قد زعموا أنك تؤذيهم في نواديهم ومسجدهم فانتبه عن أذاهم، فحلّق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء فقال: أترون هذه الشمس؟ قالوا: نعم، قال: فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة، فقال أبو طالب: والله ما كذبنا ابن أخي فارجعوا^(٣).

(١) صحيح البخاري (ح ٤٧٢٢)، ومسلم (ح ٤٤٦).

(٢) الفتح: (٤٠٥/٨).

(٣) ابن إسحاق: السير والمغازي - من رواية يونس بن بكير ص (١٥٥)، ورواها الحاكم في مستدرکه (٥٧٧/٣) من غير طريق ابن إسحاق، وصحح الألباني الحديث في: السلسلة الصحيحة

(١/١٤٧)، وكذا د. أكرم العمري في: السيرة النبوية الصحيحة (١/١٦٠).

وعند ابن إسحاق رواية أخرى تفيد بأن قريشاً جاؤوا إلى أبي طالب أكثر من مرة يطالبون بكفّ ابن أخيه، أو ينازلونه معه، وطلب أبو طالب من النبي ﷺ أن يبقى عليه وعلى نفسه، فكان ردّ النبي ﷺ: (يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه)، وأن أبا طالب تأثر واستعبر، ثم قال له: اذهب وقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً^(١).

ومع شهرة هذه الرواية ففيها ضعف، والتي قبلها أصح منها^(٢).

أما المؤمنون بمكة فقد سلطت عليهم قريش قبائلهم، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم^(٣).

وحيث نال الموالي من أسيادهم أكثر من غيرهم من صنوف العذاب، كبلال، وآل ياسر، وخباب وغيرهم (مما فصلت فيه كتب السيرة وغيرها)^(٤)، فلم يسلم من هذا الأذى القبلي والاستبداد العشائري بقية المؤمنين - من أصحاب النسب والقبائل الكبرى - ويكفي هنا أن نشير إلى موقف أمّ سعد مع ابنها سعد بن أبي وقاص ﷺ، حين علمت بإسلامه، وحاولت وما أفلحت في صرفه عن الإسلام، وحلفت ألا تكلمه أبداً، ولا تأكل ولا تشرب حتى يكفر بدينه، ومكثت ثلاثة أيام حتى غُشي عليها من الجهد، وفيها وفي ابنها نزل قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨] ... إلى قوله... ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]^(٥).

(١) السيرة لابن هشام (١/٣٢٩-٣٣٠).

(٢) انظر: تعليق د. همام عبدالرحيم وأبي صعيليك على الرواية (السيرة النبوية لابن هشام ١/٣٣٠) هامش (ب)، وانظر د. مهدي رزق: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ١٦٦).

(٣) السيرة لابن هشام (١/٣٣٣).

(٤) انظر السيرة لابن هشام (١/٣٩٢-٣٩٦).

(٥) مسلم ح (١٧٤٨).

وموقف عمر - قبل أن يسلم - مع أخته وختنه سعيد بن زيد رضي الله عنه، وقد قال سعيد عن نفسه وزوجته: لو رأيتني وإن عمر لموثقي على الإسلام أنا وأخته، وما أسلم ^(١).
أما الزبير بن العوام فكان عمه يعلقه في حصير، ويدخن عليه في النار، ويقول: ارجع إلى الكفر، فيقول: لا أرجع أبداً ^(٢).

ولم يسلم أبو بكر الصديق رضي الله عنه - وهو المحبب في قومه، والتاجر، والكریم المحسن - من الأذى، وقد همَّ بالخروج للحبشة حين ابتلي المسلمون، فلقبه ابن الدغنة - سيد القارة - فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ قال: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي، فقال له ابن الدغنة: مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يُخرج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك ببلدك، فرجع أبو بكر... وفي نهاية القصة ردَّ أبو بكر على ابن الدغنة جواره لاستمرار مضايقة قريش له، واعتذار ابن الدغنة عن جواره ^(٣).

٥ - الحصار الاقتصادي والاجتماعي:

اقتصاد الناس ومعاشهم ضرورة من ضرورات الحياة في كل المجتمعات، ومثله الارتباط الاجتماعي بين الناس، وقريش في مكة مارست حصار المؤمنين وتجويعهم، وعزلهم اجتماعياً عن مجتمعهم، للتضييق عليهم حتى يرجعوا عن دينهم، ولئن كان (حصار الشعب) نموذجاً سيئاً لهذا الحصار الاقتصادي والاجتماعي، حيث لا ينكحون إليهم ولا يُنكحونهم، ولا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم ^(٤)، فلم يكن هو

(١) صحيح البخاري (ح ٣٨٦٧).

(٢) أبو نعيم: في الحلية (١/ ٨٩)، والحاكم في المستدرک (٣/ ٣٦٠)، ورواه الطبراني، وقال الهيثمي: رجاله ثقات إلا أنه مرسل: مجمع الزوائد (٩/ ١٥١).

(٣) صحيح البخاري ح (٣٩٠٥).

(٤) السيرة لابن هشام (١/ ٤٣١) وأصل القصة في البخاري، وتفصيلاتها في كتب السيرة (كما سيأتي بيانه).

النموذج الأوحى لقريش - في هذا الحصار - بل نقل لنا ابن إسحاق صورة أخرى لهذا الحصار فقال: وكان أبو جهل الفاسق إذا سمع بالرجل قد أسلم، وله شرف ومنعة، أنبه وأخزاه، وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لئسْفَهَنَّ حَلْمَك، وَلَنْضَعَنَّ شَرْفَكَ، وَإِنْ كَانَ تَاجِرًا قَالَ: وَاللَّهِ لَنْكَسِدَنَّ تِجَارَتَكَ، وَلَنْهَلِكَنَّ مَالَكَ، وَإِنْ كَانَ ضَعِيفًا ضَرَبَهُ وَأَغْرَى بِهِ^(١).

ولم يكن الأمر مجرد تهديد، بل مارس أحد كفار قريش هذا الحصار عملياً، وبلغ الحال في هذا الحصار الجائر أن مُنِعَ بعض المسلمين من حقوقهم المالية، لا لشيء إلا لتركوا دينهم، فعن خباب رضي الله عنه قال: كنت قيناً (حداداً يصنع السيوف) في الجاهلية، وكان لي على العاص بن وائل دراهم، فأتيته أتقاضاه فقال: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم حتى يميتك الله ثم يعثك، قال: فدعني حتى أموت ثم أبعث، فأوتى مالاً وولداً ثم أقضيك، فنزلت: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مریم: ٧٧]^(٢).

٦ - الحرب الفكرية:

سلكت قريش لهذه الحرب أكثر من وسيلة، كسب الدين الجديد وتغيير الناس منه ﴿أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾^(٣) وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آيَاتِنَا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ^(٤) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِمَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ ﴿[ص: ٥ - ٧]، والتقليل من شأن القرآن الكريم، واتهامه بأنه أساطير الأولين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَادَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ قَالُوا سَطِيرُ الْأُولِينَ﴾ [النحل: ٢٤]، ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

(١) السيرة لابن هشام (١/٣٩٥) وإن كان الخبر معلقاً (مهدي رزق: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (١٧٩)).

(٢) انظر: صحيح البخاري ح (٢٤٢٥) (٤٧٣٢) (٤٧٣٣) (٤٧٣٤) (٤٧٣٥)، ومسلم ح (٢٧٩٥).

وتلك من قريش مكابرة ومحاولة يائسة للصدّ عن الحقّ الذي نزل به القرآن، وإلا فهم يتأثرون بالقرآن ويسجدون - رغم أنوفهم - حين سماعهم للقرآن، وفي البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سجد النبي ﷺ بالنجم (يعني: سورة النجم)، وسجد معه المشركون والجنّ والإنس^(١).

ومن مسالكهم - في هذه الحرب - محاولة اختلاق الأحاديث، وجلب أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم، واسبنديار، لتكون بديلة عن تذكير محمد ﷺ وحديثه، كما فعل ذلك النضر بن الحارث، وكان من شياطين قريش ومتحدثيها، وهو الذي قال (وأني له ذلك؟): ﴿سَأَنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، كما بلغ ابن هشام^(٢).

وحين يعجز علمهم وتضعف حجّتهم يستعينون بالخارج وبالأمم الأخرى على إحراج النبي ﷺ بالأسئلة، وقد نقل ابن إسحاق أن قريشاً بعثت النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط، إلى أحبار اليهود بالمدينة ليسألوهم عن النبي ﷺ، فقالوا لهم: اسألوه عن ثلاث نأمركم بهنّ، فإن أخبركم بهنّ فهو نبيّ مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فسألوه عن (أصحاب الكهف، وذو القرنين، والروح)، وحين تأخر الوحي عن النبي ﷺ لبيان جواب أسئلتهم، أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غداً واليوم خمسة عشر ليلة ولم يخبرنا محمد عمّا سأله، فلما نزل الوحي وعرفوا صدق محمد فيما حدّث، حال الكبر والحسد بينهم وبين أتباعه، وعتوا وتركوا أمر الله وقال قائلهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]^(٣).

(١) (ح ١٠٦٧).

(٢) السيرة النبوية (١/ ٣٧٠، ٣٧١، ٤٣٩).

(٣) انظر السيرة لابن هشام (١/ ٣٧١-٣٨٦)، وعند الترمذي طرف من سؤال قريش لليهود، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٣/ ٦٩)، وأورده ابن حجر في الفتح وقال: ورجاله رجال مسلم (الفتح ٨/ ٤٠١)، كما أشار إلى رواية ابن إسحاق وقال بإمكان الجمع بينها وبين رواية الترمذي (السابقة)، ورواية البخاري في باب: ويسألونك عن الروح (ح ٤٧٢١).

٧ - الحرب الإعلامية:

يُشكّل الإعلام - وإن اختلفت وسائله - في القديم والحديث عنصراً مهماً للتأثير في الرأي العام، وقريش رغم تواضع آلياتها الإعلامية في ذلك الزمان، إلا أنها استطاعت أن تؤثر في تشويه صورة محمد ﷺ ودينه الجديد، حتى أغلق أحد القادمين إلى مكة أذنيه حتى لا يسمع من محمد ﷺ شيئاً، وقالت قريش للطفيل بن عمرو الدوسي ﷺ: إنك امرؤ شاعر وسيد، وإنا قد خشينا أن يلقاك هذا الرجل، فيصيبك ببعض حديثه، وإنما حديثه كالسحر، فاحذره أن يدخل عليك وعلى قومك ما أدخله علينا. يقول الطفيل: فوالله ما زالوا يُحدثوني شأنه، وينهوني أن أسمع منه، حتى قلت: والله لا أدخل المسجد إلا وأنا سادّ أذني، فعمدت إلى أذني فحشوتهما كرسفاً (قطنًا)، إلخ القصة، وفي النهاية أسلم الطفيل، ولم تغلح قريش في صدّه وإن شوّهت الصورة أمامه^(١).

ولم يكن الأمر قصراً على الطفيل وتضليل قريش له، بل كان أبو جهل وصناديد قريش يتلقون الناس إذا جاؤوا إلى النبي ﷺ يُسلمون، فيقولون: إنه يحرم الخمر، ويحرم الزنا، ويحرم ما كانت تصنع العرب، فارجعوا فنحن نحمل أوزاركم، فنزلت هذه الآية: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلَ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٧﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٢، ١٣]^(٢).

(١) قصة الطفيل رواها الأموي في مغازيه عن الكلبي (ابن عبد البر: الاستيعاب بهامش الإصابة ٢٢٤/٥)، وابن إسحاق عن صالح بن كيسان (السيرة لابن هشام ٢٥/٢)، وابن سعد في طبقاته عن الواقدي (٢٣٧/٤)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (ص ٢٣٨) تحقيق: محمد رواس قلعه جي وزميله، ط: دار النفائس، والبيهقي في دلائل النبوة (٥/٣٦٠)، والذهبي في السير (١/٣٤٤-٣٤٥)، ورغم تضعيف رواية قصة الطفيل مع كفار قريش (انظر محقق السيرة لابن هشام ٢٨/٢ ومحقق السير للذهبي ١/٣٤٤)، إلا أن ابن عبد البر قال عنها (خبر عجيب) الاستيعاب بهامش الإصابة (٥/٢٢٤)، وساق القصة ابن حجر في الإصابة مختصرة (الإصابة ٥/٢٢٤).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه بسند رجاله ثقات (د. عبد العزيز العمري: المغازي لابن أبي شيبة ص ١١٣).

وظلت قريش تلاحق النبي ﷺ وتحاول تشويه صورته وهو يعرض الإسلام على القبائل في أسواق العرب، ففي سوق ذي المجاز كان رسول الله ﷺ يقول للناس: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وخلفه عمه أبو لهب يقول: إنه صابئ، كاذب؟^(١)، ولكن انقلب السحر على الساحر، وصدرت العرب من الموسم بأمر رسول الله، وانتشر ذكره في بلاد العرب كلها، كما قال ابن إسحاق^(٢).

٨ - الأسئلة التعجيزية وطلب المعجزات:

ظنت قريش أنها تُخرج النبي ﷺ بنوع من الأسئلة التي كانوا يسألونها، لا ليتفقوا في الدين أو يعلموا الحق من الباطل، وإنما ليُخرجوا النبي ﷺ بزعمهم، وقد تولى الله الدفاع عن نبيه وكشف باطلهم، وقد روى ابن أبي شيبة في مصنفه عن عامر الشعبي قال: قالت قريش لرسول الله ﷺ إن كنت نبياً كما تزعم فباعد جبلي مكة أخشيها هذين مسيرة أربعة أيام أو خمسة، فإنها ضيقة، حتى نزرع فيها ونرعى، وابعث لنا آباءنا من الموتى حتى يكلمونا ويخبرونا أنك نبي، أو احملنا إلى الشام أو إلى اليمن أو إلى الحيرة حتى نذهب ونجىء في ليلة كما زعمت أنك فعلته، فأنزل الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرَآئِنًا سُرَّتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ [الرعد: ٣١]^(٣).

وفي أي الذكر الحكيم نماذج لأسئلتهم ورد القرآن عليهم من مثل: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٥﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٦﴾﴾

(١) رواه أحمد في مسنده (٤٩٢/٣)، والبيهقي في دلائله (١٨٦/٢)، والحاكم في مستدركه (١٥/١)، وقال صحيح على شرط الشيخين ورواته عن آخرهم ثقات (انظر: سلمان العودة: الغرباء الأولون ص ٩٩-١٠٠ وحسن إسناده).

(٢) السيرة لابن هشام (١/٣٣٧).

(٣) سند الرواية كما قال د. عبد العزيز العمري: متصل ورجاله ثقات وهو مرسل (المغازي لابن أبي شيبة ص ١١٤-١١٥).

أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٧﴾ [الفرقان: ٧ - ٩]، وقولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿١٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ تَحْتِهَا عَيْنٌ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿١١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالِلِهِ وَالْمَلَكِ قَبِيلًا ﴿١٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُرْحٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزُوقِكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٣﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

وهل كان ينقص قريش المعجزات والقرآن الكريم المعجزة الخالدة، ينزل عليهم صباح مساء، وهو بلغتهم وتحداهم الله بعشر سور مثله، بل بسورة؟ ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْحِجْنُ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ [الإسراء: ٨٨].

٩ - المساومات والترغيب:

سلكت قريش أسلوب الشدة والترهيب، فثبت النبي ﷺ والمؤمنون معه، ففكرت في أسلوب الملاينة والملاطفة، وهي تظن أن محمداً ﷺ صاحب مبدأ دنيوي، يمكن أن يؤتى من خلاله، فعمدت إلى أسلوب الترغيب والمساومات الباطلة.

عرضوا عليه المال والجاه والملك وقالوا: إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مآلاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مآلاً، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان الذي يأتيك ريثاً تراه طلبنا لك الطب، فلما فرغوا تلا عليهم رسول الله ﷺ صدر سورة (فصلت) إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ [فصلت: ١٣]، فلما جاء بها مندوبهم (عتبة بن ربيعة) اقترح على قريش أن تدع محمداً وشأنه، فكلامه الذي سمعه (القرآن) ليس بشعر ولا بسحر ولا كهانة^(١).

(١) انظر السيرة لابن هشام (١/٣٦٢-٣٦٤) وقال عنه الألباني: إسناده حسن مرسل (فقه السيرة للغزالي وتعليق الألباني ص ١١٣).

حاولت قريش أن يلتقي محمد ﷺ معها في منتصف الطريق، وعرضوا عليه أن يتركوا بعض ما هم عليه، مقابل أن يترك هو بعض ما هو عليه، ونزل قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

وعرضوا عليه أن يعبد آلهتهم يوماً، ويعبدوا إلهه يوماً؟ فأنزل الله سورة الكافرون: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۝ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ - ٦] (١).

وبقي الإسلام الحق، وزهق الباطل، وبقدر ما كان يعلو أمر محمد ﷺ كان العد التنازلي للوثنية وسدنتها.

١٠ - محاولة قتل النبي ﷺ:

تجاوزت قريش في عدوانها فحاولت قتل نبي الرحمة ﷺ خنقاً، وهذا من أشد ما صنعه المشركون به بمكة، فقد سأل عروة بن الزبير عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أشد ما صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال: بينما النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ وهو يقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم (٢).

وعن ابن عباس قال: اجتمع الملاء من قريش في الحجر، وتعاهدوا بالملات والعزى، ومائة الثالثة الأخرى، ونائلة وإساف، لو قد رأينا محمداً لقد قمنا إليه قيام

(١) هناك من يرى عدم صحة عرض قريش على النبي ﷺ أن يعبد آلهتهم يوماً ويعبدوا إلهه يوماً، لكن الآيات واضحة في نهى النبي ﷺ عن ذلك.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٤/١٩٧، ٢٤٠).

رجل واحد، فلم يفارقه حتى نقتله، فلما أخبرته فاطمة رضي الله عنها بذلك قال: يا بنية أريني وضوءاً، فتوضأ ثم دخل المسجد عليهم، فلما رأوه قالوا: ها هو ذا، وخفضوا أبصارهم، وسقطت أذقانهم في صدورهم، وعقروا في مجالسهم، ثم أقبل رسول الله ﷺ وأخذ قبضة من تراب وقام على رؤوسهم وقال: شأنت الوجوه، ثم حصبهم بها، فما أصاب رجلاً منهم من ذلك الحصى حصة إلا قُتل يوم بدر كافراً^(١).

وقد ختم المشركون هذه المحاولات البائسة لقتل النبي ﷺ بالمكر به والاجتماع على قتله أو إخراجة أو تقييده بمكة ومنعه من الخروج - في أواخر المرحلة المكية - حين أراد الهجرة إلى المدينة، وعلموا أنه أصبح له أنصار ومنعة بالمدينة، وخافوا خروج النبي ﷺ إليهم، فاجتمعوا في دار الندوة وتشاوروا، ثم انتهوا إلى أن يقتلوه بأسياف قبائل قريش كلها - حتى يضيع دمه في القبائل - حتى أتى جبريل بالخبر للنبي ﷺ وأمره ألا يبيت في فراشه، ومنع الله نبيه ﷺ منهم، وأبطل مكرهم وأنزل بمكرهم قرآناً يتلى إلى يوم القيامة ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ﴾ [الأنفال: ٣٠]^(٢).



(١) رواه أحمد في المسند (٣٠٣/١، ٣٦٨)، وابن حبان في صحيحه: الموارد (١٦٩١)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٨/٨)، وقال: رواه أحمد بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح، وصححه أحمد شاكر برقم (٢٧٦٢)، وصححه إبراهيم العلي في صحيح السيرة النبوية (ص ٦٩-٧٠)، ورواه الحاكم في المستدرک (١٥٧/٣) وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٢٢٧/١)، ووثق إسناد الرواية د. السعود في رسالة الهجرة ص (١١٨) كما ذكر القصة عبد الرزاق في مصنفه (٣٨٩/٥)، وأحمد في مسنده (٣٤٨/١)، وحسن إسنادها ابن كثير في سيرته (٢٣٩/٢).

الهجرة إلى الحبشة

تقع الحبشة في الضفة الغربية للبحر الأحمر مقابل بلاد اليمن، وتعرف اليوم بإثيوبيا، وهي في إفريقيا^(١).

وكان الأحباش يدينون بالنصرانية، ويعبدون المسيح عليه السلام^(٢)، وتشمل النصرانية في بلاد الحبشة الحاكم والمحكوم^(٣).

كانت هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة في رجب من السنة الخامسة للبعثة كما يراه الواقدي^(٤)، ونسب ابن حجر هذا القول إلى أهل السير^(٥)، ونقل عن موسى بن عقبة وابن إسحاق أن الهجرة للحبشة متقدمة على حصار الشعب^(٦).

أما بواعث الهجرة وأسبابها فمن ذلك:

١ - الجهر بالدعوة وكثرة المسلمين:

حين صدع رسول الله ﷺ بما أمر به، أسمع من لم يكن سمع نداء الحق من قبل، واستجاب للدعوة أعداد من أهل مكة، وتحدث الناس بالإسلام، فأغضب ذلك قريشًا وثاروا على من آمن، وفي هذا يقول الزهري: فلما كثر المسلمون وظهر الإيمان

(١) انظر: ابن حزم: جوامع السيرة (ص ٥٥)، وابن حجر: الفتح (٧/ ١٩٠)، ومحمد شراب: المعالم

الأثيرة في السنة والسيرة (ص ٩٦).

(٢) السهيلي: الروض الأنف (٣/ ٢٥٥).

(٣) ابن تيمية: الجواب الصحيح (١/ ٧٨).

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى (١/ ٢٠٤).

(٥) ابن حجر: الفتح (٧/ ١٨٨).

(٦) الفتح (٧/ ١٩٢).

فُتَحَّتْ به، ثار المشركون من كفار قريش بمن آمن من قبائلهم يعذبونهم ويسجنونهم، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال للذين آمنوا به: تفرقوا في الأرض، قالوا: فأين نذهب يا رسول الله؟ قال: ها هنا، وأشار إلى أرض الحبشة^(١).

لقد غاظ كفار قريش كثرة المسلمين وازدياد أعدادهم، فتآمرت بالمكر بالمسلمين كما يقول موسى بن عقبة^(٢)، وكانت تخشى على من لم يسلم بعد أن يلحق بقافلة المؤمنين، وإذا كان عمر ﷺ وهو لم يسلم بعد قد بدا تأثره حين رأى المسلمين يتخففون للهجرة^(٣)، فغير عمر بالتأثر أولى.

ويربط ابن حزم بين كثرة المسلمين وشدة العذاب والبلاء على المؤمنين ويجعلهما سبباً للهجرة إلى الحبشة^(٤).

٢ - شدة أذى المشركين للمسلمين في مكة وتوافر الأمن لهم في الحبشة:

ضاقَت مكة بالمؤمنين وأذى المشركون المسلمين ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج: ٨] وكانت الهجرة للحبشة مخرجاً ومتنفساً.

تقول أم سلمة رضي الله عنها وهي إحدى المهاجرات للحبشة: لما ضاقت علينا مكة وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم قال لهم: إن بأرض الحبشة ملكاً

(١) المغازي النبوية للزهري، تحقيق: سهيل زكار (ص ٩٦)، وطبقات ابن سعد (١/٢٠٣).

(٢) البيهقي: دلائل النبوة (٢/٢٨٥).

(٣) انظر: رواية تأثر عمر ابن هشام (١/٣٦٥)، وأحمد في فضائل الصحابة (١/٢٧٩)، وحسن المحقق سننها والطبراني كما نقل الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٢٤)، وقال: رواه الطبراني وصرح ابن إسحاق بالسمع فهو صحيح.

(٤) جوامع السيرة (ص ٥٥).

لا يُظلم أحدٌ عنده فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه^(١).
 إن قريشاً لم تستثنِ أحدًا من الأذى والمطاردة، ولم يسلم الأكاابر في مجتمع مكة
 أمثال أبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي همَّ بالهجرة للحبشة، بل بلغ برك الغماد^(٢)، وهناك
 لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ قال: أخرجني قومي فأنا
 أريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي، فقال ابن الدغنة: إن مثلك لا يخرج ولا يُخرج،
 ثم أجاره^(٣).

٣ - خشية الفتنة في الدين:

لم تكن الهجرة لمجرد الأذى، بل أضيف إليها خشية المؤمنين من الافتتان في
 دينهم وهو أعلى ما يملكون، يقول ابن إسحاق: فخرج المسلمون إلى أرض الحبشة
 مخافة الفتنة في الدين وفراراً إلى الله بدينهم^(٤).

وفي الحوار الذي جرى بين مصعب بن عمير رضي الله عنه وبين أمه وهي تلومه وتقول له: ما
 شكرت ما رثيتك^(٥)، مرّة بأرض الحبشة ومرّة بيشرب، أجابها بالقول: أفرُّ بديني أن تفتنوني^(٦).

(١) انظر: السيرة لابن هشام (١/٣٩٧)، وقد رواه ابن إسحاق معلقاً، ونقله الذهبي في السيرة من رواية
 يحيى بن أبي طالب عن بشار عن عبد الله بن إدريس، ثنا ابن إسحاق بسنده إلى أم سلمة، وهذا سند
 صحيح كما قال محقق سيرة ابن هشام، وانظر: السيرة لابن كثير (٢/١٧)، والهجرة الأولى في
 الإسلام د. سليمان بن حمد العودة (ص ٢٠ - ٢١).

(٢) موضع وراء مكة بخمس ليالٍ مما يلي البحر، وقيل بلد في اليمن. معجم البلدان (١/٣٩٩)، النهاية
 في غريب الحديث والأثر (١/١٢١). وفي معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية: لعاقق
 البلادي (ص ٤٢) (وهو اليوم معروف بهذا الاسم (يعني برك) بلدة مرفأً على الساحل جنوب مكة
 على قرابة ٦٠٠ كيل).

(٣) البخاري (٣٩٠٥)، الصحيح مع الفتح (٧/٢٣٠ - ٢٣١).

(٤) السيرة لابن هشام (١/٣٩٨).

(٥) يعني: توجعي وإشفاقي عليك، ينظر: ابن الأثير: النهاية (٢/١٩٦).

(٦) الطبقات لابن سعد (٣/١١٩).

وفي رواية عروة: وكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله ﷺ من أهل الإسلام، فلما فعل ذلك بهم أمرهم ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة^(١)، وجاء تأكيد خشية الفتنة في الدين للمهاجرين للحبشة عند الزهري^(٢)، وابن إسحاق^(٣)، وابن حزم^(٤)، والبيهقي^(٥).

٤ - نشر الإسلام ونقل الدعوة:

ومع كل ما سبق فلا شك أن الإسلام ليس لأهل مكة وحدهم، وإذا انغلقت قلوب أقوام عن الدعوة إلى الله في بلد فقد يفتح الله قلوب آخرين.

والمتمثل في مجريات أحداث الهجرة إلى الحبشة يرى أن المهاجرين كانوا يتحدثون عن الإسلام منذ وطئت أقدامهم أرض الحبشة، ولم يقصروا الدعوة على عوام الأحباش، بل ركزوا على نجاشي الحبشة، فدعوه للإسلام وتلوا عليه القرآن، وحاوروه بشأن عيسى عليه السلام.

وفي رواية أم سلمة رضي الله عنها (الطويلة) ذكر لهذا الحوار والدعوة، حتى إذا قرأ جعفر عليه السلام على النجاشي وبطارقته صدرًا من سورة (مريم) بكى النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، وقال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، ثم آمنهم بل وآمن بدعوتهم^(٦).

(١) الطبري (٢/٣٢٨).

(٢) المغازي النبوية (ص ٩٦).

(٣) انظر: سيرة ابن إسحاق، تحقيق: حميد الله (ص ١٥٤).

(٤) جوامع السيرة (ص ٥٥).

(٥) دلائل النبوة (٢/٢٨٥ - ٢٨٦).

(٦) انظر الرواية عند ابن إسحاق بسنده، قال حدثني الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن المخزومي عن أم سلمة رضي الله عنهما، السيرة لابن هشام (١/٤١٣ - ٤١٦)، والرواية أخرجهما أحمد في المسند (١/٢٠١ - ٢٠٣) وغيرهم، فالرواية صحيحة الإسناد.

لقد كان إسلام النجاشي ﷺ مكسبًا عظيمًا للإسلام، ومؤشرًا كبيرًا للدعوة في أرض الأحباش - وسيأتي لذلك مزيد بيان -.

لماذا الحبشة؟

لماذا اختار النبي ﷺ أرض الحبشة للهجرة؟ ألم يكن في أرض العرب ما هو أقرب وأنسب؟ المتأمل في سياقات الهجرة إلى الحبشة يرصد أكثر من سبب يمكن أن يُفسَّر اختيار الحبشة مكانًا للهجرة:

(١) فملكها النجاشي رجل عادل لا يُظلم عنده أحد، والمهاجرون بأشد الحاجة إلى عادل يقف أمام ظلم قريش ويحمي المهاجرين من طغيانها، وقد أكد النبي ﷺ عدل النجاشي بقوله: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكًا لا يُظلم عنده أحد^(١).

ويشير بعض المصادر إلى أن عدل النجاشي بلغ حدًا تحتكم إليه قريش في خصومة زعمائها^(٢).

لقد عبّرت أم سلمة رضي الله عنها عن عدل النجاشي بقولها: وجاورنا فيها خير جار (النجاشي) ولم نخش فيها (يعني الحبشة) ظلمًا^(٣).

(١) رواه ابن إسحاق في السيرة معلقًا (ابن هشام ١/٣٩٧)، وموسى بن عقبة، البيهقي الدلائل (٢/٢٨٥)، ولم يُسمَّ موسى من حدّته، وذكره الذهبي في السيرة (ص ١١٠)، وهو حديث حسن كما قال سليمان السعود في أحاديث الهجر (ص ٩ - ١٠) وسند الذهبي صحيح كما قال محققا سيرة ابن هشام د. همام، وأبو صعيلىك (١/٣٩٧) هامش (ج).

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف (١/٧٣).

(٣) انظر: صحيح السيرة النبوية: محمد بن طرهوني (٢/٢١٩).

(ب) ومع عدل النجاشي فهو رجل صالح، وقد شهد له النبي ﷺ بذلك كما في رواية الصحيح^(١)، بل كان صلاح النجاشي مشهوراً (يشنى عليه بذلك)، أي يشاع ذلك عنه كما في رواية عروة عند الطبري^(٢).

وأكدت الأحداث الجارية بعدُ في أرض الحبشة صلاح النجاشي، فهو يتأثر لسماع القرآن، ويستمتع لحوار المهاجرين ويواسيهم، وجاء إسلامه بعدُ، وصلاة النبي ﷺ عليه في المدينة صلاة الغائب برهان على استمراره في الصلاح حتى لقي ربه، وحينها قال ﷺ: (قد توفي اليوم رجل صالح من الحبش فهلّموا فصلوا عليه)^(٣).

(ت) وتعدُّ الحبشة متجراً لقريش، وتربطها بمكة علاقات تجارية، وأرضها بهذا الاعتبار ليست غريبة على المهاجرين من مكة.

يقول الطبري: وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش يتجرون فيها، يجدون فيها رفاعاً من الرزق، وأمنًا ومتجراً حسناً^(٤).

وإذا كان عمرو بن العاص (مبعوث قريش إلى النجاشي بشأن المهاجرين) صديقاً للنجاشي - كما تصفه رواية ابن إسحاق^(٥) - فما الذي يمنع أن يكون بعض المهاجرين على معرفة بالنجاشي على الأقل، لا سيما وفيهم من كان يعمل بالتجارة أمثال عثمان بن عفان والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف ﷺ؟

(١) البخاري حديث رقم (٣٨٧٧).

(٢) الطبري (٢/٣٢٨).

(٣) صحيح البخاري حديث رقم (١٣٢٠)، (٣٨٧٧)، ومسلم ح (٩٥٢).

(٤) الطبري (٢/٣٢٨).

(٥) انظر: السيرة لابن هشام (٣/٣٨٥)، وفيها قال النجاشي لعمر: مرحباً بصديقي.

ث) وأخيراً فالحبشة والأحباش ليسوا تحت ولاية قريش، وديانتهم (النصرانية) تختلف عن ديانة قريش (الوثنية)، والنصرانية في تلك المدّة أقرب إلى الإسلام؛ لأن أصحابها أهل كتاب ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وما داموا أهل كتاب، وقد بشر عيسى بمحمد ﷺ ويجدون ذلك في كتبهم، فلا شك أن استعدادهم للإجابة وتفهمهم للإسلام سيكون أقرب من غيرهم، وهذا ما حصل فعلاً، وكان اختيار محمد ﷺ للحبشة في مكانه، وكان النجاشي عند حسن ظنّ النبي ﷺ به، ولعل هذا كله يفسر لنا محبة النبي ﷺ للحبشة، ففي حديث الزهري أن الحبشة كانت أحبّ الأرض إلى رسول الله ﷺ أن يهاجر إليها^(١)، بل يفهم من خلال الحوار بين النجاشي وجعفر أن المذهب النصراني الذي كان عليه النجاشي أقرب إلى الإسلام من غيره من المذاهب النصرانية، حيث ظهر أنه لا يقول بالوهية المسيح.



(١) انظر: مغازي الزهري (ص ٩٦).

المسلمون في الحبشة

خرج المهاجرون إلى أرض الحبشة متسللين سرًا من قومهم، ووصلوا الحبشة راكبين البحر، واستقبلهم النجاشي، وأكرم جوارهم، وأمنوا على أنفسهم وعبدوا ربهم براحة وطمأنينة، وسلموا من أذى قريش وفتنتها، وإن كان ألم الغربة وبعد المشقة عن النبي ﷺ وأهلهم يُقلقهم، لكن عدل النجاشي والفرار بالدين والهجرة إلى الله، خففت عنهم الأعباء.

ولقد كانت هجرة الحبشة أول هجرة إلى الله، وعُدّت من مناقب من هاجر، فكان يُقال لعثمان رضي الله عنه: (وهاجرت الهجرتين)^(١).

وقال رضي الله عنه: إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط^(٢).



(١) البخاري حديث رقم (٣٨٧٢). انظر: الفتح (٧/١٨٧).

(٢) الفسوي: المعرفة والتاريخ (٣/٢٥٥)، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه يعقوب بن سفيان بسند موصل إلى أنس، الفتح: (٧/١٨٨).

عدد المهاجرين ومقامهم بأرض الحبشة

تؤكد المصادر وجود هجرتين للحبشة، أولى وثانية.

وكان عدد المهاجرين في الهجرة الأولى أحد عشر رجلاً، وأربع نسوة، وهذا عن ابن سعد^(١)، وذكره عروة بن الزبير^(٢)، وذكر ابن سعد في رواية أخرى أسماء اثني عشر رجلاً وأربع نسوة^(٣)، واختاره ابن القيم^(٤)، ووافقه في ذلك ابن سيد الناس وزاد امرأة خامسة أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو (زوجة أبي سبرة)^(٥).

أما ابن إسحاق فيرى أنهم كانوا عشرة من الرجال وأربع نسوة، إذ هو يسقط عبد الله بن مسعود من قائمة المهاجرين في الهجرة الأولى، وذكر (حاطبًا) بالشك^(٦)، ووافقه الذهبي ولكنه ذكر أبا سبرة ولم يذكر أبا حاطب أو حاطبًا، ولم يذكر ابن مسعود^(٧).

وتتفق روايات عروة، وابن إسحاق، والواقدي على عشرة من الرجال هم وقبائلهم كالآتي:

(١) عثمان بن عفان رضي الله عنه (من بني أمية).

(١) الطبقات الكبرى (١/٢٠٤).

(٢) مغازي عروة (ص ١٠٥).

(٣) الطبقات (١/٢٠٤).

(٤) زاد المعاد (٣/٢٣).

(٥) عيون الأثر (١/١٥٥).

(٦) ابن هشام (١/٣٩٨ - ٣٩٩)، والسير والمغازي (ص ٢٢٣ - ٢٢٤).

(٧) السيرة النبوية للذهبي (ص ١١١).

- (٢) أبو حذيفة بن عتبة رضي الله عنه (من بني عبد شمس).
- (٣) الزبير بن العوام رضي الله عنه (من بني أسد).
- (٤) مصعب بن عمير رضي الله عنه (من بني عبد الدار).
- (٥) عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه (من بني زهرة).
- (٦) أبو سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنه (من بني مخزوم).
- (٧) عثمان بن مضعون رضي الله عنه (من بني مخزوم جمع بن عمرو).
- (٨) عامر بن ربيعة رضي الله عنه (من بني عدي حليف).

(٩) أبو سبرة بن رهم رضي الله عنه (من بني عامر بن لؤي).

(١٠) سهيل بن بيضاء رضي الله عنه (من بني الحارث بن فهر).

وتتفق هذه المصادر كذلك على ثلاث من النساء هن:

- (١) رقية بنت محمد رضي الله عنه زوج عثمان رضي الله عنهما.
- (٢) أم سلمة رضي الله عنها بنت أمية بن المغيرة، زوج أبي سلمة رضي الله عنه.
- (٣) سهيلة بنت سهيل بن عمرو زوج أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة ^(١) رضي الله عنهما.

ويضيف ابن إسحاق والواقدي إلى قائمة هؤلاء النسوة:

- (٤) ليلى بنت أبي حثمة، زوج عامر بن ربيعة ^(٢).

(١) مغازي عروة (ص ١٠٥)، السيرة لابن هشام (٣٩٨/١)، الطبقات الكبرى (٢٠٤/١).

(٢) انظر: السيرة لابن هشام (٣٩٨ - ٣٩٩)، طبقات ابن سعد (٢٠٤/١).

كما يضيف ابن سيد الناس أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو وأخت (سهيلة)^(١) زوجة أبي سبرة.

إن ما يلفت النظر في هذه الأسماء أنها تنتمي إلى عدد من قبائل قريش، ذات شأن وثقل، وهذا يؤكد أولاً شمول أذى قريش لكل أفراد القبائل، ويؤكد ثانياً أن الذين قام عليهم بناء الإسلام في مكة لم يكونوا من الضعفاء والموالي، بل كان عدد كبير منهم من ذوي الشرف وعلو النسب، ولا يُلغى ذلك قدم إسلام بعض الموالي وتعذيبهم، لكننا لا نجد في قائمة مهاجري الهجرة الأولى أحداً من الموالي والمستضعفين.



(١) عيون الأثر (١/١١٥).

الهجرة الأولى إلى الحبشة

لقد كان خروج أصحاب الهجرة الأولى من مكة إلى الحبشة سرًا متسللين، حتى انتهوا إلى الشعبية^(١)، منهم الراكب والماشي، حتى سخر الله لهم سفيتين جاؤوا للتجار حملوهم فيهما إلى أرض الحبشة بنصف دينار^(٢).

وحين وصل المهاجرون إلى أرض الحبشة واستقروا بها بقوا فترة انقطعت فيها أخبارهم عن النبي ﷺ، وكان قلقًا لا يدري كيف حالهم، ويتطلع بشوق إلى أخبارهم، حتى قدمت امرأة من قريش فقالت: يا محمد قد رأيت ختنك ومعه امرأته، فقال: على أي حال رأيتهما؟ قالت: رأيته قد حمل امرأته على حمار من هذه الدبابة وهو يسوقها، فقال رسول الله ﷺ: صحبهما الله، إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط^(٣).

ومن المؤكد أن المهاجرين لقوا بالحبشة أمنًا وعدلاً مكنهم من عبادة ربهم، وإن كان ألم الغربة وبعد المشقة عن النبي ﷺ وعن بلادهم مقلقًا لهم، لكن الفرار بالدين والهجرة إلى الله والطاعة لرسول الله ﷺ، كل ذلك يخفف من عنائهم ويصبرهم.

ومع ذلك فلم تطل إقامة المهاجرين بالحبشة فعادوا إلى مكة بعد مدة وجيزة، قال عنها الواقدي: خرجوا في رجب سنة خمس فأقاموا شعبان ورمضان، وكانت

(١) الشعبية قال ياقوت: مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز، وهو كان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة، وقيل قرية على شاطئ البحر على طريق اليمن (معجم البلدان ٣/ ٣٥١) وهي اليوم جنوب جدة على مسافة حوالي ثمانية وستين كيلاً (شراب: المعالم الأثرية في السنة والسيرة (ص ١٥١)).

(٢) الطبقات الكبرى (١/ ٢٠٤)، وإن كان في الإسناد علل. د. مهدي رزق الله: السيرة في ضوء المصادر الأصلية

(٣) انظر: المعرفة والتاريخ للفسوي (٣/ ٢٥٥)، وقال ابن حجر: أن سنده متصل إلى أنس الفتح (١٨٨/٧).

السجدة في رمضان، وقدموا في شوال^(١)، وهذا يعني أنهم مكثوا ما بين شهرين إلى ثلاثة أشهر، ويعني كذلك أن سبب عودتهم سجدوا المشركين بمكة مع النبي ﷺ في رأي الواقدي، وعبر عنه ابن إسحاق: بإسلام أهل مكة^(٢)، ويرى ابن سيد الناس أن العودة إلى مكة شملت المهاجرين الأولين (الاثني عشر رجلاً ومن ذكر معهم من النساء)^(٣).

وأيًا ما كان سبب عودة المهاجرين الأول إلى مكة، فالمصادر تشير إلى أنهم حين اقتربوا بلغهم أن الخبر بإسلام أهل مكة كاذب، ففكر بعضهم بالعودة للحبشة قبل دخول مكة، ورأى آخرون أن يدخلوا مكة ويسمعوا الخبر فلم يدخل أحد منهم إلا بجوارٍ أو مستخفياً^(٤).



(١) الطبقات الكبرى (١/٢٠٦)، وهنا يحسن الإشارة إلى قصة مختلفة تسمى (قصة الغرانيق) وخلاصتها: إثناء النبي ﷺ على آلهة قريش وقوله عنها: (تلك الغرانيق العلى وأن شفاعتهن لترتجى) فأعجب ذلك المشركين فسجدوا معه، ولئن صح سجدوا المشركين مع النبي ﷺ فلا يصح لهذا السبب. (انظر تفصيل ومناقشة الألباني نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق هذه القصة: الشفا للقاضي عياض (٢/٧٥٠)، وللمزيد يمكن مراجعة د. سليمان بن حمد العودة: السيرة النبوية في الصحيحين (ص ٢٨٥ - ٢٩٦)، والهجرة الأولى في الإسلام (ص ١٢١ - ١٢٣).

(٢) ابن هشام السيرة (٢/٥).

(٣) عيون الأثر (١/١٢٠).

(٤) ابن هشام: السيرة (٢/٥)، ابن سعد: الطبقات (١/٢٠٦).

الهجرة الثانية إلى الحبشة

تختلف الهجرة الثانية للحبشة عن الهجرة الأولى في سببها، وفي عدد المهاجرين، وشدة الأمر على المسلمين المهاجرين، فعن سبب الهجرة الثانية نقل ابن سعد أن أصحاب رسول الله ﷺ حين قدموا مكة من الهجرة الأولى اشتد عليهم قومهم وسطت عليهم عشائرتهم ولقوا منهم أذى شديداً، فأذن لهم رسول الله ﷺ في الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية^(١).

ويصف الواقدي شدتها على المهاجرين، ويقول: فكانت خرجتهم الآخرة أعظمها مشقة ولقوا من قريش تعنيفاً شديداً، ونالوهم من الأذى^(٢).

أما عن عدد المهاجرين للحبشة (في الهجرة الثانية) فقد سماهم ابن إسحاق وأحصاهم، وذكر من صحبهم، ومن ولد معهم في أرض الحبشة وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب ﷺ، ثم قال ابن إسحاق -بعد سرده أسماء المهاجرين-: فكان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغاراً وولدوا بها: ثلاثة وثمانين رجلاً، إن كان عمار بن ياسر فيهم، وهو يشك فيه^(٣).

ويتفق الواقدي مع ابن إسحاق على الرقم (٣٨) ويقول: وكان عدة من خرج في هذه الهجرة من الرجال ثلاثة وثمانين رجلاً.

(١) ابن سعد: الطبقات (١/٢٠٧).

(٢) المصدر السابق (١/٢٠٧).

(٣) السيرة لابن هشام (١/٤٠٨).



ويضيف: ومن النساء إحدى عشرة امرأة قرشية، وسبع غرائب^(١).

فمجموع النساء عند الواقدي: ثماني عشرة امرأة (ولم يسمهن)، أما عدة النساء اللاتي ذكرهن ابن إسحاق وسمّاهن: سبع عشرة امرأة.

ويزيدنا ابن سعد تفصيلاً عن من بقي بأرض الحبشة أو رجع إلى مكة ومتى رجعوا فيقول: فأقام المهاجرون بأرض الحبشة عند النجاشي بأحسن جوار، فلما سمعوا بمهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلاً، ومن النساء ثماني نسوة، فمات رجلان منهم بمكة، وحبس بمكة سبعة نفر، وشهد بدرًا منهم أربعة وعشرون رجلاً^(٢).

ويضيف الواقدي: أن رسول الله ﷺ كتب إلى النجاشي في السنة السابعة في شهر ربيع الأول أن يزوجه بأمة حبيبة بنت أبي سفيان، حيث تنصر زوجها (عبيد الله بن جحش) وتوفي هناك، وأن يبعث إليه من بقي عنده من أصحابه ويحملهم، ففعل وحملهم في سفينتين مع عمرو بن أمية الضمري (مبعوث النبي ﷺ للنجاشي)، فأرسوا بهم إلى ساحل (بولا) وهو (الجار)^(٣)، ثم تكاروا الظهر حتى قدموا المدينة، فيجدون رسول الله ﷺ بخير وقد فتحها، فكلم رسول الله ﷺ المسلمين أن يدخلوهم في سهمانهم ففعلوا^(٤).

على أن الحديث عن هجرة الحبشة لا يكتمل حتى تُعلم نهاية هذا الرجل الصالح (النجاشي)، فقد بلغ النبي ﷺ موته ونعاه لأصحابه وصلى عليه وأثنى وقال: (مات

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى (١/٢٠٧).

(٢) ابن سعد: الطبقات (١/٢٠٧).

(٣) ويضيف حمد الجاسر (الجار) كان ميناء المدينة ويُعرف موقعه الآن باسم (الرايس) غرب بلدة (بدر) الواقعة في طريق المدينة إلى مكة (المناسك ص ٤١٣).

(٤) الطبقات (١/٢٠٧-٢٠٨).

اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على أئكم أصحمة^(١).



(١) رواه البخاري ح (٣٨٧٧) ويرى ابن كثير موته بعد خبير لشهود أبي هريرة الصلاة عليه (البداية والنهاية ٤/١٩٣)، ومسلم ح (٩٥٢).



نتائج هجرتي الحبشة وآثارهما

لا شك أن الهجرة للحبشة خلفت آثارًا إيجابية للمسلمين، حيث عبدوا ربهم هناك بأمن وسلام، وامتد رواق الإسلام وأثبت عالميته وتجاوزت رحمة رسالة محمد ﷺ مكة للعالمين خارج مكة ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وكان من أعظم المكاسب إسلام النجاشي ومن تبعه من الأحباش، قال ابن حجر: فأسلم النجاشي ومن تبعه على يدي جعفر^(١)، ثم كانت الحبشة بعدُ أحد معابر الفتح الإسلامي إلى إفريقيا، وستظل هجرة المسلمين للحبشة تُذكر الأجيال المسلمة بقيمة الإيمان والثبات على الحق، والهجرة عن الأهل والوطن في سبيل الله، كما تُذكر بقيمة الصبر، وفضل الدعوة إلى الإسلام في كل الأحوال والظروف، وأن العاقبة للتقوى، والنصر للمؤمنين، وعلى هذا المعنى يُحمل حديث معاوية ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها)^(٢).



(١) الإصابة: (٦٨/٢).

(٢) رواه أبو داود ح (٢٤٧٩)، وأحمد ح (١٦٧١)، والدارمي ح (٢٥٥٥) وإسناده حسن.

إسلام حمزة رضي الله عنه

هناك اختلاف في سنة إسلام حمزة، فابن عبد البر قال: أسلم حمزة في السنة الثانية من المبعث، وقيل بل كان إسلامه في السنة السادسة من مبعثه ﷺ (١)، وابن الأثير وابن حجر يرون إسلامه في السنة الثانية للمبعث (٢)، وعند ابن سعد أن إسلامه كان في السنة السادسة من النبوة (٣)، وكذلك أرخه محمد طرهوني (٤).

وهذا يعني أن حمزة أسلم في ذروة محاصرة قريش وإيذائها المؤمنين، وفي مثل تلك الأجواء المشحونة بالسباب والسخرية والإيذاء والمحاصرة شاء الله أن يسلم حمزة.

ومن أقوى المرويات إسنادًا في إسلام حمزة روايتان رواهما الطبراني:

إحدهما: عن محمد بن كعب القرظي قال: كان إسلام حمزة رضي الله عنه حمية، وكان يخرج من الحرم فيصطاد، فإذا رجع مرّ بمجلس قريش وكانوا يجلسون عند الصفا والمروة فيمرّ بهم فيقول: رميت كذا وكذا وصنعت كذا وكذا ثم ينطلق إلى منزله، فأقبل من رميه ذات يوم فلقيته امرأة فقالت: يا أبا عمار، ماذا لقي ابن أخيك من أبي جهل بن هشام! شتمه وتناوله وفعل وفعل، فقال: هل رآه أحد، قالت: إي والله، لقد رآه ناس. فأقبل حتى انتهى إلى ذلك المجلس عند الصفا والمروة فإذا هم جلوس وأبو جهل فيهم، فاتكأ على قوسه، وقال: رميت كذا وكذا وفعلت كذا وكذا، ثم جمع

(١) الاستيعاب بهامش الإصابة (٧٠/٣).

(٢) أسد الغابة (٥١/٢)، الإصابة (٢٨٦/٢).

(٣) الطبقات: (٩/٣).

(٤) صحيح السيرة (١٤٢/٢).

يديه بالقوس فضر بها بين أذني أبي جهل فدق سنتها، ثم قال: خذها بالقوس وأخرى بالسيف، أشهد أنه رسول الله ﷺ وأنه جاء بالحق من عند الله، قالوا: يا أبا عمارة، إنه سب آل هنتا، وإن كنت أنت وأنت أفضل منه ما أقررتناك وذاك وما كنت يا أبا عمارة فاحشاً^(١).

والرواية الأخرى: عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس بن شريق... وهي قريبة من سياق سابقتها، وفي آخرها بيان لأثر إسلام حمزة، فقد جاء فيها: فلما أسلم حمزة عزَّبه رسول الله ﷺ والمسلمون، وثبت لهم بعض أمرهم، وهابت قريش وعلموا أن حمزة سيمنعه^(٢).

أما الرواية المشهورة عند ابن إسحاق في إسلام حمزة فهي وإن اختلفت في بعض ألفاظها عن روايتي الطبراني فمعناها متقارب، لكن إسنادها فيه مقال^(٣).

العبرة في إسلام حمزة:

وحين نقبل تعاضد هذه المرويات وتعدد طرقها في إسلام حمزة، ونلتمس الدروس والعبر، فلا شك أن الأزمات انفرجت عن مخارج، ومن رحم المحن تولد المنح، وإسلام حمزة كان في قمة الأزمة كما مرَّ، هذا أمر، وأمر آخر وهو أثر إسلام أصحاب الشجاعة والشهامة، فلم يكن إسلام حمزة كإسلام غيره، بل عزَّ المسلمون به، وتراجعت قريش عن بعض ما كانت تصنع برسول الله ﷺ والمسلمين.

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير ح(٢٩٢٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦٧/٩): رواه الطبراني مرسلًا، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير ح(٢٩٢٦) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦٧/٩): رواه الطبراني مرسلًا، ورجاله ثقات.

(٣) قال ابن إسحاق: حدثني رجل من أسلم كان واعية (السيرة لابن هشام ١/٣٦٠) ففي إسنادها انقطاع وجهالة، ورواها ابن سعد في الطبقات ٩/٣ من طريق الواقدي وهو ضعيف.

وهذا كذلك مؤشر لأهمية دعوة الأكاير وذوي المكانة في مجتمعاتهم، وسيأتي مزيد بيان لذلك في إسلام عمر ؓ.





إسلام عمر رضي الله عنه

متى أسلم عمر؟

فهم ابن كثير من رواية ساقها ابن إسحاق أن إسلام عمر كان بعد البعثة بنحو تسع سنين^(١).

وفهم ابن حجر من رواية أخرى أن إسلام عمر كان بعد المبعث بست سنين أو سبع^(٢). وقال ابن إسحاق: كان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة^(٣)، ولم يحدد لذلك زمناً، وقال الصالحي: والصحيح أنه أسلم بعد الهجرة الأولى إلى الحبشة^(٤).

وحدد ابن سعد عن الواقدي على وجه الدقة بالسنة والشهر فقال: وأسلم في ذي الحجة السنة السادسة من النبوة، وهو ابن ست وعشرين سنة^(٥).

وقال الزرقاني: وحكى ابن الجوزي الاتفاق على قول ابن سعد في بعض كتبه، لكنه قال في التلخيص سنة ست، وقيل سنة خمس^(٦)، ويرى أبو نعيم أن إسلام عمر بعد إسلام حمزة بثلاثة أيام، وعلق الزرقاني: وهو موافق لما حكاه ابن سعد^(٧).

(١) السيرة لابن كثير (٣٩/٢).

(٢) الفتح (١٧٨/٧).

(٣) السيرة لابن هشام (٤٢٢/١).

(٤) الصالحي: سبل الهدى والرشاد (٤٢٩/٢).

(٥) الطبقات (٢٦٩/٣ - ٢٧٠).

(٦) شرحه على المواهب (٢٧٢/١).

(٧) شرح المواهب (٢٧٢/١).

كيف أسلم:

وكما تعددت الآراء في زمن إسلام عمر، فقد تعددت الروايات في سبب إسلام عمر وكيفيته، وكان منها الصحيح لكنها تلمح ولا تصرح، ومنها المصرحة لكن في إسنادها مقالاً، وللنموذج الأول ساق البخاري في الصحيح (باب إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه) القصة الآتية:

عن ابن عمر قال: ما سمعت عمر لشيء قط يقول: إني لأظنه كذا إلا كان كما يظن، بينما عمر جالس إذ مرّ به رجل جميل، فقال عمر: لقد أخطأ ظني، أو إن هذا على دينه في الجاهلية، أو لقد كان كاهنهم، عليّ الرجل، فدعي له، فقال له ذلك، فقال: ما رأيت كالיום استقبل به رجل مسلم، قال: فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتني، قال: كنت كاهنهم، قال: فما أعجب ما جاءتك به جنيتك؟ قال: بينما أنا يوماً في السوق جاءتني أعرف فيها الفرع، فقالت: ألم ترّ الجنّ وإبلاسهما، ويأسها من بعد إنكاسها، ولحوقها بالقلاص وإحلاسها! قال عمر: صدق، بينما أنا عند آلهتهم إذ جاء رجل بعجل فذبحه، فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه يقول: يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح، يقول لا إله إلا أنت، فوثب القوم، قلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا، ثم نادى: يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح، يقول لا إله إلا الله، فقامت فما نشبنا أن قيل: هذا نبي^(١).

قال ابن حجر في شرحه لهذا الحديث: لمح المصنف (البخاري) بإيراد هذه القصة في باب إسلام عمر بما جاء عن عائشة وطلحة عن عمر من أن هذه القصة كانت سبب إسلامه، ثم ساق رواية عند أبي نعيم تؤكد ما ذهب إليه^(٢).

(١) كتاب مناقب الأنصار (٤/٢٤٣) ح (٣٨٦٦).

(٢) فتح الباري (٧/١٨١)، وقال أبو نعيم في الدلائل أن أبا جهل جعل لمن يقتل محمداً مائة ناقة، فقال عمر: يا أبا الحكم الضمان صحيح؟ قال: نعم، قال: فتقلدت سيفي أريده، فمررت على عجل =



وفي سبب إسلام عمر يلح البخاري كذلك إلى قصته مع أخته فاطمة وختنه سعيد بن زيد^(١) على أن قصة عمر مع أخته وختنه أخرجها ابن إسحاق بأطول من سياق البخاري، وهي نموذج للنوع الآخر من المرويات (وفي سندها مقال)، وخلاصة الرواية: أن عمر خرج يوماً متوشحاً سيفه يريد شراءً برسول الله ومن آمن معه، فقبل له: أصلح شأن أختك وختنك، فذهب إليهم حيث كانوا يجتمعون مع (خباب)، فلما دخل عليهم تغيب خباب، وغيبت أخته صحيفة كانوا يقرؤونها، ثم بطش بأخته، فأعلنت له إسلامها متحدية، ثم لان ورق حين رأى أنه اشتد، فطلب الصحيفة حتى إذا قرأها تأثر بما فيها من القرآن، وطلب أن يدلوه على مكان محمد ﷺ فذهب إليه حتى إذا لقيه أعلن إسلامه، فكبر رسول الله ﷺ والمسلمون^(٢).

وإن جاز لنا القول إن إسلام عمر جاء نتيجة تأثره بعدد من المواقف والأحداث، فرؤيته للمهاجرين يتخففون ويفرون بدينهم إلى الحبشة رفق لها عمر وتأثر بها، وسماعه لأخبار الكهان - كما في خبر الصوت الخارج - حين ذبح العجل، وتصديق الواقع بخبر نبوة محمد ﷺ - كما في رواية البخاري السابقة - لا شك كان له أثره في إسلام عمر.

وسماعه القرآن من أخته وختنه - كما في رواية ابن إسحاق السابقة - أو سماعه من النبي ﷺ مباشرة حين اختفى بأستار الكعبة في رواية أخرى^(٣).

= وهم يريدون أن يذبحوه، فقلت: انظر إليهم، فإذا ضاح بصيح من جوف العجل: يا آل ذريح، أمر نجيح، رجل يصيح، بلسان فصيح، قال عمر: فقلت في نفسي: إن هذا الأمر ما يراد به إلا أنا فدخلت على أختي فإذا عندها سعيد بن زيد... فذكر القصة في سبب إسلامه بطولها.

(١) كتاب مناقب الأنصار (٤/٢٤٣).

(٢) انظر: السيرة لابن هشام (١/٤٢٣ - ٤٢٧) وهذه الرواية مع شهرتها فقد ضعف إسنادها عدد من المحققين، انظر فضائل الصحابة لأحمد (١/٢٧٩)، والسيرة النبوية: مهدي رزق الله (ص ٢١٤) وإن كان مهدي قال: ولا مانع من قبول الرواية لاستفاضة ذكرها.

(٣) السيرة لابن هشام (١/٤٢٧ - ٤٢٨) وإن كان في الرواية ضعف. انظر تعليق د. همام، وزميله على سيرة ابن هشام (١/٤٢٧).

كل ذلك أثر في شخصية عمر وقاده إلى الإسلام.

وقد صح أن النبي ﷺ دعا لعمر بالإسلام حيث قال: اللَّهُمَّ أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك، بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب، فكان عمر أحبهما إلى الله، وهذه الرواية يمكن أن تكون نموذجًا ثالثًا (صحيحه وصريحة)^(١).

وقد علم الله ما في قلب عمر من الخير، وقضى وقدر بعزته للإسلام، وقد كان، فاستجاب لدعاء نبيه ﷺ فكان الفاروق في طليعة أهل الإيمان وإن تأخر إسلامه عن بعضهم.

أثر إسلام عمر:

من المهم أن نتبين أثر إسلام عمر، فلم يكن إسلامه حدثًا عاديًا.

قال عبد الله بن مسعود: إن إسلام عمر كان فتحًا، وإن هجرته كانت نصرًا، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشًا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه^(٢).

وتؤكد رواية البخاري عزة الإسلام بإسلام عمر، ويقول ابن مسعود: ما زلنا أعزة

(١) الرواية أخرجهما أحمد كما في المسند (٩٥/٢)، الترمذي (٣٦٨١) مناقب عمر، وصحها الألباني كما في صحيح سنن الترمذي (٢٠٤/٣)، وابن ماجه في المقدمة باب فضائل الصحابة رقم (١٠٥)، والبيهقي في الدلائل (٢١٥/٢ - ٢١٦)، الحاكم في المستدرک (٨٣/٣) وصححه وأقره الذهبي، وذكره الحافظ في الفتح وصححه ابن حبان برقم (٦٨٤٢)، إبراهيم العلي في صحيح السيرة النبوية (ص ٧٩).

(٢) ابن هشام السيرة (٤٢٢/١ - ٤٢٣)، وهو من رواية البكائي حدثني مسعر بن كدام، عن سعد بن إبراهيم، عن ابن مسعود، قال الألباني: وإسناده حسن لولا انقطاع بين سعد وابن مسعود (صحيح السيرة النبوية (ص ١٨٨) هامش وهذا الانقطاع وصله الحاكم وقال صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي (المستدرک ٨٣/٣).



منذ أسلم عمر^(١)، ولا شك أن عمر تحمل في سبيل إظهار عزة الإسلام والمسلمين ما تحمل من الأذى، وفي رواية يرويها شاهد عيان (عبد الله بن عمر) رضي الله عنهما ما يجلي هذا البلاء وهذه العزة من عمر، ويقول ابن عمر: لما أسلم عمر قال: أي قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي، فغدا عليه، قال عبد الله: وغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل، وأنا غلام أعقل كل ما رأيت، حتى جاءه فقال له: أعلمت يا جميل أنني أسلمت ودخلت في دين محمد ﷺ، قال: فوالله ما راجعه حتى قام يجزّ رداءه، واتبعه عمر، واتبعته أنا، حتى إذا قام عمر على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش - وهم في أنديةهم حول الكعبة - ألا إن ابن الخطاب قد صبأ، قال: يقول عمر من خلفه: كذب، ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وثاروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، قال: وطلع فقعد، وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا...^(٢).

وهكذا تحدى عمر ﷺ المشركين، وأعز الله به الإسلام والمسلمين، وكان بحق (فاروقاً) فرّق الله به بين الحق والباطل، وخافته شياطين الإنس والجن (وما سلك عمر فجاً إلا سلك الشيطان فجاً آخر)^(٣).



(١) البخاري في كتاب الفضائل، باب مناقب عمر (٤/١٩٩)، وفي كتاب مناقب الأنصار (٤/٢٤٢) باب إسلام عمر.

(٢) الرواية أخرجه ابن إسحاق في السيرة (ص ١٨٤ - ١٨٥)، تحقيق: سهيل زكار، وانظر السيرة لابن هشام (١/٤٢٩)، وأخرجه عبد الله بن أحمد في زيادته على فضائل الصحابة (ص ٣٧٢)، وابن حبان كما في الإحسان رقم (٦٨٤٠)، والحاكم في مستدرکه (٣/٨٥)، وصححه ووافقه الذهبي، وقوى إسناد الرواية ابن كثير (٢/٣٨ - ٣٩)، والهيتمي في مجمع الزوائد (٩/٦٥)، إبراهيم العلي في صحيح السيرة النبوية (ص ٨٠ - ٨١).

(٣) صحيح البخاري ح (٣٦٨٣)، ومسلم ح (٢٣٩٦).

خروج النبي ﷺ وأصحابه من دار الأرقم إلى المسجد الحرام

من الأرقم؟ وأين تكون داره؟ ومتى دخلها وخرج المسلمون منها؟

هو الأرقم بن أبي الأرقم، واسم أبيه عبد مناف بن أسد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم^(١)، كان من عقلاء قريش، ومن السابقين الأولين^(٢)، استخفى النبي ﷺ في داره وهي عند الصفا^(٣)، وعرفت فيما بعد بدار الخيزران منذ زمن المهدي العباسي^(٤)، ويبدو أنها كانت معروفة كذلك إلى القرن العاشر الهجري عند الصفا كما يقول الشامي^(٥).

ويظهر من رواية ساقها ابن سعد، أن الدار فوق الصفا وأن الساعي بين الصفا والمروة يمرّ تحت ظهرها^(٦).

ويُعلل بعض الباحثين سبب اختيار النبي ﷺ لهذه الدار مكاناً لاستخفاء المؤمنين؛ ذلك لأن الأرقم لم يكن معروفاً بإسلامه، فقد كان صغيراً في السنّ، والأنظار تتجه إلى منازل كبار الصحابة، ولأنه من بني مخزوم التي كانت تحمل لواء التنافس والحرب ضد بني هاشم فيستبعد أن يختفي الرسول ﷺ في قلب العدو.

(١) ابن حجر: الإصابة (١/٤٠).

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٢/٤٧٩).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/٤٧٩)، الإصابة (١/٤٠).

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/٢٤٣).

(٥) الصالحى الشامي: سبل الهدى والرشاد (٢/٤٣٠).

(٦) حدد ابن سعد وفاة الأرقم سنة (٥٥هـ) وهو ابن بضع وثمانين سنة (الطبقات ٣/٢٤٤)، وفهم المباركفوري أن عمره حين أسلم في حدود (١٦ سنة)، بينما فهم مهدي رزق الله عمره ما بين (١٧ سنة) و(١٩ سنة) (السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ١٩٥)).

ولكونها قرب الصفا وهي منطقة فيها حركة الناس طبيعية، ما يصعب معه إدراك وجود حركة خاصة بأناس تجتمع وتنفض في هذه الدار، ولكون الأرقم شاباً عزباً ولم يُعلم بإسلامه وكان والده كفيف البصر^(١).

أما متى بدأ دخول المسلمين لهذه الدار، فيغلب على الظن أنه كان بعد أن أظهرت قريش عداوتها وصبت غضبها على بعض من أسلم كما يقول الشامي^(٢)، ويحددها د. مهدي رزق الله بالسنة الخامسة من ابتداء الدعوة^(٣).

وأما خروج النبي ﷺ من دار الأرقم، فقد أخرج ابن سعد أن دار الأرقم أسلم فيها قوم كثير، فلما أسلم عمر ﷺ خرجوا من الدار فكبروا وطافوا بالبيت ظاهرين^(٤).

وروى الطبراني وابن منده - من طريق أقوى - أن المسلمين حين تكاملوا أربعين رجلاً^(٥) مسلماً وكان آخرهم إسلاماً عمر خرجوا إلى المشركين^(٦).

وهكذا تتكامل الروايات وتشير إلى أن خروج المسلمين من دار الأرقم بعد إسلام حمزة وعمر وبعد أن اكتمل المسلمون أربعين رجلاً، ولئن كانت هذه المبادرة فيها مخاطر فقد نجح المسلمون في إعلان أنفسهم وإن نالهم من الأذى ما نالهم.

كما تظل (دار الأرقم) رمزاً ودليلاً للدعوة السرية يفيد المسلمون إلى مثلها، كلما

(١) د. مهدي رزق الله: السيرة النبوية (ص ١٩٥)، د. السلمي وزملاؤه (صحيح الأثر من سيرة خير البشر ص ١٠٣).

(٢) صالح الشامي: السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة (ص ٢١).

(٣) د. مهدي رزق الله: السيرة النبوية (ص ١٩٥).

(٤) الطبقات الكبرى (٣/ ٢٤٢ - ٢٤٣).

(٥) يرى الألباني أن عمر كان تمام الأربعين بعد خروج المهاجرين إلى الحبشة، فإن المهاجرين إلى الحبشة كانوا فوق الثمانين (صحيح السيرة النبوية ص ١٩٠).

(٦) البرهان فوري: كنز العمال (١٣/ ٢٧٠)، وحكم ابن حجر لطريق ابن مندة بالقوة: الإصابة (٤٠/ ١).



أحوجتهم ظروف الزمان أو المكان لحماية الدعوة وسلامة الدعاة، وإن كان الأصل في الدعوة والدعاة الظهور والإعلان، ولئن حملت دار الأرقم مسمى (دار الإسلام) فهي جديرة بهذا الاسم، ثم إنها عرفت منذ زمن المنصور العباسي بدار (الخيزران) حيث اشتراها من أحفاد الأرقم، وصيرها للخيزران^(١).



(١) انظر: ابن سعد: الطبقات (٣/٢٤٣-٢٤٤).

الحصار في شعب بني هاشم

تثبت مدونات السنة وصحاحها حصار قريش لبني هاشم ومقاطعتهم، وجاء فيها (حيث قاسمت قريش على الكفر)، وذلك أن بني كنانة حالفت قريشاً على بني هاشم ألا يبايعوهم ولا يؤوهم^(١).

وفي رواية عند البخاري ومسلم: قال رسول الله ﷺ وهو بمنى (في حجته): نحن نازلون غداً بخيف^(٢) بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر، وذلك أن قريشاً وبني كنانة تحالفتا على بني هاشم وبني المطلب ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يُسلموا إليهم رسول الله ﷺ، يعني بذلك المحصب^(٣).

ويبدو من النصين السابقين أن الحصار اجتماعي (لا يناكحوهم)، واقتصادي (ولا يبايعوهم)، ونفسي (ولا يؤوهم).

وتفصل كتب السيرة ما أجملته كتب السنة عن هذا الحصار، فتحدد زمن الحصار وسببه، بعد هجرة المسلمين للحبيشة وأمنهم عند النجاشي، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه من أصحاب النبي ﷺ، وعمر وحمزة قد أسلما، وجعل الإسلام يفشو في

(١) البخاري ح (٣٠٥٨)، ومسلم (١٦١٤) في الفرائض، أحمد (٥/٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٨، ٢٠٩)، أبو داود (٢٩٠٩)، الترمذي (٢١٠٧)، وابن ماجه (٢٧٢٩ - ٢٧٣٠)، والدارمي (٣٧٠/٢).

(٢) الخيف: ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن سيل الماء، وخيف بني كنانة هو المحصب كما قال القاضي عياض، وهو بطحاء مكة وقال الزهري: الخيف الوادي، وقال الحازمي: خيف بني كنانة بمنى، نزله رسول الله ﷺ (الحموي: معجم البلدان ٢/٤١٢). ويسمى بشعب أبي طالب وشعب أبي يوسف، ويُسمى اليوم (شعب علي) (محمد شراب: المعالم الأثرية في السنة والسيرة ص ١٥٠).

(٣) البخاري (١٥٨٩ - ١٥٩٠) في الحج، (٣٨٨٢) في مناقب الأنصار، ومسلم (١٣١٤) في الحج.

القبائل^(١)، ويُحدده الواقدي بشكل دقيق ليلة هلال المحرم سنة سبع^(٢)، كما تشير إلى الصحيفة) التي كتبت بذلك وعلقت في جوف الكعبة، ومن كتبها^(٣)، كما تشير إلى خروج أبي لهب (عبد العزى بن عبد المطلب) من إجماع بني هاشم، حيث انضم إلى قريش في هذا التحالف الظالم^(٤).

كما تحدد كتب السيرة مدة هذا الحصار بستين أو ثلاث في رواية ابن إسحاق^(٥)، ويقطع الواقدي بكونها ثلاث سنوات^(٦)، ويحدد خروجهم من الشعب في السنة العاشرة للبعثة^(٧)، وهذا التحديد للخروج بالسنة العاشرة قد يفهم منه طول مدة الحصار أكثر من ثلاث سنين، وقد نقل ابن سعد قول الحكم: مكثوا سنين^(٨).



(١) ابن هشام: السيرة (١/٤٣٠).

(٢) الطبقات الكبرى (١/٢٠٩)، واعتمده ابن حجر في الفتح (٧/١٩٢).

(٣) ابن هشام: السيرة (١/٤٣١).

(٤) المصدر السابق (١/٤٣١).

(٥) المصدر السابق (١/٤٣٤).

(٦) ابن سعد: الطبقات (١/٢٠٩).

(٧) الطبقات (١/٢١٠).

(٨) المصدر السابق (١/٢١٠).



فك الحصار ونقض الصحيفة الآثمة

لم تكن قريش جميعها متفقة على هذا الحصار الظالم، بل منهم من سره ذلك، ومنهم من ساءه^(١).

وتلاوم رجال من قريش على ما صنعوا ببني هاشم، فيهم مطعم بن عدي، وعدي بن قيس، وزمعة بن الأسود، وأبو البخترى بن هشام، وزهير بن أبي أمية، ولبسوا السلاح، ثم خرجوا إلى بني هاشم وبني المطلب فأمرهم بالخروج إلى مساكنهم، ففعلوا، وسقط في أيدي قريش إذ عرفوا أن سيحموهم^(٢).

وإذا كان هذا أسلوبًا من أساليب الرفض لهذا الحصار، فثمة أسلوب آخر أكثر جرأة تمثل في نقض الصحيفة وتمزيقها على يد هؤلاء النفر المتلاومين، وذلك بعد مشاور وتعاقد بينهم على هذا الأمر، حتى تم لهم ما أرادوا - كما فصله ابن إسحاق -^(٣). وهكذا خرج المسلمون من هذا الحصار منتصرين، رغم البلاء، والمحنة، والمحاصرة، والفتنة، وكذلك يثبت الله الذين آمنوا، وينتصر للمظلومين.

أما قريش فمع إفلاسها في الحصار، فقد خَلَّفَ فيها من الفرقة والتنازع ما أضعف قوتها وأوهن جمعها.

(١) المصدر السابق: (٢٠٩/١).

(٢) المصدر السابق: (٢١٠/١).

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية (٢/١٦-٢٠)، يلاحظ فرق في بعض أسماء هؤلاء النفر من قريش عند ابن إسحاق، والواقدي، فهم يتفقون على تسمية: زهير بن أبي أمية، وأبي البخترى بن هشام، والمطعم بن عدي، وزمعة بن الأسود، وابن إسحاق يسميه (رفعة)، ثم ينفرد ابن إسحاق بذكر (هشام بن عمرو العاري) بل يؤكد أنه أكثرهم بلاءً في نقض الصحيفة بينما ينفرد الواقدي بذكر (عدي بن قيس).



ومن هذه الحادثة وما انتهت إليه نستفيد درسًا في قدم البلاء وتجدد أساليب الحصار بين الماضي والحاضر، وأن الظلم له نهاية، وأن ثبات أهل الإيمان على الحقّ وصبرهم على المكروه، يتيح لهم فرصًا لم يحتسبوها، بل هو مدعاة لتفكك إجماع الظالمين عليهم وتنازعهم، كما حصل من تخلخل صف قريش وانتصار بعضهم للمظلومين المحاصرين، وما ريك بغافلٍ عما يعملون.



وفاة عمه أبي طالب وزوجه خديجة رضي الله عنها

قال ابن إسحاق: ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد، فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بموت خديجة، وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها، وبهلاك عمه أبي طالب وكان له عضداً وحرزاً في أمره ومنعة وناصرًا على قومه، وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين^(١).

ونقل ابن سعد عن الواقدي عن شيوخه: أن بين وفاة أبي طالب وخديجة شهرًا وخمسة أيام^(٢)، ولم يحدد أيهما مات أولاً، وفهم الذهبي، ونسب إلى الواقدي موت خديجة قبل أبي طالب بشهر وخمسة أيام^(٣).

وقال الحاكم: ماتت خديجة بعد أبي طالب بثلاثة أيام^(٤).

وفي الصحيح أن خديجة توفيت قبل مخرج النبي ﷺ إلى المدينة بثلاث سنين^(٥). وقالت عائشة رضي الله عنها: ماتت خديجة قبل أن تفرض الصلاة، وعلق ابن حجر: يعني قبل أن يُعرج بالنبي ﷺ^(٦).

ونقل عن الواقدي وفاتها سنة عشر من البعثة بعد خروج بني هاشم من الشعب ودفنت بالحجون وأن النبي ﷺ نزل في حفرتها ولم تكن شرعت الصلاة على

(١) انظر: السيرة لابن هشام (٦٦/٢).

(٢) الطبقات (٢١١/١).

(٣) سير أعلام النبلاء (١١٢/٢)، ولم أجده في طبقات ابن سعد.

(٤) سير أعلام النبلاء (١١٢/٢).

(٥) صحيح البخاري (٢٥٢/٤)، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي ﷺ عائشة.

(٦) الإصابة (٢١٨/١٢).

الجنائز^(١)، أما أبو طالب فقد مات على دين قومه كما تؤكد ذلك رواية الصحيحين^(٢). ومما يلفت نظر المتأمل في موت أبي طالب حوار رسول الله ﷺ له، ودعوته للإسلام إلى آخر لحظة، وأثر رفقة السوء: (يا عمّ، قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله، فقال أبو جهل، وعبد الله بن أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ وأبى أن يقول لا إله إلا الله)^(٣).

قاتل الله رفقة السوء، وإذا كان هذا أثرهم في رجل بعقلية أبي طالب، فلا تسأل عن أثرهم في من هو دون ذلك، وذلك يقتضي العناية بالصديق واختيار المجلس الصالح، فالصاحب ساحب، وعن المرء لا تسأل واسأل عن قرينه.

وإذا كان للأصحاب أثر في نهاية أصحابهم - وكل ذلك بقدر الله ومشيتته - فلا شك أن للأعراف والتقاليد الجاهلية أثرها كذلك في نهاية أبي طالب، وقد صح عنه قوله: لولا أن تعيرني قريش، يقولون إنما حملة على ذلك الجزع لأقررت بها عينك^(٤).

وعن أثر موتهما على رسول الله ﷺ نقل ابن سعد عن الواقدي أنه اجتمعت على رسول الله ﷺ مصيبتان، فلزم بيته وأقل الخروج، ونالت منه قريش ما لم تكن تنال ولا تطمع به^(٥).

(١) الطبقات (١٨/٨).

(٢) انظر: البخاري (٤/٢٤٧)، (٢/٩٨)، (٥/٢٠٨)، ومسلم (١/١٩٥ - ١٩٦)، أما الرواية الواردة عن ابن إسحاق وفيها موت أبي طالب على الإسلام فهي مع مخالفتها في متنها للروايات الصحيحة فقد تكلم العلماء على إسنادها وضعفوها (انظر: السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق دراسة مقارنة في العهد الملكي د. سليمان بن أحمد العودة (ص ١٩٦ - ١٩٩)، وانظر رد ابن حجر على من زعم إسلام أبي طالب، وتفنيده لعدد من الروايات التي تعلق بها الرافضة (الإصابة ١١/٢١٨ - ٢٢٧) وقد ترجم له ترجمة مطوّلة، لكنه وضعه في (القسم الرابع) بما يفيد عدم اعتباره من الصحابة، كما بين ذلك في المقدمة (٦/١).

(٣) البخاري ح (٤٧٧٢)، ومسلم ح (٢٤).

(٤) مسلم ح (٢٥).

(٥) الطبقات الكبرى (١/٢١١).



لقد تابعت على رسول الله ﷺ المحن والمصائب، فعلى أثر محنة الحصار كانت مصيبة النبي ﷺ بفقد عنصرين مهمين في حياته - عليه الصلاة والسلام - ومن هنا ساغ لبعض المؤلفين في السيرة أن يسمي هذا العام بعام الحزن، وجزم بأن النبي ﷺ قد أطلق على هذا العام عام الحزن؛ لشدة ما كابد فيه من الشدائد في سبيل الدعوة^(١)، واعترض آخرون على هذه التسمية وردوا على من قال بها^(٢).

ومن المؤكد أن موت خديجة وأبي طالب، وإن حزن النبي ﷺ عليهما، لم يؤثر في مسيرة دعوته، بل كان ﷺ دائماً في جهاده مستمراً في دعوته، ومجدداً في أساليبها، مستلهماً عونته وتسديده من الله وحده، ولذا كان من دروس هذه الحادثة تأكيد أن الحماية والنصر إنما يأتي كل ذلك من الله، ولقد تعهد بعصمة نبيه ﷺ، ولو أن أبا طالب بقي إلى جانب ابن أخيه يكلؤه ويحميه إلى أن تقوم الدولة الإسلامية في المدينة لكان في ذلك ما قد يوهم أن أبا طالب كان وراء هذه الدعوة وخلف هذا الانتصار^(٣).



(١) البوطي: فقه السيرة (ص ١٢٩ - ١٣٠).

(٢) الألباني: دفاع عن الحديث النبوي والسيرة (ص ١٨)، وقال: أنه جاء في حديث رواه القسطلاني في المواهب، ومن رواه (صاعد) وهو غير ثقة.

(٣) البوطي: فقه السيرة (ص ١٣٠ - ١٣١)، وانظر د. مهدي رزق الله: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٢٢٣ - ٢٢٤).

الخروج إلى الطائف

اشتدت قريش في عدوانها على النبي ﷺ ودعوته، ففكر النبي ﷺ في مناخ أكثر مناسبة للدعوة، وفكر في أقوام آخرين عساهم أن يكونوا أقل من قريش صلفاً وأكثر منها قبولاً للدعوة، فاتجه ﷺ إلى الطائف يطلب النصرة من (ثقيف)، لكنه هذه المرة سيخرج هو -دون أصحابه- إلا ما لا بد منه منهم.

وقد حدد الواقدي كما نقل ابن سعد زمن خروجه للطائف وسببه فقال: لما توفي أبو طالب تناولت قريش من رسول الله ﷺ واجترؤوا عليه، فخرج إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة، وذلك في ليالٍ بقين من شوال سنة عشر من حين نبئ رسول الله ﷺ^(١).

كما حدد الواقدي مدة بقاءه، ومقابلة أهل الطائف له فقال: فأقام بالطائف عشرة أيام، لا يدع أحداً من أشرفهم إلا جاءه وكلمه، فلم يجيبوه، وخافوا على أحداثهم، فقالوا: يا محمد اخرج من بلدنا والحق بمُجانبك من الأرض، وأغروا به سفهاءهم، فجعلوا يرمونه بالحجارة حتى إن رجلي رسول الله ﷺ لتدميان، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه، حتى لقد شج في رأسه شجاج، فانصرف رسول الله ﷺ من الطائف راجعاً إلى مكة وهو محزون، لم يستجب له رجل واحد ولا امرأة^(٢)، سوى (عداس) الآتي ذكره.

(١) الطبقات الكبرى (١/٢١١).

(٢) المصدر نفسه (١/٢١٢).

وثمة رواية شاهد عيان لرحلته ﷺ للطائف يقول فيها (خالد العدواني^(١)) إنه أبصر رسول الله ﷺ في مشرق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصا حين أتاهم يبتغي عندهم النصر، قال: فسمعتة يقرأ (والسما والطارق) حتى ختمها، قال: فوعيتها في الجاهلية وأنا مشرك، ثم قرأتها في الإسلام، قال: فدعنتني ثقيف فقالوا: ماذا سمعت من هذا الرجل؟ فقرأتها عليهم، فقال من معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا، لو كنا نعلم ما يقول حقًا لاتبعناه^(٢).

وتحدثنا رواية أخرى عن نوع مقابلة أكابر أهل الطائف للنبي ﷺ رواها ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي، والبيهقي عن ابن شهاب الزهري وفيها: أن رسول الله ﷺ حين انتهى إلى الطائف عمد إلى نفرٍ من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرفهم، وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو بن عمير، ومسعود بن عمرو بن عمير، وحبیب بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس إليهم رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال له أحدهم: هو يمرط^(٣) ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك. وقال الآخر: أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك؟ وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدًا، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي

(١) هو: خالد بن أبي جَعل العدواني، سكن الطائف، يقال أنه بايع تحت الشجرة وذكروا له خبر رؤيته للنبي ﷺ في رحلته للطائف، وسماعه من سورة (الطارق) قبل أن يسلم (ابن عبد البر: الاستيعاب - بهامش الإصابة ٣/ ١٧٧) والإصابة لابن حجر (٣/ ٥٢).

(٢) أخرجهما أحمد في المسند (٤/ ٣٣٥)، والطبراني في المعجم الكبير (٤١٢٧)، وقال الهيثمي: وعبد الرحمن بن خالد العدواني ذكره ابن أبي حاتم ولم يجرحه أحد، وبقيه رجاله ثقات. (مجمع الزوائد ٧/ ١٣٦).

(٣) أي: ينزع ويقطع. انظر: السيرة الحلبية: (١/ ٤٩٩).

لي أن أكلمك، فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقد قال لهم: إذا فعلتم ما فعلتم فاكموا عني، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيؤذّرهم ذلك عليه، فلم يفعلوا، وأغروا به سفاهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس، إلخ الرواية، وفيها قصة عداس مع النبي ﷺ وتقبييل رأس رسول الله ﷺ ويديه وقدميه^(١).

وتؤكد رواية الصحيح ذهاب الرسول ﷺ للطائف، وشدة معاناته منهم، وتضيف انتصار الله له وهو في طريق عودته وتسليته بملائكة السماء.

وتقول عائشة رضي الله عنها: قلت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: نعم، لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب^(٢)، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلمتني، فنظرت فإذا جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما

(١) انظر: السيرة لابن هشام (٧٠/٢ - ٧٢)، والرواية مرسله من محمد بن كعب القرظي، وأخرجها ابن سعد من طريق الواقدي بشيء من الاختصار - ولم يذكر قصة عداس - (الطبقات ١/ ٢١١ - ٢١٢)، كما أخرج الرواية الطبراني عن عبد الله بن جعفر مختصرة (دون ذكر عداس) وقال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة وبقية رجاله ثقات (مجمع الزوائد ٦/ ٣٥)، كما رواها البيهقي عن طريق الزهري مرسله وهي قريبة من سياق محمد بن كعب كعب القرظي (وفيها ذكر عداس وإيمانه بنبوة النبي ﷺ)، وقد قوى هذه الطرق بعض الباحثين (إبراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية ص ٩٨)، وضعفها آخرون (د. همام سعيد، وأبو صعبك في تعليقاتهما على سيرة ابن هشام ٧٢/٢).

(٢) قرن الثعالب: قال القاضي عياض: هو قرن المنازل، ميقات أهل نجد تلقاء مكة على يوم وليلة من مكة، والقرن: كل جبل صغير منقطع من جبل كبير (ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ٣٣٢)، وابن حجر: الفتح (٦/ ٣١٥)، وحدد (شُراب) بُعد عن مكة ثمانين كيلاً وعن الطائف ثلاثة وخمسون كيلاً (المعالم الأثرية في السنة والسيرة ص ٢٢٦).

ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت منهم، فناداني ملك الجبال
فسلم عليّ ثم قال: يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. قال النبي ﷺ: بل
أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً^(١). لقد كانت
إصابته يوم أحد أبلغ من الناحية الجسمية، أما من الناحية النفسية فمصابه في الطائف
أبلغ وأشد وأيكفي أنه استغرق في التفكير ولم يفق إلا بقرن الثعالب^(٢).



(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق حديث رقم (٣٢٣١)، ومسلم في الجهاد والسير حديث (١٧٩٥).
(٢) الحميدي: التاريخ الإسلامي (٣/٢٦ - ٢٧).

العودة إلى مكة وجوار المطعم بن عدي

عاد رسول الله ﷺ من الطائف مهمومًا حزنًا على موقف أهل الطائف إذ عارضوا دعوة الحقّ، وسخروا من نبي الهدى والرحمة وأذوه ﷺ، وعبارة (الصحيحين): (فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب)، تكشف عن عمق هذا الهم الذي لحق بالنبي ﷺ.

لئن كانت رواية الصحيحين تؤكد مدد السماء (في طريق العودة)، فرواية ابن إسحاق والواقدي تؤكد مدد الأرض، وذلك بلقياه ﷺ بالجن وإيمانهم وإجابتهم لما سمعوا.

وفي هذا يقول ابن إسحاق: ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعًا إلى مكة حين يئس من خبر ثقيف، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلي، فمرّ به نفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى - وهم فيما ذكر لي - سبعة نفر من جن أهل (نصيبين)، فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولّوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا، فقصّ الله خبرهم عليه ﷺ، قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] إلى قوله: ﴿وَيُجْرِكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١]، وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ١] إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة^(١)، وقد وافق ابن القيم ابن إسحاق والواقدي في كون قدوم الجن مرجعه ﷺ من الطائف^(٢).

(١) انظر: السيرة لابن هشام (٧٣/٢) وهي من رواية محمد بن كعب القرظي السابقة، ابن سعد: الطبقات (٢١٢/١).

(٢) زاد المعاد (٣٢/٣)، واعترض محقق الزاد على ذلك وقال: فيه نظر، فإن استماع الجن كان قبل خروجه للطائف.

وقد ثبت خبر قدوم الجن على الرسول ﷺ في الصحيحين^(١).

وساق ابن حجر أدلة تؤيد أن ذلك كان في منصرفه من الطائف، وهي مؤيدة لما ذكره ابن إسحاق وابن سعد في الرواية السابقة^(٢)، وإن كان ابن حجر أشار إلى تعدد لقياء النبي ﷺ بالجن قبل وبعد ذهابه إلى الطائف.

لقد كان عرض (ملك الجبال) أن يطبق على أهل مكة الأخشيين (وهما جبلان عظيمان بمكة)، فهم الذين أخرجوه وتسببوا في حرجه وأذى أهل الطائف له، ولكن نبي الهدى والرحمة لم يرغب في هذا الأسلوب (الاستصالي)، وقرر العودة إلى مكة والصبر على أذاهم، والمراهنة على جيل آخر يخرج من أصلاب هؤلاء المعاندين يستمع لنداء الحقّ ويعبد الله لا يشرك به شيئاً، وإن كان صاحبه في الرحلة (زيد بن حارثة) قد سأل: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟ يعني قريشاً، فقال النبي ﷺ بلغة واثقة، واستشرف متفائل للمستقبل: يا زيد، إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه^(٣).

انتهى النبي ﷺ في منصرفه من الطائف إلى (حراء)، وكان يبحث عن رجل يجيره حتى يدخل مكة آمناً، فبعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره، فقال: أنا حليف والحليف لا يجير، ثم بعث إلى سهيل بن عمرو فقال: إن بني عامر لا تجير على بني كعب، فبعث إلى (المطعم بن عدي) فأجابه إلى ذلك، ثم تسلم المطعم وأهل بيته وخرجوا حتى أتوا المسجد، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ أن ادخل، فدخل رسول الله ﷺ فطاف بالبيت وصلى عنده ثم انصرف إلى منزله، فذلك الذي يعني حسان بن ثابت حين قال:

(١) البخاري في المناقب، باب ذكر الجن حديث رقم (٣٨٦٠)، وفي التفسير تفسير (قل أوحى)

حديث (٤٩٢١)، ومسلم ح (٤٤٩)

(٢) انظر: الفتح (٨/٦٧٠).

(٣) انظر: ابن القيم: زاد المعاد (٣/٣٣).



فلو كان مجدُّ يخلد اليوم واحداً
 من الناس نجى مجده اليوم مُطعمًا
 أجرت رسول الله منهم فأصبحوا
 عبادك مالبيّ محل وأحرما
 فلو سُئلت عنه معدّ بأسرها
 وقحطان أو باقي بقية جُرهما
 لقالوا هو الموفى بخفرة جاره
 وذمته يومًا إذا ما تدمأ

ولقد حفظ النبي ﷺ للمطعم بن عدي هذه اليد في إجارته له، وقال في أسارى بدر: لو كان المطعم بن عدي حيًّا ثم كلمني في هؤلاء التتني لتركتهم له^(١).

وقد ذكر ابن شاهين أن السبب في تركهم له لما وقع من المطعم حين رجع محمد ﷺ من الطائف ودخل في جواره^(٢).

وقال ابن كثير: فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة توفي المطعم بن عدي بعده بيسير، فرثاه حسان بن ثابت (فلو كان مجد يخلد اليوم واحداً، إلخ القصيدة)، قلت (ابن كثير): ولهذا قال النبي ﷺ يوم أسارى بدر: لو كان المطعم بن عدي حيًّا، إلخ^(٣).

وهكذا تنتهي هذه الرحلة الشاقة بعدد من الدروس والعبر، ولعل من أبرزها، استمرار النبي ﷺ في دعوته وصبره على البلاء، فمن حصار الشعب إلى موت أبي

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، بدر حديث (٤٠٢٤).

(٢) ابن حجر: الفتح (٣٢٤/٧).

(٣) البداية والنهاية (٣٤٣/٤ - ٣٤٤).

طالب وخديجة إلى رحلته الشاقة إلى الطائف، ومع الصبر يقين بالنصر واستشراف للمستقبل، ولئن رفض الدعوة سكان الأرض ففي السماء تسليمة الملائكة، ولئن ضاق الإنس بالنبي ﷺ ودعوته، ففي الجن عزاء وإيمان وإسلام، ولئن تمالأ الملامن قريش وثقيف على محاصرة النبي ﷺ فقد استعطفت قلوباً لم تسلم لله لكنها انبرت للنصرة والإجارة، وكذلك تنفرج الأمور حين تضيق، ويجعل الله بعد العسر يسراً، وكذلك يُستنصر ويستجار غير المسلمين وليس ذلك بخادش في قضية الولاء والبراء، فهذا شيء وذاك شيء آخر، وتلك من المضايق التي تحتاج إلى فقه وبصيرة، وفي رسول الله ﷺ الأسوة والقدوة.

وفي هذه الرحلة تظهر شفقة النبي ﷺ ورحمته بهذه الأمة في قوله لملك الجبال حين عرض عليه أن يطبق عليهم الأخشيين: (لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله)، وقد كان.

وبالجملة، ففي هذه الحادثة ومثيلاتها في السيرة عزاء وسلوة للدعاة إلى الله حين يلقون في سبيل الدعوة ما يلقون من العنت والأذى، إنه طريق الدعوة ومسلك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.



الإسراء إلى بيت المقدس، والمعراج إلى السماوات العلا

جاءت حادثة الإسراء والمعراج بعد رحلته ﷺ إلى الطائف وبعد وفاة عمه وزوجه خديجة، فكانت تسلية وتسرية للنبي ﷺ من جانب، ومعجزة ودليلاً من دلائل النبوة من جانب آخر.

ويقصد بالإسراء تلك الرحلة العجيبة التي ابتدأت من مكة (المسجد الحرام) إلى بيت المقدس (المسجد الأقصى)، وعنهما وعن حكمتها قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

ويقصد بالمعراج ما أعقب هذه الرحلة من الصعود بالنبي ﷺ إلى السماوات العلا ولقياه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وما رافق ذلك من أمور، وتشريعات، وآيات. وعنهما وعن ثمارها قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٣ - ١٨].

ولقد هياً الله نبيه ﷺ لهذه الرحلة العجيبة، حيث شق صدره بمكة ثم أسري به وعرج إلى السماوات العلا، ففي الصحيحين من حديث أنس قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغه في صدري ثم أطبقه ثم أخذ بيدي فخرج بي إلى السماء الدنيا^(١).

(١) البخاري (١/٩١ - ٩٣)، (٤/١٠٦)، ومسلم (١/١٤٨).



قال ابن كثير: لأنه مطلوب إلى الملاء الأعلى^(١).

ابتدأت هذه الرحلة العجيبة من البيت الحرام، سواء أكان من الحجر أم الحطيم^(٢) كما في الصحيحين^(٣)، وهذا موافق لإحدى الروايات عند ابن إسحاق^(٤)، وثمة رواية تفيد أنه من بيت أم هانئ^(٥) وضعفها جمع من أهل العلم^(٦).

وعند الواقدي أن الإسراء كان من شعب أبي طالب إلى بيت المقدس^(٧)، وبكل حال فالجمع ممكن بين هذه الأقوال كلها^(٨).

كانت وسيلته في الإسراء (البراق)، وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه^(٩).

أما وسيلته في المعراج فمال ابن كثير إلى أنه (السُّلم)، وقال: وتوهم من قال إن الصعود كان بالبراق^(١٠). وكان الإسراء والمعراج في ليلة واحدة، فقد ثبت أن النبي ﷺ قال ليلة أسري به: لقيت موسى^(١١)، ومعلوم أن لقياء الأنبياء في المعراج.

(١) البداية والنهاية (٤/٢٧٦).

(٢) الحطيم: هو ما بين الركن والباب، وقيل هو الحجر المخرج منها سمي به؛ لأن البيت رفع ونزل هو محطوماً. (النهاية في غريب الحديث ١/٤٠٣).

(٣) البخاري (٤/٢٤٨)، (٨/٢٠٣)، ومسلم (١/١٥٠)، (١/١٤٨).

(٤) ابن هشام: السيرة (٢/٤٤).

(٥) ابن هشام: السيرة (٢/٥٠).

(٦) انظر: ابن كثير: التفسير (٥/٣٩)، الذهبي: السيرة (ص ١٥٦)، الهيثمي: مجمع الزوائد (١/٧٥-٧٦).

(٧) الطبقات الكبرى لابن سعد (١/٢١٤).

(٨) قال الحافظ ابن حجر: والجمع بين هذه الأقوال أنه نام في بيت أم هانئ وبيتها عند شعب أبي طالب، ففرج سقف بيته فتزل منه الملك فأخرجه من البيت إلى المسجد... (الفتح ٧/٢٠٤).

(٩) البخاري (٤/٢٤٨)، مسلم (١/١٥٠-١٤٥).

(١٠) البداية والنهاية (٤/٢٧٦).

(١١) البخاري (٤/١٢٥، ١٤٠)، ومسلم (ح ١٦٨).

ووقع الإسراء والمعراج مرة واحدة بمكة قبل الهجرة^(١)، وبروحه وجسده يقظة لا منامًا، وهذا رأي جمهور أهل العلم سلفًا وخلفًا ولا يلتفت لمن خالف^(٢).

ولئن كان الله أخبر أنه ﷺ رأى من آيات ربه الكبرى، فقد ثبت أنه التقى بالأنبياء وصلى بهم ووصف هيئاتهم، ثم رفع إلى سدرة المنتهى، وإذا أربعة اثنان منهما في الجنة (باطنان)، وآخران ظهران في الدنيا (النيل والفرات)، ورفع له البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا فيه آخر ما عليهم، وألهم الفطرة حين عرض عليه ثلاثة آنية أحدها من خمر، والآخر من لبن، والثالث من عسل، فأخذ اللبن، وفرضت عليه الصلوات الخمس بعد تخفيفها من خمسين صلاة إلى خمس^(٣).

وإذا علم ذهابه وما رأى في هذه الرحلة، فالذي يظهر من الروايات أن طريق عودته كان من السماوات العلا إلى بيت المقدس، ومن بيت المقدس إلى مكة، فقد جاء في رواية أخرجهما البزار والطبراني وصححها البيهقي عن شداد بن أوس: قال ﷺ: ثم انصرف بي فمررنا بغير لقريش بمكان كذا وكذا قد أضلوا بغيرهم، فسلمت

(١) روى البيهقي عن طريق موسى بن عقبة عن الزهري أنه قال: أسري برسول الله ﷺ قبل خروجه إلى المدينة بسنة. (دلائل النبوة ٢/٣٥٤)، وحددها الواقدي ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول، قبل الهجرة بسنة (الطبقات ١/٢١٤) وتحديد الإسراء قبل الهجرة بسنة هو رأي عروة، والزهري، وموسى بن عقبة. انظر: مغازي عروة (ص ١٢٠).

(٢) انظر: ابن القيم: زاد المعاد (١/٩٩)، (٣/٣٤ - ٤٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٤/٢٨١)، وقال الحافظ ابن حجر: وإلى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العدول عن ذلك، إذ ليس في العقل ما يحيله حتى يحتاج إلى تأويل. (الفتح ٦/١٩٧) وللمزيد، انظر: السير النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق دراسة مقارنة في العهد الملكي د. سليمان العودة (ص ٢١٢).

(٣) انظر: البخاري (٤/٢٤٨ - ٢٥٠)، ومسلم (١/١٥٠).

عليهم، فقال بعضهم: هذا صوت محمد، ثم أتيت أصحابي قبل الصبح بمكة^(١).

لقد كان موقف قريش من هذه الحادثة موقف الإنكار والاستهزاء، وهل يتوقع منها غير ذلك؟ وقد أنكرت نبوة النبي ﷺ وحاربت دعوته، ويصف النبي ﷺ في رواية صحيحة الهمم الذي لحقه من جراء أسئلة قريش له عن هذه الرحلة ويقول: لقد رأيتني في (الحجر) وقريش تسألني عن مسراي، فسألتنني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كربة ما كربت مثلها قط^(٢)، وفي رواية في الصحيحين قال ﷺ: (لما كذبتني قريش قمت في الحجر، فجلى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته، وأنا أنظر إليه)^(٣).

ثم تتجلى عناية الله بنبيه ﷺ - وهو في تلك الحال - فيرفع الله له بيت المقدس ويجليه له، فطفق يخبرهم عن آياته وهو ينظر إليه، فلا يسألونه عن شيء إلا نبأهم به^(٤).

وإذا أثر عن بعض المسلمين أنهم ارتابوا أو ارتدوا في إثر هذه الحادثة^(٥)، فإن السواد الأعظم من المسلمين لم تزدهم الحادثة إلا إيماناً وتصديقاً، وكان أبو بكر ﷺ نموذجاً للصدق والتسليم حين قال: والله لئن كان قاله لقد صدق وما يعجبكم من ذلك، فوالله إنه ليخبرني بالخبر يأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار، فهذا أبعد مما تعجبون منه، فصدّق النبي ﷺ ومن حينها سمّاه (الصديق)^(٦).

(١) انظر: البيهقي في الدلائل (٢/ ٣٥٥ - ٣٥٧)، وقال البيهقي في آخرها: هذا إسناد صحيح، وأشار المحقق إلى أن الحديث أخرجه البزار والطبراني.

(٢) مسلم (١/ ١٥٧ ح ١٧٢).

(٣) البخاري ح (٣٨٨٦)، ومسلم ح (١٧٠).

(٤) البخاري (٤/ ٢٤٧)، (٥/ ٢٢٤)، ومسلم (١/ ١٥٦، ١٥٧).

(٥) انظر: ابن هشام في السيرة (٢/ ٤٥)، وجاءت عبارته هكذا: فارتد كثير ممن كان أسلم، وخبر ارتداد بعض المسلمين جاء عند الحاكم في المستدرک (٣/ ٦٢ - ٦٣) وصححه ووافقه الذهبي.

(٦) ابن هشام: السيرة (٢/ ٤٥)، وأخرجه الحاكم في مستدرکه (٣/ ٦٢ - ٦٣)، وصححه ووافقه الذهبي.

إن حادثة الإسراء والمعراج من العظمة والإعجاز، بحيث ناسب بدء سورة (الإسراء) بتعظيم الله وتسييحه ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ...﴾ [الإسراء: ١]، وهي كذلك من الإعجاز والتحدي، بحيث تناسب مقام النبوة وخصائص الأنبياء، وما يضير محمد ﷺ أن كذب بها المشركون، فقد كُذِّبَتْ رسل من قبله، قال جلَّ شأنه: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ وَعَاتَيْنَا مُؤَدَّ الثَّاغَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وأنزل الله بشأن آية الإسراء والمعراج: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

وقال ابن عباس: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به. رواه البخاري^(١).



(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير حديث رقم (٤٧١٦).

الدرس والعبرة

ويتأمل الدارس لحادثة الإسراء والمعراج ربطًا بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وبين نبوة محمد ﷺ ونبوة الأنبياء قبله، وما بين الأنبياء من ارتباط عقدي ومحبة أخوية تتجاوز حدود الزمان والمكان، ومصداق ذلك قوله ﷺ: (الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد)^(١).

كما يلحظ المتأمل في حادثة الإسراء والمعراج قدرًا إلهيًا حاضرًا ومستقبلاً، فاليهود والنصارى لم يكونوا أمناء على وحي السماء ومقدسات الأرض، وبعثة محمد ﷺ انتقال بالقيادة في العالم من أمة إلى أمة، وسيتبعها انتقال بمسؤوليات هذه المقدسات إلى المسلمين، ولذا بقي بيت المقدس هاجسًا عند المسلمين منذ أسري برسول الله ﷺ إليه، حتى فتحه أصحابه ﷺ في خلافة عمر رضي الله عنه، وساح الإسلام في مشرق الأرض ومغربها، وعاد الدين كله لله، وعُظِّم وحي السماء، وأعيد صفاء رسالات الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وحيث تبدلت الحال في هذه الأزمان وعاد اليهود إلى الإفساد في الأرض المباركة، فعسى الله أن يعيد للأمة مجدها لتستعيد هذه المقدسات، وتعيد الحق إلى نصابه، ولله الأمر من قبل ومن بعد.



(١) البخاري ح (٣٤٤٢)، ومسلم ح (٢٣٦٥).

العرض على القبائل

لم يتوقف النبي ﷺ وأصحابه ﷺ عن الدعوة لدين الله، تحت أي ظرف، وفي أي مكان، فمرةً بالحبشة وأخرى بالطائف، ثم ها هو ﷺ يعرض نفسه على القبائل القادمة إلى مكة، ويقول: مَنْ رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ فَيَمْنَعُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي، فَإِنَّ قَرِيشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي؟^(١).

وكانت رسالته التي يبلغها للناس: (يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتذل لكم بها العجم، فإن آمنتم كنتم ملوكًا في الجنة)^(٢).

ورغم البلاغ والدعوة للقبائل الوافدة، إلا أن الحظ الأكبر كان لوفد أهل المدينة (الأوس والخزرج)، ومع ما قدّر الله من فضل لأهل المدينة حيث اختارهم ليكونوا أنصار الله، فثمة سبب مهم عجّل بقبولهم للدعوة واستجابتهم للنبي ﷺ، إنه (يوم بُعث) -وهو أحد أيامهم الحربية- التي فني فيها عدد من أكابرهم، والملا -عادة- هم الذين يصدون أقوامهم عن الحق، وفي البخاري: قالت عائشة رضي الله عنها: (كان يوم بعث يومًا قدّمه الله لرسوله ﷺ، فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم، وقُتلت سرواتهم، وجرحوا، فقدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام)^(٣).

(١) أخرجه أبو داود في سننه، وصححه الألباني: صحيح سنن أبي داود ح (٣٩٦٠)، والترمذي ح (٢٩٢٥)، وابن ماجه ح (٢٠١)، وأحمد ح (١٤٤٥٦)، والدارمي ح (٣٣٩٧).

(٢) ابن سعد: الطبقات (٢١٦/١) ورواه أحمد في مسنده (٦٣/٤) (٣٧٢/٥) وقال الساعدي سننه جيد: الفتح الرباني (٢٠/٢٦٥-٢٦٦) وقال الهيثمي رجال أحمد رجال الصحيح: مجمع الزوائد (٢٢/٦).

(٣) صحيح البخاري (٤/٢٢١-٢٣٧-٢٦٥)، ح (٣٧٧٧).

وكان (سويد بن الصامت) من أوائل أهل المدينة سماعًا للنبي ﷺ^(١).

ثم كان قدوم أبي الحيسر بن رافع ومعه فتية من بني عبد الأشهل يلتمس حلفًا من قريش على قومهم من الخزرج وبرغم إعراض أبي الحيسر، فقد انبرى شاب من الوفد وهو (إياس بن معاذ) وقال: إن هذا الذي عرض علينا خير مما جئنا له، فزجره أبو الحيسر، ورجع الوفد وهلك إياس في وقعة بعاث - قبل هجرة النبي ﷺ - لكنهم لا يشكّون أنه مات مسلمًا^(٢).

وحين أَرَادَ اللهُ إظهار دينه، وإعزاز نبيه ﷺ التقى النبي ﷺ بالنفر الستة من الخزرج فعرض عليهم الإسلام، فقال بعضهم لبعض: (يا قوم، تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه - وكان اليهود معهم في بلادهم ويستفتحون به عليهم - فأجابوه إلى الإسلام، وقالوا إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى الله أن يجمعهم بك، وسنقدم عليهم ونعرض عليهم ما أجبناك إليه من هذا الدين، فإن أجابوا فلا رجل أعز منك)، وانصرفوا إلى بلادهم (المدينة) وقد آمنوا وصدقوا ودعوا قومهم إلى الإسلام وفشا فيهم حتى لم يبق بيت منهم إلا وفيه ذكرٌ للرسول ﷺ^(٣) والنفر الستة هم:

(١) أسعد بن زرارة.

(١) انظر خبر سويد (صاحب مجلة لقمان) والقول بإسلامه عند ابن إسحاق (سيرة ابن هشام ٧٧/٢-٧٩) بسند حسن، وانظر (يحيى بن إبراهيم اليحيى: رسول الله في مكة ص ٢٨١).

(٢) أخرجه أحمد (٤٢٧/٥)، وابن هشام في السيرة (٨٠/٢)، وقال ابن حجر رواه جماعة عن ابن إسحاق وهو صحيح من حديثه: الإصابة (١٤٦/١)، وقد ترجم له في القسم الأول من الصحابة وقال ابن كثير: إسناده وسياقه حسن (البداية والنهاية ٣٧٠/٤)، ونقلها الصالحي وجود إسناده في: سبل الهدى والرشاد (٢٦٢/٣).

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية (٨١-٨٣)، وابن سعد: الطبقات (٢١٩/١) قال الواقدي: -وقد عدّ الستة نفر الذين ذكرهم ابن إسحاق- وهذا عندنا أثبت ما سمعنا وهو المجتمع عليه، ورواه الطبراني وقال الهيثمي: رجاله ثقات: مجمع الزوائد (٤٢/٦).



- (٢) عوف بن الحارث بن رفاعة.
- (٣) رافع بن مالك بن العجلان.
- (٤) قطبة بن عامر بن حديدة.
- (٥) عقبة بن عامر بن نابي.
- (٦) جابر بن عبد الله بن رثاب (وهو غير جابر بن عبد الله بن حرام)^(١).



(١) انظر الإصابة (٢/٤٤-٤٥).

بيعة العقبة الأولى

أُثِرَ لِقَاءُ السِّتَةِ وَإِيمَانِهِمْ وَدَعْوَتِهِمْ لِقَوْمِهِمْ عَنْ مَجِيءِ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا (فِيهِمْ مِنْ السِّتَةِ الْأُولَى) وَانْضَافَ إِلَيْهِمْ آخَرُونَ لِيَكُونُوا هُمْ أَصْحَابُ الْعُقْبَةِ الْأُولَى^(١)، وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَقَبْلَهُمُ الزَّهْرِيُّ وَابْنُ إِسْحَاقَ وَابْنُ سَعْدٍ وَغَيْرُهُمْ خَبَرَ الْعُقْبَةَ الْأُولَى: عَنْ عِبَادَةَ ابْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ فِي مَنْ حَضَرَ الْعُقْبَةَ الْأُولَى وَكُنَّا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، فَبَايَعَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى بَيْعَةِ النِّسَاءِ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَفْتَرِضَ الْحَرْبَ، عَلَى الْأَنْشُرِكِ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا نَسْرُقُ، وَلَا نَزْنِي، وَلَا نَقْتُلُ أَوْلَادِنَا، وَلَا نَأْتِي بِيَهْتَانٍ نَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا، وَلَا نَعْصِيهِ فِي مَعْرُوفٍ، فَإِنْ وَفَيْتُمْ فَلَكُمْ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَشَيْتُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَأَمْرُكُمْ إِلَى اللَّهِ تعالى إِنْ شَاءَ عَذَبَ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ^(٢).

وَقَدْ اتَّفَقَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَابْنُ سَعْدٍ عَلَى أَسْمَاءِ أَصْحَابِ الْعُقْبَةِ الْأُولَى الْإِثْنَيْ عَشَرَ، عَشْرَةٌ مِنَ الْخَزْرَجِ وَهُمْ: أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ - عَوْفٌ وَمَعَاذُ أَبْنَاءِ الْحَارِثِ بْنِ رِفَاعَةَ (وَهُمَا أَبْنَاءُ عَفْرَاءَ) - رَافِعُ بْنُ مَالِكِ بْنِ عَجْلَانَ - ذُكْوَانُ بْنُ عَبْدِ الْقَيْسِ بْنِ خَلْدَةَ - عِبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ - يَزِيدُ بْنُ ثَعْلَبَةَ - الْعَبَّاسُ بْنُ عِبَادَةَ بْنِ نَضْلَةَ - عُقْبَةُ بْنُ عَامِرِ بْنِ نَابِيٍّ - قُطْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، وَائْتَانُ مِنَ الْأَوْسِ وَهُمْ: أَبُو الْهَيْثَمِ بْنِ التَّيْهَانَ (وَاسْمُهُ مَالِكٌ) - عَوْيْمُ بْنُ

(١) الْآخَرُونَ فِي الْعُقْبَةِ الْأُولَى هُمْ: عِبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ - ذُكْوَانُ بْنُ عَبْدِ الْقَيْسِ - مَعَاذُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ رِفَاعَةَ - يَزِيدُ بْنُ ثَعْلَبَةَ بْنِ خَزْمَةَ - الْعَبَّاسُ بْنُ عِبَادَةَ بْنِ نَضْلَةَ - أَبُو الْهَيْثَمِ بْنِ التَّيْهَانَ - عَوْيْمُ بْنُ سَاعِدَةَ (انظُر: السِّيَرَةَ لِابْنِ هِشَامٍ (٢/٨٤-٨٥)).

(٢) انظُر: السِّيَرَةَ لِابْنِ هِشَامٍ (٢/٨٣-٨٦)، وَابْنَ سَعْدٍ فِي الطَّبَقَاتِ (١/٢١٩-٢٢٠)، وَقَالَ عَنِ الْإِثْنَيْ عَشَرَ: لَيْسَ فِيهِمْ عِنْدَنَا خِلَافٌ، وَالْبُخَارِيُّ فِي الصَّحِيحِ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ (١/١٠) (٤/٢٥١) (٦/٦١) (٨/١٥-٣٧-١٢٥)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٣/١٣٣٣-١٣٣٤)، وَابْنُ بَيْهَقِيٍّ فِي دَلَائِلِ النَّبُوَّةِ (٢/٤٣٧)، ابْنُ سَيِّدِ النَّاسِ: عَيُونُ الْأَثَرِ (١٥٧-١٥٨).

ساعده ﷺ أجمعين^(١).

ويظهر (جابر) في الستة نفر قبل العقبة الأولى وليس له ذكر في العقبة الأولى (وهو غير جابر بن عبد الله بن حرام)^(٢)، (ومعاذ بن الحارث) في العقبة الأولى ولم يذكر في النفر الستة.

وقد كان لهؤلاء النفر المبايعين في العقبة الأولى شأن وذكر حتى كانوا ينعنون بها فيقال (عقبي)؛ يعني شهد بيعة العقبة الأولى أو الثانية - كما سيأتي -.

وعلى الرغم من أن هذه البيعة (الأولى) لم تكن على الحرب - حيث لم يفرض بعد - بل سميت بيعة (النساء) على وفق ما نزلت عليه بيعة النساء بعد ذلك عام الفتح، ولذا قيل: إن هذه البيعة وقعت عن وحي غير متلو^(٣)، فقد فتحت الباب واسعاً لإسلام أهل المدينة، لا سيما بعد بعث مصعب بن عمير إليهم.

قال ابن سعد: ثم انصرفوا إلى المدينة، فأظهر الله الإسلام، وكان أسعد بن زرارة يجمع بالمدينة بمن أسلم، وكتبت الأوس والخزرج إلى رسول الله ﷺ: ابعث إلينا مقرئاً يقرئنا القرآن، فبعث إليهم مصعب بن عمير العبدري، فنزل على أسعد بن زرارة، فكان يقرئهم القرآن^(٤).

وقدوم مصعب بطلب من الأوس والخزرج ذكره موسى بن عقبة عن الزهري وعروة بن الزبير^(٥)، وكان مصعب ﷺ يسمى المقرئ بالمدينة^(٦).

(١) انظر السيرة لابن هشام (٢/ ٨٤-٨٥)، الطبقات لأبن سعد (١/ ٢٢٠).

(٢) انظر: الاستيعاب بهامش الإصابة (٢/ ١٠٨-١٠٩)، والإصابة (٢/ ٤٤-٤٥).

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية (٤/ ٣٧٦).

(٤) الطبقات (١/ ٢٢٠) (٣/ ١١٨).

(٥) البداية والنهاية (٤/ ٣٧٣).

(٦) ابن هشام: السيرة (٢/ ٨٦).

ورغم حداثة سن مصعب رضي الله عنه، وقصر مدة إقامته بالمدينة، إلا أن أثره كان عظيمًا، فقد أسلم على يديه كثير من أهل المدينة (من الأوس والخزرج) وأسلم بدعوته أكابر منهم، من أمثال: أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ (سيدا قومهما من بني عبد الأشهل من الأوس)، فلما أسلما لم يُمس في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة.

وبعد مدة من إقامة مصعب ودعوته لم تبقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد، وخطمة، ووائل، وواقف، وتلك (أوس الله)، وذلك لوجود شاعر قائد يسمعون إليه وهو (أبو قيس بن الأسلت)^(١).

ويكشف لنا ابن سعد عن همة مصعب وأثره في الدعوة ويقول: وكان مصعب يأتي الأنصار في دورهم وقبائلهم فيدعوهم إلى الإسلام ويقرأ عليهم القرآن، فيسلم الرجل والرجلان، حتى ظهر الإسلام وفشا في دور الأنصار كلها، والعوالي، إلا دورًا من أوس الله^(٢).

ولا بد للمرء أن يقف معجبًا بدعوة هذا الشاب (مصعب بن عمير) وجهاده، وجهوده، وأثره في الدعوة، حتى يستحق أن يلقب بـ(فاتح المدينة)، فالمدينة لم تفتح بالسيف وإنما فتحت بالقرآن، والفتاح هو (مصعب بن عمير رضي الله عنه)، يقول الإمام مالك بن أنس: فُتحت القرى بالسيف، وفتحت المدينة بالقرآن^(٣).



(١) السيرة لابن هشام (٢/٩٠-٩١).

(٢) الطبقات (٣/١١٨).

(٣) علل الدار قطني: (١٥/٥٧)، والموضوعات لابن الجوزي: (٢/٢١٧)، وزوي عن عائشة عن

النبي صلى الله عليه وسلم ولا يصح. ينظر: سؤلات ابن الجنيد ليحيى بن معين: (٣٩٠)، الضعفاء الكبير للعقيلي:

(٤/٥٨)، اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي (٢/١٠٧).

بيعة العقبة الثانية

تؤكد رواية أخرى للإمام أحمد بسنده إلى جابر بن عبد الله (وهو من أصحاب العقبة الثانية)، أن باعث خروج مسلمي الأوس والخزرج إلى مكة وشهود بيعة العقبة الثانية هو تقديم الحماية والنصرة للنبي ﷺ، حيث أئتمروا جميعاً وقالوا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يُطرد في جبال مكة ويخاف، فرحل إليه منهم سبعون رجلاً حتى قدموا عليه، وواعدوه شعب العقبة^(١)، كما تؤكد بنود البيعة وشروطها على هذه الحماية والنصرة، وتتفق رواية الصحيحين مع ابن إسحاق كما في رواية عبادة ابن الصامت (وهو من أصحاب العقبة الثانية) على أنهم بايعوه على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى ألا ننزع الأمر أهله، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم^(٢).

وهكذا تختلف بنود هذه البيعة (الثانية) عن بنود البيعة الأولى، فلتن كانت الأولى على تأسيس التوحيد وعدم الإشراك بالله شيئاً، والتزام حدود الشرع، وعدم الإتيان بالبهتان...

فبنود العقبة الثانية على السمع والطاعة والحماية والنصرة، أو هي باختصار (بيعة الحرب) كما سماها ابن إسحاق^(٣)، ولخطورة هذه البيعة وتكاليفها فلا بد من إحاطتها

(١) المسند (٣/ ٣٢٢-٣٢٣-٣٩٤) وقال الهيثمي رواه أحمد والبخاري وأحمد رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٦/ ٤٦) ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي: المستدرک (٢/ ٦٢٤-٦٢٥) وقال ابن كثير إسناد جيد على شرط مسلم ولم يخرجه (البداية والنهاية ٤/ ٣٩٩) وحسن ابن حجر إسناد أحمد وصححه الحاكم وابن حبان: الفتح (٧/ ٢٢٢).

(٢) صحيح البخاري (٨/ ١٢٢)، ومسلم (٣/ ١٤٧٠)، السيرة لابن هشام (٢/ ١٠٨).

(٣) السيرة لابن هشام (٢/ ١٠٨).

بالسرية والكتمان حتى لا تُحْبَطَ قبل بلوغ مقاصدها، فالمبايعون يخرجون حُجَّاجًا مع قومهم (وهم أخلاط من المسلمين والمشركين وغالبهم من المشركين)، حيث تفيد رواية عند ابن سعد أن مجموع من خرج للحج (خمسمائة) وكان السبعون منهم في خمر الأوس والخزرج^(١) (والخَمَرُ) أي دهماؤهم^(٢)، والمبايعون يتسللون كتسلل القطا حين أرادوا الذهاب لموعد النبي ﷺ في العقبة^(٣)، وكانوا يخرجون الرجل والرجلان (حتى لا يشعر أحد بحركاتهم)، وقد سبقهم النبي ﷺ للمكان حتى لا يطول انتظارهم^(٤)، أو سبقوه كما في رواية ابن إسحاق^(٥)، فلو كُشِفَ اجتماعهم لم يكن غريبًا حيث لا أحد غريب معهم والمكان المقترح للقاء (العقبة في منى) والزمان (أوسط أيام التشريق)^(٦)، حيث تجتمع وفود الحجيج هناك، ولا يلفت الأنظار اجتماع وسط الحشود الكثيرة والناس مشغولون بمناسكهم وفي شعب خلف جبل العقبة.

ومن جانب النبي ﷺ يحضر العقبة الثانية العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ (سواء كان مسلمًا يخفي إسلامه، أو هو على دين قومه كما هو ظاهر الروايات)^(٧)، حتى يتوثق لابن أخيه من أصحاب البيعة.

ويطلب النبي ﷺ لضمان الوفاء بينود البيعة من الأوس والخزرج كفلاء ويقول: أخرجوا لي منكم اثني عشر نقيبًا ليكونوا على قومهم بما فيهم، وفي رواية: أنه ﷺ قال

(١) الطبقات (١/٢٢١).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٢/٧٧).

(٣) ابن هشام: السيرة (٢/٩٥).

(٤) الطبقات (١/٢١١).

(٥) السيرة لابن هشام (٢/٩٥).

(٦) د. يحيى اليعقوبي: رسول الله في مكة (ص ٣٠٠-٣٠١)، ورواه أحمد (ح ١٥٧٩٨).

(٧) ابن هشام: السيرة (٢/٩٥)، وانظر لتفصيل إسلام العباس ومتى أسلم: مرويات إسلام العباس ﷺ

أ.د. سليمان بن حمد العودة.

للنقباء: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى، وأنا كفيل على قومي - يعني المسلمين - قالوا: نعم^(١).

وفي المقابل يحتاط المبايعون لأنفسهم ويقول أحدهم (أبو الهيثم بن التيهان): يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبلاً، وإننا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: بل الدم بالدم، والهدم بالهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتهم وأسالم من سالمتم^(٢).
وحين قال أحد المبايعين (العباس بن عباد بن نضلة): والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلنّ على أهل منى غداً بأسيافنا؟ ردّ عليه النبي ﷺ: لم تؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم^(٣).

وفي ذلك درس عظيم لكبح جماح العواطف، وعدم الاستعجال، والأناة في الأمور لتحقيق المصالح الشرعية وحماية الدعوة من نزق المتربصين بها وبأهل الإسلام الدوائر.

ويلفت النظر - في هذه البيعة - أن النبي ﷺ حين تكلم، تلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام^(٤) وهذا مؤشر إلى عظمة الهدف ووضوحه، فوحي الله المنزل والهدى والنور والبرهان يبدأ به، والبيعة لله ونصرة للإسلام، وليست انتصاراً لقبيلة ولا تعصباً أو تحيزاً لفئة جاهلية.

(١) ابن هشام: السيرة (٢/٩٧-١٠٠)، وحسن إسناده الرواية مع إرسالها د. السعود في رسالة الهجرة (ص ٨١).

(٢) أخرجه أحمد (٣/٤٦٠-٤٦٢)، وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع: مجمع الزوائد (٦/٤٢-٤٥)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي المستدرک (٢/٦٢٤-٦٢٥)، وانظر صحيح السيرة النبوية: إبراهيم العلي (ص ١١١-١١٢).

(٣) ابن هشام: السيرة (٢/١٠٢).

(٤) ابن هشام: السيرة (٢/٩٥-٩٦).

كما يلفت النظر في هذه البيعة كثرة العدد وتنوعهم، فهم سبعون رجلاً يزيدون رجلاً أو رجلين^(١)، وعند ابن إسحاق: ثلاثة وسبعون رجلاً، وامرأتان هما: نسيبة بنت كعب (أم عمارة)، وأسماء بنت عمرو بن عدي (أم منيع)^(٢)، فالأمر جلل، والقرار الذي سيتخذ كبير، ولا بد من الاجتماع والحشد للموافقة عليه والالتزام بمآلاته وأثاره المستقبلية.

ومع كل الاحتياطات والتحسب لإخفاء البيعة عن المشركين من الطرفين (أهل مكة والمدينة)، فقد شاء الله وقدر أن ينكشف، وصرخ أذب العقبة (شيطان) من رأس العقبة بأنفذ صوت سمع وقال: يا أهل الجبابب (المنازل) هل لكم في مذمم (يعنون محمداً ﷺ) والصبابة (جمع صابئ) لمن أسلم معه، قد اجتمعوا على حربكم، فقال ﷺ: هذا أذب العقبة، أسمع عدو الله، أما والله لأفرغن لك^(٣).

ولكن الله وقى المسلمين شرورها، وحمى نبيه والمؤمنين معه من كيد الفجار، وذهب كفار قريش إلى كفار الأوس والخزرج في منازلهم يسألونهم عن الخبر، فانبعث مشركو الأوس والخزرج يحلفون ما كان من هذا شيء، وقد صدقوا إذ لم يعلموا، أما المبايعون فباتوا ينظر بعضهم إلى بعض...

وحين نفر الناس من منى وتنطس القوم الخبر، فوجدوه قد كان، طلبوا القوم فلم يدركوا منهم إلا (سعد بن عباد) بأذاخر -موضع قريب من مكة- (والمنذر بن عمرو)، فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فأخذوه وربطوا يديه إلى عنقه، ثم أقبلوا

(١) ابن سعد الطبقات (١/٢٢١).

(٢) السيرة لابن هشام (٢/٩٥).

(٣) رواه أحمد ح (١٥٧٩٨)، وابن هشام: السيرة (٢/١٠١)، وصحح إسنادها ابن حجر في الإصابة (١٢/١١٦)، كما صححها ابن حبان: الفتح (٧/٢٢١)، وغيرهم انظر: د. سليمان العودة (السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق ص ٣٣١).



به حتى أدخلوه مكة يضربونه، ويجذبونه بجمته - وكان ذا شعر كثير - ولم يخلصه منهم إلا (جبير بن مطعم بن عدي) (والحارث بن حرث بن أمية) لجوار كان أجاره من قبل لتجارتهما^(١)، وكذلك يحفظ الله أوليائه ويدافع عن الذين آمنوا ويخسر الشيطان وحزبه.

بقي أن نشير إلى أهمية بيعة العقبة الثانية وفضلها وآثارها في عز الإسلام والمسلمين، حتى قورنت ببدر وقال كعب بن مالك رضي الله عنه (وهو أحد المبايعين): ولقد شهدت مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين توثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها^(٢).

ويعلق ابن حجر على مقارنة العقبة ببدر ويقول: لأن من شهد بدرًا وإن كان فاضلاً بسبب أنها أول غزوة نصر فيها الإسلام، لكن بيعة العقبة كانت سبباً في فشو الإسلام، ومنها نشأ مشهد بدر^(٣).

وروى البيهقي بإسناد قوي عن الشعبي، ووصله الطبراني من حديث أبي مسعود الأنصاري وأخرجه أحمد من الوجهين قال: انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم معه العباس (عمه) إلى السبعين من الأنصار عند العقبة، فقال له أبو أمامة - أسعد بن زرارة - : سَلْ يا محمد لربك ولنفسك ما شئت، ثم أخبرنا مالنا من الثواب؟ قال: أسألكم لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأسألكم لنفسي ولأصحابي أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما تمنعون أنفسكم، قالوا: فما لنا؟ قال: الجنة، قالوا: ذلك لك^(٤).

(١) ابن هشام: السيرة (٢/١٠٤).

(٢) صحيح البخاري ح (٣٨٨٩)، ومسلم ح (٢٧٦٩).

(٣) الفتح (٧/٢٢١).

(٤) ابن حجر: الفتح (٧/٢٢٣)، أحمد ح (١٧٠٧٨).

وحيث إن قائمة الشرف لأهل العقبة (٣٧ رجلاً وامرأتان) تستحق أن تذكر وتشهر، فقد سماهم ابن إسحاق ونسبهم إلى قبائلهم^(١)، ثم أحصى من شهدها من الأوس ومن الخزرج فقال: فجميع من شهد العقبة من الأوس أحد عشر رجلاً^(٢)، وهذا يعني أن البقية اثنان وستون رجلاً، وامرأتان من الخزرج^(٣).

أما شامة قائمة الشرف - وكلهم شامات - فهم النقباء، وهؤلاء كذلك أفردهم ابن إسحاق بذكر وهم تسعة من الخزرج: ١- أسعد بن زرارة ٢- سعد بن الربيع ٣- عبد الله بن رواحة ٤- رافع بن مالك بن العجلان ٥- البراء بن معرور ٦- عبد الله بن عمرو بن حرام ٧- عبادة بن الصامت ٨- سعد بن عبادة ٩- المنذر بن عمرو، وثلاثة من الأوس ١٠- أسيد بن حضير ١١- سعد بن خيشمة ١٢- رفاعة بن عبد المنذر، وتعقبه ابن هشام (على الأخير) فقال: وأهل العلم يعدون فيهم (أبا الهيثم بن التيهان) ولا يعدون رفاعة^(٤).

وأخيراً فيستحق هؤلاء نفر وبقية قومهم من الأوس والخزرج المؤمنين أن يطلق عليهم القرآن (الأنصار) لنصرتهم للإسلام ولنبي الإسلام ﷺ، وقبلهم المهاجرون الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضل الله ورضوانه، ألا إنه لا يحب هؤلاء وأولئك إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق، اللهم إنا نشهدك على محبتهم ونترضى عليهم، فاحشرنا في زمرتهم، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.



(١) ابن هشام: السيرة (٢/١٠٩-١٢٠).

(٢) ابن هشام: السيرة (٢/١١٠).

(٣) وإن كان ابن إسحاق لم ينص على ذلك.

(٤) ابن هشام: السيرة (٢/٩٧-٩٨).

الهجرة إلى المدينة

حدث الهجرة إلى المدينة حدث عظيم، وتحول كبير في مسار الدعوة، ومستقبل الإسلام والمسلمين، وهو مرتبط بالأحداث التي قبله، ولا سيما بيعة العقبة الثانية، ومرتبطة كذلك بظروف المسلمين بمكة، وأحوالهم بالمدينة، ويمكن إجمال أسباب الهجرة للمدينة وبواعثها بما يأتي:

(١) اضطهاد المؤمنين وفتنتهم: فقد اضطهدت قريش المؤمنين بمكة حتى فتنواهم عن دينهم ونفوسهم من بلادهم، فهم ما بين مفتون في دينه ومعذب في أيديهم، وبين هارب في البلاد فراراً منهم، منهم بأرض الحبشة، ومنهم بالمدينة، وفي كل وجه كما يقول ابن إسحاق^(١)، ويُصرح أحد المؤمنين بمكة (بلال) ﷺ بارتباط الأذى بالهجرة ويقول: اللَّهُمَّ العن شيبه بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأميه بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء (المدينة)^(٢)، وهذا الأذى لم يكن قصرًا على الموالى كبلال، بل تجاوز إلى أسيادهم، فهذا أبو بكر ﷺ يستأذن النبي ﷺ في الهجرة إلى المدينة حين اشتد عليه الأذى كما في رواية أخرى عند البخاري^(٣)، ورغم شدة الأذى فأحشى ما يخشاه المؤمنون بمكة أن يُفتنوا في دينهم وهو أغلى ما يملكون، وتُعبّر أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن هذا المعنى وتقول: لا هجرة اليوم، كان المؤمنون يفرُّ أحداهم بدينه إلى الله وإلى رسوله ﷺ مخافة أن يُفتن فيه، فأما

(١) ابن هشام: السيرة (٢/١٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٢/٢٢٤-٢٢٥)، ومسلم ح (١٣٧٦) بالإسناد نفسه لكن لم يذكر المتن.

(٣) (٤٣/٥).

اليوم فأظهر الله الإسلام، فالمؤمن يعبد ربه حيث شاء، ولكنه جهاد ونية^(١).

(٢) الإذن في القتال وبيعة العقبة الثانية: قال ابن إسحاق: فلما أذن الله تعالى لنبيه في الحرب، وبايعه هذا الحي من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن تبعه، وأوى إليهم من المسلمين، أمر رسول ﷺ أصحابه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والحقوق بإخوانهم من الأنصار^(٢)، ويقول ابن سعد: لما صدر السبعون (أصحاب العقبة الثانية) من عند رسول الله ﷺ طابت نفسه، وقد جعل الله له منعة وقومًا أهل حرب، وعُدة، ونجدة... واستأذنه المؤمنون بالهجرة فأذن لهم بالهجرة إلى المدينة^(٣).

وعند الترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم ليهلكنَّ، فأنزل الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ...﴾ [الحج: ٣٩]، فقال أبو بكر: لقد علمتُ أنه سيكون قتال^(٤).

(٣) تكذيب قريش للنبي ﷺ والتأمر عليه: استمرت قريش في عدوانها وتكذيبها للنبي ﷺ، ولكن الأمر زاد سوءًا وشدة حين علموا بنصرة أهل المدينة له (وهم قوم أهل حلقة وبأس، والمدينة دار منعة) فخافوا أن يخرج النبي ﷺ إليهم، فاجتمعوا وتآمروا في (دار الندوة) واتفقوا بعد المداولة على أن يأخذوا من كل قبيلة من قريش غلامًا جليدًا ويعطوه سيفًا صارمًا، فيضربوه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل، وكان قد حضرهم إبليس على

(١) صحيح البخاري (٤/٢٥٣) (٥/٩٨).

(٢) ابن هشام: السيرة (٢/١٢٢).

(٣) الطبقات (١/٢٢٥-٢٢٦).

(٤) وصححه الألباني (انظر صحيح سنن الترمذي (٣/٧٩)).

هيئة شيخ نجدي كبير، فقال: هذا والله هو الرأي^(١).

ولعلَّ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ما يشهد للتأمر والمكر الكبار^(٢).

وعند البخاري ومسلم من حديث سعد بن معاذ رضي الله عنه ومقولته: اللَّهُمَّ إنك تعلم أنه ليس أحد أحبَّ إليَّ أن أجاهدكم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه من قريش^(٣)، وفي السنن من حديث عدي بن حمراء قال: رأيت النبي صلى الله عليه وآله واقفاً على الحزورة^(٤)، فقال: (والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت)^(٥)، ما يؤكد تكذيب قريش للنبي صلى الله عليه وآله وإخراجه من مكة.

٤ ابتغاء رضوان الله والمجاهدة في سبيله: ومع ما سبق من أسباب ودوافع للهجرة، فثمة دافع عظيم للهجرة لم يغيب عن المؤمنين وهو ابتغاء رضوان الله وطلب الأجر، وتحقيق المجاهدة في سبيله، ونشر رسالة الإسلام،

(١) ابن سعد الطبقات (١/٢٢٧)، ابن هشام في السيرة (٢/١٣٦-١٣٨)، والرواية وأن وردت بعدة طرق مرسله عن ابن إسحاق، والزهري، وعروة، فقد وردت متصلة الإسناد إلى عائشة (كما في رواية ابن سعد السابقة)، وأبو نعيم: (دلائل النبوة/٦٣-٦٤) وإلى ابن عباس، كما في رواية ابن إسحاق (السابقة) وعند الطبري عن مجاهد عن ابن عباس (٢/٣٧٠) من رواية سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق، فلعلها تصح بتعدد هذه الطرق، وانظر: محقق سيرة ابن هشام (٢/١٣٦)، د. أكرم العمري: (السيرة النبوية الصحيحة/٢٠٧)، مهدي رزق الله: السيرة النبوية (٢٦٥).

(٢) انظر تفسير الآية عند الطبري في تفسيره (٦/٢٢٨)، والقرطبي في تفسيره (٧/١٩٧) وقال هذا إخبار بما اجتمع عليه المشركون في دار الندوة.

(٣) صحيح البخاري (٤/٢٥٣)، ومسلم ح (١٧٦٩).

(٤) الحزورة: هو موضع بمكة عند باب الحناتين، وهو سوق مكة (انظر: ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر ١/٣٨٠)، ومحمد شراب: المعالم الأثرية في السنة والسيرة (ص ١٠٠).

(٥) رواه الترمذي ح (٣٩٢٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وابن ماجه ح (٣١٠٨)، والدارمي ح (٢٥٥٢)، وأحمد ح (١٨٧١٥).

فالرسالة ليست لأهل مكة وحدهم، بل هي رحمة للعالمين، وحيث قبلها أهل المدينة فينبغي أن تكون المدينة وأهلها المؤمنون منطلقاً للدعوة، وهذا (خياب) ﷺ يؤكد نُبل هذا الهدف ويقول: هاجرنا مع رسول الله ﷺ نبتغي وجه الله، ووجب أجرنا على الله^(١).

والمأمل في أحداث الهجرة، وظروف المدينة (حين هاجر إليها المهاجرون) يدرك أن الهجرة لم تكن سياحة من بلد إلى بلد آخر أجمل وأصح وأنظف، بل العكس هو الصحيح، حيث كانت المدينة (أوباً) أرض الله كما جاء على لسان عائشة رضي الله عنها^(٢).

ولم يكن المهاجرون بمنأى عن هذا الوباء، بل أصابهم، ووعك أبو بكر، وبلال رضي الله عنهما وكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرئ مصبح في أهله

والموت أدنى من شرك نعله

أما بلال فكان إذا أقلع عنه الحمى يقول (متمنياً مكة وربوعها وزروعها):

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلة

بوادٍ وحوالي إذخر وجليل

وهل أردن يوماً مياه مجنة

وهل يبدون لي شامة وطفيل^(٣).

(١) البخاري (٧٨/٢) (٢٥٣-٢٦١) (٢٩/٥-٣٠)، ومسلم (٦٤٩/٢).

(٢) انظر البخاري (٢٢٥/٢)، وابن هشام (٢٧١/٢).

(٣) انظر البخاري: (٢٢٤-٢٢٥/٢).

وبلغ أثر حمى المدينة بالصحابة المهاجرين أنهم جهدوا بالمرض، حتى كانوا ما يصلّون إلا وهم قعود، حتى إذا علموا أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم، تجشموا القيام على ما بهم من الضعف والسقم، التماسَ الفضل^(١).

ومع أن النبي ﷺ صرف الله عنه تلك الحمى^(٢)، إلا أنه عليه الصلاة والسلام كان يحس بالآمهم ويدعو لهم: (اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحَبْنَا مَكَةَ أَوْ أَشَدَّ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدَّنَا، وَصَحْحِهَا لَنَا، وَانْقِلْ حَمَّهَا إِلَيْنَا الْجَحْفَةَ... فَكَانَ بَطْحَانَ (مِنْ أودية المدينة) يَجْرِي نَجْلًا؛ تَعْنِي مَاءَ آجِنًا)^(٣).



(١) ابن هشام: السيرة (٢/٢٧٤).

(٢) ابن هشام: السيرة (٢/٢٧٤).

(٣) البخاري: (٢/٢٢٥) (٧/١١-١٦) من حديث عائشة رضي الله عنها، ومسلم ح (١٣٧٦).

المدينة لماذا؟ وأول من هاجر

ومع ظروف المدينة الصعبة (صحيًا) فإنها لم تكن معوقًا عن الهجرة، ومع كون أهلها بايعوا النبي ﷺ وناصروه فلم يكن ذلك وحده سببًا لاختيار المدينة للهجرة، ففوق ذلك قدر واختيار إلهي، فقد ثبت أن اختيارها مكانًا للهجرة برؤيا رآها رسول الله ﷺ - ورؤيا الأنبياء حقّ -، فقد قال عليه الصلاة والسلام: (رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي أنها اليمامة أو هجر فإذا هي المدينة يثرب)^(١)، وفي رواية أخرى: (إني أريتُ دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين) وهما الحرتان^(٢)، وكان النبي ﷺ أري دار الهجرة بصفة تجمع المدينة وغيرها، ثم أري الصفة بالمدينة فتعينت (قاله ابن التين)^(٣).

أما أوائل المهاجرين، ففي البخاري عن البراء ﷺ: (أول من قدم علينا مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، ثم قدم علينا عمار بن ياسر، وبلال ﷺ)^(٤).

وتضيف رواية أخرى: (أول من قدم علينا مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، وكانوا يُقرئون الناس، فقدم بلال، وسعد، وعمار بن ياسر، ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي ﷺ ثم قدم النبي ﷺ)^(٥).

(١) البخاري (٤/٢٥٢-٨/٨١)، ومسلم (٤/١٧٧٩).

(٢) البخاري (٤/٢٥٥).

(٣) الفتح (٧/٢٣٤).

(٤) (٤/٢٦٣-٦/٨٢).

(٥) البخاري (٤/٢٦٤).

وعند ابن إسحاق، وابن سعد: أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ من قريش من بني مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد - واسمه عبد الله - هاجر قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة، وكان قدم على رسول الله ﷺ من أرض الحبشة، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار، خرج إلى المدينة مهاجراً^(١).

وجمع ابن حجر بين أولوية مصعب، وأبي سلمة، بأن أبا سلمة خرج لا لقصد الإقامة بالمدينة بل فراراً من المشركين، بخلاف مصعب فإنه خرج إليها للإقامة بها، وتعليم من أسلم من أهلها بأمر النبي ﷺ، فلكل أولوية من جهة^(٢)، ويمكن الجمع كذلك على اعتبار هجرة أبي سلمة بأهل بيته، وعند مسلم من حديث أم سلمة ؓ قالت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ^(٣).

ويقال: إن أول ضعيقة قدمت المدينة أم سلمة، ويقال: إنها أم عبد الله بنت أبي حثمة زوج عامر بن ربيعة^(٤).

هجرة آل أبي سلمة:

وحيث اختصر مسلم هجرة أبي سلمة وأهل بيته، فقد فصل ابن إسحاق وكشف لنا حجم المعاناة والبلاء الذي لقيه وزوجه وابنتهما في سبيل الهجرة إلى المدينة، وأنه رحلها على بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة (رهط أم سلمة) قالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا علام نتركك تسير بها في البلاد! فأخذوها (وولدها) منه، فغضب (بنو عبد الأسد) رهط أبي سلمة وقالوا: لا والله لا نترك ابنتنا (سلمة) عندها، إذا نزعتموهما من صاحبتنا، فتجاذبوا (سلمة) بينهم، حتى خلعوا يده،

(١) ابن هشام السيرة (٢/١٢٢)، ابن سعد: الطبقات (١/٢٥٥).

(٢) الفتح (٧/٢٦١).

(٣) مسلم (٢/٦٣٢).

(٤) البيهقي: دلائل النبوة (٢/٤٦٠)، الإصابة (١٣/٢٢٣).

وانطلق به بنو عبد الأسد، قالت: وحسبني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة، ففرق بين الزوجة، وزوجها، وابنها، فكانت أم سلمة تخرج كل غداة وتجلس بالأبطح فما تزال تبكي حتى تمسي، سنة أو قريباً منها^(١)، حتى رق لها رجل من بني عمها (من بني المغيرة)، فقال لهم: ألا تخرجون هذه المسكينة؟ فرقم بينها وبين زوجها وولدها، فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت، ثم ردّ بنو عبد الأسد إليها ابنها، فارتحلت ووضعت (سلمة) في حجرها تريد المدينة، وما معها أحد من خلق الله، حتى إذا كانت (بالتنعيم) لقيت (عثمان بن طلحة) فقال: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: أريد زوجي بالمدينة، فقال: أومعك أحد؟ قالت: لا، قال: والله لا أتركك، وأخذ خطام بعيرها وانطلق يهوي بها، تقول أم سلمة: والله ما صحبت رجلاً من العرب قط أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري فحطّ عنه، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحى عني إلى الشجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الروحاق قام إلى بعيري فقدمه فرحله، ثم استأخر عني وقال: اركبي، فإذا ركبت أخذ بخطامه فقادته حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجك في هذه القرية؟ وكان زوجها نازلاً بها، فادخلها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة^(٢).

والقصة تحمل دلالات وعبر عدة، منها: توصيف حجم المعاناة والبلاء الذي لقيه المهاجرون في سبيل الله، ومشاركة المرأة وصبرها في ميدان البلاء، وكرم وطيب معدن نفوس تأبى الضيم وتتنصر للمظلوم، وإن لم تكن على دينه، والرجل الذي رق لها (عثمان بن طلحة) والذي أخذ بخطام بعيرها نموذج لهذه الأخلاق الكريمة.

(١) وجدت عند ابن حجر: سبعاً أو قريباً (الإصابة، ١٣/٢٢٢).

(٢) السيرة لابن هشام (٢/١٢٣، ١٢٤)، وقد صرح ابن إسحاق بالسماع، وسند رجاله ثقات، انظر: صحيح السيرة النبوية/ العلي (ص ١١٦-١١٧) د أكرم العمري/ السيرة النبوية الصحيحة (٢٠٤).

وقد عبّرت أم سلمة رضي الله عنها عن هذا المعنى وقالت: والله ما أعلم أهل بيتٍ في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحبًا قطّ كان أكرم من عثمان بن طلحة^(١).

هجرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن معه وغيرهم من المهاجرين:

يحيط بهجرة عمر رضي الله عنه نوع من التهويل والتعظيم - وشخصية عمر رضي الله عنه تغني عنها، والروايات الصحيحة تخالفها - فقد اشتهر عند عوام الناس أنه (وحده) هاجر علناً، وقال لقريش - معلناً هجرته ومتحدياً لهم -: (شاهت الوجوه) من أراد أن تثكله أمه، ويستم ولده، ويرمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي، فلم يتبعه أحد^(٢)، وقد ضُعفت الرواية سنداً^(٣)، وفي متن الرواية نكارة حيث تخالف ما صحّ من كون عمر رضي الله عنه هاجر كغيره من المسلمين سرّاً، وقد نصّ على سرية هجرة عمر ابن سعد في طبقاته^(٤)، وسياق ابن إسحاق كذلك لهجرة عمر يُفهم أنه أخفى هجرته، وأتعد هو وعياش بن ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل في موضع يقال له (التناضب من إضاءة بني غفار)^(٥) فوق سرف، وقلنا: أيّنا لم يصبح عندها فقد حُبس، فليمض صاحباه، إلخ الرواية^(٦).

(١) السيرة لابن هشام (٢/١٢٤).

(٢) انظر: أسد الغابة (٤/١٥٢)، سبل الهدى والرشاد (٣/٣١٥)، شرح المواهب (١/٣١٩).

(٣) لوجود ثلاثة مجاهيل في سندها.. انظر الألباني: دفاع عن الحديث النبوي والسيرة ص ٤٣، د. سليمان السعود في رسالة الهجرة (١١٣).

(٤) (٣/٢٧١).

(٥) التناضب وإضاءة بني غفار: موضع واحد، والأضأة أرض تُمسك الماء فيتكون فيها الطين والتناضب شجرات في هذه الأضأة.. وقد قام بجانبها الغربي اليوم حي على ١٣ كيلاً من مكة (معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية. لعاتق البلادي: ص ٦٥).

(٦) أنظر: السيرة لابن هشام (٢/١٢٩)، ورواها البزار ورجاله ثقات كما في مجمع الزوائد (٦/٦١)، وصحح ابن حجر إسناده: الإصابة (١٠/٢٤٦).

وحيث ورد في رواية البخاري - السابقة - أن عمر رضي الله عنه هاجر ومعه عشرون من أصحاب النبي ﷺ، فقد كشف لنا هو وابن إسحاق أسماء بعضهم ومنهم ١ - عياش بن أبي ربيعة، ٢ - أخوه زيد بن الخطاب ٣ - عبد الله بن عمر ٤ - زينب بنت مظعون الجمحية (زوجة عمر) ٥، ٦ - عمرو، وعبد الله، ابنا سراقه بن المعتمر ٧ - خنيس بن حذافة السهمي (زوج ابنته حفصة) ٨ - سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل (زوج أخته فاطمة) ٩ - واقد بن عبد الله التميمي (حليف) ١٠، ١١ - خولي بن أبي خولي، ومالك بن أبي خولي (حليفان لهم) ٢١، ٣١، ٤١، ٥١ - بنو البكير الأربعة، إياس، وعامل، وعامر، وخالد بن بكير (حلفاؤهم)^(١)، ولعل بقية العشرين كانوا من أتباعهم كما قال ابن حجر^(٢).

كما ذكر ابن إسحاق أسماء مهاجرين آخرين ومنازلهم أمثال: حمزة، وزيد بن حارثة، وأبو مرثد، وعبيدة بن الحارث، والطفيل بن الحارث، ومسطح بن أثانة، وسويط بن سعد، وطليب بن عمير، وخباب (مولى عتبة بن غزوان)، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وأبو سبرة بن أبي رهم، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وسالم مولى أبي حذيفة، وعتبة بن غزوان، وعثمان بن عفان، ونزل (الأعزاب) من المهاجرين على سعد بن خيثة لأنه كان عزباً^(٣).

وغير هؤلاء ممن شملتهم قوائم المهاجرين، وكانوا رجالاً، ونساءً، وصغاراً، وكباراً، حتى بقيت بيوت بمكة تصفق الرياح أبوابها، ولم يبق بمكة من المؤمنين إلا مفتون أو محبوس أو مريض أو ضعيف عن الخروج^(٤)، عدا من استبقاهم النبي ﷺ

(١) أنظر: صحيح البخاري (٤/٢٦١)، ابن هشام: السيرة (٢/١٣٢).

(٢) الفتح (٧/٢٦١).

(٣) السيرة لابن هشام (٢/١٣٣-١٣٥).

(٤) ابن هشام: السيرة (٢/١٦٤)، وابن سعد: الطبقات (١/٢٢٦).

كأبي بكر، وعلي وغيرهما، وبقي بمكة من لم يستطع الهجرة لضعفه أو حبسه (غير من ذكر)، فقد نقل ابن المنذر، والطبري: كان قوم من أهل مكة قد أسلموا وكانوا يخفون إسلامهم فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: هؤلاء كانوا مسلمين فأكرهوا فاستغفروا لهم^(١).

ولعل من هذا قول ابن عباس رضي الله عنه: كنت أنا وأمي ممن عذر الله^(٢)، ولعل منهم (أعني من تأخرت هجرته) زينب بنت رسول الله ﷺ، وقد قال ابن كثير: إنها أسلمت حين بُعث رسول الله ﷺ وهاجرت بعد بدر بشهر^(٣).

أنصار مهاجرون:

ومما يلفت النظر خروج مجموعة من الأنصار (من أصحاب العقبة الثانية) إلى مكة حين قدم أول المهاجرين إلى قباء، حتى قدموا مع المهاجرين، فهم مهاجرون أنصاريون - كما قال ابن سعد - وأسماءهم: ذكوان بن عبد قيس، وعقبة بن وهب بن كلدة، والعباس بن عباد بن نضلة، وزباد بن لييد^(٤).

إنه الشوق للقاء الأحبة، ومشاركة الأنصار للمهاجرين في بلائهم وفضل

هجرتهم!



(١) الفتح (٨/٢٦٣).

(٢) البخاري (٤٥٨٨).

(٣) البداية والنهاية (٥/٢٦١).

(٤) الطبقات (١/٢٢٦).

هجرة النبي ﷺ ورفقته إلى المدينة

زمن الهجرة:

مكث رسول الله ﷺ بمكة ثلاثة عشر عامًا ثم أمر بالهجرة^(١)، وهذا هو المشهور وهو قول الجمهور^(٢).

أما عن يوم خروجه من الغار فقد قال الحاكم: تواترت الأخبار أن خروجه كان يوم الاثنين، ودخول المدينة يوم الاثنين^(٣)، وكانت هجرته ﷺ في شهر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة من بعثته^(٤)، واستغرقت الهجرة خمسة عشر يومًا، منها ثلاثة أيام في الغار.

التخطيط والاحتياط:

محمد ﷺ رسول الله ومعلم الأمة وقدوتها، وسيرته عمومًا دليل للتأسي والاعتبار، وهجرته ﷺ للمدينة نموذج للتخطيط والتحوط - رغم حفظ الله له وعصمته من الناس - ويُستدل على هذا التخطيط والتحوط بالأمور الآتية:

(أ) إخفاء خبر الهجرة:

فأبو بكر ﷺ أقرب الناس للنبي ﷺ، وقد منعه من الهجرة مع المؤمنين ليكون صاحبه في الهجرة، ومع ذلك حين أذن له بالخروج إلى المدينة أتى بيت أبي بكر في

(١) البخاري (٢٣٨/٤)، ومسلم (١٨٢٦/٤)، وابن إسحاق: السيرة (تحقيق سهيل زكار ص ١٣٤).

(٢) الفتح (١٥١/٨).

(٣) الفتح (٢٣٦/٧).

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية (٤٤٣/٤).

وقت لم يكن يأتي فيه (في نحر الظهيرة في الهاجرة) على هيئة المتخفي (متقنعا) حتى قال أبو بكر: والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر! وزيادة في التحوط يقول ﷺ لأبي بكر - وهو في بيته -: اخرج من عندك، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك، وفي رواية (إنما هم ابتائي) (وقد كان أنكحه عائشة رضي الله عنها)، ثم قال ﷺ بعد أن اطمأن واحتاط: (إني أذن لي في الخروج)، فقال أبو بكر: الصحبة بأبي وأمي أنت يا رسول الله، قال ﷺ: نعم، ثم بدأ أبو بكر وآله ﷺ بالاستعداد للرحلة (فجهزناهما أحث - يعني أسرع - الجهاز)، وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاقين^(١).

وقال ابن إسحاق: لم يعلم - فيما بلغني - بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق، وآل أبي بكر^(٢).

(ب) الذهاب لغار ثور والخروج منه:

يقع غار ثور في جنوب مكة (في الاتجاه المعاكس للمدينة) أي خلاف ما يتوقعه القرشيون الباحثون عن النبي ﷺ، وتؤكد الروايات أنه ﷺ خرج وأبو بكر ولحقا بغار في جبل ثور (وهو على طريق اليمن)^(٣)، فمكثا فيه ثلاث ليالٍ (حتى يهدأ الطلب، وفي مكان آمن)^(٤)، وزيادة في الاحتياط كان خروجهما للغار ليلاً، كما نقله ابن هشام عن الحسن بن أبي الحسن البصري^(٥)، ويُفهم من سياق ابن سعد^(٦)، وكذلك كان الخروج

(١) صحيح البخاري (٢٤/٣) (٢٥٥/٤) (٤٣/٥) (٣٩/٧) - (٩١)، ابن هشام: السيرة (١٤٣/٢).

(٢) السيرة لابن هشام (١٤٢/٢).

(٣) كما في معجم البلدان (٨٦/٢).

(٤) انظر: صحيح البخاري: (٢٤/٣) (٢٥٥/٤) (٤٣/٥) (٣٩/٧) - (٩١)، وابن هشام السيرة (١٤٢/٢).

(٥) السيرة (١٤٣/٢).

(٦) الطبقات (٢٢٨/١).



من الغار ليلاً، وقد سرىا ليلتهم ويوم غد حتى قام قائم الظهيرة^(١).

(ت) علي عليه السلام يمّوه على المشركين:

فأدى علي عليه السلام بنفسه حين أمره النبي صلى الله عليه وآله أن ينام في فراشه (ليلة ترصد المشركين له) وتسجى بيرده الحضرمي، حتى يمّوه على المشركين وقد مكث المشركون يرصدونه، حتى إذا اكتشفوا أنه عليّ عليه السلام سبّوه وقالوا: إنك اللثيم؟^(٢)، وما هو بلثيم بل عظيم، وكما هي بطولة وفداء من عليّ عليه السلام - مع أنّ النبي صلى الله عليه وآله طمأنه بأنه لن يصل إليه من المشركين ما يكره - فهو حسن تخطيط وتفويت الفرصة على المشركين من قبل النبي صلى الله عليه وآله.

(ث) خدمات آل أبي بكر وأدوارهم:

• وفوق ما تقدم من دور (ذات النطاقين)، فبعد الله بن أبي بكر - وهو غلام شاب ثقف لقن - بيت عندهما في الغار، فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح من قريش بمكة كأنه بابت، فلا يسمع أمرًا يكتادون به إلا وعاه حتى يأتيهم بخبر ذلك حين يختلط الظلام^(٣).

• وعامر بن فهيرة (مولى أبي بكر) يرعى عليهما منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسل - وهو لبن منحتهما ورضيفهما - حتى ينق بها عامر بن فهيرة بغلس^(٤).

ولعامر مهمة أخرى وهي (إعفاء أثر عبد الله بن أبي بكر بالغنم، إذا غدا من عندهما)^(٥).

(١) البخاري (٤/١٩٠)، ومسلم ح (٢٠٠٩).

(٢) أحمد: المسند (٥/٨٧) ت شاكر، ورواه الحاكم في مستدرکه (٣/٤) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) البخاري (٤/٢٥٦)، وابن هشام: السيرة (٢/١٤٣).

(٤) صحيح البخاري (٤/٢٥٦).

(٥) ابن هشام: السيرة (٢/١٤٣).

- ومال أبي بكر يستخدم في طريق الهجرة، فقد حمل معه ماله كله، وكان معه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف درهم^(١).
- كما يستخدم أبو بكر مولاه (عامر) في صحبتها وخدمتها وإعانتها في الطريق^(٢).

وكذلك يظهر أبو بكر صاحبًا وخادمًا بنفسه وآله وماله للنبي ﷺ في هجرته كما نلاحظ، وكما سيمر معنا، واستحقَّ أن يُخلد ذكره في القرآن في أحداث الهجرة ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

ألا رغمت أنوف تنال من أبي بكر، وهو خيار الأمة، وصاحب نبيه ﷺ في الهجرة، وتلك نماذج من خدماته وإنفاقه وبذله وصحبته للنبي ﷺ في رحلة الهجرة العظيمة.

ج) الدليل الماهر الأمين - ولو كان على غير دينهما -:

وتؤكد الروايات الصحيحة أن رسول الله ﷺ وصاحبه استأجرا رجلاً من بني الدليل، وهو من بني عبد بن عدي، هاديًا خريئًا (عبد الله بن أريقط، أو أرقط)^(٣)، وهو على دين قريش^(٤)، وقد غمس حلفًا في آل العاص بن وائل السهمي، فأمناه فدفعنا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليالٍ^(٥)، فالطريق مخوف، وقريش تبحث

(١) رواه أحمد بسند صحيح: الفتح الرباني (٢٠/٢٨٢-٢٨٣)، والحاكم في مستدرکه (٥/٣) وصححه، وابن هشام: السيرة (٢/١٥٢).

(٢) الفتح (٧/٢٣٨).

(٣) هذا هو المشهور (في اسمه) كما قال ابن كثير (البداية والنهاية ٤/٤٦٩-٤٧٠)، وأرقط ذكرها ابن إسحاق (السيرة ٢/١٥٥).

(٤) وعند السهيلي: ولا وجدنا من طريق صحيح أنه أسلم بعد ذلك (يعني ابن أريقط) الروض الأنف (٤/٢٥٥).

(٥) البخاري (٤/٢٥٦)، ابن هشام (٢/١٤٢).

عنهما، وقد رصدت جائزة لمن أتى بالنبي ﷺ حياً أو ميتاً، ومن هنا لزم الاحتياط واختيار الماهر في الطريق، وسلوك طريق غير مسلوک، وبالفعل سلك بهما (أسفل مكة، ثم مضى بهما على الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عسفان، إلخ الطريق)^(١).

وكون الدليل غير مسلم جائز إذا دعت الحاجة والضرورة، ولذا بوّب البخاري: باب استتجار المشركين عند الضرورة أو إذا لم يوجد أهل الإسلام^(٢)، فضلاً عن أنهما أمناه.

ح) الثقة بالله:

ومع كل التحوطات والأخذ بالأسباب المشروعة، وفوق ذلك من عناصر التخطيط المهمة: الثقة بالله، واستشعار معيته وحفظه وتوفيقيه، وإلا فقد تخون الأسباب صاحبها، وهنا - في حدث الهجرة - يُعَلِّمُ النبي ﷺ أبا بكر - والأمة من ورائه - كيف تكون الثقة بالله إذا حزب الأمر، فحين وصل المشركون للغار ورأى أبو بكر آثار المشركين قال: يا رسول الله: لو أن أحدهم رفع قدمه لرانأ، فقال له النبي ﷺ: ما ظنك باثنين الله ثالثهما^(٣).

وفي التنزيل: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠]، إنها الثقة واليقين ثم النصر والتمكين، لا يتعارضان ولا يتقاطعان مع الأخذ بالأسباب المشروعة والتخطيط وحسن الإدارة (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة).

(١) ابن هشام (٢/١٥٥).

(٢) (٤٨/٤).

(٣) البخاري (٥/٢٠٤)، ومسلم ح (٢٣٨١).

في طريق الهجرة وحديث الرحل:

في طريق هجرته ﷺ إلى المدينة، وقع له ورفقته عدة أحداث، وبيانها باختصار كما يأتي:

(أ) خبر الصخرة والراعي:

قال أبو بكر ﷺ: أسرينا ليلتنا كلها (بعد خروجهم من الغار) حتى قام قائم الظهيرة وخلا الطريق فلا يمرّ فيه أحد، حتى رُفعت لنا صخرة طويلة لها ظل، لم تأت عليها الشمس بعد، فنزلنا عندها، فأتيت الصخرة فسوّيت بيدي مكاناً ينام فيه النبي ﷺ في ظلها، ثم بسطت عليه فروة، ثم قلت: نَمَّ يا رسول الله، وأنا أنفض لك ما حولك، فنام وخرجت أنفض ما حوله، فإذا أنا براعي غنم مقبل بغنمه إلى الصخرة يريد منها الذي أردنا، فلقيته فقلت له: لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من المدينة (يعني مكة)، قلت: أفي غنمك لبن؟ قال: نعم، قلت: أفتحلب لي؟ قال: نعم، فأخذ شاة، فقلت: انفض الضرع من الشعر والتراب والقذى، فحلب لي في قُعب معه كُثبة من لبن، قال: ومعني إداوة أرتوي فيها للنبي ﷺ ليشرب منها ويتوضأ، قال: فأتيت النبي ﷺ وكرهت أن أوقفه من نومه، فوافقته استيقظ، فصببت على اللبن من الماء حتى برد أسفله، فقلت: يا رسول الله اشرب من هذا اللبن، فشرب حتى رضيت، ثم قال: ألم يأن للرحيل؟ قلت: بلى، فارتحلنا بعد ما زالت الشمس^(١).

وفي الرواية حرص أبي بكر وتفانيه في خدمة النبي ﷺ وحراسته، رغم ما به من إعياء السفر والسهرة، واستمرار تحوطهم في الطريق ولو طال بهم المسير حتى قام قائم الظهيرة وخلا الطريق...

(١) والبخاري (٤/ ١٨٠ - ١٨٩)، مسلم (٤/ ٢٣٠٩ - ٢٣١٠).

(ب) قصة سراقه بن مالك:

وفي الطريق لحق بهم سراقه بن مالك، ويحدثنا نفسه عن قصة لحوقه بالنبي ﷺ وصاحبه وما فيها من الدلائل والعبء، ويقول: فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج، أقبل رجل منهم، حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال يا سراقه: إني قد رأيت أنفاً أسودة بالساحل، أراها محمداً وأصحابه، قال سراقه: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً، انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي، وهي من وراء أكمة، فتحبسها عليّ، وأخذت رمحي، فخرجت به من ظهر البيت، فحطت بزجة الأرض، وخفضت عاليه، حتى أتيت فرسي فركبتها، فرفعتها تقرب بي، حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي، فخررت عنها، فقامت فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزام فاستقسمت بها: أضرهم أم لا، فخرج الذي أكره، فركبت فرسي، وعصيت الأزام، تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ، وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت يدا فرسي في الأرض، حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة، إذ لأثر يديها عثان ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزام، فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان فوقوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم، أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزأني ولم يسألاني، إلا أن قال: «أخف عنا»، فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أديم، ثم مضى رسول الله ﷺ^(١).

وفي القصة من دلائل النبوة والقدرة الإلهية وحفظ الأولياء ما لا يخفى.

(١) البخاري (٤/٢٥٦ - ٢٥٧)، ومسلم (٤/٢٣١٠ مختصراً) وابن هشام: السيرة (٢/١٥٢ - ١٥٤).

(ت) المرور بخيمة أم معبد^(١):

ومنزلهما بـ(قُدَيْد) كما نقل السهيلي^(٢)، وقد مرَّ بها النبي ﷺ وصاحبه في طريق هجرتهما للمدينة وطلب منها طعامًا بثمان، فلم يصيبوا عندها شيئًا، ثم طلبوا شاة في كسر الخيمة هزيلة واستأذنوا في حلبها، فأذنت واعتذرت حيث لا تُحلب، فمسح النبي ﷺ ضرعها ودعا، فدرّت فحلبوا وشربوا وأسقوها وأبقوا فضلة في فنائها - وهي تعجب من ذلك كله - حتى إذا قدم زوجها (أبو معبد) وقصت عليه خبر (الرجل المبارك) ووصفته بأدق الأوصاف، قال زوجها: هذا والله صاحب قريش الذي يُطلب، ولقد هممت أن أصاحبه، ولأفعلنَّ إن وجدت إلى ذلك سبيلاً، ثم سُمع صوت بمكة يقول:

جزى الله رب الناس خير جزائه

رفيقين حلًّا خيمة أم معبد

هما نزلاها بالهدى واهتدت به

فقد فاز من أمسى رفيق محمد

إلى أن يقول:

دعاها بشاة حائل فتحلبت عليه

صريمًا ضرت الشاة مزيد

(١) وهي عاتكة بنت خالد بن منقذ الخزاعية، يقال كانت مسلمة حين مر بها النبي ﷺ وصاحبه، وقيل قدمت بعد ذلك وأسلمت (الطبقات لابن سعد ١/٢٣٢)، و(الاستيعاب بهامش الإصابة ١٣/٧٢، ٧٣)، والإصابة (١٣/٢٩٠ - ٢٩١)، وذكر الواقدي أن شاتها التي مسح النبي ﷺ ضرعها عاشت إلى عام الرمادة تُحلب صباحًا ومساءً (الإصابة ١٣/٢٩١).

(٢) الروض الأنف (٤/٢٢٦).



فغادره رهنا لذيها الحالب

يرردها في مصدر بعد مورد^(١).

وفي قصة أم معبد من دلائل النبوة، ولطف المعاملة، وحفظ الله لأوليائه أمر عجب.

ث) لقي الزبير وكسوته:

وذكر البخاري عن ابن شهاب الزهري - في طريق الهجرة - عن عروة بن الزبير، أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجارًا قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثيابًا بياضًا^(٢).

وقيل: إن الذي لقي النبي ﷺ هو (طلحة)، وكان ذلك قرب المدينة، وطلحة قدم من الشام، فأهدى للنبي ﷺ وأبي بكر من ثياب الشام.

ويمكن أن يكون كلاهما (الزبير، وطلحة) لقي النبي ﷺ وأهديا له الثياب^(٣).

(١) روى القصة ابن إسحاق مختصرة من طريق البكائي: السيرة لابن هشام (١٤٦/٢)، ومن طريق يونس بن بكير بأطول من ذلك كما في دلائل النبوة للبيهقي (٤٩٣/٢)، ورواها ابن سعد من طريق الحر بن الصباح عن أبي معبد الخزاعي (٢٣٠/١)، والحاكم في مستدركه (٩/٣-١٠) من طريق هشام بن حبيب ﷺ وصححه الحاكم، بل استدل على صحته بعدة أمور ذكرها، ووافقه الذهبي وابن عبد البر في الاستيعاب عن حبيش بن خالد ﷺ، وقال: لا أعلم له حديثاً سوى حديث أم معبد (١٣٤/٣) بهامش الإصابة (وفي الدرر ص ٥٢)، وقال حديثها منقول مشهور عن الثقات) وابن كثير: البداية والنهاية (٤٧٢/٤) وقال إنها مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضاً، وصححها جمع من المعاصرين أمثال: الألباني: قفه السيرة للغزالي (ص ١٧٩) إبراهيم العلي: صحيح السيرة (ص ١٢٧-١٢٩) ومحقق زاد المعاد (٣/٥٧) وغيرهم، وللمزيد انظر د. سليمان العودة: السيرة النبوية في الصحيحين (ص ٣٧٨) ود. أكرم العمري: السيرة الصحيحة (٢١٢-٢١٤).

(٢) البخاري (٤/٢٥٧).

(٣) الفتح (٧/٢٤٣).

ولا شك أن هدية الثياب جاءت في وقتها، فالنبي ﷺ قادم من سفر، وسيستقبله أنصار الله، والزينة مأمور بها شرعاً، وهي مرغوبة ومطلوبة عرفاً وعقلاً، وفي القرآن: ﴿يَبْنِيْٓءَآدَمَ خُذُوْا زِيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١] وقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِيْنَةَ اللّٰهِ الَّتِيْ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، ومحمد ﷺ أحسن الناس ملبساً، وأطهرهم قلباً، فاجتمعت له الزيتتان.

الوصول للمدينة وفرح الأنصار:

حين سمع أهل المدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، كانوا يخرجون كل غداة إلى الحرة ينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة (شوقاً لرسول الله ﷺ)، وذات يوم وهم راجعون إلى منازلهم سمعوا صوتاً لأحد اليهود من أطم من آطامهم وهو يقول بأعلى صوته: يا معشر العرب، هذا جدكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح، فلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول^(١).

وكم هو يوم سعيد، ذلك الذي وصل فيه النبي ﷺ إلى المدينة، ولمتأمل أن يتخيل حجم الفرحة للمسلمين في المدينة، وعند البخاري قال البراء بن عازب: فما فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ حين قدم عليهم^(٢).

وتتجلى مظاهر فرحتهم وهم يحفون به وصاحبه ويسلمون ويقولون: اركبا آمنين مطاعين، جاء رسول الله، جاء رسول الله، حتى أشرفت الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرق الغلمان والخدم في الطرق ينادون يا محمد يا رسول الله^(٣).

(١) البخاري (٤/٢٥٧ - ٢٥٨)، ابن هشام: السيرة (٢/٢٧٥).

(٢) (٤/٢٦٤) (٦/٨٢).

(٣) البخاري (٤/٢٦٠)، ومسلم (٤/٢٣١١).



وَيُعَبَّرُ أَحَدُ الْأَنْصَارِ (أَنْسٌ) عَنْ حَجْمِ فَرِحَتِهِمْ بِمَقْدَمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَقُولُ: مَا رَأَيْتُ يَوْمًا قَطُّ أَنْوَرَ وَلَا أَحْسَنَ مِنْ يَوْمِ دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ الْمَدِينَةَ...^(١).

الهجرة بداية التاريخ:

ومع فرحة المسلمين عمومًا باجتماعهم - مع نبيهم ﷺ بالمدينة (دار الهجرة) - فقد شكّل يوم وصوله للمدينة علامة فارقة في تاريخهم، واستحق يوم وصوله المدينة أن يكون بداية للتأريخ عند المسلمين، فما عدوا من مبعثه، ولا من وفاته، بل من مقدمه المدينة كما رواه البخاري^(٢).

قال ابن حجر: وإنما أخروه من ربيع إلى المحرم، لأنَّ ابتداء العزم على الهجرة كان في المحرم^(٣).

نفرٌ من أهل الكتاب يفرحون ويسلمون:

ولم تقتصر الفرحة على المسلمين، بل شملت نفرًا من أهل الكتاب، وهذا عبد الله بن سلام ﷺ (وكان يهوديًا) يقول: لما ورد رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، وقيل: قدم رسول الله ﷺ، فجئت في الناس لأنظر، فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء سمعته يتكلم أن قال: يا أيها الناس أفسوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام^(٤).

(١) أخرجه الترمذي ح (٣٦١٨)، وقال: هذا حديث غريب صحيح، وابن ماجه ح (١٦٣١)، والدارمي ح (٨٩) وأحمد: المسند (١٢٢/٣)، والحاكم في المستدرک (١٢/٣)، وصححه ووافقه الذهبي، وعند الهيثمي في المجمع (٦/٥٩-٦٠)، وقال رجال أحمد رجال الصحيح، وانظر: صحيح السيرة للعلي (ص ١٣٣).

(٢) (٢٦٧/٤).

(٣) الفتح.

(٤) أخرجه الترمذي ح (٢٤٨٥) وقال: هذا حديث صحيح، وابن ماجه ح (١٣٣٤)، والدارمي ح (١٥٠١)، وأحمد ح (٢٣٧٨٤)، رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي: المستدرک (٣/١٣).

وعند البخاري: أن عبد الله بن سلام سأل رسول الله ﷺ أول مقدمه المدينة عن ثلاث، لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشرط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال ولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ فلما أجابه النبي ﷺ قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، ثم طلب منه قبل أن يعلم يهود بإسلامه أن يسألهم عنه... فأنشوا عليه خيراً، فلما علموا بإسلامه تنقصوه وسبّوه... فصدق حدس ابن سلام فيهم (أنهم قوم بهت) (١).

وفي خبر إسلام ابن سلام تأكيد لمعرفة أهل الكتاب بنبوة النبي ﷺ ومبعثه واستجابة الصادقين منهم للإسلام، وبهت آخرين منهم عرفوا الحق وأنكروا وكفروا، وصدق الله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ [الأحقاف: ١٠]، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩].

أول نزول النبي ﷺ في المدينة وأول جمعة صلاها:

قال أنس بن مالك: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نزل في علو المدينة في حي يُقال لهم بنو عمرو بن عوف، أقام فيهم أربع عشرة ليلة، ثم أرسل إلى ملأ بني النجار فجاؤوا متقلدي سيوفهم، ورسول الله ﷺ على راحلته وأبو بكر ردفه، حتى ألقى بفناء (أبي أيوب) (٢)...

وعند ابن إسحاق: أنه صلى الجمعة في بني سالم بن عوف، وكانت أول جمعة صلاها بالمدينة (٣)، ويرى ابن كثير: أنها ربما تكون أول جمعة مطلقاً، لأنه لم يتمكن من قبل لشدة أذى المشركين (٤).

(١) البخاري (٤/٢٦٠-٢٦٨).

(٢) البخاري (٤/٢٦٦)، ومسلم ح (٥٢٤).

(٣) السيرة لابن هشام: (٢/١٥٩).

(٤) البداية والنهاية (٤/٥٢٦).



وفي رواية: قال ﷺ: أي بيوت أهلنا أقرب؟ فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله، هذه داري وهذا بابي، قال: فانطلق فهجرت لنا مقيلًا، قال: قوما على بركة الله^(١).

وقد حدد ابن سعد مدة إقامته ﷺ في منزل أبي أيوب بسبعة أشهر^(٢).

وقد أكرم أبو أيوب ﷺ وأهله رسول الله ﷺ وفرحوا بسكناه عندهم، ومن بيت أبي أيوب انتقل ﷺ إلى مساكنه قرب مسجده ﷺ^(٣).

ما أحسن حظ أبي أيوب، ورسول الله ﷺ ضيفه، وأكرم بالضيف، والمُضيف.



(١) البخاري (٤/٢٦٠ ح ٢٩١١).

(٢) الطبقات (١/٢٣٧).

(٣) ابن هشام (٢/١٦٣).

أسس البناء في المدينة

وحين استقر النبي ﷺ في المدينة عمد إلى تأسيس بناء للمجتمع الإسلامي يقوم على أعمدة ثلاثة هي:

(١) بناء المسجد:

كان أول عمل قام به النبي ﷺ حين وصل المدينة بناء المسجد، حيث يُمثل المسجد شعارًا للمسلمين يؤدون به أعظم شعائر الإسلام (الصلاة) وبه يجتمعون ويتعلمون ويتشاورون، ومنه تنطلق ألوية الجهاد والفتح، وحيث بركت ناقته ﷺ أمر ببناء المسجد وقال: (هذا إن شاء الله المنزل)، ثم دعا (الغلامين من بني النجار) وهما صاحبا الأرض فساومهما على ثمنه، فقالا: نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ إلا بالثمن، فابتاعه منهما بعشرة دنانير، وكان يصلي فيه قبل ذلك رجال من المسلمين - وكان مريدًا للتمر - وبه جدار مجدر ليس عليه سقف، وقبلته إلى بيت المقدس، وكان فيه قبور للمشركين فأمر النبي ﷺ أن تُنبش، كما كان فيه بقايا نخل فأمر بها فقطعت، وأمر ﷺ المسلمين أن يبنوه باللبن، وكان يشاركهم البناء ويرتجز:

اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشَ الْآخِرَةِ

فاغفر للأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ

ويقول:

هَذَا الْجَمَالُ لَا جَمَالَ خَيْرُ

هَذَا أَبْرُرُ رَبَّنَا وَأَطْهَرُ^(١).

(١) البخاري ح (٣٩٠٦)، ومسلم ح (٥٢٤).

فتم البناء وأسس المسجد، وكان طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع، وفي الجانبين (الآخرين) مثل ذلك (فهو مربع)، ويقال: كان أقل من مائة، وجعلوا أساسه قريباً من ثلاثة أذرع على الأرض بالحجارة، كما جعلوا عضادتيه (كتف الباب) حجارة، وصفوا النخل قبالة المسجد، وجعل له ثلاثة أبواب، بابٌ في مؤخره، وبابٌ يقال له باب الرحمة أو (باب عاتكة)، والباب الذي يدخل فيه رسول الله ﷺ^(١).

وعند البخاري (في مواد بنائه، وسقفه، وعمده): كان المسجد على عهد رسول الله ﷺ مبنياً باللبن وسقفه الجريد، وعمده خشب النخل، فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً، وزاد فيه عمر وبناه على بنيانه في عهد رسول الله ﷺ باللبن والجريد وأعاد عمده خشباً، ثم غيرَه عثمان فزاد فيه كثيراً وبنى جداره بالحجارة المنقوشة، والقصة (الجص بلغة الحجاز)، وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج^(٢)، ونقل ابن حجر عن الزبير من حديث أنس: أنه بناه أولاً بالجريد، ثم بناه باللبن بعد الهجرة بأربع سنين^(٣).

إن مسجداً بهذا الحجم والتواضع في البناء، يتحوّل إلى مركز إشعاع للعالم، ويتفوق على أرقى الجامعات في علومه ومعارفه، ويمثل مركزاً لتجمع المسلمين وتآلفهم وتشاورهم، يُسلم فيه الزعماء (ثمامة بن أثال)، وكان محل إيواء الفقراء (أهل الصفة)، وبه يداوى (المرضى) وتقابل (الوفود) ويُستنصر للمظلوم، وتنطلق منه الرايات، إلى غير ذلك من مهام جسام كانت لمسجد رسول الله ﷺ جديرة بالذكر والإشادة، وكم تحتاج مساجد المسلمين إلى استنساخ هذه الصورة أو الممكن منها، لإعادة مكانة المسجد وأثره في مجتمعات المسلمين.

(١) انظر: ابن سعد: الطبقات (١/٢٣٩)، والسيرة لابن هشام (٢/١٦٠-١٦١).

(٢) صحيح البخاري (ح ٤٤٦)، وانظر للمزيد: ابن حجر: الفتح (١/٥٤٠).

(٣) الفتح (٧/٢٤٦).

٢) المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

حين قدم المهاجرون إلى المدينة -تاركين ديارهم وأموالهم- كانوا بحاجة إلى من يشد أزهرهم ويذهب وحشة الغربة عنهم، ويعوضهم عن مفارقة الوطن والعشيرة، فكانت تلك من دواعي عقد المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار^(١).

وقد ثبت عقد المؤاخاة عن أنس رضي الله عنه حيث قال: حالف النبي صلى الله عليه وسلم بين قريش والأنصار في داري^(٢)، وعقد البخاري في صحيحه (باب إخاء النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار)، وساق نماذج للمؤاخاة^(٣)، ومن نماذج المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، المؤاخاة بين أبي عبيدة بن الجراح وأبي طلحة رضي الله عنهما^(٤)، والمؤاخاة بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع^(٥).

وقال ابن إسحاق: أخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار -فيما بلغنا- ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل، ثم قال: تأخوا في الله أخوين، أخوين، ثم سرد أسماء المتآخين من المهاجرين والأنصار^(٦).

ويضيف ابن سعد: مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم للمهاجرين بعضهم لبعض -حين قدم المدينة-^(٧)، ويعلل ابن حجر هذه المؤاخاة بين المهاجرين أنفسهم: أن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة والقوى، فأخى بين الأعلى

(١) السهيلي: الروض الأنف (٤/٢٩٦).

(٢) البخاري ح (٢٢٩٤)، ومسلم ح (٢٥٢٩).

(٣) كتاب مناقب الأنصار ح (٣٧٨٠).

(٤) مسلم ح (٢٥٢٨).

(٥) صحيح البخاري ح (٢٢٩٣).

(٦) السيرة لابن هشام (٢/١٧٢-١٧٥).

(٧) الطبقات (١/٢٣٨).



والأدنى^(١)، وإن كان هناك من ينكر مؤاخاة المهاجرين لبعضهم بعضاً^(٢).

وقد سجل الأنصار مواقف نبيلة في البذل والعطاء لإخوانهم المهاجرين، كما سجل المهاجرون مواقف مماثلة في العزة والشكر للأنصار، وفي الصحيحين وغيرهما قصة سعد بن الربيع حين عرض على أخيه عبد الرحمن بن عوف أن يناصفه أهله وماله، وقال عبد الرحمن بن عوف: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلوني على السوق، فربح فيه، إلخ^(٣).

وعند البخاري أن الأنصار قالت للنبي ﷺ: اقسم بيننا وبينهم (المهاجرين) النخل، قال: لا، قال: يكفوننا المؤنة، ويشركوننا في الثمر، قالوا: سمعنا وأطعنا^(٤).

وأكرم الأنصار ضيف رسول الله ﷺ حين لم يجد ما يضيفه، وفيهم نزل: ﴿وَيُؤْتُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وقد بلغت هذه المؤاخاة - في بداياتها - حدّ التوارث، وفي البخاري عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ﴾ [النساء: ٣٣]، قال: ورثة ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٣]، قال: كان المهاجرون لما قدموا المدينة ورث المهاجر الأنصاري دون ذي رحمه للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ﴾ نسخت، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ﴾ إلا النصر، والرفادة، والنصيحة، وقد ذهب الميراث، ويوصي له^(٥).

وحين عز الإسلام، وذهبت الوحشة، وتوافر المال الذي يسد حاجة المسلمين،

(١) الفتح (١٥ / ١٢٥) نقلًا عن: مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٣٠٣).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (٤ / ٥٦٢).

(٣) البخاري ح (٣٧٨١ - ٣٩٣٧)، ومسلم ح (١٤٢٧).

(٤) صحيح البخاري (٣٧٨٢).

(٥) صحيح البخاري ح (٢٢٩٢).

أبطل الله من المؤاخاة (التوارث) وأبقى أخوة الإيمان، والنصرة، والرفادة، وأنزل الله قوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ [الأحزاب: ٦].

وكان ذلك بعد وقعة (بدر)^(١)، وقيل: كان ذلك بعد (أحد)^(٢).

٣ المعاهدة (الوثيقة) مع اليهود:

حين هاجر المسلمون إلى المدينة كان لليهود بها وجود ظاهر وقوي، وحيث نظّم النبي ﷺ العلاقة بين المسلمين (المهاجرين والأنصار) كان لا بُدَّ من أن يُنظّم العلاقة مع غير المسلمين (واليهود أبرزهم)، وذلك ليأمن شرهم وليتعايش معهم في حدود شرع الله، ولئن أثبتت الأحداث المتلاحقة (أن اليهود قوم بهت) لا يفون بعقد، ولا يلتزمون بعهد، فقد كانت هذه (المعاهدة) حجة للنبي ﷺ في معاملة اليهود بما يستحقون.

وهذه المعاهدة (الوثيقة) وإن ذكرتها المصادر المتقدمة (كابن إسحاق والزهري وغيرهما)، فهي محل اختلاف في التوثيق أو التضعيف، وعدّها د. العمري (ترقى بمجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصحيحة)^(٣)، وقال غيره: (لم يثبت لهذه الحادثة إسناد صحيح سالم من علة قادحة)^(٤).

ونعرض لشيء من بنود هذه المعاهدة، ثم التعليق عليها:

- إن يهود بني عوف وغيرهم أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم (مواليهم وأنفسهم).

(١) ابن سعد: الطبقات (١/٢٣٨).

(٢) د. العمري: السيرة النبوية الصحيحة (١/٢٤٦)، ونسبه إلى ابن سعد ولم أجده في الطبقات.

(٣) د. أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة (١/٢٧٥).

(٤) محمد العوشن: ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية (ص ٩٧).

- وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم.
- وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.
- وبينهم النصح والبرّ دون الإثم.
- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.
- وإن يثرب حرامّ جوفها لأهل هذه الصحيفة.
- وإن الجار كالنفس غير مضارّ ولا آثم، ولا تُجار حرمة إلا بإذن أهلها.
- وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده فإنّ مردّه إلى الله ﷻ، وإلى محمد رسول الله ﷺ.
- وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو آثم، وأن الله جار لمن برّ واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ^(١).

ويظهر أن النبي ﷺ أراد بهذه الوثيقة أن يكفّ شرور اليهود، وأن يحجبهم بها عن الاتصال والمساعدة للمشركين والمحاربين له (وخاصة قريش)، وأن يضمن عيش المسلمين في المدينة بسلام، وأن يهيئ لليهود مناخاً مناسباً للتأمل في الرسول الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.

ورغم غدر اليهود وعدم التزامهم بالعهود، فقد أصبحت المدينة - بهذه المعاهدة

(١) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية (٢/١٦٩-١٧٢)، وللمزيد ينظر: د. أكرم العمري: السيرة النبوية الصحيحة (١/٢٨٤-٢٩٢)، وفيه تحليل للنبوءات وتعليقات على الوثيقة، محمد العوشن: ماشاع ولم يثبت في السيرة النبوية (ص ٩٧)، ط: دار طيبة الرياض (١٤٢٨هـ)، وفي البحث المرفق زيادة توثيق لمخرجي الوثيقة، فقد رواها القاسم بن سلام في الأموال (ح ٥١٨)، وابن أبي خيثمة كما في عيون الأثر لابن سيد الناس (١/١٩٨)، وأحمد في المسند مختصرة (ح ٢٤٤٣).



دولة وفاقية- ذات عهود وحقوق وواجبات، وأصبحت الكلمة النافذة والسلطان الغالب فيها للمسلمين بقيادة رسول الله ﷺ^(١).

وبالجملة فهذه الأعمال الجليلة الثلاثة (بناء المسجد، والمؤاخاة، والمعاهدة) هي عناصر قوة، وتأسيس ناجح لدولة إسلامية فنية في المدينة، فقد عززت جانب العبودية لله (بناء المسجد) وألّفت بين قلوب المسلمين وعالجت أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية (المؤاخاة) وأسست لحياة آمنة في مجتمع تتنوع أطيافه ويختلف في معتقداته... ألا إن محمداً ﷺ رسول الله حقاً، ورجل دولة وقائد أمة من الطراز الأعلى، فصلوات ربي وسلامه عليه ورضي عن صحابته المجاهدين معه.



(١) صفى الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم (ص ٢١٤).

تنظيمات نبوية وتشريعات إلهية في الدولة الإسلامية

حين استقر النبي ﷺ في المدينة، وبنى مسجده، وآخى بين أصحابه، وعاهد اليهود المقيمين في المدينة، اتجه إلى خطوات أخرى تؤمن الدولة الجديدة، وتحافظ على مكتسباتها، وفي الوقت ذاته نزلت تشريعات ربانية تحدد توجه المسلمين، وتشرع لهم عباداتهم وصلاتهم وتزكيتهم، وإلى شيء من هذه التنظيمات والتشريعات:

(١) تشكيل الجيش وتدريب المسلمين على الجهاد:

لا تزال قريش تمثل عدوًّا كبيرًا للمسلمين، ولا يزال يحيط بالمدينة عدد من القبائل تدين بالولاء والحلف والإيلاف لقريش، وهؤلاء وأولئك يمثلون خطرًا على الدولة الناشئة ويشكلون تهديدًا للمدينة، وحتى يأمن النبي ﷺ جانب هؤلاء وأولئك، شكّل مجموعة من (السرايا والغزوات) استهدفت لأمر ثلاثة:

- (أ) تهديد طريق قريش إلى الشام، وضرب اقتصاد قريش العدو الأول للمسلمين.
- (ب) عقد محالفات وموادعات مع قبائل تحيط بالمدينة (للتعاون معها أو على الأقل تحييدها في الصراع القادم).
- (ت) إبراز قوة المسلمين وتهيئتهم للجهاد القادم (مع المشركين واليهود، داخل المدينة وخارجها)^(١).



(١) انظر: أكرم العمري: المجتمع المدني في عهد النبوة (ص ٢٧) مع شيء من التصرف والاختصار.

عدد الغزوات وأولها

في الصحيحين عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قيل له: كم غزا النبي صلى الله عليه وسلم من غزوة؟ قال: تسع عشرة، قيل: كم غزوت أنت معه؟ قال: سبع عشرة، قيل: فأيهم كانت أول؟ قال: العُشَيْرَة أو العسير...^(١).

لكن فات علي زيد ذكر اثنتين ولعلمهما: الأبواء، وبواط، وكان ذلك خفي عليه لصغر سنه^(٢)، ولذا نجد عند مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع عشرة غزوة، ولم أشهد بدرًا ولا أحدًا، منعني أبي^(٣).

وحاصله أن عدد غزواته صلى الله عليه وسلم إحدى وعشرون، وهو ما صرح به أبو يعلى عن جابر، وإسناده صحيح^(٤).

وعند ابن سعد يزيد العدد على (١٢) إلى (٧٢) غزوة، ونجد تفصيلًا أكثر لها، حيث يقول: كان عدد مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم التي غزاها بنفسه (سبعًا وعشرين) غزوة، وكانت سراياه التي بعث بها (سبعًا وأربعين) سرية، وكان ما قاتل فيه من المغازي (تسع غزوات)، بدر، وأحد، والمريسيع، والخندق، وقريظة، وخيبر، وفتح مكة، وحنين، والطائف، فهذا ما اجتمع لنا عليه^(٥).

(١) البخاري ح (٣٩٤٩)، ومسلم ح (١٢٥٤).

(٢) ابن حجر: الفتح (٧/٢٨٠).

(٣) مسلم (٣/١٤٤٨) ح (١٨١٣).

(٤) الفتح (٧/٢٨٠).

(٥) الطبقات (٢/٥-٦).

ويضيف ابن سعد: أن الأنصار لم يخرجوا في شيء من هذه الغزوات والسرايا قبل (بدر) وذلك أنهم شرطوا له أنهم يمنعونهم في دارهم، قال: وهذا الثبت عندنا^(١).

أما أولى الغزوات، فهي عند ابن إسحاق: الأبواء، ثم بواط، ثم العشيرة، هكذا ذكره البخاري في كتاب المغازي في غزوة العشيرة^(٢)، والذي عند ابن إسحاق في سيرة ابن هشام أن غزوة (ودّان) هي أولى غزواته عليه الصلاة والسلام، وهي غزوة (الأبواء)^(٣)، وكذا نقل ابن سعد أن الأبواء هي (ودّان) وهي أول غزوة غزاها ﷺ بنفسه^(٤)، وكذا قال ابن هشام^(٥).

ولهذا قال ابن حجر: وليس بين ما وقع في السيرة، وبين ما نقله البخاري عن ابن إسحاق اختلاف، لأن الأبواء وودّان مكانان متقاربان بينهما ستة أميال أو ثمانية^(٦).

وحاصل ما تقدم -في أولى المغازي- أنها: الأبواء (ودان)، وأن حديث زيد بن أرقم في أولوية (العشيرة) يحمل على أول غزوة غزاها هو مع النبي ﷺ وفاته ما قبلها^(٧).



(١) الطبقات (٦/٢).

(٢) البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة العشيرة (٧١/٥).

(٣) السيرة لابن هشام: (٢/٢٧٥).

(٤) الطبقات (٨/٢).

(٥) السيرة: (٢/٢٧٦).

(٦) الفتح (٧/٢٧٩).

(٧) الفتح (٧/٢٨٠-٢٨١)، ابن كثير: البداية والنهاية (٣١/٥).



أولى الغزوات: غزوة ودّان (الأبواء)^(١)

وإذا تبين أن (ودّان أو الأبواء) هي أولى غزواته ﷺ، وقد خرج فيها يريد قريشاً وبني ضمرة، فوادعته بنو ضمرة، وكان الذي وادعه منهم مخشي بن عمرو والضمري - وكانه سيدهم - ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ولم يلقَ كيداً^(٢).

ويضيف ابن سعد: كانت في صفر على رأس اثني عشر شهراً من مهاجره، وحمل لواءه فيها حمزة بن عبد المطلب، وخرج في المهاجرين ليس فيهم أنصاري، وكانت غيبته عن المدينة خمس عشرة ليلة، واستخلف على المدينة سعد بن عبادة^(٣).



(١) ودان والأبواء موقعان متجاوران بينهما ستة أميال أو ثمانية قال ياقوت في معجم البلدان (٥/ ٣٦٥) وبينها - يعني ودّان - وبين الأبواء نحو ثمانية أميال.
 (٢) السيرة لابن هشام (٢/ ٢٧٥).
 (٣) الطبقات (٢/ ٨).



أولى السرايا

وكما وقع الخلاف في أولى المغازي وقع اختلاف بين أهل السير في أولى السرايا، فابن إسحاق يرى أن أول راية عقدها رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين (سرية عبيدة بن الحارث) في ستين أو ثمانين راكبًا من المهاجرين - ليس فيهم من الأنصار أحد - فسار حتى بلغ ماءً بالحجاز^(١)، فلقيا جمعًا عظيمًا من قريش ولم يكن بينهم قتال، إلا أن سعد بن أبي وقاص ﷺ رمى يومئذ بسهم فكان أول سهم رمي في الإسلام، وكان في قافلة المشركين اثنان من المسلمين (المقداد بن عمرو البهراني، وعتبة بن غزوان المازني)، خرجا ليتوصلا بالكفار، فلما التقوا بالمسلمين فروا إليهم^(٢).

وحدد ابن سعد زمنها في شوال على رأس ثمانية أشهر من مهاجر رسول الله ﷺ، وقال: كان بينهم الرمي ولم يسلوا السيوف، وكان على المشركين أبو سفيان بن حرب، وقال ابن إسحاق: كان عليهم عكرمة ابن أبي جهل^(٣).

وعند ابن سعد أول لواء عقده رسول الله ﷺ لحمزة (سرية حمزة) في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من مهاجره ﷺ في ثلاثين رجلًا كلهم من المهاجرين، وقد خرج حمزة - بمن معه - يعترضون غيرًا لقريش جاءت من الشام تريد مكة، وفيها أبو جهل في ثلاثمائة رجل، فبلغوا سيف البحر (ساحله) من ناحية (العيص) فالتقوا حتى اصطفوا للقتال، فمشى مجدي بن عمرو الجهني - وكان حليفًا للفريقين جميعًا -

(١) حددها ابن سعد ببطن رابع.

(٢) السيرة لابن هشام (٢/٢٧٦-٢٨١).

(٣) الطبقات (٧/٢).



إلى هؤلاء وهؤلاء حتى حجز بينهم ولم يقتتلوا، وانصرف أبو جهل إلى مكة، وحمزة إلى المدينة^(١).

وقال ابن هشام: وبعض الناس يقول كانت راية حمزة أول راية عقدها رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين، وذلك أَنَّ بَعَثَهُ وَبَعَثَ (عبيدة) كانا معًا، فُشِبَّ ذلك هذا على الناس، فأما ما سمعنا من أهل العلم عندنا فعبيدة ابن الحارث أول من عقد له^(٢).

قال ابن كثير: وخالفه الزهري، وموسى بن عقبة، والواقدي، فذهبوا إلى أن بعث (حمزة) قبل بعث (عبيدة بن الحارث) والله أعلم^(٣).



(١) الطبقات (٦/٢).

(٢) السيرة لابن هشام (٢/٢٨١-٢٨٢).

(٣) البداية والنهاية (٥/٢٥).

(سرية عبد الله بن جحش) ودعاوى قريش

أما السرية التي وقع فيها الجدل والدعاوى الباطلة، ونزل القرآن كاشفًا للحقيقة، فهي سرية (عبد الله بن جحش)، وكانت في شهر رجب من السنة الثانية على رأس سبعة عشر شهرًا من مهاجره ومعه (ثمانية)، وقيل (اثنا عشر) رجلًا من المهاجرين، وكتب معه ﷺ كتابًا وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم يمضي لما أمره، ولا يستكره أحدًا من أصحابه، فمضى يومين ثم فتح الكتاب فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل (نخلة) بين مكة والطائف، فترصد بها قريشًا وتعلم لنا من أخبارهم، فأخبر (ابن جحش) أصحابه بما في كتاب رسول الله ﷺ وقال لهم: أمرت ألا أستكره أحدًا منكم، فمن رغب الشهادة فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فمضى ومعه أصحابه لم يختلف منهم أحد، حتى نزلوا بـ(نخلة) فمرت بهم عيرٌ لقريش تحمل زبيباً وأدمًا وتجارة من تجارة قريش، فيها (عمرو الحضرمي، وعثمان بن المغيرة) وأخوه (نوفل) المخزوميان، (والحكم بن كيسان) مولى هشام بن المغيرة، فلما رأهم المسلمون تشاوروا بينهم -وذلك في آخر ليلة من شهر رجب (الشهر الحرام)- وقالوا: لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم وليمتنعن منكم، وإن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام، فتردد القوم، ثم شجعوا أنفسهم على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي (أحد أفراد السرية) عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر (عثمان، والحكم) وأفلت (نوفل)، وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعيير والأسيرين على رسول الله ﷺ، فلما قدموا قال لهم رسول الله ﷺ: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، فوقف العير، والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك

شيئاً، وأسقط في أيدي القوم، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، وقالت قريش: قد استحلّ محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم، وأخذوا الأموال، وتحركت اليهود وقالوا: حضرت الحرب.

فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله (فرجاً للمسلمين): ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وهكذا أبطل الله كيد المشركين حيث تعلقوا بحرمة الشهر الحرام، ونسوا أو تناسوا (انتهاكهم لمحرّمات أكثر وأكبر) من الصدّ عن سبيله، والكفر في المسجد الحرام، وإخراج أهله منه، فهذه المحرّمات كلها، وفتنة المسلمين عن دينهم وإخراجهم من ديارهم أكبر عند الله مما صنعه المسلمون (وإن كان ذلك كبيراً)، وهكذا حكم الله بين أوليائه وأعدائه بالعدل والإنصاف، فلم يبرئ أوليائه لكنهم كانوا متأولين في قتالهم، وما عليه أعداؤهم من الشرك أكبر وأعظم^(١).

وصنيع قريش هذا أشبه بدعاوى (الإرهاب المعاصرة) من قبل مشركي اليوم الذين طالما اتهموا الإسلام والمسلمين بالإرهاب عند وقوع حوادث لا تنسب للإسلام، ولا يرضاها المسلمون، على حين يقع من هؤلاء الكفار من أنواع الإرهاب ما تشيب له النواصي، ويصدّرون من الإرهاب (المنظم) ما يعلمه (عوام) الناس فضلاً عن (الخاصة والعلماء)، ولله الأمر من قبل ومن بعد، وفي أحداث السيرة النبوية - من مثل هذه السرية - عبرة لمن اعتبر.

ولم تقف مآثر هذه السرية عند حد كشف دعاوى قريش ضد المسلمين، بل كانت

(١) ابن القيم: زاد المعاد (٣/ ١٧٠).



سبباً في إسلام أحد أفراد المشركين في هذه السرية، فقد أسلم (الحكم بن كيسان)^(١) وقتل شهيداً في (بئر معونة)^(٢).

كما كانت هذه السرية سبباً لغزوة بدر العظمى، يوم الفرقان...^(٣).

ويدفع أحد الباحثين: شبهة قد تعرض لبعض فيظن أن تعرض المسلمين لقوافل المشركين يُشبه أعمال قطاع الطريق، ويردّ على ذلك بأن المسلمين كانوا في حالة حرب مع قريش، فإضعافها اقتصادياً وبشرياً من مقتضيات حالة الحرب، هذا فضلاً عما قامت به قريش من مصادرة أموال المسلمين عند هجرتهم من مكة، وما زالت حالة الحرب حتى الوقت الحاضر تسمح بضرب الطاقات البشرية والاقتصادية للعدو^(٤).



(١) الحكم بن كيسان ؓ مولى هشام بن المغيرة المخزومي - والد أبو جهل - أسر في أول سرية جهزها رسول الله ﷺ من المدينة وأميرها عبد الله بن جحش ؓ، وأراد عمر ؓ قتله، فأسلم عند رسول الله ﷺ، وتزوج الحكم - وكان حجّاماً - آمنة بنت عفان أخت عثمان ؓ وكانت ماشطة (ابن حجر: الإصابة ٢/ ٢٧٥).

(٢) السيرة لابن هشام (٢/ ٢٩٢)، الطبقات لابن سعد (١١/ ٢).

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية (٥/ ٣٦).

(٤) د. أكرم العمري: المجتمع المدني في عهد النبوة الجهاد ضد المشركين (ص ٣٠).

تشريعات ربانية

أ- تحويل القبلة:

يُعدّ تحويل القبلة من بيت المقدس (الذي كان يتوجه إليه المسلمون في صلاتهم) في مكة، وبعد الهجرة ستة عشر أو سبعة عشر شهراً^(١)، إلى الكعبة بمكة، حدثاً كبيراً، وفتنة، حاول (اليهود) إشعال فتيلها، وتشكيك المسلمين بدينهم، وقد كشف القرآن عن هذه المحنة، وسمى المشككين بـ(السفهاء) فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتُمْ هَذَا عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢]، أما رسول الله ﷺ فكان يُحِبُّ أَنْ يُوجَّهَ إِلَى الكعبة، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: ١٤٤] فتوجه نحو مكة، فصلى مع رسول الله ﷺ رجل ثم خرج بعدما صلى، فمرّ على قوم من الأنصار في صلاة (العصر) نحو بيت المقدس، فقال إنه يشهد أنه صلى مع رسول الله ﷺ وأنه توجه نحو الكعبة، فتحرّف القوم حتى توجهوا نحو الكعبة، وقال السفهاء من الناس -وهم اليهود-: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتُمْ هَذَا عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

وأما المسلمون فإنهم وإن تميزوا في قبلتهم عن اليهود، وتوجهوا إلى أول بيت وضع للناس ببكة، فقد خافوا على صلواتهم التي صلوا إلى بيت المقدس، وتساءلوا عن إخوانهم الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس، وقد كان لتشكيك اليهود، وإرجاف المنافقين أثرٌ في هذه المحنة حتى نزل القرآن كاشفاً للأمر، ومبطلاً لكيد

(١) صحيح البخاري ح(٣٩٩)، ومسلم ح(٥٢٥)، والطبقات لابن سعد (١/٢٤٢).

الكائدين: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣] (١).

وفي البخاري: باب الصلاة من الإيمان، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ يعني صلاتكم عند البيت، وعن البراء: أنه مات على القبلة قبل أن تُحوَّلَ رجال، وقتلوا، فلم ندر ما نقول فيهم، فأُنزل الله: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ (٢).

قال ابن حجر: وكان التحويل في نصف شهر رجب من السنة الثانية على الصحيح وبه جزم الجمهور، ورواه الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس (٣).

كما ذكر ابن حجر من فقه وفوائد تحويل القبلة: بيان شرف المصطفى ﷺ وكرامته على ربه لإعطائه له ما أحبّ من غير تصريح بالسؤال، وبيان ما كان عليه الصحابة من الحرص على دينهم والشفقة على إخوانهم (٤).

ب- فرض صيام شهر رمضان:

فُرض الصيام على الأمم قبلنا كما فرض علينا فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

واستنبط ابن حجر من ختم الآية ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ إلى أن من قبلنا كان فرض الصوم عليهم من قبيل الأصار والأثقال التي كلفوا بها، وأما هذه الأمة فتكليفها بالصوم

(١) القرآ (١٤٣) انظر: الطبقات لابن سعد (١/٢٤٣، ٢٤٤)، ابن القيم: زاد المعاد (٣/٦٧) وقد فصل ابن القيم في مواقف المشركين، واليهود، والنافقين في ذلك.

(٢) صحيح البخاري ح (٤٠).

(٣) الفتح (١/٩٧).

(٤) الفتح (١/٩٨).

ليكون سبباً لا تقاء المعاصي وحائلاً بينهم وبينها^(١)، وعند الطبري أن فرض صيام شهر رمضان كان في السنة الثانية من الهجرة، وقد قيل إنه فرض في شعبان منها^(٢).

ونقل ابن كثير التدرج في فرض صيام شهر رمضان وأنه مرَّ بثلاثة أحوال، فحين قدم رسول الله ﷺ المدينة جعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، وصام عاشوراء، ثم إن الله ﷻ فرض عليه الصيام، فأثبت صيامه على المقيم الصحيح ورخص فيه للمريض والمسافر^(٣)، وفي البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية، وكان النبي ﷺ يصومه، فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه، فلما نزل رمضان كان رمضان الفريضة وترك عاشوراء، فكان من شاء صامه ومن شاء لم يصمه)^(٤).

ج- فرض الزكاة:

وفي هذه السنة (الثانية للهجرة) كذلك فرضت الزكاة ذات النُصب، كما ذكره غير واحد من المتأخرين - على حد تعبير ابن كثير^(٥)، وكما أن الصيام تزكية للنفس وتقوى للقلوب ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، فالزكاة تُطَهِّرُ للمال وتزكية للنفس عن الشح والبخل والأثرة ﴿حُدِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وهي كذلك إعفاف للفقراء وسد لحاجات المساكين ونحوهم من أصناف الزكاة الثمانية المنصوص عليهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَةَ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

(١) الفتح (١٧٨/٨).

(٢) تاريخ الطبري (٤١٧/٢).

(٣) البداية والنهاية (٥٣/٥).

(٤) البخاري ح (٥٤٠٤)، مسلم (٧٩٢/٢) ح (١١٢٥).

(٥) البداية والنهاية (٥٤/٥)، (٣١٢).



وكما فرضت زكاة الأموال، فقد فرضت كذلك زكاة الأبدان (زكاة الفطر) تُخرج في آخر رمضان، طهرة للصائم، وإطعامًا للمساكين، وهي صاع من قوت أهل البلد، وكان فرضها في السنة الثانية للهجرة كذلك^(١).



(١) الطبري: التاريخ (٤١٨/٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (٥٤/٥، ٣١٢).

غزوة بدر (يوم الفرقان)

يوم الفرقان:

غزوة بدر هي التي سماها الله في كتابه ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]، حيث فرق الله فيها بين الحق والباطل^(١)، وهي المعركة التي التقى فيها (الجمعان) على غير ميعاد، (إنما خرج رسول الله ﷺ يريد غير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد)^(٢).

وقد أخبر الله أن فريقاً من المؤمنين كانوا كارهين للقتال، حيث لم يستعدوا للقاء عدوهم ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ [الأنفال: ٥].

معركة خيار أهل الأرض والسماء:

وهي معركة قاتل فيها خيار أهل الأرض (من الصحابة)، وخيار أهل السماء (من الملائكة)، وفي صحيح البخاري: (جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين، أو كلمة نحوها، قال: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة)^(٣)، وفيه أيضًا عن فضل أهل بدر: (لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم، فقد وجبت لكم الجنة، أو فقد غفرت لكم)^(٤).

(١) تفسير الطبري (٦/٢٥٥).

(٢) صحيح البخاري: ح (٣٩٥١)، ومسلم ح (٢٧٦٩).

(٣) ح (٣٩٩٢).

(٤) ح (٣٩٨٣)، ومسلم ح (٢٤٩٤).

فارق عدد الجيشين:

شاء الله في هذه الغزوة ألا تتكافأ القوى، بل ولم تتقارب، فعدة أصحاب بدر من المسلمين على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر - ولم يجاوز معه إلا مؤمن - بضعة عشر وثلاثمائة^(١).

عدد المسلمين وكثرة الخزرج:

وعند مسلم: نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً^(٢)، وعند ابن إسحاق: من شهد بدرًا من المهاجرين والأنصار، ومن ضرب لهم بسهمه وأجره: ثلاثمائة رجل وأربعة عشر رجلاً، ثم وزعهم: (من المهاجرين ثلاثة وثمانون رجلاً، ومن الأوس واحد وستون رجلاً، ومن الخزرج مائة وسبعون رجلاً)^(٣).

ويعلل ابن القيم: قلة عدد الأوس عن الخزرج - وإن كانوا أشد منهم وأقوى شوكة وأصبر عند اللقاء - لأن منازلهم كانت في عوالي المدينة، وجاء النفير بغتة، وقال النبي ﷺ: لا يتبعنا إلا من كان ظهره حاضرًا^(٤).

ومع ذلك وقع النصر للمسلمين وهُزم المشركون وقُتل صناديدهم، وميزان القوى والنصر ليس بكثرة العدد والعتاد ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٠]، ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧، ٨].

(١) البخاري ح (٣٩٥٨، ٣٩٥٩).

(٢) ح (١٧٦٣).

(٣) ابن هشام: السيرة (٢/٤٢٥).

(٤) زاد المعاد (٣/١٨٨)، وفي صحيح مسلم (ح ١٩٠١) قال ﷺ: (إن لنا طليبة فمن كان ظهره حاضرًا فليركب معنا، فجعل رجال يستأذنون ظهرانهم في علو المدينة فقال: لا، إلا من كان ظهره حاضرًا).



زمن الغزوة:

وقعت هذه الغزوة في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة لتضيف إلى شرف رمضان شرفاً آخر للمسلمين بيوم الفرقان.

قال ابن إسحاق: وخرج رسول الله ﷺ في ليالٍ مضت من شهر رمضان في أصحابه، وحددها ابن هشام (يوم الاثنين) لثمانية ليالٍ خلون من شهر رمضان^(١).

وحدد ابن سعد خروج النبي ﷺ من المدينة لبدر بـ (يوم السبت) لاثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان، على رأس تسعة عشر شهراً من مهاجره^(٢).

ولك أن تتخيل -أيها القارئ- أن فرض الصوم كان في ذات الشهر الذي وقعت فيه هذه المعركة الفاصلة، وبمثل هذه النفوس الصادقة، والنسمات الصابرة المتفانية، والقلوب المستعدة، يكون الفتح والانتصار.

متى بدأ القتال؟

أما بدء القتال مع المشركين ببدر فكان صبيحة يوم السابع عشر من رمضان^(٣)، وعند ابن سعد: وكانت هزيمة أهل بدر يوم الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان^(٤).

سبب الخروج إلى بدر:

وحين كان سبب الخروج إلى بدر التعرض لعير قريش -وكانت عيراً عظيمة فيها ألف بعير، وأموال عظام، ولم يبقَ بمكة قرشي ولا قرشية له مثقال فصاعداً إلا بعثه

(١) السيرة لابن هشام (٢/٣٠٢).

(٢) الطبقات: (٢/١٢).

(٣) رواه أحمد في مسنده (٥/٤٢٠) بإسناد صحيح، د. أكرم العمري (المجتمع المدني ص ٤٧).

(٤) الطبقات: (٢/٢٠-٢١).



في العير^(١) - وفيها ثلاثون أو أربعون رجلاً من قريش^(٢)، وحيث استطاع (أبو سفيان) قائد العير أن ينجو بها، واستأجر (ضمضم بن عمرو الغفاري) فبعثه إلى مكة ليستنفر قريشاً إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فتجهزت قريش سراغاً وقالوا: أيطنّ محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي؟ (يقصدون سرية عبد الله بن جحش).

وحين أجمعت قريش المسير إلى بدر ذكرت ما بينها وبين (بني بكر) فكاد ذلك يثنيهم، فتبدى لهم إبليس في صورة (سراقة بن مالك)، وكان من أشرف بني كنانة، فقال لهم: أنا جار لكم من أن تأتيكم (كنانة) من خلفكم بشيء تكرهونه، فخرجوا سراغاً^(٣).

وعلى الرغم من اعتراض بعض زعامات قريش الخروج للقتال - بعد أن نجت العير - ومن جانب المسلمين (كرههم للقتال) ورغبتهم في العير (غير ذات الشوكة)، فإن الله كان يريد أن تقع المعركة... وقد كان ﴿لِيُحَقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ [الأنفال: ٨].

الاستشارة والعزيمة:

ونظراً لعدم استعداد المسلمين لخوض معركة مع المشركين، فعددهم قليل واستعدادهم أقل، فالثلاثة أو الأربعة يعتقون بعيراً، وقد مشى بعضهم ولم يركب خطوة لا ذهاباً ولا راجعاً - كما قال سعد بن أبي وقاصؓ^(٤) - ولم يكن معهم سوى سبعين بعيراً وفرسين^(٥).

(١) الواقدي (المغازي ١/٢٧).

(٢) السيرة لابن هشام (٢/٢٩٤).

(٣) ابن هشام: السيرة (٢/٣٠١).

(٤) الواقدي: المغازي (١/٢٦).

(٥) ابن سعد: الطبقات (٢/١٦).

و حين جاء الخبر لرسول الله ﷺ بمسير قريش استشار أصحابه، فتحدث أبو بكر وأحسن، وتحدث عمر فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال يا رسول الله: امض لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِيلًا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، ثم قال رسول الله ﷺ: أشيروا علي أيها الناس - وإنما يريد الأنصار وذلك أنهم أكثرية الناس، وكان يتخوف ﷺ ألا تكون الأنصار عليها نصرة إلا ممن دهمه بالمدينة - فقام سعد بن معاذ ﷺ^(١) فقال: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله، فسر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأنني أنظر إلى مصارع القوم^(٢).

تنازع قريش واختلافهم:

وإذا كان هذا حال الجيش الإسلامي بقيادة النبي ﷺ، فقد سادت الفرقة والاختلاف جيش المشركين، فحكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة، يرغبان في الرجوع دون قتال،

(١) في صحيح مسلم: سعد بن عباد (ح ١٧٧٩) قال ابن حجر: وفيه نظر، لأن سعد بن عباد لم يشهد بدرًا وإن كان يُعد فيهم لكونه ممن ضرب له بسهم، ويمكن الجمع بأن النبي ﷺ استشارهم في غزوة بدر مرتين، الأولى وهو بالمدينة أول ما بلغه خبر العير - كما في رواية مسلم - والثانية كانت بعد أن خرج كما في حديث الباب، ووقع عند الطبراني أن سعد بن عباد قال، وهذا أولى بالصواب (الفتح ٧/٢٨٨).

(٢) ابن هشام: السيرة (٢/٣٠٥-٣٠٦) وابن سعد: الطبقات (٢/١٤)، ومسلم (ح ١٧٧٩).

وكان أبو جهل مُصرًّا على القتال^(١)، والأخنس بن شريق يرفض القتال، ويدعو قومه بني زهرة لذلك، فرجعوا، ولم يشهد بدرًا زهري^(٢)، وبنو عدي بن كعب -أحد بطون قريش- لم يخرج منهم رجل واحد^(٣)، وأحد قادة قريش (أبو لهب) تخلف عن بدر^(٤)، بل إن أبا سفيان -قائد العير- بعد أن نجت يشير على قريش بالرجوع فردّ عليه أبو جهل^(٥).

ألوية المسلمين وشعارهم:

وحين كان أمر الله قدرًا مقدورًا، والتقى الجيشان ببدر، نظم النبي ﷺ أصحابه وعقد الألوية، فكان لواء المهاجرين مع مصعب بن عمير ﷺ، ولواء الخزرج مع الحباب بن المنذر ﷺ، ولواء الأوس مع سعد بن معاذ ﷺ، وجعل شعارهم جميعًا يومئذ: يا منصور أمت^(٦)، واقترح سعد بن معاذ أن يُبنى عريش للنبي ﷺ حفاظًا على القائد، فُني له^(٧).

دعاء النبي ﷺ وتضرّعه لربه:

وبات رسول الله ﷺ ليلة بدر يصلي ويدعوه ربه ويقول: (اللَّهُمَّ إِنَّكَ إِنْ تَهْلِكَ هَذِهِ الْفِتْنَةُ لَا تُعْبَدُ)^(٨)، وفي البخاري ومسلم: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي

(١) تاريخ الطبري: (٢/٤٤٢ - ٤٤٣).

(٢) ابن هشام: (٢/٣١١).

(٣) ابن هشام (٢/٣١١).

(٤) ابن هشام: (٢/٢٩٨، ٣٥١).

(٥) ابن هشام: (٢/٣١٠)، والواقدي: المغازي (١/٤٣).

(٦) ابن سعد: الطبقات (٢/١٤).

(٧) ابن هشام: السيرة (٢/٣١٣).

(٨) أحمد: المسند، وسنده صحيح (الفتح الرباني ٢١/٣٠-٣٦).

ﷺ يوم بدر: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَنشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبِدْ، فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: حَسْبُكَ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ ﴿سَيَهْزُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] ^(١).

كيف بدأت المعركة؟

وابتدأت المعركة بالمبارزة لستة من قريش، ثلاثة من المسلمين وهم: حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث، ومن المشركين ثلاثة: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، وفيهم نزل: ﴿هَذَا نِ حَصَانٍ اخْتَصَمُوا فِي رَيْبِهِمْ﴾ [الحج: ١٩].

وكانت نتيجة المبارزة لصالح المسلمين ^(٢).

وقد أسهمت نتائج هذه المبارزة في تقدم المسلمين، وبدأ الهجوم، وأمر النبي ﷺ أصحابه بنضح المشركين بالنبل إذا اقتربوا منهم، وإذا أكثبهم (أكثرهم) فارموهم واستبقوا نبلكم ^(٣).

ولكن الله رمى:

وحيث أراد الله لهذه المعركة أن تقع وأن ينتصر الحق فقد كان مع المؤمنين ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]، وقد جاء في تفسير الآية أن النبي ﷺ أخذ قبضةً من تراب فرمى بها في وجوه القوم وقال: شأهت الوجوه، فدخلت في أعينهم كلهم، وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ، وأنزل ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ ^(٤)، قال الطبري: والمعنى: فلم تقتلوا المشركين أيها المؤمنون - في بدر -

(١) البخاري ح (٣٩٥٣)، ومسلم ح (١٧٦٣).

(٢) رواه أبو داود ح (٢٦٦٥)، وأحمد ح (٩٤٨)، وانظر: ابن هشام السيرة (٢/٣١٩)، وابن سعد: الطبقات (١٧/٢).

(٣) البخاري ح (٣٩٨٥).

(٤) تفسير الطبري (٧/٢٠٣).



ولكن الله قتلهم^(١). وقال ابن هشام: لم يكن ذلك برميته، لولا الذي جعل الله فيها من نصرك^(٢).

جبريل عليه السلام، ومدد السماء الثالثة:

وشاركت ملائكة السماء في المعركة ﴿إِذْ تَسْتَعِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾ [الأنفال: ٤٩].

وفي البخاري أن النبي ﷺ قال يوم بدر: هذا جبريل أخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب^(٣).

وفي مسلم: بينما رجل من المسلمين يوم بدر يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه فخرّ مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط، فاخضرّ ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: صدقت، ذلك مدد من السماء الثالثة^(٤).

عوامل نصرٍ أخرى:

ولم يك مدد الملائكة للمسلمين وتثبيتهم في بدر العامل الوحيد للنصر، فثمة أسباب نصر إلهية سخرها الله تعالى للمؤمنين حتى هزموا عدوهم ومن ذلك:

• تقليل عدد المشركين في أعين المؤمنين، وتكثير عدد المسلمين في أعين المشركين، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الَّذِينَ تُلَاقُوا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي

(١) المصدر السابق (٧/٢٠٢).

(٢) السيرة (٢/٤٣٤).

(٣) صحيح البخاري ح (٣٩٩٥).

(٤) مسلم ح (١٧٦٣)، وشرح النووي على مسلم (١٢/٨٥).



سَبِيلَ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ [آل عمران: ١٣].

• قال ابن عباس ؓ وغيره: ذلك في بدر^(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٤] قال ابن مسعود: قُلتوا في أعيننا حتى قلت لرجل: أتراهم يكونون مائة^(٢).

• غشيان النعاس للمؤمنين في بدر: وذلك أمانة منه سبحانه وتعالى، فالنعاس في الحرب أمانة^(٣)، قال تعالى: ﴿إِذْ يُعَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: ١١]^(٤)، وكذلك نزول الغيث من السماء كان تطهيرًا وتطمينًا للمؤمنين وتثبيتًا لأقدامهم في أرض كانت (رملة ميثاء) فلبدها المطر حتى ثبتت عليها الأقدام^(٥).

• والدعاء سلاح عظيم، والله قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وقد ألح رسول الله ﷺ في الدعاء على ربه حتى نزل النصر (وقد سبق بيان دعائه ﷺ في بدر).

وبعد قتال وتضحية وإيمان وثبات من الفئة المؤمنة انجلت المعركة عن نصر مؤزر للمؤمنين، وهزيمة ساحقة للمشركين، وقد رغمت أنوف سبعين من المشركين

(١) تفسير الطبري (٣/١٩٣).

(٢) تفسير الطبري (٦/٢٥٩).

(٣) تفسير الطبري (٦/١٩٢).

(٤) قال ابن مسعود ؓ: (النعاس في القتال أمانة من الله، وفي الصلاة من الشيطان) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/٦٠).

(٥) تفسير الطبري (٦/١٩٣).

وقعوا صرعى، وقد أمر النبي ﷺ بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقتلوا في طويٍّ من أطواء بدر خبيث مخبث^(١).

قتلى وأسرى المشركين:

وكان على قائمة القتلى زعيم المشركين حينها أبو جهل، فقد أمر النبي ﷺ أن يُنظر ما صنع أبو جهل، فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه أبناء عفرأ حتى برد، فقال ابن مسعود: أنت أبو جهل؟ فأخذ بلحيته وقال: وهل فوق رجل قتلتموه؟^(٢).

كما كان في عداد قتلى المشركين - إضافة إلى أبي جهل والثلاثة المبارزين - أمية بن خلف وابنه (علي)^(٣).

وفوق القتلى السبعين خلفت معركة بدر سبعين أسيراً من المشركين^(٤)، وقد أحصى ابن إسحاق أسماء وقبائل من قتل من المشركين ببدر^(٥).

شهداء المسلمين:

أما المسلمون فقد استشهد منهم أربعة عشر رجلاً أحصاهم وعدّهم ابن إسحاق^(٦) وهم: ستة من المهاجرين، وستة من الخزرج، واثان من الأوس^(٧).

(١) البخاري (ح) ٣٩٧٦، ومسلم ح (٢٨٧٥) وزيادة: (خبيث مخبث) من أفراد البخاري.

(٢) البخاري ح (٣٩٦٢)، ومسلم ح (١٨٠٠).

(٣) البخاري ح (٣٩٧١)، وابن القيم زاد المعاد (٣/١٨٥).

(٤) مسلم ح (١٧٦٣) (فقتلوا يومئذ سبعين، وأسروا سبعين)، وابن هشام: السيرة (٢/٣٣٤)، ابن سعد الطبقات (٢/١٨).

(٥) ابن هشام السيرة (٢/٤٢٦-٤٣٦).

(٦) السيرة (٢/٤٢٥-٤٢٦).

(٧) ابن القيم: زاد المعاد (٣/١٨٨).

من نتائج بدر:

وإذا كان من أعظم نتائج بدر أن الله فرّق بين الحق والباطل حين أعز المسلمين بالمدينة وخذل الكافرين بمكة، فقد كان من نتائجها كذلك أن بقية الأعداء له بالمدينة أو حولها خافوه، وأسلم بشرٌ كثير من أهل المدينة، ونجم النفاق، حين دخل عبد الله بن أبي وأصحابه في الإسلام ظاهرًا^(١).

من ضروب الشجاعة والمواقف الإيمانية:

وقد أبدى المسلمون ضروبًا من الشجاعة، يذكر من ذلك موقف (عمير بن الحمام) حين ألقى تمرات في يده وقاتل حتى قتل^(٢)، ودقة الرمي حين أصاب الزبير عبيدة بن سعيد بن العاص وهو مدجج بالسلاح لا يرى منه إلا الحدق (عيناه) فأصابه ومات^(٣)، وشجاعة الشابين (ابني عفراء) وعلو همتهما حتى قتلا أبا جهل^(٤)، وموقف مصعب بن عمير حين مرّ بأخيه أبي عزيز ورجل من الأنصار يأسره، أمره بشد أسره، فقال أبو عزيز: أهذه وصاتك بي وأنت أخي، فقال مصعب: إنه أخي دونك^(٥)، إلى غير ذلك من المواقف الإيمانية الرائعة التي تستحق الإشادة، كما تحقق في بدر الولاء للمؤمنين والبراءة من الكافرين، واستحقوا ثناء الله ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ
أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

(١) ابن القيم: زاد المعاد (٣/١٨٨).

(٢) صحيح مسلم (٣/١٥١٠)، ح (١٩٠١).

(٣) البخاري (ح ٣٩٩٨).

(٤) وخبرهما في البخاري ح (٣٩٨٨)، ومسلم ح (١٧٥٢).

(٥) انظر: ابن هشام: السيرة (٢/٣٥٠).

يسألونك عن الأنفال:

على أن أحداث بدر لا تنتهي دون الحديث عن (أنفال) بدر (وأسرى) المشركين وما وقع في ذلك من اختلاف وجهات نظر بين المسلمين، نزل القرآن حاسماً للجدل، مُنهيًا للاختلاف، موصيًا بالتقوى، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

وقد أخرج النبي ﷺ الخمس من غنائم بدر، ثم قسم البقية على المقاتلين^(١).

قال ابن حجر: والجمهور على أن آية الخمس ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّفَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١]، نزلت في قصة بدر^(٢).

أسرى بدر:

أما الأسرى فقد استشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر فيما يصنع بهم، فكان رأي أبي بكر أخذ الفدية منهم فتكون قوة للمسلمين على الكفار، وعسى الله أن يهديهم للإسلام، أما عمر فأشار بقتلهم فهم صناديد الكفر وأئمته، ومع أن النبي ﷺ مال إلى رأي أبي بكر، فقد نزل القرآن موافقاً لرأي عمر ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ ءَأَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُتَخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

(١) البخاري ح (٤٠٠٣).

(٢) الفتح (٣١٧/٧).

رَحِيمٌ ﴿[الأنفال: ٦٧ - ٦٩]، فأحل الله لهم الأنفال^(١)، وقد كان حلَّ الغنائم واحدة من خصائصه ﷺ وفضلًا من الله على هذه الأمة، حيث لم تُحل للأُمم قبلهم، كما جاء في الصحيحين^(٢).

وكان فداء الأسرى كل رجل منهم أربعة آلاف إلى ثلاثة آلاف، إلى ألفين، إلى ألف إلا قومًا لا مال لهم، منَّ عليهم رسول الله ﷺ، بل كان فداء بعضهم ممن يحسن الخط تعليم المسلمين الخط^(٣)، وتلك لفتة حضارية، واهتمام مبكر بالعلم والتعلم في سيرة النبي المعلم ﷺ، وفيه تطبيق لمبدأ استبدال العقوبة بالعمل للنفع العام.

وقد أحسن المسلمون للأسرى وشهد بذلك المشركون المأسورون، وهذا (أبو عزيز بن عمير) أخو (مصعب)، وكان أبو عزيز حامل لواء المشركين بيدر بعد (النضر بن الحارث)، يقول بعد أن وقع في الأسر: كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم، خصوني بالخبز وأكلوا التمر، لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها، فأستحي فأردّها فيردّها عليّ ما يمسّها^(٤).

ذكرى بدر وعبرها:

لقد انتهت معركة بدر قبل ما يزيد على ألف وأربعمائة عام، ولكن ذكرها بقي حيًّا في القرآن والسنة وكتب السيرة والطبقات والتراجم، تشهد على جهاد وجهود العظماء وتُلهب حماس المسلمين عبر العصور، وتؤكد أن النصر من عند الله -مهما

(١) انظر: صحيح مسلم (٣/١٣٨٥ ح ١٧٦٣).

(٢) البخاري ح (٣٣٥)، ومسلم ح (٥٢١).

(٣) ابن سعد: الطبقات (٢/١٨-٢٦).

(٤) ابن هشام: السيرة (٢/٣٥٠)، وابن كثير: البداية والنهاية (٥/١٩١)، ورواه الطبراني في الصغير والكبير وإسناده حسن كما قال الهيثمي: مجمع الزوائد (٦/٨٦).

كان فارق العدد والعدة- إذا صدق المسلمون، كما تؤكد أن رابطة العقيدة فوق كل رابطة، وبالعقيدة الصحيحة وبصدق الرجال المقاتلين انتصر المسلمون عبر التاريخ، حيث لله جنود في السماء والأرض لا يهزمون، وكلما صدق المسلمون أصاب عدوهم من الرعب ولحقهم من الهزيمة والانكسار ما لم يكونوا يحتسبون، وهذه قريش -بعد بدر- تُصاب في بدر، وتتجلد للمصاب، وتمنع البكاء والنياحة على قتلاها، حتى لا يشمت بهم المسلمون^(١).

ثم تصمم على الانتقام وتبعث بواحد من رجالها (عمير بن وهب الجمحي) لاغتيال النبي ﷺ بعد أن أغروه بالمال ووعدوه بإعالة الولد، ثم يشاء الله أن ينقلب السحر على الساحر، فيُسلم (عمير بن وهب) ويستأذن النبي ﷺ بدعوة أهل مكة إلى الإسلام، فقدم مكة وأسلم على يديه ناس كثير^(٢)، وهكذا تتوالى أعلام النصر ببدر، ويشرح الله صدور أقوام للإسلام، كانوا من قبل في عداد المشركين، وكذلك (يهدي الله لنوره من يشاء).

لن نستعين بمشرك:

هكذا قال رسول الله ﷺ لرجل أدركه وهو في طريقه إلى بدر، وقد كان يُذكر منه جرأة ونجدة، ففرح به أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه، فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ: جئت لأتبعك وأصيب معك، قال له رسول الله ﷺ: تؤمن بالله ورسوله؟ قال: لا، قال: فارجع فلن نستعين بمشرك، ثم مضى حتى أدركه في مكان آخر، فقال له كما قال أول مرة، فقال له النبي ﷺ كما قال له أول مرة، ثم أدركه الثالثة فقال له: تؤمن بالله واليوم ورسوله؟ قال: نعم قال: فانطلق^(٣).

(١) ابن هشام: السيرة (٢/٣٥٢).

(٢) ابن هشام: السيرة (٢/٣٧١-٣٧٤).

(٣) مسلم ح (١٨١٧).

وهكذا بقي عَلمُ العقيدة ظاهراً في بدر حتى وإن بالمسلمين حاجة لمن يُكثر سوادهم ويقاتل معهم، فمُنِعَ الرجل حين كان كافراً وقُبِلَ حين أعلن إسلامه.

فضل أهل بدر:

وبرغم الفرح بالنصر وعزة المسلمين في بدر، فلم يكن من قُتل في المعركة بأقل ممن بقي، بل فاز هؤلاء الشهداء (بجنان في الفردوس الأعلى)، وهذه (أم حارثة بن سراقة الأنصاري) رضي الله عنها تأتي النبي ﷺ وتقول: يا رسول الله، قد عرفت منزلة حارثة مني، وقد أصيب في بدر وهو غلام، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى، ترى ما أصنع، فقال: ويحك - أهبلت - أوجنة واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة وإنه في جنة الفردوس^(١).

ولِعَظَمِ ثواب بدر ومنزلة البدرين يُغْتَفَرُ لِمَنْ أخطأ منهم بعد ذلك، كما في قصة حاطب بن أبي بلتعة^(٢)، وهنا استحق البديون تخليد ذكرهم (بدرية)، واحتلوا الصفحات الأولى من كتب الطبقات^(٣).

وأخيراً، فمعركة بدر تستحق أكثر مما ذكر، وثمة أحداث تجاوزت عنها بغية الاختصار، ويكفي أن سورة الأنفال حكّت أحداثها، فهي -سورة الأنفال- (بدرية)، هذا فضلاً عن إفاضة كتب السِّيرِ والسُّنة والطبقات والتراجم عنها، ومن رام المزيد فليراجعها^(٤).



(١) البخاري ح (٣٩٨٢).

(٢) البخاري ح (٣٩٨٣)، ومسلم ح (٢٤٩٤).

(٣) د. أكرم العمري: المجتمع المدني في عهد النبوة (الجهاد ضد المشركين ص ٥٨).

(٤) وقد ترجم المؤلف لأهل بدر في كتابه الموسوم: (بديون).



غزوة أحد

هي معركة (النصر) و(المصيبة)، النصر في بدايتها حيث كان المسلمون (يحسّون) المشركين ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، أي: تستأصلونهم قتلاً^(١).

وعند الطبري: الحسّ: القتل^(٢)، وذلك بأحد^(٣)، وهذا رأي ابن عباس حيث قال: ما نُصر النبي ﷺ في موطنٍ كما نُصر يوم أحد، فلما أنكر عليه قال: بيني وبينكم من أنكر ذلك كتاب الله، إن الله يقول في أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾، والحسّ: القتل^(٤).

ثم وقعت (المصيبة) على المسلمين، حيث وقع ما وقع من مخالفة أمر النبي ﷺ، وقتل من قتل من الصحابة ﷺ، وجرح رسول الله ﷺ - كما سيأتي - وأنزل الله: ﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتُمْ مِصْبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا فُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وعند البخاري: (فأصيب سبعون قتيلاً - يعني من المسلمين-)^(٥).

ومعركة أحد - كذلك - معركة الإيمان والنفاق، فقد تجلّت فيها مواقف إيمانية رائعة للمؤمنين - كما سيأتي - كما برز النفاق وتجلّت مواقف المنافقين حتى كادت تؤثر في طائفتين من المؤمنين ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُهُمَا وَعَلَى

(١) صحيح البخاري كتاب المغازي، انظر الفتح (٣٤٥ / ٧).

(٢) أحمد ح (٢٦٠٩)، وتفسير الطبري (٤٧١ / ٣).

(٣) المصدر السابق (٤٦٨ / ٣).

(٤) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي: المستدرک (٢٩٦ / ٢ - ٢٩٧).

(٥) ح (٤٠٤٣).

اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿ [آل عمران: ١٢٢]، وذلك تأثراً بمواقف المنافقين وتخاذلهم عن المعركة - في وقت لم يكن أمر النفاق والمنافقين ظاهراً - ووقع الاختلاف بين المؤمنين على مواقف المنافقين في غزوة أحد ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُتَنَفِقِينَ فِتْنَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٨٨]، ففرقة تقول: نقاتلهم، وفرقة تقول: لا نقاتلهم^(١).

ومعركة أحد معركة الرجال والنساء - وكما كان للرجال مواقف صدق وجهاد فكذلك كان للمرأة في أحد، وكلٌّ بحسبه وما فرض عليه، وسيأتي مزيد بيان.

كما كانت غزوة أحد معركة (الشيخوخة) و(الشباب) فالشيخوخة استأذنوا رسول الله ﷺ في القتال ورجبوا في الشهادة فأذن لهم، والشباب كانوا يرغبون في دخول المعركة رغم حداثة أسنانهم حتى أذن لمن بلغ منهم (الخامسة عشرة) وردَّ عددًا منهم لم يبلغوا^(٢). وفي البخاري ومسلم: أن عبد الله بن عمر ردَّ في أحد، وأجيز في الخندق لبلوغه^(٣)، وعند الواقدي أنه ﷺ ردَّ أحد عشر غلامًا من غلمان الصحابة^(٤).

زمن الغزوة وسببها:

المشهور في زمن أحد أنها في شوال السنة الثالثة للهجرة^(٥)، ويحددها ابن إسحاق: يوم السبت في النصف من شوال^(٦).

(١) البخاري ح (٤٠٤٩)، ومسلم: باب ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُتَنَفِقِينَ ﴾ انظر: مختصر المنذري لصحيح مسلم (ص ٥٦٦).

(٢) ابن هشام السيرة: (٩٦/٣).

(٣) البخاري ح (٤٠٩٧)، ومسلم ح (١٨٦٨).

(٤) المغازي (٢١٦/١).

(٥) ابن حجر: الفتح (٣٤٦/٧).

(٦) رواه الطبراني ورجاله ثقات: مجمع الزوائد (١٢٤/٦).

كما ذكر ابن إسحاق في سبب الغزوة رغبة قريش في الثأر من المسلمين الذين أصابوهم في بدر في آبائهم وأبنائهم وإخوانهم، فاجتمعت لذلك قريش وأصحاب العير بأحبيشها، ومن أطاعها من قبائل كنانة، وأهل تهامة^(١)، ولا شك أن ذلك مرتبط باستعادة قريش هيبتها، وتأمين طريق قوافلها التجارية المتجهة إلى الشام.

العدد والعدّة:

أما عدد قريش وعدتها، فقد خرجت بثلاثة آلاف رجل، ومعهم مائتا فرس^(٢)، ويضيف الواقدي: وخرجوا بعدّة وسلاح كثير، وقادوا مئتي فرس، وكان فيهم سبعمائة دارع، وثلاثة آلاف بعير^(٣).

ولم يكتفوا بالرجال بل أخرجوا معهم عددًا من النساء، التماس الحفيظة (إثارة الغضب) وآلا يفروا^(٤).

استشارة النبي ﷺ أصحابه وعدد جيشه وتنظيمه:

حين بلغ النبي ﷺ خبر المشركين استشار أصحابه - كما استشارهم في بدر - لكنهم في أحد اختلفوا على رأيين، طائفة ترى القتال في المدينة، وأخرى قالت: ما دخل علينا فيها في الجاهلية، فكيف يُدخل علينا في الإسلام؟ ولعله رأي أكثرية، فاستجاب لهم النبي ﷺ ودخل ولبس لأمة الحرب، فكأنهم أرادوا التراجع خشية أن يكونوا أكرهوا النبي ﷺ عليه، لكنه ﷺ أصرَّ على ذلك وقال: ما كان لنبِيٍّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل^(٥).

(١) السيرة لابن هشام: (٨٧/٣).

(٢) السيرة لابن هشام (٩٦/٣).

(٣) المغازي (٢٠٣/١).

(٤) ابن هشام: السيرة (٨٩/٣) والواقدي (٢٠٢-٢٠٣).

(٥) رواه أحمد ح (١٤٧٨٧)، والدارمي ح (٢٢٠٥) ورجاله رجال الصحيح: مجمع الزوائد (١٠٧/٦).

والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي: المستدرک (١٢٩/٢).

وكان عبد الله بن أبي (زعيم المنافقين) يرى البقاء في المدينة -والله أعلم بقصده- فلما خرج النبي ﷺ عن المدينة وجدها فرصة للتخاذل، وانخذل معه ثلث الجيش ممن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب^(١)، أو ممن اغترّ برأيه ولم يعلم بحاله.

وثمة رواية أخرى تشير إلى أن عبد الله بن أبي خرج ومعه رهط من يهود بني قينقاع (وهم رهطه)، يريدون المشاركة في أحد، فسأل النبي ﷺ: أوقد أسلموا؟ فقل: إنهم على دينهم، فأرجعهم النبي ﷺ وقال: إنا لا نستعين بالمشركين على المشركين^(٢). وبكل حال، فقد بقي مع النبي ﷺ سبعمائة مقاتل، مقابل ثلاثة آلاف من المشركين، ومع ذلك صف النبي ﷺ أصحابه، واختار موقعه في المعركة، حيث نزل إلى الشعب من أحد، وجعل خمسين من أصحابه فوق جبل (عينين) (الرماة)، وأمر عليهم عبد الله بن جبير ؓ، وقال لهم: لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهوروا علينا فلا تعينونا^(٣).

النصر والمصيبة:

وسلّم الراية في أحد لمصعب بن عمير ؓ، وابتدأت المعركة وكان النصر فيها للمسلمين كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، قال ابن إسحاق: ثم أنزل الله نصره على المسلمين وصدقهم وعده، فحسّوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر، وكانت الهزيمة لا شك فيها^(٤).

(١) ابن هشام: السيرة (٣/٩٢-٩٣).

(٢) أحمد ح (١٥٧٦٣) بدون ذكر اسم المعركة، والمطالب العالية (٤٣١٩)، وحسن إسناده ابن حجر والبوصيري، إبراهيم العلي: صحيح السيرة (٢٠٥).

(٣) ابن هشام: السيرة (٣/٩٤-٩٥)، وصحيح البخاري (ح ٤٠٤٣).

(٤) ابن هشام: السيرة (٣/١١١).

ثم كانت المصيبة وانكشف المسلمون في أحد عقب مخالفة بعض الصحابة ﷺ وصيَّة رسول الله ﷺ لهم - وهم على جبل الرماة-: (إن رأيتمونا تخطفنا الطير، فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم) (١).

وحين هُزم المشركون وولّوا الأدبار، ونساؤهم يشتدون في الجبل هروبًا حتى بدت خلاخلهنّ، هنا قال نفر من أصحاب الجبل (الرماة): الغنيمة الغنيمة، فقال عبد الله بن جبير ﷺ (أميرهم): عهد إلي النبي ﷺ ألا تبرحوا، فأبوا، فلما أبوا صُرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلاً (٢).

مَنْ ثَبِتَ مِنَ الرَّمَاةِ:

وللحقّ فقد ثبت (ابن جبير) ومعه رهط من المسلمين مكانهم، قال الواقدي: ما يبلغون العشرة (٣)، ولكنّ خيالة المشركين بقيادة خالد بن الوليد ومعه عكرمة بن أبي جهل، كانوا ينتظرون هذه الفرصة، فصعدوا جبل الرماة (عينين) وقتلوا من بقي عليه من المسلمين، وتغير وجه المعركة، وأصيب من أصيب من المسلمين، ولم يسلم النبي ﷺ من الأذى والمصيبة، فأصابه بعض سهام المشركين، وكُسرت رباعيته، وشُجّ وجهه، وقال: كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟ فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨] (٤).

وهنا شهادة شاهد عيان تحدد سبب المصيبة - في هذه المرحلة - يقول رافع بن خديج: (فكنا أتينا من قبل أنفسنا ومعصية نبيّنا) (٥)، وأبلغ من ذلك وأصدق قول الحقّ

(١) البخاري ح (٣٠٣٩).

(٢) البخاري ح (٤٠٤٣).

(٣) المغازي (١/٢٣٠).

(٤) البخاري ح (٤٠٦٩).

(٥) الواقدي: المغازي (١/٢٣٣).

تبارك وتعالى: ﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

و حين أصيب المسلمون تفرَّق جمعهم وصاروا ثلاث فرق، ففئة فرّت وتولت عن ميدان المعركة وعنهم قال الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، وفئة فعدت في أرض المعركة دون قتال، وظنوا أن رسول الله قد قتل^(١)، وفيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٢)، وفئة ثالثة استمرت في القتال وفيهم المدافعون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استشهد عددٌ من منهم، وفيهم أنس بن النضر رضي الله عنه^(٣).

وفي هذه المرحلة أشرف أبو سفيان -قائد المعركة- فقال: أفي القوم محمد؟ فقال صلى الله عليه وسلم: لا تجيبوه، فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: لا تجيبوه، فقال: أفي القوم عمر بن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قُتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدو الله، أبقى الله عليك ما يخزيك، ثم قال أبو سفيان: اعلُ هُبَل، فقال صلى الله عليه وسلم: أجيبوه، قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا الله أعلى وأجل، إلى قوله: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وستجدون مثلةً لم أمر بها ولم تسؤني^(٤).

من ألوان الشجاعة:

ومن بين النصر والهزيمة للمسلمين فقد سجلوا وسطروا على أرض المعركة -في أحد- من ضروب الشجاعة شيئاً عظيماً، ومن ذلك موقف أبي دجانة رضي الله عنه، حيث

(١) ابن هشام: السيرة (٣/١٢٠).

(٢) (٨) الواقدي: المغازي (١/٢٨٠).

(٣) ابن هشام: السيرة (٣/١٢٠) ومجمع البحرين (٢/٢٣٩) ورجاله ثقات.

(٤) البخاري (ح ٤٠٤٣).



أخذ النبي ﷺ سيفاً فقال: من يأخذه بحقه؟ فأحجم القوم، فقال أبو دجانة (سماك بن خراش) ﷺ: أنا أخذه بحقه، فأخذه، وقلق به هام المشركين^(١).
وقد جاء في رواية (تفسير حقّ السيف): (ألاً تقتل به مسلماً، ولا تفرّ به عن كافر)^(٢).

وكان أنس بن النضر ﷺ قد غاب عن (بدر) وقال: لأن أراني الله مشهداً بعده مع رسول الله ليرين الله ما أصنع، فلما شهد (أحدًا) قال لسعد بن معاذ ﷺ: وأها لريح الجنة، إني لأجده دون أحد، ثم قاتل حتى قتل، ووُجِدَ في جسمه بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورمية، وما عرفته إلا أخته بنانه، ونزلت الآية: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه^(٣).

وفي قصة أنس: جواز الأخذ بالشدة في الجهاد، وبذل المرء نفسه في طلب الشهادة، والوفاء بالعهد^(٤).

وحمزة ﷺ (أسد الله وأسد رسوله ﷺ) ممن أبلى بلاءً حسناً في أحد، وقتل عدداً من المشركين، حتى ترصد له (وحشي)^(٥)، وكمن له تحت صخرة، فلما دنا منه قتله، فكان حمزة ﷺ من أبطال وشهداء أحد^(٦).

(١) صحيح مسلم (ح ٢٤٧٠)، ابن سعد: الطبقات (٣/٥٥٦).

(٢) دلائل النبوة لليهقي (٣/٢٣٣)، ورواه البزار وقال الهيثمي: رجاله ثقات: مجمع الزوائد

(٦/١٠٩)، وانظر صحيح السيرة: إبراهيم العلي (ص ٢٠٦).

(٣) البخاري (ح ٤٠٤٨)، ومسلم (ح ١٩٠٣).

(٤) الفتح (٧/٣٥٦).

(٥) أسلم بعد ذلك، وعُد في الصحابة وقتل مسيلمة الكذاب (تراجع ترجمته في كتب الطبقات والتراجم).

(٦) البخاري (ح ٤٠٧٢).



وثمة رجال آخرون جاهدوا في أحد وكان لهم مواقف صدق ودفاع عن النبي ﷺ، فطلحة ابن عبيد الله ﷺ شلت يده ووقى بها النبي ﷺ يوم أحد^(١).

وسعد بن أبي وقاص ﷺ نثل له النبي ﷺ كنانته يوم أحد وقال له: ارم فداك أبي وأمي^(٢)، حتى قال علي بن أبي طالب ﷺ: ما سمعت النبي ﷺ يجمع أبويه لأحد غير سعد^(٣).

سبعة يستشهدون دفاعاً عن النبي ﷺ:

وكم هو عظيم حين يستشهد سبعة من الأنصار ﷺ -واحدًا تلو الآخر- وهم يقاتلون ويدفعون المشركين ويحمون رسول الله ﷺ من المشركين، حتى قال عليه الصلاة والسلام: (ما أنصفنا أصحابنا)^(٤).

الترفع عن القوميات:

وعظيم كذلك أن تُحرر المصطلحات، ويُترفع عن القوميات الضيقة، ولا يغيب عن القائد المرابي توجيهه (أبي عقبة الفارسي مولى جبر الأنصاري) حين ضرب رجلاً من المشركين، فقتله وهو يقول: (خذا مني وأنا الرجل الفارسي)، فلما بلغت النبي ﷺ قال له: (ألا قلت: خذا وأنا الرجل الأنصاري، فإن مولى القوم منهم)^(٥).

(١) البخاري (٤٠٦٣).

(٢) البخاري (ح ٤٠٥٥)، ومسلم ح (٢٤١٢).

(٣) البخاري (ح ٤٠٥٨)، ومسلم ح (٢٤١١).

(٤) مسلم (ح ١٧٨٩).

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٥/٥)، وابن ماجه في كتاب الجهاد ح (٢٧٨٤) وفي إسناده مقال، وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى ورجاله ثقات: (مجمع الزوائد ٦/١١٥)، وانظر: صحيح السيرة النبوية: إبراهيم العلي (ص ٢٢٤)، د. زيد الزيد: فقه السيرة (ص ٤٥٢).

غسيل الملائكة:

أما غسيل الملائكة (حنظلة بن أبي عامر رضي الله عنه) فقد بادر بالخروج لأحد (وهو جُنُب)، فلما قُتل قال النبي ﷺ: إن صاحبكم تغسله الملائكة، فاسألوا صاحبتَه، فقالت: إنه لما سمع (الهائعة) خرج وهو جُنُب، قال ﷺ: (فلذلك غسلته الملائكة)^(١).

أهل الأعدار يُقاتلون:

على أن بطولات أحد لا تنتهي عند هذا الحد، فثمة مواقف وبطولات أخرى لمن شهدوا أحدًا، من الكبار والصغار، حتى من عذرهم الله، لعرجه أو لكبر سنه، أسهموا في هذه البطولات، فعمرو بن الجموح (الأعرج) واليمان (والد حذيفة) وهو الشيخ الكبير، كانا من شهداء أحد^(٢).

المرأة المسلمة في أحد:

وكان للمرأة المسلمة في أحد شهود وجهود في سقاية العطشى، ومداواة الجرحى، مثل: أم عمارة وحمنة بنت جحش، وأم سليط، وأم سليم، وأم المؤمنين عائشة وغيرهن رضي الله عنهن^(٣).

بل ورد في بعض الروايات دفاع المرأة عن النبي ﷺ كما حصل من أم عمارة، حتى جُرحت في المعركة^(٤).

(١) الحاكم في مستدرکه (٣/٢٠٤-٢٠٥)، وصححه ووافقه الذهبي، ورواه الطبراني في الكبير، وقال

الهيثمي: إسناده حسن: مجمع الزوائد (٣/٢٣).

(٢) انظر: البخاري (٤٠٦٥)، والمسند لأحمد (٥/٢٩٩)، وحسنه ابن حجر في الفتح، وانظر: صالح

العلي: صحيح السيرة النبوية (٢١٧).

(٣) انظر البخاري: (ح ٤٠٦٤-٤٠٧١)، ومسلم (ح ١٨١١)، ومغازي الواقدي (١/٢٤٩-٢٥٠).

(٤) ابن هشام: السيرة (٣/١١٨)، وابن سعد: الطبقات (٨/٤١٢-٤١٥).

وبلغ من وعي المرأة وصبرها في أحد أن (السميراء بنت قيس رضي الله عنها) إحدى نساء بني دينار، أصيب زوجها وأخوها وأبوها، فلما نُعوا إليها قالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: هو بحمد الله كما تحيين، قالت أرونيه، فلما رآته قالت: كل مصيبة بعدك جليل، تريد: صغيرة^(١).

وصفية (شقيقة حمزة) رضي الله عنهما حين بلغها مصابه، وذهبت لتنظر إليه، ورغب النبي ﷺ في صرفها عنه حتى لا تراه وقد مُثل به، لكنها أصرت واسترجعت واستغفرت له^(٢).

شهداء أحد:

ورغم مصاب المسلمين في أحد، فقد استشهد منهم سبعون^(٣)، وقيل بلغوا مائة، والسبعون من الأنصار فقط^(٤)، وفي النبي ﷺ من الجراح ما جعله يوم أحد يصلي الظهر قاعداً، والمسلمون خلفه قعود يصلون^(٥)، وقد احتاج النبي ﷺ أن يجمع بين

(١) ابن هشام: السيرة (٣/١٤٥-١٤٦)، والواقدي: المغازي (١/٢٩٢)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/٣٠٢)، وحسن الباكري إسناده في مرويات غزوة أحد (ص ١٨٣)، وأخذ د. مهدي رزق الله على محقق سيرة ابن هشام تضعيفه، انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٣٩٩ هامش ١٢٦).

(٢) ابن هشام: السيرة (٣/١٤١-١٤٢)، وصحح إسناده د. همام وأبو صعيليك.

(٣) البخاري ح (٤٠٤٣)، وابن هشام: السيرة (٣/١٧٩)، فيهم (حمزة) و(مصعب) و(عبد الله بن حرام) وهو أول من قُتل -كما ذكر ابن سعد- وقد حسن الترمذي وغيره: (أن الله كلم عبد الله بن حرام -بعد أن استشهد- وقال له: سلني أعطك، فسأله أن يُرد إلى الدنيا فيقتل فيه ثانية، فقال: سبق القول أنهم لا يرجعون، قال: ياربِّ بلغ من ورائي، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرزقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] الترمذي (٣٠١٣)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٣/٢٠٤)، وصححه ابن حجر (الفتح ٣/١٧٣).

(٤) الفتح (٧/٣٥١-٣٥٢).

(٥) ابن هشام (٣/١٢٦).



الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد، ثم يقول: أيهم أكثر أخذًا للقرآن فيقدمه في اللحد^(١).

ومنه يؤخذ درس في تقديم أهل القرآن أحياء وأمواتا (وخيركم من تعلم القرآن وعلمه)^(٢).

من دروس أحد:

إلا أن المعركة (أحد) وقع فيها من الدروس والنفعة العام والخاص للمسلمين الشيء الكثير، فقد أدركوا أثر المعصية، واتخذ الله منهم شهداء، ومُحَصَّص أهل الإيمان، وانكشف أهل الريب والنفاق، وقد أفاض ابن القيم في ذكر بعض الحكم والغايات المحمودة التي صارت للمسلمين في أحد، فأجاد وأفاد^(٣)، فليراجع فهو من النفائس.

حمراء الأسد:

ومع المصيبة والجراح فقد أثبت المؤمنون تجلدهم وصبرهم واستجابتهم لله ورسوله حين دُعوا (لحمراء الأسد)^(٤)، وقد أثنى الله عليهم بقوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢].

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها: (الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ...)، قالت لعروة: يا بن أختي، كان أبواك منهم (الزبير، وأبو بكر) لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا، قال:

(١) البخاري ح (١٣٤٣، ٤٠٧٩).

(٢) البخاري ح (٥٠٢٧).

(٣) زاد المعاد (٣/٢١٨-٢٤١).

(٤) جبل أحمر جنوب المدينة على مسافة ٢٠ كم على طريق بدر (المعالم الأثيرة (١٠٣)).

من يذهب في إثرهم، فانتدب منهم سبعون رجلاً، قال: كان فيهم أبو بكر والزبير^(١).
قال ابن إسحاق: وكان يوم أحد يوم السبت للنصف من شوال، فلما كان الغد (يوم الأحد) لست عشرة من شوال أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس لطلب العدو، وألا يخرج معنا إلا من حضر أحدًا، وإنما خرج رسول الله ﷺ مُرْهِبًا العدو، وإن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم^(٢)، وأرّخها الواقدي لثمانٍ خلت من شوال؛ لأنه أرّخ لأحد لسبع من شوال^(٣).

وقد كان لخروج المسلمين لحمراء الأسد أثرٌ في عدم عودة أبي سفيان بالمشركين إلى المدينة لاستئصال بقية أصحاب رسول الله ﷺ كما قال أبو سفيان، فقد قيل لهم إن محمدًا وأصحابه خرجوا إلى حمراء الأسد يطلبونكم^(٤).

المنافقون تخلف وشماتة:

أما المنافقون فقد تخلفوا عن المعركة في بدايتها، فلما أصيب المؤمنون فرحوا وشمتموا لمصائبهم وأظهروا هم واليهود القول السيئ، فقالت اليهود: ما أصيب هكذا نبي قط، وقال المنافقون للصحابة: لو كان من قُتل منكم عندنا ما قُتلوا^(٥).

ولكن الله غالب على أمره، ومهما شكك اليهود في رسالة محمد ﷺ فالله معه يعصمه ويقويه بجند من جنده، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان معه رجلا ن يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض لم يروا من قبل ولا بعد من (الملائكة)^(٦)، وقد جاءت تسميتهما في

(١) البخاري (ح ٤٠٧٧)، ومسلم ح (٢٤١٨).

(٢) ابن هشام: السيرة (٣/١٤٧ - ١٤٨).

(٣) المغازي: (١/١٩٩، ٣٣٤).

(٤) ابن هشام: السيرة (٣/١٤٩، ١٥١).

(٥) الواقدي: المغازي (٣١٧ - ٣١٨).

(٦) البخاري (ح ٤٠٥٤)، ومسلم ح (٢٣٠٦).

رواية مسلم (جبريل وميكائيل) (١).

النعاس أمنة:

وحينما انخزل المنافقون وأصاب المسلمين ما أصابهم من الغم والهَمِّ؛ فقد أعانهم بجند من جنوده (النعاس)، ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قال أبو طلحة ؓ: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط وأخذه، ويسقط وأخذه (٢)، قال ابن إسحاق: وأنزل الله النعاس أمنة منه على أهل اليقين به، فهم نيام لا يخافون (٣).

الصلاة على شهداء أحد بعد سنين:

ومما يلفت النظر أن رسول الله ﷺ ظل وفياً لشهداء أحد، فقد ثبت أنه ﷺ صلى على قتلى أحد بعد ثماني سنين كالمودع للأحياء والأموات (٤).

وبعدُ فالحديث عن (غزوة أحد) يستحق أكثر من هذا، لكنه بُغية الاختصار قصرت، ويبقى حديث (القرآن) عن أحد فوق كلِّ حديث؛ لأن الذي أنزله يعلم السرَّ وأخفى، وفي سياقه لأحداث أحد ما يستحق التأمل والاعتبار، فقد استغرق الحديث عن أحد في سورة آل عمران قرابة ستين آية، حيث افتتح الله القصة بقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢١] إلى تمام ستين

(١) مسلم (ح ٢٣٠٦).

(٢) البخاري (ح ٤٠٦٨)، ومسلم (ح ١٨١١).

(٣) ابن هشام: السيرة (٣/١٦٦).

(٤) البخاري (ح ٤٠٤٢)، ومسلم (ح ٢٢٩٦) وقد ذكر ابن حجر في الفتح الخلاف في المراد بالصلاة عليهم.

آية^(١)، حيث انتهت بتعليق جامع على نتائج المعركة وحكمتها بقوله: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظَلِّعَكُمْ عَلَىٰ الْغَيْبِ...﴾ [آل عمران: ١٧٩]^(٢).

حتى قال من قال: إن سورة آل عمران (أُحدية).



(١) ابن القيم زاد المعاد (٣/٢١٨).

(٢) آل عمران (١٧٩) ومهدي رزق الله: السيرة في ضوء المصادر الأصلية (ص ٤٠٢).

البعثات الدعوية ورصد تحركات المشركين بعد غزوة أحد

في إثر غزوة أحد؛ أراد النبي ﷺ ألا يتيح لقريش أو غيرها من المشركين فرصة استثمار أحد، فاهتمّ بالبعثات الدعوية وإرسال العيون للدعوة لدين الله ورصد أي تحرك مناوئ للمسلمين، لا سيّما وقد بلغه عن تحرك طلحة وسلمة بن خويلد لحرب المسلمين، فبعث أبا سلمة وبعث معه مائة وخمسين رجلاً من الأنصار والمهاجرين، فأصابوا إبلاً وشاء، ولم يلقوا أحداً ورجعوا إلى المدينة^(١).

كما بلغه ﷺ أن خالد بن سفيان الهذلي قد جمع له الجموع، فبعث إليه عبد الله بن أنيس ﷺ فقتله^(٢)، ومن هنا جاء بعث (سرية الرجيع، وبئر معونة).

١ - سرية ماء الرجيع:

روى البخاري عن ابن إسحاق أنها كانت بعد أحد^(٣)، وثمة اختلاف بين رواية البخاري وابن إسحاق في سبب هذه السرية، وعدد أفرادها، وبعض أحداثها، فعند البخاري: بعث رسول الله ﷺ عشرة عيناً له، وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري^(٤) وعند ابن إسحاق: قدم على رسول الله ﷺ رهط من عَضَل والقارة، فقالوا: يا رسول الله، إنَّ فينا إسلاماً فابعث معنا نفرًا من أصحابك يفقهوننا في الدين ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام، فبعث معهم نفرًا (سِتَّة) من أصحابه، وهم: مرثد بن أبي

(١) ابن سعد: الطبقات (٢/ ٥٠)، ابن القيم: زاد المعاد (٣/ ٢٤٣).

(٢) رواه أبو داود بسند جيد كما قال ابن حجر في الفتح (٧/ ٣٨٠)، وانظر القصة مطولة عند ابن سعد في الطبقات (٢/ ٥٠ - ٥١).

(٣) صحيح البخاري، باب غزوة الرجيع (٢٨).

(٤) البخاري ح (٣٩٨٩، ٤٠٨٦).

مرثد الغنوي، وخالد بن الكبير، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وخبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة، وعبد الله بن طارق، وأمر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي^(١)، ويوافق ابن سعد ابن إسحاق في سببها، ويخالفه ويوافق البخاري على أن عددهم عشرة^(٢)، وهكذا يرى موسى بن عقبة أن عددهم عشرة، ويرجح السهيلي وابن حجر رأي البخاري في اسم الأمير والعدد^(٣)، وجمع (عرجون) بين السببين بأن يكون وافق إرسالهم عينًا مجيء النفر من عَصَل والقارة^(٤).

نعرض - بعد ذلك - لأحداث مؤلمة، ومعها مواقف إيمانية رائعة لأصحاب هذه السرية، روى البخاري وابن إسحاق: فلما كانوا بالهدة بين عسفان ومكة ذكروا لحيٍّ من هذيل يقال لهم (بنو لحيان)، فنفروا لهم بقريب من مائة رجل رام، فاقتصوا آثارهم، فوجدوا ماكلهم التمر في منزل نزلوه، فقالوا تمر يثرب، فاتبعوا آثارهم، فلما حسَّ بهم عاصم وأصحابه لجؤوا إلى موضع، فأحاط بهم القوم، فقالوا لهم: انزلوا فأعطوا بأيديكم ولكم العهد والميثاق ألا نقتل منكم أحدًا، فقال عاصم: أيها القوم، أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، ثم قال: اللَّهُمَّ أخبر عنا نبيك ﷺ (وعند ابن إسحاق أن الذي قال: اللَّهُمَّ بلغ نبيك ما يُصنع بنا: خبيب بن عدي)، فرموهم بالنبل فقتلوا عاصمًا، ونزل إليهم ثلاثة نفر على العهد والميثاق منهم: خبيب، وزيد بن الدثنة، ورجل آخر (سماه ابن إسحاق: عبد الله بن طارق)، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فربطوهم بها، قال الرجل الثالث (عبد الله بن طارق): هذا أول الغدر، والله لا أصحابكم، إن لي بهؤلاء أسوة - يريد القتلى - فجروه وعالجوه، فأبى أن يصحبهم، فلم يفعل فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيبا بنو الحارث

(١) ابن هشام: السيرة (٣/ ٢٤١ - ٢٤٢).

(٢) الطبقات الكبرى (٢/ ٥٥).

(٣) الفتح (٧/ ٣٨٠).

(٤) محمد رسول الله ﷺ (٤/ ٤١).

بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو الذي قتل الحارث يوم بدر، فمكث عندهم أسيرًا حتى إذا أجمعوا على قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحذَّ بها، فأعارته، فدرج بُني لها وهي غافلة حتى أتاه، فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده، قالت: ففزعت فزعة عرفها خبيب، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك، قالت: والله ما رأيت أسيرًا قطَّ خيرًا من خبيب، والله لقد وجدته يأكل قطفًا من عنب في يده وإنه لموثق بالحديد، وما بمكة من ثمرة، وكانت تقول: إنه لرزق رزقه الله خبيبا، فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحِلِّ قال لهم خبيب: دعوني أصلي ركعتين، فتركوه فركع ركعتين فقال: والله لولا أن تحسبوا أن ما بي جزع لزدت، ثم قال: اللَّهُمَّ أحصهم عددًا واقتلهم بددًا ولا تبقِ منهم أحدًا، ثم أنشأ يقول:

فلست أبالي حين أقتل مسلمًا

على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ

يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم قام إليه أبو سروعة عقبة بن الحارث فقتله، وكان خبيب رضي الله عنه هو الذي سنَّ لكل مسلم قتل صبرًا الصلاة، (وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه يوم أصيبوا خبرهم)، وبعث ناس من قريش إلى عاصم بن ثابت حين حُذِّثوا أنه قُتل أن يؤتوا بشيء منه يُعرف، وكان قتل رجلاً عظيمًا من عظمائهم - يوم بدر - فبعث الله لعاصم مثل الظلة من الدُّبر، فحمته من رسلهم فلم يقدروا أن يقطعوا منه شيئًا^(١).

(١) رواه البخاري (ح ٣٩٨٩، ٤٠٨٦)، وانظر ابن إسحاق - كما في سيرة ابن هشام (٣/ ٢٤١-٢٤٨)، وابن سعد: في الطبقات الكبرى (٢/ ٥٥-٥٦).

وعند ابن إسحاق وابن سعد زيادة في موقف زيد بن الدثنة حين ابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف، ومقولة أبي سفيان لزيد حين قُدِّمَ ليُقتل: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمدًا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي، قال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمدٍ محمدًا، ثم قتله نسطاس^(١).

ومن دروس هذه السرية: ما لاقاه صحابة رسول الله ﷺ من الشدة والبلاء حتى فاضت أرواحهم في سبيل الله دون جزع أو تسخط، بل شهد عدوهم على شدة محبتهم لحبيهم ونيهم ﷺ وهم يُقدمون للقتل.

قال ابن حجر: وفي الحديث من الفقه: الوفاء للمشركين بالعهد والتورع من قتل أولادهم، وإثبات كرامة الأولياء، والدعاء على المشركين بالتعميم، والصلاة عند القتل، وقوة اليقين وأن الله يتلي عبده المسلم بما شاء كما سبق في علمه ليثيبه، (ولو شاء ربك ما فعلوه)، واستجابة دعاء المسلم، وإكرامه حيًا وميتًا، وغير ذلك من الفوائد^(٢).

٢ - سرية بئر معونة:

يتفق الواقدي وابن سعد على أن بئر معونة والرجيع كانتا في صفر على رأس ستة وثلاثين شهرًا من مهاجر رسول الله ﷺ^(٣)، وكلاهما قُدِّمَ بئر معونة على ماء الرجيع، ونص الواقدي على أن خبر بئر معونة جاء معها في ليلة واحدة مصابهم ومصاب أصحاب الرجيع (مرثد بن أبي مرثد)^(٤).

(١) ابن هشام: السيرة (٣/٢٤٥)، وابن سعد: الطبقات الكبرى (٢/٥٦) مرسل عن ابن إسحاق.

(٢) الفتح (٧/٣٨٤-٣٨٥).

(٣) مغازي الواقدي (١/٣٤٦-٣٥٤)، والطبقات الكبرى (٢/٥١-٥٥).

(٤) المغازي (١/٣٤٩).

أما ابن إسحاق فأرخ بئر معونة في صفر سنة أربع (على رأس أربعة أشهر من أحد) وقدم الرجيع على بئر معونة^(١).

وعن سبب هذه السرية قال البخاري: إن رعلاً، وذكوان، وعصيّة، وبني لحيان، استمدوا رسول الله ﷺ على عدو فأمدهم بسبعين من الأنصار، يُسمّون (القراء) يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل^(٢)، وعند مسلم والبيهقي: أن ناساً جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وطلبوا منه أن يبعث معهم رجالاً يعلمونهم القرآن والسنة، فبعث معهم القراء، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصُّفّة والفقراء^(٣).

ويتفق ابن إسحاق، والواقدي، وابن سعد على أن أبا براء عامر بن مالك (ملاعب الأسنّة)، قدم على رسول الله ﷺ المدينة فعرض عليه الإسلام ودعاه إليه، فلم يُسلم ولم يبعد من الإسلام، وقال: يا محمد، لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد - وهم قوم عامر بن مالك - (كما نص عليه الواقدي وابن سعد) فدعوهم إلى أمرك، لرجوت أن يستجيبوا لك، فقال رسول الله ﷺ: إني أخشى عليهم أهل نجد، قال أبو براء: أنا جارٌ لهم، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك^(٤).

وحيثما اتفقت رواية الصحيحين مع الواقدي وابن سعد على أن عدة أصحاب (بئر معونة) سبعون رجلاً، وزاد الواقدي وابن سعد في وصفهم (شبيبة)، فقد انفرد ابن إسحاق بعدتهم (بأربعين رجلاً) من أصحابه من خيار المسلمين^(٥).

(١) ابن هشام: السيرة (٣/٢٦٠).

(٢) ح (٤٠٩٠).

(٣) مسلم (ح ٦٧٧) ودلائل النبوة (٣/٣٤٧).

(٤) ابن هشام: السيرة (٣/٢٦٠)، والواقدي: المغازي (١/٣٤٦)، وابن سعد: الطبقات (٢/٥١-٥٢).

(٥) ابن هشام: السيرة (٣/٢٦١).

وجمع ابن حجر بين اختلاف العدد، بأن الأربعة كانوا رؤساء، وبقية العدة أتباعاً^(١). وبكل حال فهي وعدة أصحاب الرجيع من زيادات الصحيحين على ابن إسحاق.

الغدر المشين:

أما الأمر المؤلم -الذي تجتمع عليه المصادر وإن اختلفت في طريقة عرضه- فهو الغدر المشين من المشركين لهؤلاء السبعين من خيار المؤمنين، وتولى كبر ذلك عدو الله ورئيس المشركين (عامر بن الطفيل)، فحين نزل المؤمنون في بئر معونة -وهي بين أرض بني عامر، وحرّة بني سليم- بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل، فلما أتاه لم ينظر في كتابه حتى عدا على الرجل فقتله، ثم استصرخ عليهم بني عامر، فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، وقالوا: لن نخفر أبا براء، وقد عقد لهم عقداً وجواراً، فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم من (عصية، ورعل، وذكوان) فأجابوه إلى ذلك، فخرجوا حتى غشوا القوم، فأحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ثم قاتلوهم حتى قتلوا من عندهم إلا كعب بن زيد، فإنهم تركوه وبه رمق، وعاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً، وعمرو بن أمية الضمري، والمنذر بن محمد -كانا في سرح القوم- فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على العسكر، فأقبلا ينظران، فإذا القوم في دمائهم، فقال المنذر لعمرو: ما ترى؟ قال: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر، فقال المنذر: لكني ما كنت لأرغب بنفسني عن موطن قُتل فيه (المنذر بن عمرو) أمير السرية، ثم قاتل حتى قتل، وأخذ (عمرو بن أمية) أسيراً، فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه (عامر بن الطفيل) وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه^(٢).

(١) الفتح (٧/٣٨٧).

(٢) ابن هشام: السيرة (٣/٢٦١-٢٦٢)، وابن سعد: الطبقات الكبرى (٢/٥٢).

وتفيد رواية البخاري: أن رئيس المشركين (عامر بن الطفيل) قدم على رسول الله ﷺ المدينة قبل بئر معونة، وأنه هدد وخيّر رسول الله ﷺ بين خصال ثلاث فقال: يكون لك أهل السهل ولي أهل المدر، أو أكون خليفتك، أو أغزوك بأهل غطفان بألف وألف^(١).

مشاهد إيمانية في بئر معونة:

على أن اللافت للنظر في هذه السرية - كما السرية قبلها - المشاهد الإيمانية، والمواقف البطولية، فسبعون - إلا قليلاً نجوا - يموتون شهداء في سبيل الدعوة للدين الحق، وبعضهم وقع لهم مقامات وكرامات، فحرام بن ملحان - أخو أم سليم - قال للمشركين: أتؤمنوني أبلغ رسالة رسول الله ﷺ؟ فجعل يحدثهم وأومؤوا إلى رجل فأتاه من خلفه فطعنه - حتى أنفذه بالرمح - قال: الله أكبر، فزت وربُّ الكعبة^(٢)، وفي رواية: أن حرام بن ملحان حين طُعن، قال بالدم هكذا، فنضح على وجهه ورأسه ثم قال: فزت وربُّ الكعبة^(٣).

إنه فوز الشهادة، والفرح ببقاء ربه، والشكر على تبليغ رسالة الإسلام، وحسن الاتباع لمحمد عليه الصلاة والسلام^(٤).

ومشهد إيماني آخر يُرفع به القتيل في بئر معونة (عامر بن فهيرة) ﷺ وصاحب رسول الله ﷺ في الهجرة إلى عنان السماء، ويقول عامر بن الطفيل لعمر بن أمية الضمري: من هذا القتيل؟ وأشار إلى (عامر بن فهيرة)، فقال: هذا عامر بن فهيرة، قال

(١) (ح ٤٠٩١).

(٢) البخاري (ح ٤٠٩١)، ومسلم (ح ٦٧٧) (٤٥/٦) كتاب الإمارة: باب ثبوت الجنة للشهيد.

(٣) البخاري (ح ٤٠٩٢).

(٤) انظر: الفتح (٣٨٨/٧).

له عامر بن الطفيل: لقد رأيته بعدما قُتل رُفِع إلى السماء حتى إني لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض، ثم وُضع^(١)، وفرق بين من يُقتل شهيداً ويُرفع إلى عنان السماء، وبين عامر بن الطفيل حيث طُعن في بيت امرأة ومات كافراً^(٢).

أما المشهد البطولي الثالث فهو من أمير السرية (المنذر بن عمرو) ؓ، وهو الذي عرض عليه المشركون الأمان (إن شئت آمنّاك) فأبى، وأتى مصرع (حرام) فقاتلهم حتى قُتل، فقال رسول الله ﷺ: (أعنق ليموت)؛ يعني: أنه تقدم على الموت وهو يعرفه^(٣).

وبالجملة: فقد انتصر أصحاب هذه السرية بقيمهم ومبادئهم حتى وإن طعنوا في نحورهم، ومُزقت أجسادهم، إنه الثبات حتى الممات على الحق، والسعي لتبليغ رسالة الإسلام حتى وإن كان ثمن ذلك الأرواح والأجساد، وذلك النصر يغفل عنه المبطلون، ويعلنه ويفخر به المؤمنون (فزت ورب الكعبة) وذلك هو الفوز العظيم.

بين الكرب والدعاء:

وكل ذلك لا ينفي شدة وقع الحدث على النبي ﷺ والمؤمنين، حتى قال أنس ؓ: ما رأيت رسول الله ﷺ وجد على أحدٍ ما وجد على أصحاب بئر معونة^(٤).

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ مكث شهراً يقنت ويدعو على رعل وذكوان، وبني لحيان وعُصية^(٥)، وصح عنه ﷺ أنه قنت شهراً في دبر كل صلاة يدعو عليهم^(٦).

(١) البخاري (ح ٤٠٩٣)، وابن هشام: السيرة (٣/٢٦٤).

(٢) انظر: صحيح البخاري (ح ٤٠٩١)، وابن حجر: الفتح (٧/٣٨٨).

(٣) ابن سعد: الطبقات (٢/٥٢)، وابن هشام: السيرة (٣/٢٦٠-٢٦١).

(٤) ابن سعد: الطبقات (٢/٥٤).

(٥) البخاري (ح ٤٠٨٨، ٤٠٩٠، ٤٠٩١، ٤٠٩٤، ٤٠٩٥، ٤٠٩٦)، ومسلم (ح ٦٧٧).

(٦) صححه الحاكم ووافقه الذهبي: المستدرک (١/٢٢٥).



كما ثبت أنه نزل في أصحاب هذه السرية قرآن ثم رفع (بلغوا عَنَّا قومنا أَنَّا لقينا ربَّنَا فرضي عَنَّا وأرضانا)^(١).

وفاء فريد:

ومع شدة المصائب وكثرة الدعاء على أولئك القوم الغادرين، فلم يقابل رسول الله ﷺ غدرهم بمثله، ولم يرض لصاحبه (عمرو بن أمية) أن يقتل رجلين من بني عامر أو من بني سليم لأنهم خرجوا منه بعهد وأمان، وقال عليه الصلاة والسلام: قتلت قتيلين لأديتَهُمَا، فبعثت بديتهما إلى قومهما، ولم يكن (عمرو) يعلم بهذا العقد^(٢).

تلك أخلاق الأنبياء، وذلك نموذج لوفاء محمد ﷺ بالعهود رغم البلاء...، وثمة دروس وعبر لهذه السرية والتي قبلها (الرجيع)، ومن رام المزيد فليراجع كتب السير والمغازي عموماً والمراجع الحديثة خصوصاً^(٣).



(١) البخاري (ح ٤٠٩٠ - ٤٠٩١)، ومسلم (ح ٦٧٧) وابن سعد: الطبقات (٥٣/٢).

(٢) ابن هشام: السيرة (٣/٢٦٢ - ٢٦٣).

(٣) د. مهدي رزق الله: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص (٤١٦) د. محمد السلمي وزملاؤه: صحيح الأثر وجميل العبر.. (ص ٢١٧ - ٢١٨).



نقض العهود وقتال اليهود

حين قدم النبي ﷺ المدينة كان فيها ثلاث قبائل لليهود هم: (بنو قينقاع - بنو النضير - بنو قريظة)، وجميعهم شملهم النبي ﷺ بمعاهداته (حيث ضمن لهم حقوقهم، وألزمهم بواجباتهم ضمن تركيبة المجتمع المدني كما سبق)، فماذا وقع؟
وسأسرد غدر يهود تباعاً - رغم اختلاف أزمانهم - لتكون الصورة أكمل وأوضح عنهم:

غزوة بني قينقاع:

كان يهود بني قينقاع أول من نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ (كما قال ابن إسحاق من روايته عن عاصم بن عمر)^(١)، وأعلنوا الحرب بعد بدر، فقد جمعهم النبي ﷺ بسوقهم وقال: يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة (يعني ببدر) وأسلموا، وقد عرفتم أنني نبي مرسل، قالوا يا محمد: لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس^(٢).

وقد ثبت إجماع بني قينقاع من المدينة - وهم رهط عبد الله بن سلام -^(٣).

وتفصل كتب السير حصارهم وجلاءهم، وتذكر أنهم حين أظهروا الغدر والخيانة حاصرهم النبي ﷺ خمس عشرة ليلة، وحين اشتد الحصار عليهم نزلوا على

(١) السيرة لابن هشام (٧٠/٣)، وتاريخ الطبري (٤٧٩/٢).

(٢) ابن هشام (٦٩/٣)، وأبو داود ح ٣٠٠١، وحسن أسناده ابن حجر: الفتح (٣٣٢/٧).

(٣) صحيح البخاري (ح ٤٠٢٨)، ومسلم (ح ١٧٦٦).

حكم رسول الله ﷺ على أن لهم أموالهم ونساءهم وذرايرهم، وأمر بهم فُكْتَفُوا ثم كلمه فيهم حليفهم عبد الله بن أبي (زعيم المنافقين) وقال: أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع، منعوني من الأحمر والأسود، وتحصدهم في غداة واحدة؟ فقال رسول الله ﷺ: هم لك، وأمر بجلائهم عن المدينة، وتولى إجلاءهم عبادة بن الصامت ؓ فلحقوا بأذرع^(١).

وعن عروة في قوله تعالى ﴿وَمَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَثِيذُ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]، قال: فسار إليهم رسول الله ﷺ بهذه الآية^(٢).

وكان حصار يهود بني قينقاع وجلاؤهم ما بين بدر وأحد^(٣)، ويحددها الزهري في شوال من السنة الثانية للهجرة^(٤).

التقارب بين اليهود والمنافقين:

وحيث تؤكد هذه الغزوة غدر يهود وخيانتهم، وتضيف بعض المصادر غدرهم بالمرأة المسلمة حتى كشفوا سوءتها^(٥)، فإن من دروس هذه الغزوة كذلك التقارب

(١) السيرة لابن هشام (٣/٧٠-٧١)، وابن سعد: الطبقات (٢/٩٢)، وحسن إسنادهما السندي في مرويات يهود المدينة (ص ٩٦)، ومهدي رزق الله: السيرة في ضوء المصادر الأصلية (ص ٣٧١)، وأذرع: (بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان) كما يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان (١/١٣٠) ويقول محمد بن محمد شراب في المعالم الأثيرة في السنة والسيرة ط: ١ (ص ٢٥): (اتفق الأقدمون على أنها بالشام، واختلفوا في تحديد موقعها، وإذا كانت أذرع هي: أذرع فهي اليوم من عمل حوران داخل الحدود السورية قرب مدينة درعا شمالاً).

(٢) تاريخ الطبري (٢/٤٨٠).

(٣) ابن إسحاق: سيرة ابن هشام (٣/٧٠).

(٤) تاريخ الطبري (٢/٤٨٠).

(٥) ضعف البعض هذا الخبر انظر: مهدي رزق: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٣٧٠) هامش (١٤).



والولاء بين المنافقين واليهود، وصدق المؤمنين في براءتهم من اليهود، فإذا كان عبد الله بن أبي أُلحَّ على النبي ﷺ في العفو عن حلفائه بني قينقاع، فإن عبد الله بن سلام - وهم رهطه - وعبادة بن الصامت - وهو المكلف بجلائهم - لم يظهر منهما أي ولاءٍ وتعاطف مع هؤلاء الغادرين مثل ما لابن أبي، بل أظهر (عبادة) البراءة منهم، وقد كشف القرآن عن هذا الولاء الآثم فقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١] (١).

غزوة بني النضير:

وهم الفصيل الثاني من فصائل اليهود الذين نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ حتى حاصرهم وأجلاهم عن المدينة، قال البخاري: كان ذلك على رأس ستة أشهر من وقعة بدر، قبل وقعة أحد، ثم قال: وجعله ابن إسحاق بعد بئر معونة وأحد (٢).

وكان سبب حصارهم وجلائهم أن قريشًا كتبت لهم: أنكم أهل الحلقة والحصون، يتهددونهم، فأجمعت بنو النضير على الغدر، فأرسلوا إلى النبي ﷺ أن اخرج إلينا في ثلاثة من أصحابك، ويلقاك ثلاثة من علمائنا فإن آمنوا بك اتبعناك، ففعل، فاشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر، فأرسلت امرأة من بني النضير إلى أخ لها من الأنصار مسلم، تخبره بأمر بني النضير، فأخبر أخوها النبي ﷺ قبل أن يصل إليهم، فرجع، وصبَّحهم بالكتائب، فحاصرهم يومه (٣)، وعند ابن إسحاق وغيره: أن رسول الله ﷺ خرج إلى بني النضير يستعينهم في دية القتيلين اللذين قتلها عمرو بن أمية الضمري

(١) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية (٣/٧٢)، وتفسير الطبري (٤/٦١٦).

(٢) صحيح البخاري: (باب حديث بني النضير)، ووافق ابن سعد ابن إسحاق في كونها سنة أربع (الطبقات ٢/٥٧).

(٣) هذه رواية ابن مردويه عن الزهري بإسناد صحيح كما قال ابن حجر في الفتح (٧/٣٣١).

(منصرفاً من بئر معونة)، قالوا: نعينك يا أبا القاسم، ثم بيتوا نية الغدر وقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذا، وتشاوروا بينهم من يعلو بيتاً كان رسول الله ﷺ يجلس إلى جداره، فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك أحدهم (عمرو بن جحاش بن كعب) فقال: أنا لها. فصعد ليلقي الصخرة، وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ من السماء، فقام ورجع إلى المدينة وأخبر أصحابه بغدر يهود، وأمرهم بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم^(١).

المنافقون مرة أخرى حلفاء لليهود:

ويضيف ابن سعد: أن رسول الله ﷺ بعث إليهم محمد بن مسلمة أن اخرجوا من بلدي فلا تسانوني بها وقد هممت بما هممت به من الغدر، وقد أجلتكم عشراً، فمن رئي بعد ذلك ضربت عنقه، فمكثوا يتجهزون حتى أرسل إليهم عبد الله بن أبيي (زعيم المنافقين): لا تخرجوا من دياركم وأقيموا في حصونكم، فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصونكم فيموتون عن آخرهم، وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان، فطمع حبي بن أخطب (زعيم بني النضير) بما قال ابن أبيي، فأرسل إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك، فأظهر رسول ﷺ التكبير، وكبر المسلمون لتكبيره وقال: حاربت يهود، فسار إليهم، وحاصرهم، واعتزلتهم قريظة فلم تعنهم، وخذلهم ابن أبيي وحلفاؤهم من غطفان، فحاصرهم رسول الله ﷺ خمسة عشر يوماً حتى نزلوا على حكمه وأجلاهم عن المدينة، وحملوا النساء والصبيان وتحملوا على ستمائة بعير^(٢).

وإلى موقف المنافقين مع اليهود تنزلت آيات سورة الحشر ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ

(١) ابن هشام: السيرة (٣/٢٦٧-٢٦٨)، ابن سعد: الطبقات (٢/٥٧-٥٨).

(٢) الطبقات الكبرى (٢/٥٧-٥٨).

فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ [الحشر: ١١].

اليهود يتهمون المسلمين بالفساد:

وثمة (دعوى) (وتهم) قديمة تتجدد، فالرسول ﷺ حين حاصر بني النضير احتاج قطع أو حرق نخل بني النضير، وهي (البويرة)^(١)، فارتفع صوت يهود: يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وحرقتها؟^(٢).

وعن قتادة أن يهود قالت: أله أذن لكم في الفساد؟^(٣)، وأنزل الله حكمه ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّيْتَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥]^(٤)، وهكذا يتهم اليهود المسلمين بالفساد وهم أهل الفساد، والدرس الكبير: أن التاريخ يعيد نفسه، وحين يُتَّهَم المسلمون اليوم بالإرهاب والتطرف فمن قبل اتُّهم المسلمون بذلك وفيهم رسول الله ﷺ، ولا يصح إلا الصحيح.

ودرس آخر - من غزوة بني النضير - أن ما غنمه المسلمون من أعدائهم دون قتال - وهو الفيء - أجرى فيه سنة لا تتغير ولا تتبدل، حيث يصرف حسب ما نصت عليه آية الحشر ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: ٧]^(٥)، ومن ابتغى المزيد من دروس بني النضير فليراجع سورة الحشر، فإنها نزلت في بني النضير كما قال ابن عباس رضي الله عنهما^(٦).

(١) البخاري ح (٤٠٣١-٤٠٣٢)، ومسلم ح (١٧٤٦)، والطبقات (٥٨/٢).

(٢) ابن هشام: السيرة (٢٦٨/٣).

(٣) تفسير الطبري (٣٤/١٢).

(٤) تفسير الطبري (٣٣/١٢).

(٥) انظر تفسير الطبري (٣٦/١٢).

(٦) انظر: صحيح البخاري ح (٤٠٢٩)، وصحيح مسلم ح (٣٠٣١).

يهود بني قريظة:

وهم آخر وأشد يهود المدينة غدراً، ذلك أن غدروهم وخيانتهم كانت في حال شدة وبلاء على المسلمين حين حصار (الأحزاب) المدينة، ووصف القرآن حال المؤمنين حينها بقوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

وفي الصحيحين وغيرهما: أن النبي ﷺ لما رجع من الخندق، ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل عليه السلام فقال: قد وضعت السلاح؟ والله ما وضعناه، فاخرج إليهم قال: إلى أين؟ قال: ها هنا، وأشار بيده إلى قريظة، فخرج النبي ﷺ إليهم^(١).

وثمة روايات تفيد أن رسول الله ﷺ عاهد يهود بني قريظة، وصبر عليهم، حتى نقضوا وحاربوا، ففي الصحيحين: أن يهود بني النضير وقريظة حاربوا رسول الله ﷺ فأجلى رسول الله ﷺ بني النضير، وأقر قريظة ومن عليهم، حتى حاربت قريظة بعد ذلك، فقتل رجالهم، وقسم نساءهم وأولادهم بين المسلمين، إلا أن بعضهم لحقوا برسول الله ﷺ، فأمنهم وأسلموا^(٢).

وعند ابن سعد: كان بين رسول الله ﷺ وبين قريظة (ولث)^(٣) من عهد، فلما جاءت الأحزاب بما جاؤوا به من الجنود، نقضوا العهد وظاهروا المشركين على رسول الله ﷺ فخرج إليهم^(٤).

وعنده أيضاً أن رسول الله ﷺ حين خرج إليهم استقبله أحد أصحابه، فقال: يا

(١) البخاري ح (٤١١٧)، ومسلم ح (١٧٦٩)، ابن سعد: الطبقات الكبرى (٧٦/٢).

(٢) البخاري ح (٤٠٢٨)، ومسلم ح (١٧٦٦).

(٣) قال ابن الأثير في النهاية: (٢٢٣/٥): الولث: العهد غير المحكم والمؤكد.

(٤) الطبقات (٧٧/٢).

رسول الله، اجلس فلنكفك، قال: وما ذاك؟ قال: سمعتهم ينالون منك، قال: قد أؤدي موسى بأكثر من هذا^(١).

جرائم يهود بني قريظة:

وكل هذه الروايات تشير إلى عدة جرائم ارتكبتها بنو قريظة في حق رسول الله ﷺ والمسلمين، (فقد حاربوه، ثم منَّ عليهم، ثم حاربوه أخرى ونقضوا عهدهم، وفوق ذلك نالوا منه وآذوه)، وقد سجّل الواقدي عليهم عدة مواقف مخزية ومحرجة غاية الحرج للمسلمين في أثناء غزو الأحزاب المدينة^(٢).

سعد بن معاذ يحكم فيهم بحكم الله:

مع ذلك فقد جعل الرسول ﷺ الحكم في قريظة إلى واحد من الأوس - وهم مواليهم - ففي الصحيحين وابن إسحاق: أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن معاذ (وهو سيد الأوس)، هؤلاء نزلوا على حكمك، فقال: تُقتل مُقاتلتهم وتُسى نساؤهم وذرائعهم، وتقسم أموالهم، قال: قضيت فيهم بحكم الله^(٣).

وكل هذا يفسر ويبرر العقاب الذي لحق بهؤلاء اليهود، ويجيب عن تساؤلات من استكثر هذا الحكم، ونسوا أو تناسوا جريرة اليهود، وقبح ما قدموه، ويكفي هذا الحكم عدلاً وإنصافاً أنه صار حكم الله وهو أحكم الحاكمين، فرسول الله ﷺ يقول: لقد حكمت فيهم يا سعد بحكم الله، أو بحكم الملك^(٤)، أو بحكم الله من فوق سبعة أرقعة (أي سماوات)^(٥).

(١) الطبقات (٧٧/٢).

(٢) المغازي (٤٥٨-٤٦٧).

(٣) البخاري ح (٤١٢١-٤١٢٢)، ومسلم ح (١٧٦٩)، ابن هشام: السيرة (٣٣٠-٣٣١).

(٤) البخاري ح (٤١٢١)، ومسلم ح (١٧٦٨-١٧٦٩).

(٥) ابن هشام: السيرة (٣٣٢/٣).

عدد من قتل من بني قريظة:

وحيث اختلفت الروايات في عدة بني قريظة الذين قُتلوا (ما بين ستمائة إلى سبعمائة، أو بين الثمانمائة والتسعمائة)^(١).

فلعل الأرجح منها أنهم كانوا أربعمائة^(٢)، وصحح ابن حجر رواية جابر عند الترمذي والنسائي وابن حبان أنهم كانوا أربعمائة مقاتل^(٣)، واحتمل ابن حجر - في طريق الجمع بين الروايات - أن يقال إن الباقيين كانوا أتباعاً^(٤).

كما اختلف في زمن حصارهم ما بين خمسة عشر يوماً^(٥) وخمسة وعشرين ليلة^(٦). ولعل المدة (خمسة وعشرين ليلة) أرجح، حيث رواها أحمد في مسنده^(٧)، وقال عنها ابن كثير: إسناده جيد وله شواهد^(٨).

وهكذا أدب النبي ﷺ اليهود حيث نقضوا عهدهم وخانوا أمانتهم، وأخرجهم جميعاً من المدينة^(٩).

وأفاء الله على رسوله ﷺ من أموالهم ما أغتته عمّا كان يجعله الرجل من المسلمين للنبي ﷺ من النخلات من أرضه، فحين فُتحت عليه (قريظة والنضير) جعل

(١) انظر ابن حجر: الفتح (٧/٤١٤).

(٢) رواية أحمد بسند حسن (٣/٣٥٠)، د. مهدي: السيرة في ضوء المصادر الأصلية (ص ٤٦١).

(٣) الترمذي ح (١٥٨٢)، والنسائي في الكبرى ح (٧٦٧٩)، وأحمد ح (١٤٧٧٣)، والدارمي ح (٢٥٥١)، وابن حبان ح (٧٤٨٤)، وانظر: الفتح (٧/٤١٤).

(٤) الفتح (٧/٤١٤).

(٥) ابن سعد: الطبقات (٢/٧٤).

(٦) ابن هشام: السيرة (٣/٣٢٦).

(٧) (٦/١٤١-١٤٢).

(٨) البداية والنهاية (٦/٩١).

(٩) البخاري ح (٤٠٢٨)، ومسلم ح (١٧٦٦).

بعد ذلك يرد من أعطاه^(١)، وأنزل الله في شأن هؤلاء اليهود الغادرين آيات تتلى وعبراً تترا ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْفُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧] ^(٢).



(١) البخاري ح(٤١٢٠)، ومسلم ح (١٧٧١)، وفي رواية عند البخاري ح(٢٦٣٠)، ومسلم ح(٧٠/١٧٧١) عن أنس قال: (لما فرغ رسول الله ﷺ من قتل أهل خيبر وانصرف إلى المدينة ردَّ المهاجرون إلى الأنصار مناقحهم التي كانوا منحوهم من ثمارهم).

(٢) انظر تفسير الطبري (١٠/٢٨٣-٢٨٤).



غزوة الخندق

وهي الأحزاب (هكذا سماها البخاري ومسلم في صحيحيهما)، وهي معركة الشدة والبلاء، والإيمان والنفاق، لم تُحاصر المدينة من قبل ولا من بعد بمثل أعداد المحاصرين (عشرة آلاف) ونوعيتهم فيها، فقد شكّل المشركون والمنافقون واليهود وانضاف إليهم أحزاب أخرى حول المدينة حلفًا ومكرًا وغدرًا للقضاء على الإسلام والمسلمين في المدينة، ولكن الله سلّم، وكفى الله المؤمنين القتال.

قيل عن وقتها: في شوال سنة أربع^(١)، قاله موسى بن عقبة وتبعه مالك، ورواه أحمد، وكان البخاري يميل إليه^(٢).

والمشهور أنها في شوال سنة خمس للهجرة (قاله ابن إسحاق)^(٣)، وجزم به غيره من أهل المغازي^(٤).

سبب الغزوة:

يعود إلى التقاء مصالح مشركي قريش مع اليهود في القضاء على المسلمين، فمشركو مكة خاضوا مع المسلمين أكثر من معركة ولهم ثأر مع المسلمين، واليهود - لا سيما بني النضير - الذين أخرجوا من المدينة وساروا إلى خيبر وكانوا يتطلعون إلى

(١) البخاري ح (٤٠٩٧).

(٢) ابن حجر: الفتح (٣٩٣/٧).

(٣) السيرة لابن هشام (٢٩٨/٣).

(٤) وهو أصح القولين كما قال ابن القيم في زاد المعاد (٢٦٩/٣)، وقال ابن حجر وهو المعتمد (الفتح ٣٩٣/٧)، وعند ابن سعد في ذي القعدة سنة خمس (الطبقات ٦٥/٢).

محالفة قريش في غزو المسلمين في المدينة، ولذلك خرج نفر من أشرف بني النضير إلى مكة وألبوا قريشاً ودعوهم وعاهدوهم على قتال محمد ﷺ، ثم أتوا (غطفان، وسليماً) فوعدوهم وعاهدوهم كذلك، فهم الذين حزبوا الأحزاب، فاستعدت قريش وجمعت أحابيشها ومن تبعها من العرب بقيادة أبي سفيان بن حرب، واجتمع معهم (بنو أسد) يقودهم طلحة بن خويلد، (وفزارة) يقودهم عينة بن حصن، (وأشجع) يقودهم مسعود بن زخيلة، (وبنو مرة) يقودهم الحارث بن عوف، وخرج معهم غيرهم، فكان جميع من خرج ووافوا الخندق عشرة آلاف، ولذا سماهم الله (الأحزاب)^(١).

المشورة والاستعداد:

فلما علم النبي ﷺ بما أجمعوا عليه، ندب الناس وشاورهم، فأشار سلمان الفارسي ﷺ بحفر الخندق وقال: إنا إذا كنا بأرض فارس وتخوفنا الخيل خندقنا علينا، فهل لك يا رسول الله أن تخندق؟ فأعجب رأي سلمان المسلمين، وجعل رسول الله ﷺ جبل (سلع) خلف ظهره، وخندق من (المذاذ) إلى (ذباب) إلى (راتج)^(٢)، وقد ثبت حفر المهاجرين والأنصار للخندق وشاركهم النبي ﷺ في حفره، وكان ينقل التراب حتى وارى التراب بياض بطنه ويقول مرتجراً:

والله لولا أنت ما اهتدينا

ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينتنا علينا

وثبتت الأقدام إن لاقينا^(٣).

(١) انظر ابن هشام: السيرة النبوية (٣/ ٢٩٨ - ٣٠٠) وابن سعد: الطبقات (٢/ ٦٥ - ٦٦)، وانظر: إبراهيم العلي صحيح السيرة النبوية (ص ٢٦٥).

(٢) الواقدي: المغازي (٢/ ٤٤٥).

(٣) البخاري ح (٢٨٣٧)، ومسلم ح (١٨٠٣).

وخرج رسول الله ﷺ يوماً وهم يحفرون الخندق في غداة باردة، ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

اللَّهُمَّ إِنِّ الْعَيْشَ عَيْشَ الْآخِرَةِ

فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ

فأجابوه:

نحن الذين بايعوا محمداً

على الجهاد ما بقينا أبداً^(١).

وكان في حفر الخندق من آيات النبوة وأعلام رسالته ﷺ، ما قد تواتر الخبر به^(٢).

من دلائل النبوة في الخندق:

روى البخاري ومسلم - من هذه الآيات - حديث جابر ﷺ إذ يقول: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة (وفي رواية كُدْمَة) (وهي الأرض الصلبة)، فجاؤوا للنبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ولبنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبي ﷺ المعول، فضرب في الكدية، فعاد كشيئاً أهيل أو أهيم، فقلت: يا رسول الله ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبر، فعندك شيء؟ قالت: عندي شعير وعناق، فذبحت العناق وطحنت الشعير، حتى جعلنا اللحم بالبرمة، ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافي قد كادت أن تنضج، فقلت: طُعِّم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: كم هو؟ فذكرت له، فقال: كثير طيب، وقال:

(١) البخاري ح (٤٠٩٩)، ومسلم ح (١٨٠٤ - ١٨٠٥) لكن لم يذكر: (في غداة باردة، ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم).

(٢) ابن هشام: السيرة (٣/٣٠٣)، ابن القيم: زاد المعاد (٣/٢٧١).



قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي، فقال: قوموا، فقام المهاجرون والأنصار، فلما دخل على امرأته قال: ويحك جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، قال: ادخلوا ولا تضاعطوا، فجعل رسول الله ﷺ يقرب إلى أصحابه، حتى شبعوا، وبقي بقية، قال: كلي هذا وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة^(١)، وفي رواية أخرى قال جابر: (وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوا وانصرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجبتنا ليخبز كما هو)^(٢).

ووقع عند أحمد والنسائي زيادة بإسناد حسن - كما قال ابن حجر - وفيها دلالة أخرى من دلائل نبوته ﷺ من حديث البراء بن عازب ؓ وفيه: أن رسول الله ﷺ حين ضرب الصخرة كبر فكسر ثلثها وقال: أعطيت مفاتيح الشام، والله إنني لأبصر قصورها الحمر الساعة، ثم ضرب الثانية فقطع الثلث الآخر فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس، والله إنني لأبصر قصر المدائن، ثم ضرب الثالثة وقال: بسم الله، فقطع بقية الحجر فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن والله إنني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا^(٣)، (وقد فتح المسلمون هذه البلاد كلها، وقبل أن يفتحوها، فتح لهم رسول الله ﷺ أبواباً في الأمل، والفأل، وحسن الظن بربهم..) رغم البلاء والحصار وزلزلة الأحزاب.

وثالثة من دلائل نبوته ﷺ حين حفر الخندق، وهي إخباره عن نهاية عمار بن ياسر رضي الله عنهما بقوله: (تقتلك فئة باغية)^(٤)، (وقد وقع الأمر كما أخبر ﷺ).

(١) البخاري ح (٤١٠١)، ومسلم ح (٢٠٣٩).

(٢) البخاري ح (٤١٠٢)، ومسلم ح (٢٠٣٩).

(٣) الفتح: (٣٧٩/٧).

(٤) مسلم ح (٢٩١٥)، وفي البخاري ح (٤٤٧ - ٢٨١٢)، قال له ذلك عند بناء المسجد أول الهجرة، ويمكن الجمع فيقال: (قال له ذلك أول الأمر عند بناء المسجد، ثم أعاد القول في الخندق) والله أعلم.

الشدة والزلزلة في الأحزاب:

حين أتمَّ المسلمون حفر الخندق، وتحصن رسول الله ﷺ والمسلمون حيث جعل جبل (سلع) خلفه والخندق أمامه، وعدة المسلمين ثلاثة آلاف^(١)، وخاف رسول الله ﷺ على النساء والذرية فجعلوهم في حصن (أطم) لحسان بن ثابت^(٢)، وهو حصن (فارغ) كما ذكره ابن إسحاق^(٣).

ووقع للمسلمين يوم الخندق شدة وبلاء وزلزلة قال الله عنها: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ [الأحزاب: ١٠]، قالت عائشة رضي الله عنها: كان ذلك يوم الخندق^(٤)، وقال تعالى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١].

قال ابن إسحاق: وعظم عند ذلك البلاء، واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتى ظنَّ المؤمنون كلَّ ظنٍّ، ونجم النفاق وقال أحدهم: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط^(٥).

وقد فضح الله موقف المنافقين ومن في قلوبهم مرض في الأحزاب وقال عنهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [١٣] وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَعِذُّنَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٢، ١٣]^(٦).

(١) ابن هشام: السيرة (٣/٣٠٦)، وابن القيم: زاد المعاد (٣/٢٧١).

(٢) مسلم ح (٢٤١٦).

(٣) ابن هشام: السيرة (٣/٣١٧)، ومعنى فارغ: المرتفع العالي - كما في النهاية لأبن الأثير (٢/٢١٥).

(٤) البخاري ح (٤١٠٣)، ومسلم ح (٣٠٢٠).

(٥) السيرة لابن هشام (٣/٣٠٩).

(٦) انظر تفسير الطبري (١٠/٢٦٨-٢٧٢)، وانظر عن مواقفهم: ابن هشام: السيرة (٣/٣٠٠-٣٠٩).

وابن سعد: الطبقات (٢/٦٧).



وشكّل موقف اليهود الغادر داخل المدينة حرجًا بالغًا على المسلمين، حيث نقض يهود بني قريظة عهدهم مع النبي ﷺ وانضموا إلى الأحزاب، وقد ثبت نقضهم للعهد حيث بعث النبي ﷺ الزبير بن العوام ﷺ إلى بني قريظة ليأتيه بخبرهم فجاءه بالخبر^(١)، وانضاف إلى ذلك برودة الجو في غزوة الخندق حتى قال حذيفة ﷺ للنبي ﷺ وهو يختاره مندوبًا يذهب إلى المشركين في عسكرهم ويخبر النبي ﷺ عنهم: (والذي بعثك بالحقّ ما قمت إليك إلا حياءً منك من البرد)، وجاء ليقول: (قد صُبَّ عليهم من البرد مثل الذي صُبَّ علينا، ولكننا نرجو من الله ما لا يرجونه)^(٢).

وقد بلغت الشدة والبلاء على المسلمين في الخندق أن شغلوا وحبسوا عن صلاة العصر حتى صلوا بعد دخول وقت المغرب، مع ما للصلاة من قيمة عند المسلمين - وذلك قبل نزول صلاة الخوف - وقد دعا النبي ﷺ على المشركين وقال يوم الخندق: (مألاً الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس)^(٣)، وسبَّ عمر ﷺ كفار قريش لهذا السبب، وقال له النبي ﷺ: والله ما صليتها (العصر)، فنزلوا مع النبي ﷺ وصلوا العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلوا بعدها المغرب^(٤).

هل وقع قتال؟ وما عوامل النصر الإلهية:

أقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ قريباً من شهر^(٥)، ولم يكن بينهم قتال لأجل ما حال الله به من الخندق بينهم وبين المسلمين (وكفى الله المؤمنين القتال)،

(١) البخاري ح (٣٧٢٠، ٤١١٣)، ومسلم ح (٢٤١٦).

(٢) رواه الحاكم في المستدرک (٣/٣١) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) البخاري ح (٤١١١)، ومسلم ح (٤٠٩).

(٤) البخاري ح (٤١١٢)، ومسلم ح (٦٣١).

(٥) وعند ابن إسحاق: بضعاً وعشرين ليلة قريباً من شهر (السيرة لابن هشام ٣/٣١٠) وعند ابن سعد: أربعاً وعشرين ليلة (الطبقات ٢/٧٣).

إلا أن فوارس من قريش منهم (عمرو بن عبد ود) وجماعة معه تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فاقتحموه، فجالت بهم خيلهم في السبخة بين الخندق وسلع، ودعوا إلى البراز، فانتدب لعمرو علي بن أبي طالب ﷺ فبارزه فقتله الله على يديه، وانهزم بقية المشركين من أصحابه^(١).

(أ) إذا أحد عوامل النصر (حفر الخندق) الذي حال بين المسلمين والمشركين - وكان تجربة فارسية - ولم يتردد النبي ﷺ في استخدامها واستفاد منها المسلمون، والحكمة ضالة المؤمن.

(ب) وكانت (الريح) وجنود الله المرسلة من السماء جنداً من جنود الله ونعمة أرسلها على المشركين وهزمهم ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]، وعن هذه الريح قال ﷺ: (نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأَهْلِكْتُ عَادًا بِالدَّبُورِ)^(٢)، قال مجاهد: سلط الله عليهم الريح فكفأت قدورهم، ونزعت خيامهم، حتى أظعتهم^(٣). وعند ابن إسحاق: عن حذيفة ﷺ: فدخلت في القوم (الأحزاب) والريح، وجنود الله تفعل بهم ما تفعل^(٤).

(ت) وموقف نعيم بن مسعود ﷺ عامل ثالث وكان من أسباب خذلان الأحزاب ورحيلهم^(٥).

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٧٢)، وانظر تفصيل ذلك عند ابن إسحاق: السيرة لابن هشام (٣/ ٣١١-٣١٣)، والمستدرک للحاکم (٣/ ٣٢) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) البخاري ح (٤١٠٥)، ومسلم ح (٩٠٠).

(٣) الفتح (٧/ ٤٠٢).

(٤) ابن هشام: السيرة (٣/ ٣٢٢).

(٥) ابن حجر: الفتح (٧/ ٤٠٢).

وقصة نعيم مطولة رواها ابن إسحاق وفيها: أنه أتى النبي ﷺ مسلماً ولم يعلم به قومه، وقال: مُرني يا رسول الله بما شئت، فقال له النبي ﷺ: إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة، فقام نعيم بذلك مع بني قريظة، وقريش، وغطفان^(١)، كما روى قصة (نعيم) موسى بن عقبة^(٢).

ث) والدعاء سلاح به ينصر الله، ويُهزم الجمع، وقد دعا النبي ﷺ على الأحزاب وقال: (اللَّهُمَّ منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللَّهُمَّ اهزمهم وزلزلهم)^(٣)، وفي رواية: (اللَّهُمَّ منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم)^(٤).

قال ابن حجر: وفي الحديث استحباب الدعاء عند اللقاء والاستنصار^(٥).

ونتيجة لهذه العوامل كلها، ولطف الله ودفاعه عن المؤمنين، فلم يتمكن الأحزاب مما أرادوا، ورغم أن غزوة الأحزاب كانت شديدة على المسلمين فلم يقع بها من خسائر في أرواحهم بحجم مكر أعدائهم وإن وقع في المعركة مناوشات، وأصيب سعد بن معاذ وقطع أكحله ومات بعد أن أمكنه الله من بني قريظة - وحاكم فيهم - متأثراً بجراحه^(٦).

كما استشهد من المسلمين من الأنصار (أنس بن معاذ بن أوس بن عبد عمرو)

(١) انظر ابن هشام: السيرة (٣/٣١٩-٣٢١).

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (٣/٤٠٤-٤٠٥)، وعبد الرزاق في مصنفه (٥/٣٦٨).

(٣) البخاري ح (٤١١٥)، ح (٢٩٣٣)، ومسلم ح (١٧٤٢).

(٤) البخاري ح (٣٠٢٤)، ومسلم ح (١٧٤٢).

(٥) الفتح (٦/١٥٧).

(٦) البخاري ح (٤١٢٢)، ومسلم ح (١٧٦٩)، والأكحل: عرق في اليد (الصالح للجوهري

ومن الأنصار ثم من بني سلمة: (ثعلبة بن عتمة) كما قال الزهري^(١).

من نتائج غزوة الأحزاب:

ومن أعظم نتائج المعركة - رغم بلائها وشدتها - أن ميزان القوى تحوّل لصالح المسلمين، وقد أخبر النبي ﷺ أصحابه متفائلاً، ومستشعراً نصر الله حين جلى الأحزاب: (الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم)^(٢)، وعند البزار بسند حسن - كما قال ابن حجر - أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب - وقد جمعوا له جموعاً كثيرة -: (لا يغزونكم بعد هذا أبداً، ولكن أنتم تغزونهم)^(٣).

وفي هذا كله برهان على أن بعد العسر يسراً، وأن النصر مع الصبر، وأنه لا يجوز للمسلم أن يسيء الظن بربه حال الشدائد والمحن، بل يحسن الظن ويتفاءل.

وعن إخباره ﷺ عن هزيمة الأحزاب وعدم عودتهم للمدينة بعدها علم من أعلام نبوته ﷺ، فقد وقع الأمر كما أخبر، ولم تقدم قريش وأحزابها إلى المدينة بعد ذلك، بل سار المسلمون إلى مكة - معتمرين - بعد سنة من الأحزاب، ثم توالى الأحداث حتى فتح المسلمون مكة في السنة الثامنة^(٤)، ودخل الناس في دين الله أفواجا.

ويتأمل المسلم - بعد ما مضى على غزوة الأحزاب ما يزيد على ألف وأربعمائة وأربعة وثلاثين عاماً وينتهي به الأمل إلى إحسان الظن بربه - مهما كانت الشدائد والمحن، وكلما اشتدت الظلمة كان ذلك مؤذناً بالنور، وكلما بلغ الكرب مبلغه كان ذلك بشائر بالفرج بعده.

(١) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح: مجمع الزوائد (٦/١٤٢).

(٢) البخاري ح (٤١٠٩ - ٤١١٠).

(٣) الفتح (٧/٤٠٥)، ومجمع الزوائد للهيتمي (٦/١٣٩) وقال: رجاله ثقات.

(٤) انظر: ابن حجر: الفتح (٧/٤٠٥).



لكن ذلك محتاج إلى صبر ومصابرة، ويقين وتوكل، وعمل بقدر الوسع والطاقة،
والله غالب على أمره، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، ونصر الله
للمؤمنين حقّ وإبطال عمل المفسدين سنة ماضية فهل من مذكر؟



غزوة ذات الرقاع

هناك اختلاف في زمنها، وسبب تسميتها بذات الرقاع، فابن إسحاق يراها بعد النضير بشهر أو شهرين^(١)، ويحددها ابن سعد في المحرم على رأس سبعة وأربعين شهراً من مهاجره ﷺ^(٢)، في حين يراها البخاري بعد خيبر؛ لأن أبا موسى الأشعري شهدها^(٣)، وانتصر له ابن القيم في زاد المعاد^(٤).

وعن سبب تسميتها: أن أقدام المسلمين نقتب فكانوا يلفون على أرجلهم الخرق فسميت بذلك^(٥)، وعند ابن هشام: لأنهم رقعوا راياتهم، أو نسبة إلى شجر بذلك الموضع^(٦).

وهذه الغزوة موجهة لتأديب جموع من قبيلة غطفان (بني مُحارب، وبني ثعلبة، وأنمار)، وقد لقي النبي ﷺ والمسلمون معه (وكانوا أربعمائة، وقيل سبعمائة)^(٧) جموعاً من الأعراب، فأخاف بعضهم بعضاً ولم يقع بينهم قتال، وذلك في (نخل) من أرض نجد^(٨).

(١) ابن هشام: السيرة (٣/٢٨٥).

(٢) الطبقات (٢/٦١) ويميل إلى ذلك د. مهدي رزق في السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٤٢٥).

(٣) الفتح (٧/٤١٦).

(٤) (٣/٢٥٢) ومال إلى ذلك الحكمي في مرويات الحديدية (ص ٧٣-٨٦)، والعمري في المجتمع المدني (ص ١٣٠).

(٥) صحيح البخاري ح (٤١٢٨)، ومسلم ح (١٨١٦).

(٦) السيرة (٣/٢٨٥).

(٧) ابن هشام: السيرة (٣/٢٨٥)، وابن اسعد: الطبقات (٢/٦١).

(٨) ابن هشام: السيرة (٣/٢٨٥)، وابن سعد: الطبقات (٢/٦١)، والبخاري ح (٤١٢٧).

أحداث وعبر في ذات الرقاع:

ورغم أن هذه الغزوة لم يقع فيها قتال فقد وقعت فيها أحداث ذات دلالة وعبر، ومن ذلك:

(أ) أن النبي ﷺ صلى بالمسلمين صلاة الخوف، وكانت أول صلاة خوف يصليها كما قال ابن سعد والبخاري^(١).

والعبرة من ذلك موقع الصلاة في حياة المسلمين، وأهمية صلاة الجماعة، فلم يتركوها وهم في شدة، وقُبالة العدو، ورحمة الله وعِظم تشريعات الإسلام، حيث شُرعت هذه الصلاة التي يُؤدَّى بها الواجب ولا يُعطى العدو فرصة للنيل من المسلمين، وأحد صفاتها ما رواه البخاري - في ذات الرقاع - (أن طائفة صَفَّت معه، وطائفة وجاه العدو، فصلى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائمًا وأتموا لأنفسهم، ثم انصرفوا فصفوا وجاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت من صلاته، ثم ثبت جالسًا وأتموا لأنفسهم، ثم سلّم بهم)^(٢).

(ب) قصة الأعرابي من بني محارب (غورث بن الحارث) الذي لحق بالمسلمين، وكان سيف رسول الله ﷺ معلقًا على شجرة ظليلة - تركها له المسلمون ليستظل بها - حيث تفرق المسلمون عنه في الشجر يستظلون، فناموا نومة، وإذا برسول ﷺ يدعوهم، وإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتًا، فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت: الله، فهذا هو ذا جالس، ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ^(٣).

(١) الطبقات: (٦١/٢)، والبخاري ح (٤١٢٥).

(٢) صحيح البخاري ح (٤١٢٩، ٤١٣١، ٤١٣٣)، وعند مسلم ح (٤٨٣) وعند ابن هشام صفة أخرى (السيرة ٣/٢٨٦).

(٣) البخاري: ح (٤١٣٥، ٤١٣٩).

وعند مسلم وابن سعد: فهده أصحاب رسول الله ﷺ فأغمد سيفه وعلقه^(١). وهذا علم من أعلام نبوته حيث حفظ الله نبيه ﷺ من هذا الأعرابي، ومؤثر على شجاعته ﷺ ورباطة جأشه وثقته بحفظ الله له، وحرص الصحابة على حياة النبي ﷺ ودفاعهم عنه ﷺ وأرضاهم.

(ت) وفي طريق عودته من ذات الرقاع أبطأ جمل جابر بن عبد الله ﷺ عن المسير، فنزل رسول الله ﷺ ونخسه بمحجنه، فجعل الجمل يسابق جمل رسول الله ﷺ وجابر يكفه، وجعل رسول الله ﷺ يسأل جابر عن زواجه، ويوصيه، ثم طلب منه أن يبيعه جملة فاشتراه رسول الله ﷺ منه بأوقية، ثم أمر بلالاً ﷺ أن يعطيه الثمن، ورد عليه جملة، وأمره إذا قدم من سفر أن يدخل المسجد فيصلّي فيه ركعتين^(٢).

وفي القصة من الفوائد: طيب خلقه عليه الصلاة والسلام وحسن عشرته ومواساته لأصحابه وكرمه في البيع والشراء، وسنّية ركعتين في المسجد للقادم من سفر - وتكاد هذه تكون من السنن المهجورة عند الكثيرين -.

(ث) وفي مرجعهم كذلك من الغزوة سبوا امرأة من المشركين، فنذر زوجها ألا يرجع حتى يهريق دمًا في أصحاب محمد ﷺ، فخرج يتبع أثر النبي ﷺ وأصحابه، حتى لحق بهم ليلاً، وقد جعل النبي ﷺ رجلاً من المهاجرين (عمار بن ياسر) وآخر من الأنصار (عباد بن بشر) لحراسة المسلمين، فاضطجع المهاجري وقام الأنصاري يصلّي - وهو يحرسهم - فجاء المشرك ورماه بسهم فوضعه فيه فنزعه، حتى رماه بثلاثة أسهم، ثم ركع وسجد،

(١) مسلم ح (٨٤٣) والطبقات: (٦٢، ٦١/٢).

(٢) البخاري ح (٢٠٩٧)، ومسلم ح (٧١٥)، وابن هشام: السيرة (٣/٢٨٨-٢٩٠).



فانتبه صاحبه المهاجري، فلما رأى المشرك أنهم نذروا^(١) به هرب، ولما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدماء قال: سبحان الله! ألا نبهتني أول ما رمى؟ قال: كنت في سورة أقرأها فلم أحب أن أقطعها^(٢)، زاد ابن إسحاق: أن الأنصاري قال: (وأيم الله لولا أن أضيع ثغراً أمرني رسول الله بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها)^(٣).

وفي القصة: ما عليه الصحابة من العبادة واستثمار الأوقات، وحماية ثغور المسلمين ولو نالهم من الأذى ما نالهم، وفيه أهمية الحراسة، والتناوب فيها، وتعظيم القرآن والتأدب في تلاوته، فقد احتمل الألم والأذى لئلا يقطع سورة قد بدأ قراءتها.



(١) نذروا به: أي علموا وأحسوا بمكانه (النهاية لابن الأثير: ٣٩/٥).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٣٤٤، ٣٥٩)، وأبو داود في سننه وحسن إسناده الألباني في صحيح سنن أبي داود (١/٤٠)، وذكره البخاري معلقاً مختصراً ووصله ابن إسحاق، وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم (انظر: ابن حجر في الفتح ١/٢٨٠).

(٣) ابن هشام: السيرة (٣/٢٩٢).

غزوة بني المصطلق (المريسيع)^(١)

زمنها:

وَقَّتْهَا ابن سعد في شعبان سنة خمس من مهاجره^(٢)، ونقل البخاري عن موسى بن عقبة أنها سنة أربع، وعلق ابن حجر: وكأنه سبق قلم، أراد أن يكتب سنة خمس فكتب سنة أربع^(٣)، وكونها سنة خمس رجحه ابن القيم والذهبي^(٤) وعدّها ابن إسحاق في شعبان سنة ست^(٥).

سببها:

وعن سببها قال ابن سعد: إن رئيسهم (الحارث بن أبي ضرار) دعا قومه، ومن قدر عليه من العرب إلى حرب رسول الله ﷺ فأجابوه وتهيؤوا للمسير معه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث بريدة بن الحصيب ﷺ ليعلم خبرهم، فوجدهم يريدون القتال وأخبر النبي ﷺ بذلك، فندب الناس إليهم وأسرعوا الخروج، وخرج معه ﷺ بشر كثير من المنافقين لم يخرجوا في غزاة قط مثلها، وبلغ (الحارث) مخرج المسلمين إليه وَقَتَلَ (عينه) الذي أرسله ليأتيه بخبر الرسول ﷺ فسأه ذلك، وخاف ومن كان معه خوفاً شديداً، وتفرق عنه من وافقه من العرب، وانتهى رسول الله ﷺ إلى (المريسيع)

(١) وهو ماء لهم بينه وبين الفُرْع نحو يوم، وبين الفُرْع والمدينة ثمانية بُرد (ابن سعد: الطبقات ٢/٦٣).

(٢) الطبقات (٢/٦٣).

(٣) الفتح (٧/٤٣٠).

(٤) زاد المعاد (٣/١٢٥)، والذهبي: تاريخ الإسلام (٢/٢٧٥).

(٥) ابن هشام السيرة (٣/٤٠١)، واعترض عليه (انظر: د. أكرم العمري: المجتمع المدني: الجهاد ضد

المشركين ص ٩٥).



وصف أصحابه، وسلم راية المهاجرين لأبي بكر، وراية الأنصار لسعد بن عبادة رضي الله عنهما، وحملوا على بني المصطلق، فما أفلت منهم إنسان، وقتل عشرة من بني المصطلق، وأسر سائرهم وسبى رسول الله ﷺ الرجال والنساء والذرية والنعم والشاء، ولم يُقتل من المسلمين إلا رجل واحد^(١).

وعند البخاري ومسلم: أن النبي ﷺ أغار عليهم وهم غارون، ونعمهم تُسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم^(٢)، وقال ابن سعد: والأول أثبت^(٣)، ومال ابن القيم إلى رأي البخاري ومسلم: (أغار عليهم وهم غارون ولم يكن بينهم قتال)، وعدّ الرأي الأول لابن سعد وابن إسحاق (وهما)^(٤).



(١) سماه ابن إسحاق (هشام بن ضبابة) من بني كلب (ابن هشام: السيرة ٣/٤٠٢).

(٢) البخاري ح (٢٥٤١)، ومسلم ح (١٧٣٠).

(٣) الطبقات (٢/٦٤).

(٤) زاد المعاد (٣/٢٥٧، ٢٦٦).

أحداث جسام ومكر المنافقين

وأيًا ما كان الأمر في ذلك، فقد وقعت في هذه الغزوة أحداث جسام (تولى كبرها أهل النفاق)، وحيث كثر عدد المنافقين فيها - كما قال ابن سعد - فقد كثرت مواقفهم المشينة (تهماً للمؤمنين، ومحاولة لتفريق صفوفهم، وأعظم من ذلك إفكهم وبهتانهم)، ولكن رسول الله ﷺ عالج ذلك كله، ونزل عليه القرآن كاشفاً للغمة وإليك البيان:

١ - محاولة المنافقين إثارة العصبية الجاهلية بين المهاجرين والأنصار:

فعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كنت في غزاة - هي بني المصطلق - فسمعت عبد الله بن أبي يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت ذلك لعمي ^(١) أو لعمر ^(٢) فذكره للنبي ﷺ فدعاني فحدثته، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه، فأصابني همٌّ لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذبتك رسول الله ومقتك؟ فأنزل الله تعالى سورة المنافقين: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ... ﴾ [المنافقون: ١] فبعث إلي رسول الله ﷺ فقراً، فقال: إن الله قد صدقك يا زيد ^(٣).

وسواء كان سبب مقولة زعيم المنافقين (ابن أبي) لهذه المقالة السيئة، ما ذكره البخاري في رواية أخرى عن زيد رضي الله عنه: (خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر فأصاب الناس

(١) هو سعد بن عباده وليس عمه حقيقة، وإنما سيد قومه الخزرج (انظر: الفتح ٦٤٥/٨).

(٢) هو عمر بن الخطاب، قال ابن حجر: وفي سائر الروايات لعمي بلا شك (الفتح: ٦٤٥/٨).

(٣) البخاري ح (٤٩٠٠، ٤٩٠٤)، ومسلم ح (٢٧٧٢).

شدة)، فقال عبد الله لأصحابه: لا تفقوا علي من عند رسول الله حتى ينفصوا^(١)، أم ما ذكره ابن إسحاق: أن الناس حين وردوا الماء ازدحم على الماء جهجاه بن مسعود (أجير لعمر) وسانان الجهني (حليف للخزرج) واقتلا على الماء، حتى صرخ (الجهني) يا معشر الأنصار، وصرخ (جهجاه) يا معشر المهاجرين، فغضب عبد الله بن أبي وقال: أو قد فعلوها، نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما عدنا وجلايب قريش إلا كما قال الأول سمن كلبك يأكلك، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنا الأعز منها الأذل... فسمع ذلك (زيد بن أرقم) فأخبر النبي ﷺ ما سمع...^(٢).

فلا شك أن زعيم المنافقين كان ينتظر أدنى فرصة ليفرق الصف ويشير العصبيات، وأنى له ذلك ورسول الله ﷺ يقود الجمع ولا يتيح فرصة لأي خلل أو مدخل في الصف المسلم؟

وعند البخاري ومسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا في غزاة^(٣) فكسع^(٤) رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: ما بال دعوى الجاهلية؟ قالوا يا رسول الله: كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: دعوها فإنها مُنتنة، فسمع بذلك عبد الله بن أبي فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ النبي ﷺ فقام (عمر) فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه^(٥).

(١) البخاري ح (٤٩٠٣)، ومسلم ح (٢٧٧٢).

(٢) ابن هشام (٣/٤٠٢-٤٠٣).

(٣) قال ابن حجر: سمى ابن إسحاق هذه الغزوة في غزوة بني المصطلق (الفتح ٨/٦٤٩).

(٤) المشهور في معناه: ضرب الدبر باليد والرجل (الفتح ٨/٦٤٩).

(٥) البخاري ح (٤٩٥)، ومسلم ح (٢٥٨٤).



وفوق التهدة والتوجيه بالكلام، فقد عالج النبي ﷺ الموقف كذلك بأن حرك الجيش وسار بالناس يومهم حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض فوقعوا نيامًا، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبي^(١).

وعند ابن سعد -مختصرًا-: فلما بلغ رسول الله ﷺ ما قال عبد الله بن أبي (أمر بالرحيل وخرج من ساعته وتبعه الناس)^(٢).

٢ - من مواقف أهل الإيمان:

وفوق ما سلف يحسن التعليق على هذه الحادثة بعدد من الوقفات والعبر:

(أ) برغم ما وصله مجتمع الصحابة من الإيمان والأخلاق فيبقون في دائرة البشر يخطئون ويتخاصمون ويختلفون، لكنهم يعودون ويتذكرون ويتسامحون، وعند ابن سعد: (أن ناسًا من المهاجرين والأنصار تكلموا في ذلك -لعله في الصلح- حتى ترك الأنصاري حقه وعفا عن المهاجري واصطلحوا)^(٣).

(ب) وحيث برز دور المنافقين في هذه الغزوة، فقد برز أهل الإيمان، وإن تعجب فعجبك حين تعلم أن موقف الإيمان كان يمثله ابن زعيم المنافقين (عبد الله بن عبد الله بن أبي البدري)، حيث وقف لأبيه على الطريق، فلما رآه أناخ به وقال: لا أفارقك حتى تزعم أنك الذليل ومحمدٌ العزيز^(٤)، كما ورد أنه

(١) ابن هشام: السيرة (٣/٤٠٤).

(٢) الطبقات (٢/٦٥).

(٣) الطبقات (٢/٦٥).

(٤) ابن سعد: الطبقات (٢/٦٥)، وانظر مجمع الزوائد (٩/٣١٨) وفيه روايات لطلب عبد الله بن عبد الله بن أبي لقتل أبيه، وفيها ما صحَّ سنده.

استأذن النبي ﷺ في قتل أبيه، فقال له النبي ﷺ: بل أحسن صحبته، وقال: ﷺ لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه^(١)، إنها أخلاق الأنبياء وكفى.

ت) أما غيرة عمر ﷺ (دعني أضرب عنق هذا المنافق) فهي في مكانها، وليست نزقاً، ولا تهوؤراً، فالموقف كبير، والآثار المحتملة كبيرة كذلك، ولكن موقف الرسول ﷺ مع عمر، ومع عبد الله بن عبد الله بن أبي نموذج رفيع للتأليف، وجمع الكلمة، وسدّ للذرائع حتى لا يتحدث الناس أن محمداً ﷺ يقتل أصحابه، وكذلك كان رسول الله ﷺ يسوس الناس، ويؤلف بينهم، ويعفو عن مسيئهم، ويحمي المجتمع كله من شرور الفتن والاختلاف، ألا إنه رسول الله وكفى.

٣ - قاصمة الإفك:

أما القاصمة الأكبر، والبهتان العظيم، والمكر الكبار من زعيم المنافقين ومن جاؤوا به فقد تجلى في حادثة الإفك، وما أدراك ما الإفك؟ تحدثنا عائشة رضي الله عنها نفسها عنه وتقول: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أفرع بين أزواجه، فأيتهنَّ خرج سهمها خرج بها معه، فخرج سهمي معه في هذه الغزوة، وخرجت معه - بعد ما أنزل الحجاب - وكنت أحمل في هودجي وأنزل فيه، فسرنا حتى فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك، وقفل ودنا من المدينة قافلين، آذن ليلة بالرحيل فقمتم فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عقدي قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلوني فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه - وهم يحسبون أنني فيه - وكان النساء إذ ذاك خفافاً، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل فساروا،

(١) انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب - بهامش الإصابة - (٦/ ٢٧٤)، ابن حجر: الإصابة (٦/ ١٤٣).



ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجنّت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فتيّمت منزلي الذي كنت فيه وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليّ، فيينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي^(١) من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم فعرفني حين رأني - وكان رأني قبل الحجاب - فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمّرت وجهي بجلبابي، والله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها، فقمّت إليها وركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهرية، وهم نزول، قالت: فهلك من هلك، وكان الذي تولى كبر الإفك عبد الله بن أبي بن سلول^(٢).

هذا أصل حادثة الإفك وسببه، ولكن الحدث لا ينتهي عند هذا الحدّ، فثمة أحداث وعبر أجملها فيما يأتي:

فالذين جاؤوا بالإفك والذي تولى كبره (عبد الله بن أبي) وجدوها فرصة لتأجيج الفتنة مرة أخرى، وقالوا ما قالوا في حقّ أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، واهتمّ رسول الله ﷺ للأمر واغتمّ، وراح يتحسس ويسأل أقرب الناس إلى عائشة رضي الله عنها، وسأل الجارية (بريرة)^(٣) فقالت: والله ما رأيت عليها أمراً قط أغمصه، غير أنها جارية حديثة السن تنام عن عجينه أهلها فتأتي

(١) نقل القرطبي عن صفوان رضي الله عنه: أنه كان من خيار الصحابة، وكان صاحب ساقه رسول الله ﷺ في غزواته لشجاعته (الجامع لأحكام القرآن ١٢/١٩٩) واستبعد الذهبي ثقل نومه (سير أعلام النبلاء ٥٥٠/٢).

(٢) البخاري ح (٤١٤١، ٤٧٤٩، ٤٧٥٠)، ومسلم ح (٢٧٧٠).

(٣) اعتبر ابن القيم ذكر (بريرة) وهمًا، وقال: ففي قصة الإفك لم تكن بريرة عند عائشة، وهذا الذي ذكره إن كان لازماً فيكون الوهم من تسمية الجارية (بريرة) ولم يقل علي رضي الله عنه سأل بريرة وإنما قال: سأل الجارية (زاد المعاد ٣/٢٨٦) وانظر ابن حجر: الفتح (٨/٤٦٩).



الداجن فتأكله، وفي رواية أخرى قالت الجارية عن عائشة رضي الله عنها: والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر^(١).

وقال أسامة بن زيد رضي الله عنه: أهلك ولا نعلم إلا خيراً، فقام رسول الله ﷺ على المنبر وأراد أن يستعذر من عبد الله بن أبي فقال: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي، والله ما علمت عليهم إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً - يعني صفوان - فقام سعد بن معاذ^(٢) - سيد الأوس - فقال: أنا أعذرك يا رسول الله، فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، فقام سعد بن عبادة - سيد الخزرج، وكانت أم حسان بنت عمه من فخذ - وقال لسعد: كذبت، لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يُقتل، فقام أسيد بن حضير - وهو ابن عم سعد بن معاذ - فقال لسعد بن عبادة: كذبت، لعمر الله لنقتله، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، وثار الحيان (الأوس والخزرج) حتى هموا أن يقتلوا، ورسول الله ﷺ على المنبر، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا وسكت^(٣).

هكذا يريد أصحاب الريب والنفاق أن يشعلوا الفتنة، ولكن رسول الله أطفأها مرة أخرى، ورسول الله لا يعلم الغيب، ولا يتنزل عليه الوحي متى شاء ﴿وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤]، فاهتم للأمر، وأشد منه الجارية المتهمة بما ليس فيها (عائشة رضي الله عنها)، والتي بلغ من حزنها كما تقول: (فبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم حتى ظننت أن البكاء فالتق كبدي)،

(١) البخاري ح (٤٧٥٧)، ومسلم ح (٢٧٧٠) (١١٨/٨).

(٢) قيل إن المتحدث هنا أسيد بن حضير، ولم يذكر سعد بن معاذ، قال ابن حزم: وهذا هو الصحيح الذي لا شك فيه، وذكر سعد وهم، وذكر ابن القيم أن ذكر سعد بن معاذ مما أشكل على كثير من أهل العلم (زاد المعاد ٣/٢٦٥).

(٣) البخاري ح (٤١٤١)، ومسلم ح (٢٧٧٠).

وجاءها رسول الله ﷺ يقول: يا عائشة، إنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئتك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، تقول عائشة: فقلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، والتفت إلى أبي ليؤجيبا عني، فاعتذرا بقولهما: (لا أدري ما أقول لرسول الله)، فقلت: وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ من القرآن كثيرا، إني والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقرّ في أنفسكم وصدّقتم به فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت بأمر -الله يعلم أني منه بريئة- لتصدقني، فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حين قال: ﴿فَصَبْرٌ جَبِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، وكنت أعلم أني بريئة، لكن ما ظننت أن الله تعالى منزل في شأني وحيّا يتلى، لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر^(١).

وكذلك بلغت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من الفقه وقوة الحجّة والبيان هذه المنزلة.

ولنا جميعاً أن نتصور هذه النازلة العظيمة، والتي وقعت في بيت النبوة -وهو أعظم البيوت- وانقطع وحي السماء عن النبي ﷺ شهراً^(٢)، ورغم المحنة والبلاء فإن فرج الله قريب، وكم هو عظيم مشهد القصة الأخير -كما هو عظيم مشهدها الأول- فلنستمع إلى عائشة وهي تروي لنا كيف انتهت هذه المحنة ورفع الله البلاء بوحي السماء، وتقول: أخذ رسول الله ﷺ ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه العرق مثل الجمان -وهو في يوم شاتٍ- من ثقل القول المنزل عليه، حتى سُري عنه

(١) البخاري ح (٤١٤١)، ومسلم ح (٢٧٧٠).

(٢) ذكر ابن القيم حكماً وأسراراً الحبس الوحي عن الرسول ﷺ وتوقفه في أمر عائشة حتى نزل الوحي، وهو نفيس فتأمله (زاد المعاد ٣/ ٢٦١-٢٦٣).



وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: يا عائشة أما الله فقد برأك، فقالت أُمِّي: قومي إليه، فقلت: لا والله لا أقوم إليه، فإني لا أحمدُ إلا الله ﷻ، وأنزل الله قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ ﴾ [النور: ١١] العشر الآيات من سورة النور، ثم أنزل الله تعالى هذا في براءتي (١).

كل مسلم أو مسلمة يصاب في عرضه - بغير حق - فله سلف بخيار الأمة، ومهما بلغ مكر المنافقين بالمؤمنين في أي زمان أو مكان، فهو دون مكرهم بيت النبوة، ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله!

أما من استمر في عدوانه وتهمه لأمة المؤمنين عائشة رضي الله عنها، بعد أن برأها الله في كتابه، وشهد به رسوله ﷺ فما أولئك بالمؤمنين، وقد نقل ابن كثير يرحمه الله إجماع العلماء قاطبة على أن من سبَّ عائشة رضي الله عنها بعد أن برأها الله، ورمأها بما رماها به فإنه كافر لأنه معاند للقرآن (٢).

وقبله قال القرطبي: فكل من سبَّها بما برأها الله منه مكذب لله، ومن كذب الله فهو كافر (٣)، وعلق الذهبي بقوله: (وإياك يا رافضي أن تلوح بقذف أم المؤمنين بعد نزول النص في براءتها فتجب لك النار) (٤).

٤ - مواقف أهل الإيمان في حادثة الإفك:

وفي مقابل تهم المنافقين لعائشة رضي الله عنها، فثمة مواقف إيمانية رائعة أحسنت الظن بعائشة وشهدت ببراءتها قبل نزول القرآن بذلك:

(١) البخاري ح (٤١٤١)، ومسلم ح (٢٧٧٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٤٥٦/٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢٠٦/١٢).

(٤) السير (١٨٨/١).



(أ) وفي الحوار الجميل بين أبي أيوب وزوجته رضي الله عنهما نموذج رفيع لحسن الظن من المؤمنين بالمؤمنين، فقد دخل أبو أيوب على أم أيوب فقالت له: أسمعت ما قيل؟ قال: نعم، وذلك الكذب، أكنت أنت يا أم أيوب تفعلين ذلك؟ قالت: لا والله، قال: فعائشة والله أفضل منك، قالت: نعم، وقيل إن ذلك هو المقصود بقوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] (١).

(ب) وفي موقف أم المؤمنين زينب بن جحش رضي الله عنها كذلك موقف صدق وإيمان وتجرد وورع، وهي التي قالت حين سألتها رسول الله ﷺ: أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيراً، قالت عائشة: فعصمها الله بالورع وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله ﷺ (٢).

ألا إن في موقف زينب من ضررتها عائشة رضي الله عنهما درساً للنساء عامّة، ودرساً للضرائر خاصّة في صدق الحديث والتجرد من الهوى والعدل في القول مع ضرراتهن أو غيرهن.

(ت) وأم مسطح رضي الله عنها سبّت ولدها (وهو ممن تحدث في الإفك) في سبيل دفاعها عن عرض عائشة رضي الله عنها، وغدّه العلماء من فضائلها القوية (٣).

(ث) ويبقى موقف إيماني كبير، وتجرد عظيم، وتجاوز للأناية والكيد، وتسليم للنص القرآني، ذلكم هو موقف أبي بكر ﷺ من (مسطح بن أثانة) حيث كان

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٢/٢٠٢)، وتفسير ابن كثير (٣/٤٥١)، وابن هشام: السيرة (٤١٨/٣-٤١٩).

(٢) البخاري ح (٤٧٥٠)، ومسلم ح (٢٧٧٠) (٨/١١٧).

(٣) ابن حجر: الفتح (٨/٤٨٠).

ينفق عليه أبو بكر لقرابته منه، وفقره، فلما نزلت براءة ابنته عائشة رضي الله عنهما، وكان (مسطح) ممن تكلم في الإفك، حلف أبو بكر لا ينفق على (مسطح) شيئاً بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْكُلِ أَوْلَاؤُا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، وحينها قال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً^(١).

بل ورد عند الطبراني أن أبا بكر ﷺ صار يعطي (مسطح) ضعف ما كان يعطيه قبل ذلك^(٢).

إنه أبو بكر صاحب القلب الكبير، والإحسان الدائم - حتى لمن أساء إليه - كل ذلك قربي لله وابتغاء وجهه، وكم أبو بكر عظيم حين يرضى وحين يغضب، وحيث عمله ابتغاء وجه الله فلسوف يرضى.

ج) أما (صفوان بن المعطل ﷺ)، والمتهم الآخر مع عائشة، فحين بلغه الأمر قال مستنكراً: سبحان الله! والله ما كشفت كنفَ أنثى قط^(٣)، قالت عائشة: فقتل شهيداً في سبيل الله^(٤)، وشهد له النبي ﷺ بالخيرية: (ما علمت عليه إلا خيراً)^(٥).

(١) البخاري ح (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٢) ابن حجر: الفتح (٤٧٨/٨).

(٣) إن كان القصد أنه لم يتزوج، فقد عُورض ذلك بحديث أبي سعيد أن زوجة صفوان جاءت إلى النبي ﷺ تشكي زوجها صفوان، وقد مال البخاري إلى تضعيف حديث أبي سعيد، وقال ابن حجر: ويمكن أن يجاب بأنه تزوج بعد ذلك (الإصابة ١٥٣/٥)، أو يكون القصد أنه لم يكشف كنف أنثى لا تحل له من عموم المسلمات، فكيف بأمهات المؤمنين؟

(٤) البخاري ح (٤٧٥٧)، ومسلم ح (٢٧٧٠) (٨/١١٩).

(٥) البخاري ح (٤٧٥٠)، ومسلم ح (٢٧٧٠).



٥ - من وقع في الإفك:

ولا بد لنا هنا أن نشير إلى من وقع في حديث الإفك، وقد سُمِّي (غير الذي تولى كبره، عبد الله بن أبي) مسطح بن أثانة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش -أخت أم المؤمنين زينب- ﷺ أجمعين^(١).

ومع الخطأ الواقع والهفوة من هؤلاء الصحابة، فلا ينبغي الاستطالة في أعراضهم أو الطعن فيهم لا سيما وفيهم من شهد بدرًا (مسطح) وجميل ما قاله الذهبي عنه: (إياك يا جري أن تنظر إلى هذا البدري شزراً لهفوة بدت منه، فإنها قد عُفرت، وهو من أهل الجنة)^(٢).

ولئن كان أقيم الحدُّ على هؤلاء الثلاثة -كما هو المشهور من الأخبار والمعروف عند العلماء- كما قال القرطبي^(٣)، فالحدُّ كفر عنهم إثم ما صدر منهم من القذف، حتى لا يبقى عليهم تبعة من ذلك في الآخرة، والحدود كفارات، وإنما لم يُحد (عبد الله بن أبي) لأنَّ الله تعالى قد أعدَّ له في الآخرة عذاباً عظيماً... هكذا قرر القرطبي^(٤).

٦ - لا تحسبوه شرًّا لكم:

وبعد -وفوق ما سلف من دروس وعبر في حادثة الإفك- فالدرس الأكبر والعبرة الباقية: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١].

وكذلك المصائب حين تقع تضيق بها الصدور، وربما سالت منها المقل، ولكن الله يقدر من وراء ذلك خيراً قد لا يتنبه الناس له لأول وهلة من وقوع البلايا والفتن،

(١) البخاري ح (٤٧٥٧)، ومسلم ح (٢٧٧٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (١/١٨٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٢/٢٠١).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٢/١٠٢).



فعلیهم أن یصبروا ویتبصّروا بعواقب الأمور، ویثقوا بأن الله لا یقدّر شیئاً إلاّ وفیه خیر - تقدّم ذلك أم تأخر، علمه الناس أم جهلوه؟ أو جهله بعضهم - ومن حکم الشعراء:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى

ذرعاً وعند الله منها المخرج

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها

فُرجت وكان يظنها لا تفرج^(١)

وأصدق من هذا وأبلغ قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾

[الشرح: ٥، ٦] و ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ [الطلاق: ٧].



(١) الفرج بعد الشدة للتوخّي: (٥/١٥)، والتذكرة الحمدونية: (٤٤/٨).

صلح الحديبية^(١)

هو الفتح المبين، والنقطة الكبرى لمصلحة الدعوة والدولة الإسلامية بالمدينة، والنموذج الأمثل في السياسة الشرعية، والمقدمة لفتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجا، فكيف كان ذلك؟

كيف خرج المسلمون للحديبية؟

استنفر رسول الله ﷺ المسلمين في المدينة وما حولها للخروج إلى مكة محرمين للعمرة، ومعظمين للبيت، وذلك في القعدة سنة ست للهجرة على الصحيح المشهور^(٢).

وقد استجاب المسلمون من المهاجرين والأنصار، وتباطأ غيرهم من الأعراب، وكشف القرآن عن موقفهم بقوله: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الفتح: ١١، ١٢] قال مجاهد: هم أعراب المدينة (جهينة ومزينة) اعتلوا بالشغل^(٣).

(١) اسم بئر تقع على بُعد اثنين وعشرين كيلاً شمالي غربي مكة، وتعرف اليوم بالشمسي (نسب حرب ص ٣٥٠) أكرم العمري: المجتمع المدني ص ١٢٧.

(٢) ابن هشام: السيرة (٣/٤٢٦)، وابن سعد: لطبقات (٢/٩٥)، وابن القيم: زاد المعاد (٣/٢٨٦)، وابن كثير: البداية والنهاية (٦/٢٠٦)، وأكرم العمري: المجتمع المدني (ص ١٢٧).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١١/٣٤٠)، وحسن إسناده د. أكرم العمري في المجتمع المدني (ص ١٢٨).

عدد أهل الحديبية:

ويبلغ مجموع من خرج معه ﷺ إلى الحديبية ألف وأربعمائة، وهو أصح الصحيح^(١)، وقيل ألف وثلاثمائة، وقيل ألف وخمسمائة، وألف وستمائة^(٢)، وقال ابن إسحاق: كانوا سبعمائة رجل^(٣).

وتهيأ رسول الله ﷺ فاغتسل من بيته ولبس ثوبيه وركب راحلته القصواء وخرج معه المسلمون، ولم يخرجوا معهم بسلاح إلا السيوف في القرب، وساقوا بُدنهم، وأشعروها، وأحرموا ولبوا من ذي الحليفة بعمرة، وبعث عيناً^(٤) له من خزاعة، فلما كان ﷺ بغدير الأشطاط^(٥) أتاه عينه وقال: إن قريشاً جمعوا لك جمعوا، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلون وصادوك عن البيت ومانعوك، فقال ﷺ: أشيروا أيها الناس عليّ، أترون أن أميل إلى عيالهم وذرائعهم هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت؟ قال أبو بكر: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد، ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه، قال: امضوا على اسم الله^(٦).

فلما كانوا ببعض الطريق قال ﷺ: إن خالد بن الوليد بكراع الغميم في خيل لقريش (في مائتي فارس) طليعة، فخذوا ذات اليمين، وما شعر بهم خالد حتى إذا رأهم انطلق

(١) البخاري ح (٤١٥٠، ٤١٥١، ٤١٥٤)، ومسلم ح (١٨٥٦).

(٢) ابن سعد: الطبقات (٢/٩٥) والعلوي: صحيح السيرة (ص ٢٩٩).

(٣) السيرة لابن هشام (٣/٤٢٧)، وقد غلّطه العلماء، انظر: زاد المعاد (٣/٢٨٨)، وابن حجر: الفتح (٧/٤٤٠).

(٤) سماه ابن إسحاق (بشر بن سفيان الخزاعي) ابن هشام: السيرة (٣/٤٢٨)، وابن حجر: الفتح (٧/٤٥٤).

(٥) ذكر ابن سعد أنه وراء عُسفان (من جهة مكة) (الطبقات ٢/٩٥)، والفتح (٧/٤٥٤).

(٦) ابن سعد: الطبقات (٢/٩٥)، والبخاري ح (٤١٧٨، ٤١٤٩).

يركض نذيراً قريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية^(١) التي يهبط عليهم منها بركت ناقته، فقال الناس: خلأت القصوى، فقال النبي ﷺ: ما خلأت القصوى وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل، والذي نفسي بيده لا يسألوني (أي قريش) خطة يعظمون فيها حرمت الله إلا أعطيتهم إياها، ثم زجرها فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمذ قليل الماء^(٢)، فانتزع سهمًا من كنانته فغرز فيها فجاشت لهم حتى اغترفوا بأنيتهم جلوسًا على شفير البئر.

وحين عسكر رسول الله ﷺ بالحديبية، بعثت قريش عدة رسل لمفاوضته حتى كان آخرهم (سهيل بن عمرو) وهو الذي صالح رسول الله ﷺ نيابة عن قريش^(٣).
وحدث عظيم كهذا (صلح الحديبية) يستحق النظر والاعتبار بالوقفات الآتية:

مشاركة المرأة في الحديبية:

ثبت خروج أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها مع النبي ﷺ في هذه الغزوة^(٤)، ويضيف الواقدي خروج أربع نسوة معه وسماهن: (أم سلمة، وأم عمارة، وأم منيع، وأم عامر الأشهلية)^(٥)، وفي هذا تأكيد لمشاركة المرأة، وفي حدث تحفه المخاطر - كهذا - فقد تخوف من الخروج رجال وقد عاتبهم القرآن - كما سلف - بل كانت مشاركة المرأة فاعلة ومؤثرة، وذلك حين تأخر المسلمون في الحديبية في النحر للبدن وحلق رؤوسهم للتحلل من عمرتهم، فأشارت أم سلمة رضي الله عنها على

(١) سماها ابن إسحاق: ثنية المرار (ابن هشام: السيرة ٤٣٠/٣).

(٢) قال ابن سعد: الحديبية: وهي طرف الحرم على تسعة أميال من مكة (الطبقات ٩٦/٢)، والثمذ: الماء القليل الذي لا مادة له) الصحاح للجوهري: (٤٥١/٢) مادة ثمذ.

(٣) البخاري ح (٢٧٣١، ٢٧٣٢) وابن سعد: الطبقات (٩٦/٢) وابن هشام: السيرة (٤٢٨/٣-٤٣٧) مع شيء من الاختلاف في سياق الحديبية بين هذه المصادر.

(٤) البخاري ح (٢٧٣١-٢٧٣٢).

(٥) المغازي (٥٧٤/٢).



النبي ﷺ أن ينحر بَدَنه، ويحلق رأسه، ففعل، فلما رأوا ذلك قاموا ونحروا بَدَنهم وحلقوا رؤوسهم، حتى كاد يقتل بعضهم بعضاً^(١).

قال ابن حجر: وفيه مشاورة المرأة الفاضلة، وفضل أم سلمة ووفور عقلها^(٢).

بيعة الرضوان:

وقعت (بيعة الرضوان) في الحديبية، وهي البيعة التي رضي الله عن أصحابها وأنزل عليهم السكينة ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨] وذلك أن رسول الله ﷺ رغب إبلاغ قريش بما جاء له، فهم أن يبعث عمر بن الخطاب فاعتذر لعدم مناسبته لهذه المهمة، وأشار بعثمان بن عفان رضي الله عنهما فبعثه، فنزل في جوار أبان بن سعيد بن العاص، وأدى رسالة رسول الله ﷺ، وأذنت له قريش أن يطوف بالبيت فامتنع عثمان وقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، واحتبسته قريش عندها، فأشيع أن عثمان قد قُتل^(٣)، فبايع النبي ﷺ أهل الحديبية على الموت، أو على ألا يفروا، أو على الصبر^(٤)، ولا تعارض بينها فمعناها واحد، ولكن الالاف للنظر أن رجلاً لم يبايع وهو (الجد بن قيس)، وذلك لنفاقه كما في رواية مسلم^(٥)، وإن كان في نفاق (الجد بن قيس) كلام^(٦)، وعنه قال ابن عبد البر: وقد قيل إنه تاب فحسنت توبته^(٧).

(١) البخاري ح (٢٧٣١ - ٢٧٣٢).

(٢) الفتح (٣٤٧/٥).

(٣) ابن هشام: السيرة (٣/٤٣٦-٤٣٨) وحسن إسناده د. مهدي رزق الله في السيرة النبوية (ص ٤٨٦).

(٤) ابن هشام: السيرة (٣/٤٣٨)، والبخاري ح (٤١٦٩)، ومسلم ح (١٨٥٦).

(٥) ح (١٨٥٦) وانظر ابن سعد: الطبقات (٢/١٠٠).

(٦) انظر: د. مهدي رزق الله: السيرة ص ٤٨٦.

(٧) الاستيعاب بهامش الإصابة (٢/١٩٩).

أما الذين بايعوا فقد ﷺ - كما سبق - وشهد لهم النبي ﷺ بالخيرية وقال: (أنتم خير أهل الأرض)^(١)، وعدم دخولهم النار (لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها)^(٢)، وعثمان ﷺ في جملة هؤلاء وإن لم يحضر، فقد ضرب النبي ﷺ بيده اليمنى على اليسرى وقال: هذه لعثمان^(٣)، فكانت يد رسول الله ﷺ خيرًا من يد عثمان.

سهيل بن عمرو وكتابة الصلح:

وحين قدم مبعوث المشركين (سهيل بن عمرو) استبشر النبي ﷺ به وتفاءل قائلاً: (سهل لكم من أمركم)^(٤)، وذلك أن سهيلاً مفوض من المشركين بعقد الصلح، والرسول ﷺ حريصٌ على الصلح لما بعده، وبدأ حوار الصلح وكتبه علي بن أبي طالب ﷺ، حيث قال له النبي ﷺ: اكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) فاعترض سهيل وقال: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هي، ولكن اكتب (باسمك اللهم)، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ: اكتب باسمك اللهم، ثم قال: (هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ، فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله)^(٥).

وإذا كان الاختلاف وقع في مقدمات الصلح - وتجاوزها النبي ﷺ للمصلحة الكبرى، فقد شعر المسلمون كذلك بحيف في الشروط - وقد قبلها النبي ﷺ كذلك تحقيقاً لمصلحة أعظم منها وقد كان كما سيأتي.

(١) البخاري ح (٤١٥٤)، ومسلم ح (١٨٥٦).

(٢) مسلم ح (٢٤٩٦).

(٣) البخاري ح (٣٦٩٩).

(٤) البخاري ح (٢٧٣١ - ٢٧٣٢).

(٥) البخاري ح (٢٦٩٨)، وابن هشام: السيرة (٣/٤٤٠)، ومسلم ح (١٧٨٣).

وقد جاء في هذه الشروط: أن يرجع النبي ﷺ والمسلمون معه عامهم هذا ولا يدخلوا المسجد الحرام - حتى لا تتحدث العرب أن قريشاً أخذت ضغطة كما قال سهيل - وأن يدخلوها من العام القادم، وأن يكون دخولهم في العام القادم دون سلاح إلا سلاح الراكب (السيوف في القرب)، ولا يقيم بها أكثر من ثلاثة أيام، ومن أتاه من المشركين ردّه إليهم، ومن أتاهم من المسلمين لم يردوه.

ومنها: أن تضع الحرب أوزارها بين الطرفين عشر سنين، (ولا إسلال ولا إغلال)^(١)، وبينهم عيبة مكفوفة، ومن أحب أن يدخل في عهد محمد ﷺ وعقده فعل، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدها فعل^(٢).

قلق المسلمين لشروط الصلح:

ومن أبرز مظاهر قلق المسلمين لهذه الشروط موقف عمر رضي الله عنه فقد أتى النبي ﷺ وقال له: ألسنت نبيّ الله حقاً؟ قال: بلى، قال: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قال: فلم نعطي الدنيا في ديننا إذا؟ قال: إني رسول الله ولست أعصيه، وهو نصري، قال: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، فأخبرتكم أنا نأتيه العام؟ قال: قلت: لا، قال: فإنك آتية ومطوف به... ثم ذهب عمر إلى أبي بكر، وقال له نحواً مما قال للنبي ﷺ، فرد عليه أبو بكر بمثل رد رسول الله ﷺ وقال: فاستمسك بعرزته فوالله إنه على الحق^(٣).

وهنا درس بليغ في تفوق أبي بكر على الأمة كلها بقوة الإيمان والتسليم، فعمر رضي الله عنه وإن بدت غيرته واستنكاره، فالصديق رضي الله عنه تلقاه بالرضى والتسليم، وذلك من أصعب

(١) يعني تكف عنا ونكف عنك، ولا سرقة ولا خيانة.

(٢) انظر: ابن إسحاق: السيرة لابن هشام (٣/ ٤٤٠-٤٤١)، وابن سعد: الطبقات (٢/ ٩٧)، والبخاري ح (٢٧٠٠)، ح (٢٧٣١-٢٧٣٢)، ومسلم ح (١٧٨٣).

(٣) البخاري ح (٢٧٣١-٢٧٣٢)، ومسلم ح (١٧٥٨).



المواقف وأدقها كما قال ابن القيم رحمه الله^(١).

ولئن تفوّق أبو بكر في بداية المشهد، فقد عاد وتفوّق عمر في نهايته، حين قال: فما زلت أتصدق، وأصوم، وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ، مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيراً^(٢)، وفي البخاري: (فعملت لذلك أعمالاً)^(٣)، ومع ذلك لا بد من اتهام العقل أمام النصوص الشرعية، وفي كلام عمر، وسهل بن حنيف -يوم الحديبية- ما يؤكد ذلك^(٤).

تفوق رسول الله ﷺ ومكاسب الصلح:

أما رسول الله ﷺ فكان ينظر بنور الله، ويتصرّف بأعلى ما تقتضيه السياسة والمصلحة الشرعية، وكان يدخل في هذا الصلح وهو واثق بنصر الله وتأييده، وقد كان، وتحقق من وراء هذا الصلح مكاسب ومنافع للإسلام والمسلمين، ومن ذلك:

(أ) أن هذا الصلح كان مقدمة، والهدنة كانت من أعظم الفتح، قال الزهري: فما فُتح في الإسلام فتحاً قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووُضِعَت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك الستين (من الحديبية حتى فتح مكة) مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر^(٥).

(١) زاد المعاد (٣/٣٠٣).

(٢) ابن هشام: السيرة (٣/٤٤٠) وهو حديث حسن من حديث الزهري، وانظر: د. مهدي رزق الله في السيرة في ضوء المصادر الأصلية ص (٤٩١).

(٣) البخاري ح (٢٧٣١).

(٤) انظر: الحكمي: مرويات غزوة الحديبية ص (٣٠١)، وفقه السيرة، د. زيد الزيد ص (٣٥٩).

(٥) ابن هشام: السيرة (٣/٤٤٧-٤٤٨) وهو من حديث الزهري الحسن.

وفي مرجعه ﷺ من الحديدية، والمسلمون يخالطهم الحزن والكآبة نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، وقال عمر ؓ: «أَوْ فَتْحٌ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَطَابَتْ نَفْسُهُ وَرَجَعَ»^(١).

وفرح بها ﷺ وقال: (لقد نزلت عليّ آية هي أحبّ إليّ من الدنيا جميعاً)^(٢).

(ب) ومن منافع هذا الصلح أن الله حمى به المسلمين المستضعفين بمكة حيث كانوا يكتمون إيمانهم، ولم يعلم بهم المسلمون، فوقع الصلح فكف أيدي بعضهم عن بعض، ولو وقع قتال لوقع شيء من المعرة على هؤلاء المسلمين المستضعفين دون أن يشعر بها إخوانهم أهل الحديدية، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ «هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَجَلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ» [الفتح: ٢٤، ٢٥]^(٣).

(ج) ومن مكاسب الصلح أن الله أذل الكافرين من حيث طلبوا العز، وقهروا من حيث أظهروا القدرة والفخر والغلبة - في الظاهر - على حين عز الإسلام وانتصر المسلمون، وكان فتح مكة بعد ذلك دليلاً وبرهاناً على هذا النصر والعز للإسلام والمسلمين^(٤).

(١) البخاري ح (٣١٨٢)، ومسلم ح (١٧٨٥ - ١٧٨٦).

(٢) مسلم ح (١٧٨٦).

(٣) زاد المعاد (٣/ ٣١٤).

(٤) زاد المعاد (٣/ ٣١٠) بتصرف.

المستضعفون بمكة يفرحون:

وثمة رجالٌ من المستضعفين بمكة فرحوا بمقدم المسلمين إلى الحديبية، فتسللوا من مكة وهم يرسفون في قيودهم حتى رموا بأنفسهم بين المسلمين كأبي جندل بن سهيل بن عمرو، الذي أصر والده (سهيل) على أن يرده إليه، وإلا يوقف الصلح. ومع توجع أبي جندل مما مسه من عذاب قريش، وطلبه من المسلمين ألا يردوه، إلا أن رسول الله ﷺ اضطر إلى رده وقال له: (إن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا)، ثم تبعه (أبو بصير) بعد أن رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فطلبه المشركون فأرجعه النبي ﷺ إليهم، ولكن الله جعل لهما -ولأمثالهما- فرجًا بعد الشدة، ونصرًا بعد الذلة، حيث اجتمعوا في (سيف البحر)^(١) هم وعصابة من المسلمين مثلهم، حتى شكّلوا خطرًا على تجارة قريش حتى أرسلت قريش للنبي ﷺ وناشدته الرحم، لما أرسل لهم وآواهم، فأرسل النبي ﷺ إلى هؤلاء -في سيف البحر- فأتوه^(٢).

وهكذا تحقق وعد رسول الله ﷺ، وانتصر هؤلاء المستضعفون، وأسقط في أيدي المشركين.

المستضعفات يهاجرن:

وإذا عجبت من هؤلاء المستضعفين وبلائهم حتى نصرهم الله، فالعجب من نساء هُنَّ إلى الضعف أقرب ومع ذلك هاجرن ولحقن بالنبي ﷺ رغم مطاردة أهليهن، وكان استثناءهن من شروط الصلح (ألا يأتيك أحدٌ منا وإن كان على دينك إلا رددته

(١) حدده ابن إسحاق (بالعيص) ابن هشام: السيرة (٣/٤٤٩) وقال ابن حجر: وهو يحاذي المدينة إلى

جهة الساحل، وهو قريب من بلاد بني سليم (الفتح ٥/٣٥٠).

(٢) البخاري ح (٢٧٣١-٢٧٣٢) ابن هشام: السيرة (٣/٤٤١-٤٤٢).

إِلَيْنَا) بِحَكْمِ الْقُرْآنِ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [المتحنة: ١٠].

وكانت (أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط) ممن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذ، وهي عاتق^(١)، فجعل أهلها يسألون النبي ﷺ أن يرجعها إليهم فلم يرجعها إليهم، لنزول القرآن^(٢).

وعدّ ابن حجر مجموعة من النساء المؤمنات -غير أم كلثوم- خرجن إلى النبي ﷺ^(٣).

وبايع رسول الله ﷺ كل النساء المهاجرات، وفق شروط آية الممتحنة (بكلام يكلمهن به، ووالله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط في المبايعة)، كما تقول عائشة رضي الله عنها^(٤).

الله أكبر وكم هو عظيم أن تبلغ المرأة -في زمن النبوة- هذا المبلغ من الجهاد والهجرة في ظروف البلاء والمحنة والشروط والمحاصرة، وتلك إضافة إلى جهود المرأة ومشاركتها الرجل في السراء والضراء.

أما حين يبايع رسول الله ﷺ النساء بالقول دون أن تمس يده أيديهن، فذلك مؤشر إلى كمال العفة، وتشريع للفضيلة ومنع سبل الفتنة، وإذا لم يُستثن رسول الله ﷺ من مصافحة النساء فغيره من باب أولى.

(١) أي: بلغت واستحقت التزويج، ولم تدخل في السن، وقيل غير ذلك (انظر: الفتح (٧/٤٥٤)).

(٢) البخاري ح (٢٧١١-٢٧١٢)، ح (٤١٨٠-٤١٨١).

(٣) الفتح (٥/٣٤٨).

(٤) البخاري ح (٢٧١٣)، ومسلم ح (١٨٦٦).



الفأل الحسن، وحسن السياسة:

وبقيت دروس في (الفأل) و(حسن الظن) و(عدم الإصرار على مظاهر ولافتات قد يكون غيرها أولى منها)، فحين قدم (سهيل بن عمرو) تفاعل رسول الله ﷺ وقال: (قد سهل لكم من أمركم)^(١)، وحين قال الناس (خلأت القصى) دافع النبي ﷺ وأحسن الظن قائلًا: (ما خلأت وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل)^(٢)، وحيث أحسن ﷺ الظن بدابة لا تعقل، فغيره ممن يعقل أولى بحسن الظن، ودفع التُّهم، لا سيما من أهل الإسلام وأهل لحسن الظن.

أما الحرص على المظاهر، والتشبيث بلافتات قد يبدو فيها (علم الإسلام) ظاهرًا، فقد يفوت فرصًا، وقد يُنبه الخصم أو يُثيره على أهل الإسلام، والمهم حُسن العمل ومراعاة المقاصد والمآلات المعتبرة شرعًا؛ ذلك توجيه نبوي، وسياسة شرعية على أهل الإسلام أن يعوها، وهم يتعاملون مع غيرهم، (فما أصرّ رسول الله ﷺ على كتابة بسم الله الرحمن الرحيم، ولا على (محمد رسول الله) فالله رحمن رحيم، ومحمد رسول الله وإن رغمت أنوف المعاندين.

محبة الصحابة للنبي ﷺ:

كشفت أحداث (الحديبية) وأظهرت للعدو بوضوح وبجلاء شدة محبة الصحابة ﷺ لرسول الله ﷺ وتوقيرهم له، حتى قال عروة بن مسعود للمشركين: (أي قوم، والله لقد وفدتُ على الملوك، ووفدتُ على قيصر، وكسرى، والنجاشي، والله إن رأيت مليكًا قط يعظمه أصحابه ما يُعظم أصحاب محمد ﷺ محمدًا...)^(٣).

(١) البخاري ح (٢٧٣١ - ٢٧٣٢).

(٢) المصدر السابق.

(٣) البخاري ح (٢٧٣١ - ٢٧٣٢).



وكذلك ينبغي أن يُعظَّم رسول الله ﷺ في النفوس، ويوقر -في حدود الشرع- وأن يكون ذلك ظاهراً في تربية المعلم والمربي، وعلى كلِّ المستويات والجنسيات. وهناك وقفات ودروس وفقه وحِكم تضمنتها هذه الهدنة (في صلح الحديبية) لفت ابن القيم وابن حجر النظر إليها^(١)، ومن دقائق الفوائد الفقهية التي انتزعها ابن القيم من (أن النبي ﷺ كان يُصلي في الحرم، وهو مضطرب في الحل (في الحديبية)^(٢)) أن في هذا كالدلالة على أن مضاعفة الصلاة بمكة (إلى مائة ألف صلاة) تتعلق بجميع الحرم، لا يُخصَّص بها المسجد الذي هو مكان للطواف^(٣).

أما إن كانت بدايات إسلام خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص رضي الله عنهما -وهما من رجالات قريش وأبطالها- أثراً من آثار الحديبية وشروطها، وهو احتمال أورده (د. أكرم العمري)^(٤)، فذلك إضافة إلى النتائج العظيمة التي خلفتها غزوة الحديبية^(٥).

مدة الهدنة تُنقِضُ:

ورغم أن مدة الهدنة -المتفق عليها بين الطرفين- عشر سنين -كما سبق- فلم تلبث إلا سبعة عشر أو ثمانية عشر شهراً حتى نُقِضَتْ، وكان النقض من قريش ومن دخل في حلفها (بني بكر)، حيث بيَّت هؤلاء (خزاعة) وهم في حلف المسلمين، على ماء يقال له (الوتير) قرب مكة^(٦)، فاستصرخت (خزاعة) بالمسلمين، وانتقضت

(١) زاد المعاد (٣/٣٠٠، ٣١٦)، والفتح (٥/٣٣٣، ٣٥٢).

(٢) أخرجه أحمد (٤/٣٢٦) ورجاله ثقات، انظر محقق زاد المعاد (٣/٣٠٣).

(٣) زاد المعاد (٣/٣٠٣).

(٤) المجتمع المدني (ص ١٤٨).

(٥) انظر: د. زيد الزيد: فقه السيرة (ص ٥٤٣).

(٦) انظر: ابن هشام: السيرة (٤/٤٥)، ومجمع الزوائد (٦/١٦٢)، وقال رواه البزار ورجاله رجال الصحيح، غير محمد بن عمرو وحديثه حسن، وقال ابن حجر: وإسناده حسن موصول (الفتح ٧/٥٢٠).



المعاهدة، وكان ذلك سببًا لفتح مكة - كما سيأتي - وهكذا بدأ العدُّ التنازلي لكفار قريش، والظهور والغلبة للمسلمين، ويات يظهر ما كان خفيًا من كسب المسلمين لهذه الهدنة، وتفوق رسول الله ﷺ على قريش في السياسة والمفاوضة.

انتشار الدعوة، ومراسلة الملوك والأمراء:

كان من أعظم مكاسب (صلح الحديبية) (السلمية) إتاحة الفرصة أكثر للمسلمين لممارسة الدعوة ونشر الإسلام، داخل المدينة وخارجها، وحيث مرَّ معنا كلام الزهري: (فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه)، وعلق ابن هشام على ذلك بقوله: والدليل على قول الزهري: (أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بستين في عشرة آلاف)^(١).

دعوة الرسل والملوك في إثر صلح الحديبية:

على أن رسول الله ﷺ والمسلمين معه لم يقتصروا في دعوتهم لمن هم حول المدينة، بل بادر النبي ﷺ بالكتابة إلى كسرى (ملك الفرس)، وإلى قيصر (ملك الروم) وإلى النجاشي (ملك الحبشة) وإلى كل جبار، يدعوهم إلى الله تعالى^(٢).

وربط ابن هشام بين الكتابة لهؤلاء الملوك وبين صلح الحديبية، فجعل ذلك في إثر عمرته التي صُدَّ عنها يوم الحديبية^(٣)، وزاد في أسماء الملوك، وسمَّى من حمل هذه الرسائل فقال: فبعث رسول الله ﷺ رسلاً من أصحابه، وكتب معهم كتبًا إلى الملوك

(١) السيرة النبوية (٣/٤٤٨).

(٢) مسلم ح (١٧٧٤).

(٣) وعند ابن سعد في المحرم سنة سبع (الطبقات ١/٢٥٨)، وقال ابن حجر: وكان إرساله ﷺ إلى الملوك في مدة الهدنة، ووجه الرسل في المحرم من السنة السابعة (الفتح ١٠/٣٢٥) وكونه في زمن الهدنة يؤيده حديث أبي سفيان في مجلس هرقل، كما في الصحيحين، البخاري ح (٢٩٤١)، ومسلم ح (١٧٧٣).



يدعوهم فيها إلى الإسلام، فبعث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم، وبعث الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك فارس، وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة، وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك الإسكندرية، وبعث عمرو بن العاص السهمي إلى جيفر وعياد ابني الجلندي الأزديين ملكي عُمان، وبعث سليط بن عمرو إلى ثمامة بن أثال وهوذة بن علي الحنفيين ملكي اليمامة، وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين، وبعث شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمّر الغساني ملك تخوم الشام، وقيل بعثه إلى جبلة بن الأيهم الغساني، وبعث المهاجر بن أبي أمية المخزومي إلى الحارث بن عبد كلال الحميري ملك اليمن^(١).

كما زاد ابن سعد، وأضاف مجموعة كبيرة ممن كتب لهم النبي ﷺ يدعوهم إلى الإسلام ويؤمنهم، ويعطيهم، من العرب وغيرهم^(٢).

تراتب إدارية لمصلحة الدعوة:

ومن التراتيب الإدارية التي اتخذها النبي ﷺ اتخاذ الخاتم، فقد قيل للنبي ﷺ حين أراد الكتابة إلى الروم: (إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا أن يكون مختوماً)، فاتخذ خاتماً من فضة ونقش فيه (محمد رسول الله)^(٣).

ومع كون الخاتم نمط إداري، فهو استفادة من تجارب الأمم لم يتردد النبي ﷺ فيه (كما سبق في حفر الخندق) والحكمة ضالة المؤمن.

(١) السيرة (٤/ ٣٣٨ - ٣٣٩).

(٢) الطبقات (١/ ٢٥٨، ٢٩١).

(٣) البخاري ح (٢٩٣٨)، ح (٥٨٧٥)، ومسلم ح (٢٠٩٢).

وقد تباينت ردود هؤلاء الملوك ونوع استقبالهم لرسول الله ﷺ، فمنهم من قاده حُمقه إلى تمزيق رسالة رسول الله ﷺ فمزَّق الله ملكه كما وقع ذلك مع كسرى^(١).

ومنهم من استوعب الرسالة وكاد أن يُصدِّق الرسول ويتبعه حيث قال (هرقل) لأبي سفيان - بعد أن سأله عدَّة أسئلة عن الرسول ﷺ -: (إن كان ما تقول فيه حقًّا فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم، ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليلغن ملكه ما تحت قدمي)^(٢).

والرواية هنا لا تُبرز تأثر (هرقل) بدعوة النبي ﷺ فقط، بل تبرز كذلك تأثر أبي سفيان - زعيم قريش حينها - حتى قال عن نفسه: (خلوت بأصحابي فقلت لهم: لقد أمر أمرُ ابن أبي كبشة، هذا ملك بني الأصفر يخافه، وما زلت ذليلاً مستيقناً بأن أمره سيظهر، حتى أدخل الله قلبي الإسلام وأنا كاره)^(٣).

ولئن صدق وتقدم (أبو سفيان) في إسلامه، فما صدق (هرقل) وإن زعم الإسلام، فقد قال عنه ﷺ: كذب عدو الله ليس بمسلم وهو على النصرانية^(٤).

ومنهم من ظنَّ بملكه، كالمقوقس - ملك الإسكندرية - فقد قال لمبعوث رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة، خيرًا، وقارب الأمر ولم يسلم، وأهدى للنبي ﷺ مارية القبطية فتسرَّها، كما بعث بهدايا أخرى، لكنه لم يُسلم، وعنه قال ﷺ: (ظنَّ الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه)^(٥).

(١) البخاري ح (٤٤٢٤) وابن سعد: الطبقات (١/ ٢٦٠).

(٢) البخاري ح (٢٩٤١)، ومسلم ح (١٧٧٣).

(٣) البخاري ح (٢٩٤١)، ومسلم ح (١٧٧٣) من دون قوله: (وأنا كاره).

(٤) صحيح ابن حبان ح (١٦٢٨) وعند ابن القيم في زاد المعاد (١/ ١٢١)، وسنده صحيح كما قال محقق الزاد هامش (رقم ١).

(٥) ابن سعد: الطبقات (١/ ٢٦٠ - ٢٦١)، وابن القيم: زاد المعاد (١/ ١٢٢).



أما (نجاشي الحبشة) فقد بعث إليه النبي ﷺ عمرو بن أمية الضمري بكتابه، ولم يُسلم كما قال ابن حزم، ووافق ابن القيم^(١)، على حين يرى ابن سعد، وشيخه الواقدي أن النجاشي أسلم، وعظّم كتاب رسول الله ﷺ^(٢)، وعند مسلم ما يؤيد رأي ابن حزم وابن القيم حيث قال: وكتب ﷺ إلى النجاشي، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه رسول الله ﷺ^(٣).

ولعل ابن حجر يكشف عن هذا اللبس حين قال: وكتب النجاشي الذي أسلم وصلى عليه لما مات، ثم كاتب النجاشي الذي ولي بعده وكان كافرًا، ثم أورد حديث مسلم السابق^(٤).

عالمية دعوة الإسلام:

وأياً ما كان اختلاف ردود هؤلاء الملوك وغيرهم على رُسل وكتابات النبي ﷺ إليهم، فهذه الخطوة مؤشر كبير على (عالمية) الدعوة و(عموم) الرسالة المحمدية، تلك التي نزل تشريع القرآن لها في زمن مبكر (في المرحلة المكية)، حيث نزل قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقوله: ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [القلم: ٥٢]، وكل ذلك نزل في العهد المكي، لكن رسول الله ﷺ لم تُتَّح له الفرصة لممارسة هذه الدعوة العالمية إلا بعد (صلح الحديبية).

(١) زاد المعاد (١/٢٠، ٣/٦٩٠).

(٢) الطبقات (١/٢٥٨ - ٢٥٩).

(٣) مسلم ح (١٧٧٤).

(٤) الفتح (٨/١٢٩).



نص الكتاب النبوي:

أما صيغ هذه الكتب النبوية ونصوصها وفحواها، فقد أخرج البخاري ومسلم نصّ كتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به (دحية) إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى (هرقل) فقرأه فإذا فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين^(١))، ﴿يَا هَلْ أَلِكتَبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فُقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]^(٢).

وهذا الكتاب كما يتسم بالصراحة والمحافظة على الصيغة الإسلامية، حيث بدأ بالبسملة وظاهر في الحكمة والموعظة الحسنة، واحترام المخاطب (عظيم الروم)، ومع الترغيب والتعظيم، فيه ترهيب من الإثم إن حجب قومه عن الإسلام^(٣).

وهكذا شكلت هذه الخطوة في دعوة الملوك بُعداً عالمياً للدعوة، وفتحت آفاقاً للإسلام، فمن هؤلاء الملوك من آمن وصلى عليه النبي ﷺ وإن لم يره - كما حصل من النجاشي - ومنهم من صدّق بالرسالة ولكنه ظنّ بملكه، فكان تصديقه وتعظيمه للنبي ﷺ سبباً في إسلام زعيم آخر (كأبي سفيان)، وإذا أسلم الزعيم القبلي فلا تسأل عن تأثر مَنْ دونه؟ على أن (أبا سفيان) لم يكن وحده مَنْ تأثر، فـ(عمرو بن العاص) كانت بدايات تأثره بالإسلام في الحبشة عند النجاشي بعد أن وصله كتاب رسول الله ﷺ، ويُقال: إن إسلام عمرو كان على يد النجاشي، أو جعفر بن أبي طالب^(٤).

(١) هم الفلاحون، والمعنى - كما قال الخطابي - أن عليك إثم الضعفاء والأتباع إذا لم يُسلموا تقليداً لك (الفتح ٣٩/١).

(٢) البخاري كتاب بدء الوحي (باب ٦)، ومسلم (ح ١٧٧٤).

(٣) د. أكرم العمري: المجتمع المدني في عهد النبوة (ص ١٥٦).

(٤) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣/ ٦٠ - ٦١)، ابن حجر: الإصابة (٧/ ١٢٢ - ١٢٣).



ولا شك أن هذه الخطوة أثرت بشكل مباشر أو غير مباشر في عدد من هؤلاء المدعويين، ولو لم يكن من ذلك إلا البلاغ ووصول صوت الإسلام إلى خارج الجزيرة، ثم ما تبع ذلك من فتح للبلدان في زمن الراشدين ومن بعدهم ودخول الناس في الإسلام، وكذلك تنتشر الدعوة، ويتنصر أهل الإسلام إذا صدقت النوايا، وكانت المبادرات المدروسة، ومَنْ لم يَغْزُ غُزِي في عقر داره، ومَنْ لم يهتم بدينه ويحمل أعباء الدعوة جرفته الدعوات والتيارات المضللة.



غزوة خيبر

وكان من مكاسب (صلح الحديبية) (الحرية) أن تفرَّغ الرسول ﷺ لليهود الذين كانوا يمثلون شوكة في حلق المسلمين، وكانوا يعتمدون على قريش وغطفان، وبعد إجلائهم من المدينة اتخذوا من (خيبر) مكاناً لتجمعهم ومؤامرتهم، أما وقد عقدت الهدنة (الصلح) مع المشركين فقد انقطع خط الإمداد والاتصال مع قريش، فقصدهم النبي ﷺ في خيبر^(١) وذلك في محرم من السنة السابعة للهجرة^(٢).

الوعد بغنائم خيبر:

وقد وعد المسلمون غنائم خيبر قبل أن يتحركوا لها كما قال تعالى: ﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ...﴾ [الفتح: ٢٠]، فالمعجل لهم مغنم خيبر^(٣)، وقد سار المسلمون بقيادة النبي ﷺ إلى خيبر ليلاً بروح عالية، حيث طلبوا من (عامر بن الأكوع) أن يسمعهم من (هنيهاته) وكان شاعراً، فنزل يحدوا بالقوم ويقول:

اللَّهُمَّ لولا أنت ما اهتدينا

ولا تصدقنا ولا صلينا

(١) خيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على ثمانية بُرد من المدينة جهة الشام (الطبقات ١٠٦/٢)، (الفتح ٤٦٤/٧).

(٢) ابن هشام: السيرة (٤٥٥/٣)، وهو رأي ابن إسحاق ورجحه ابن حجر في الفتح (٤٦٤/٧)، وعند ابن سعد في جمادى الأولى سنة سبع الطبقات (١٠٦/٢).

(٣) ابن القيم: زاد المعاد (٣١٧/٣)، وابن حجر: الفتح (٤٦٤/٧).

فاغفر فداءً لك ما اتقينا

وثبت الأقدام إن لاقينا

فقال رسول الله ﷺ: من هذا السائق؟ قالوا: عامر بن الأكوع، قال: يرحمه الله، قال رجلٌ من القوم: وجبت يا نبي الله، لولا أن أمتعتنا به..^(١)، وحين أشرف رسول الله ﷺ على خيبر أوقف أصحابه ثم دعا وقال: اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَمَا أَظْلَلْنَ وَرَبَّ الْأَرْضِينَ وَمَا أَقْلَلْنَ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلْنَ، وَرَبَّ الرِّيَاحِ وَمَا أَذْرِينَ، نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ، وَخَيْرَ أَهْلِهَا، وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ أَهْلِهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا أَقْدَمُوا بِاسْمِ اللَّهِ، وَكَانَ ﷺ يَقُولُهَا لِكُلِّ قَرْيَةٍ دَخَلَهَا^(٢).

لا قتال مع الأذان:

ونزل رسول الله ﷺ خيبر ليلاً، وكان إذا غزا قومًا لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر، فإن سمع أذانًا كف عنهم، وإن لم يسمع أذانًا أغار عليهم، فلما أصبح بخيبر ولم يسمع أذانًا ركب وركب المسلمون معه^(٣).

وهذا أدب من آداب القتال، وإشارة إلى أن (الأذان) شعار الإسلام ولا يجوز تركه^(٤).

(١) البخاري ح (٤١٩٦)، ومسلم ح (١٨٠٢)، وابن هشام: السيرة (٣/٤٥٥ - ٤٥٦) ومعنى وجبت جاء تفسيره بحديث آخر: (وما استغفر رسول الله ﷺ لإنسان يخصه إلا استشهد، والرجل القاتل: لو أمتعتنا.. هو عمر بن الخطاب كما في رواية مسلم ح (١٨٠٧)، وابن سعد: الطبقات (٢/١١١)، وانظر: الفتح (٧/٤٦٦) وقد استشهد عامر ﷺ في خيبر، فكان استشهاده من علائم نبوته ﷺ.

(٢) ابن هشام: السيرة (٣/٤٥٦ - ٤٥٧)، ورواه الحاكم في مستدركه وصححه ووافقه الذهبي (٢/١٠٠-١٠١).

(٣) البخاري ح (٦١٠)، ومسلم ح (٣٨٢)، وابن هشام: السيرة (٣/٤٥٧).

(٤) نقله ابن حجر عن الخطابي (الفتح ٢/٩٠).

متى أغار النبي ﷺ على خيبر؟

وقد صلى النبي ﷺ بالمسلمين الصبح قريباً من خيبر بغلس، ثم أغار عليهم وقد غدا اليهود إلى أعمالهم ومعهم مساحيهم، ومكاتلهم، فلما نظروا إلى رسول الله ﷺ قالوا: محمد والخميس (يعني الجيش)، فلما رأهم رسول الله ﷺ قال: الله أكبر، الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين^(١).

ولعل تكبيره ﷺ يحمل معنى الفأل، لأنه ﷺ لما رأى آلات الهدم معهم (المساحي)، أخذ منه أن مدينتهم ستخرب^(٢) وفأله ﷺ تكرر في أكثر من مرة في السيرة النبوية.

أما اليهود فقد أصابهم الذعر والهلع، وولّوا هاربين مدبرين، يسعون في السكك ودخلوا حصونهم^(٣).

ومن هنا يتبين مفاجأة اليهود، وأهمية مباغتتهم في إضعاف نفسياتهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، واليهود فيهم من الجبن والخوف ما حكاه القرآن عنهم: ﴿لَا يُقْتَلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحْصَنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ...﴾ [الحشر: ١٤]، وكما وصفت الروايات مشهدهم: (هربوا... سعوا في السكك، تحصنوا...).

الطريق إلى خيبر وقطع الإمداد عن اليهود:

وأمر آخر أسهم في هزيمة يهود خيبر، ويعدُّ من نجاحات خطط النبي ﷺ العسكرية، وذلك حين سلك في طريقه إلى خيبر على (عِصْر) ثم (الصهباء)^(٤)، حتى

(١) البخاري ح (٦١٠، ح ٤٢٠٠)، ومسلم ح (١٣٦٥)، ابن هشام: السيرة (٣/٤٥٧ - ٤٥٨)، وابن سعد: الطبقات (٢/١٠٦).

(٢) الفتح (٧/٤٦٨).

(٣) البخاري ح (٢٩٩١)، وابن هشام: السيرة (٣/٤٥٧)، وابن سعد: الطبقات (٢/١٠٦، ١٠٩).

(٤) علي بريد من خيبر (الفتح ٧/٤٨٠).

نزل بوادٍ يقال له (الرجيع) فنزل بينهم وبين (غطفان) ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ^(١).

ويؤكد ابن إسحاق تأثير سلوك هذا الطريق حين يقول: فأقاموا (غطفان) في أهليهم وأموالهم وخلّوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر^(٢).

الرايات في خيبر:

وحين تحصن اليهود في حصونهم - وكانت منيعة - حاصرهم النبي ﷺ وقرق الرايات، ولم يكن الرايات إلا يوم خيبر، إنما كانت الألوية^(٣)، فكانت راية النبي ﷺ السوداء إلى علي بن أبي طالب، وراية إلى الحباب بن المنذر، وراية إلى سعد بن عباد^(٤).

علي يتسلم الراية:

وعند البخاري من حديث سلمة بن الأكوع قال: فلما بتنا الليلة فتحت (خيبر) قال: لأعطين الراية غداً أو لياخذن الراية غداً، رجل يحبه الله ورسوله، ويحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه، فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يُعطاها، فلما أصبحوا قال: أين علي؟ قالوا: يشتكي عينيه، فلما جاء بصق في عينيه ودعا له فبرأ، فأعطاه الراية وقال له: انفذ علي رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حقّ الله فيه، فوالله لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم^(٥).

(١) ابن هشام: السيرة (٤٥٨/٣) وسلوكه ﷺ طريق الصهباء وهي من أدنى خيبر رواه البخاري ح (٤١٩٥).

(٢) ابن هشام: السيرة (٤٥٨/٣) وقد رواه ابن إسحاق (بلاغاً).

(٣) الذي يظهر أن (الراية) أكبر من (اللواء).

(٤) ابن سعد: الطبقات (١٠٦/٢).

(٥) البخاري ح (٤٢٠٩ - ٤٢١٠)، ومسلم مختصراً ح (١٨٠٧).

اللواء إلى أبي بكر وعمر قبل علي ولم يفتح عليهم:

ويرى ابن حجر أن حديث تسليم علي للراية فيه اختصار عند البخاري، وهو عند أحمد، والنسائي، وابن حبان، والحاكم من حديث (بريدة بن الحصيب) قال: لما كان يوم خيبر أخذ (أبو بكر) اللواء فرجع ولم يفتح له، فلما كان الغد أخذه (عمر) فرجع ولم يفتح له، وقتل محمود بن مسلمة، ثم دُفعت إلى (علي) ^(١)، وعند ابن إسحاق نحو ذلك من حديث سلمة بن الأكوع ^(٢).

وإذا ثبت ذلك ففيه منقبة لعلي عليه السلام، ولا يُقلل من شأن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما عدم الفتح على أيديهما قبل علي، وفيه كذلك أن الدعوة للإسلام مقدّمة على القتال، بل قيل إنها شرط في جوازه، وفي قوله عليه السلام لعلي: (لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم)، أن تألف الكافر حتى يُسلم أولى من المبادرة إلى قتله ^(٣).

وأين هذا من أناس يتساهلون، بل يتعجلون في القتل مع المسلمين أو غير المسلمين بغير حق، ويزعمون ذلك جهاداً ونصرة للدين؟ والله المستعان.

من قتل اليهودي مرحب؟

أما حصار اليهود في خيبر فتفيد رواية مسلم بأن (مرحباً اليهودي) ^(٤) خرج وجعل

يقول:

(١) الفتح (٧/٤٧٦)، وانظر ابن أبي شيبة: المصنف (ص ٣٠٦ - ٣٠٩).

(٢) ابن هشام: السيرة (٣/٤٦٥ - ٤٦٦).

(٣) ابن حجر: الفتح (٧/٤٧٨).

(٤) ذكر ابن حجر: أن مرحب ملكهم (الفتح ٧/٤٦٦).



قد علمت خير أني مرحب
شاكي السلاح بطل مجرب
إذا الحروب أقبلت تلهب

فقال علي عليه السلام:

أنا الذي سمتني أمي حيدرة
كليث غابات كرية المنظرة
أوفيهم بالصاع كيل السندرة

ثم ضرب علي عليه السلام رأس مرحب فقتله، ثم كان الفتح على يديه^(١).

بينما تفيد رواية أخرى عند الشيخين و(ابن سعد) أن الذي خرج لمرحب (عامر بن الأكوع)، وأنهما اختلفا ضربتين، فوقع سيف (مرحب) في ترس (عامر) فرجع السيف على ساقه فقتله، حتى ظن بعض الصحابة أنه بطل عمل عامر فقال النبي صلى الله عليه وسلم: كذبوا، بل له أجره مرتين^(٢).

وعند البخاري: فلما تصاف القوم كان سيف (عامر) قصيراً، فتناول به ساق يهودي ليضربه ويرجع ذباب سيفه، فأصاب عين ركبته (عامر) فمات منه، ثم أثنى عليه النبي صلى الله عليه وسلم ودفع قول من قال: حبط عمل عامر، وقال: كذب من قاله، إِنَّهُ لَجَاهِدٌ مُجَاهِدٌ، قَلَّ عَرَبِيٌّ مَشَى بِهَا مِثْلَهُ^(٣).

(١) مسلم (ح ١٨٠٧).

(٢) البخاري ح (٦٨٩١)، ومسلم ح (١٨٠٢) الطبقات (٢/ ١١٠ - ١١١).

(٣) البخاري ح (٤١٩٦)، ومسلم ح (١٨٠٢) والضمير (بها) للأرض أو المدينة، أو الحرب، أو الخصلة (الفتح ٧/ ٤٦٧).



وقال ابن حجر: جزم أهل السير بأن الذي قتل (مرحبًا) هو (محمد بن مسلمة) وكذا رواه أحمد بإسناد حسن، وقيل إن محمد بن مسلمة بارز (مرحبًا) فقطع رجله، فأجهز عليه علي، فإن كان كذلك وإلا فما في الصحيح مقدم على ما سواه^(١).

وقال الحاكم: الأخبار متواترة بأسانيد كثيرة أن قاتل (مرحب) أمير المؤمنين علي عليه السلام، وواقفه الذهبي^(٢)، وكان اسم الحصن الذي فتحه علي (القموص) وهو من أعظم حصونهم، ومنه سُميت أم المؤمنين (صفية بنت حبي رضي الله عنها)^(٣).

حصون خيبر وقتلى اليهود وشهداء المسلمين:

وقد كان القتال شديدًا في خيبر، ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتحها حصنًا حصنًا، وهي حصون ذوات عدد، منها (النَّطَاة) و(الصعب بن معاذ) و(حصن (ناعم) و(قلعة الزبير) و(الشَّق) و(سَلالِم) وهو حصن (بني أبي الحقيق).

وكان عدد قتلى اليهود ثلاثة وتسعين رجلًا، واستشهد من المسلمين خمسة عشر رجلًا، وقد سمَّاهم ابن سعد^(٤).

وقد أصاب المسلمين مجاعة يوم خيبر ومخمصة شديدة، حتى ذبحوا الحمر الإنسانية (الأهلية) ليأكلوها، وغلت بها القدور، فنهاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحرَّمها، ونادى منادي النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر، فإنها رجس، واكْفُت القدور وإنها لتفور باللحم^(٥).

(١) الفتح (٧/٤٧٨)، وانظر: ابن هشام: السيرة (٣/٤٦٤ - ٤٦٥).

(٢) المستدرک (٣/٤٣٧).

(٣) الفتح (٧/٤٧٨).

(٤) الطبقات (٢/١٠٦ - ١٠٧) وزاد عدد شهداء المسلمين عند ابن إسحاق وابن هشام: السيرة (٣/٤٧٨).

(٥) ابن سعد: الطبقات (٢/١١٢ - ١١٣)، والبخاري ح (٤١٩٦، ٤١٩٨، ٤١٩٩)، ومسلم ح (١٩٤٠).

وكانت مدة الحصار قريباً من عشرين ليلة، وكانت أرضاً وخمة، شديدة الحر، فجهد المسلمون جهداً شديداً^(١).

وبعد فتح خيبر، صالحهم النبي ﷺ على أن يخرجوا بأنفسهم وأهليهم، ليس لهم بيضاء ولا صفراء وهي (السلاح)^(٢)، قال ابن القيم: والصواب الذي لا شك فيه أن خيبر فتحت عنوة^(٣).

وحين شرطوا للنبي ﷺ ألا يكتموه شيئاً، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد، ثم غيخوا المال في (مسك الجمل) في خربة، فسبى نساءهم وغلب على الأرض والنخل، ودفعها إليهم على الشطر فكان ابن رواحة رضي الله عنه يخرصها عليهم^(٤).

وعند البخاري ومسلم: أعطى النبي ﷺ خيبر لليهود أن يعملوها ويزرعوها، ولهم شطر ما يخرج منها^(٥).

وقد كان لمغانم خيبر وما تنتجه أرضها أثر في حياة المسلمين، حتى قالت عائشة رضي الله عنها: (لما فتحت خيبر قلنا الآن نشبع من التمر)^(٦)، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: (ما شبعنا حتى فتحنا خيبر)^(٧).

المرأة في غزوة خيبر:

يبرز في حضور المرأة في خيبر (مشاركتها، وإسلامها) ومحاولة قتلها للنبي ﷺ:

(١) دلائل النبوة للبيهقي: (٤/٢١٩)، وابن القيم: زاد المعاد (٣/٣٢٣).

(٢) ابن سعد: الطبقات (٢/١١٢)، وابن القيم: زاد المعاد (٣/١٤٣).

(٣) زاد المعاد (٣/٣٢٩).

(٤) ابن سعد: الطبقات (٢/١١٠)، وسنده صحيح انظر: ابن القيم: زاد المعاد (٣/١٤٣ - ١٤٤).

(٥) البخاري ح (٤٢٤٨)، ومسلم ح (١٥٥١).

(٦) البخاري ح (٤٢٤٢).

(٧) البخاري ح (٤٢٤٣).

أ) أما مشاركتها، فعند أبي داود وأحمد أن ستاً من النساء خرجن مع المسلمين في خيبر^(١)، وزادهم الواقدي إلى عشرين امرأة وسماهن^(٢)، وسمى ابن سعد أم سلمة وأم سليم^(٣).

وقال ابن إسحاق: وشهد مع رسول الله ﷺ نساء من نساء المسلمين فرضخ^(٤) لهن من الفيء، ولم يضرب لهن بسهم^(٥).

ب) وأما إسلامها فيظهر ذلك في قصة أم المؤمنين (صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها)، فقد كانت في سبي خيبر، وعرض عليها الإسلام فأسلمت، فاصطفأها لنفسه، وأعتقها، وجعل عتقها صداقها^(٦)، وكان زواجه ﷺ بها بين خيبر والمدينة، وقال المسلمون: إن حجبها فهي إحدى أمهات المؤمنين، وإن لم يحجبها فهي ملك يمين، فلما حجبها علموا أنها إحدى نسائه^(٧)، وحين رأى رسول الله ﷺ في وجهها خضرة قال: ما هذا؟ قالت: يا رسول الله، رأيت قبل قدومك علينا كأن القمر زال من مكانه فسقط في حجري، ولا والله ما أذكر من شأنك شيئاً، فقصصتها على زوجي (كنانة بن الربيع) فلطم وجهي وقال: أتريدين ملك يثرب؟ قالت: وما كان أبغض إليّ من رسول الله ﷺ قتل أبي وزوجي، فما زال رسول الله يعتذر إليّ وقال يا صفية: إن

(١) أبو داود ح (٢٧٢٩)، وأحمد ح (٢٧٠٩٢) وإسناده ضعيف، وانظر: السيرة لابن كثير (٣/٣٨٨).

(٢) المغازي (٢/٦٨٥-٦٨٧).

(٣) الطبقات (٢/١٠٦، ١١٦).

(٤) أي أعطاهن من الغنيمة عطاء غير محدود.

(٥) ابن هشام: السيرة (٣/٤٧٦).

(٦) البخاري ح (٤٢٠٠ - ٤٢٠١)، ومسلم ح (١٣٦٥)، وابن القيم: زاد المعاد (٣/٣٢٧).

(٧) البخاري ح (٤٢١٢ - ٤٢١٣)، ومسلم ح (١٣٦٥)، وابن القيم (٣/٣٢٧).



أباك ألب عليّ العرب، وفعل وفعل، حتى ذهب ذلك من نفسي^(١)، فأسلمت وتزوجها.

(ت) أما اليهودية القاتلة (زينب بنت الحارث) فقد أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة، فأكل منها، فلما جيء بها إلى رسول الله ﷺ سألتها عن ذلك فقالت: أردت لأقتلك؟ قال: ما كان الله ليسلطك على ذلك^(٢).

وثمة رواية تفيد بأن اليهود شاركوا المرأة في وضع السم، فقد سألهم النبي ﷺ عدة أسئلة ومنها: (هل جعلتم في هذه الشاة سمًا؟ قالوا: نعم، قال: ما حملكم على ذلك؟ قالوا: أردنا إن كنت كاذبًا نستريح منك، وإن كنت نبيًا لم يضرّك)^(٣).

وهذه إحدى الكبر، والمؤشرات إلى عداوة اليهود وبغضهم للنبي ﷺ ومحاولة قتله أكثر من مرة، ولكن الله يحفظه ويعصمه من الناس، وهي واحدة من دلائل نبوته ﷺ.

من دلائل النبوة في خير:

وإذا كانت:

(أ) الشاة المسمومة) من دلائل نبوته ﷺ، وقد ورد أن أحد أعضاء الشاة أخبر النبي

ﷺ بذلك السم^(٤)، فإن من دلائل نبوته في خير:

(ب) إخباره ﷺ عن رجل من أهل النار: وقد كان في جيش المسلمين، ولا يدع للمشركين شاذة ولا فاذا إلا اتبعها يضربها بسيفه، حتى عجب الصحابة من

(١) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح: مجمع الزوائد (٢٥١/٩).

(٢) البخاري ح (٢٦١٧)، ومسلم (٢١٩٠) وابن هشام: السيرة (٤٧٠/٣) وعنده تسمية المرأة وتزوجها.

(٣) البخاري ح (٥٧٧٧)، وابن سعد: الطبقات (١١٥/٢ - ١١٦).

(٤) يُنظر: دلائل النبوة للبيهقي (٢٥٦/٤، ٢٦٤).



شجاعته، فقال لهم النبي ﷺ: هو من أهل النار؟ فتبعه رجل من المسلمين فرآه يستعجل الموت ويقتل نفسه، فجاء الرجل إلى النبي ﷺ وهو يقول: أشهد أنك رسول الله، وأخبره بنهاية الرجل كما أخبر ﷺ، وحينها قال ﷺ: إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة^(١)، وفي رواية أخرى: قال ﷺ لرجل معه يدعي الإسلام: هذا من أهل النار^(٢).

وقال ﷺ كذلك: (إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر)^(٣).

وكما تكشف هذه الروايات الصحيحة عن صدق نبوة محمد ﷺ وإطلاع الله له على المغيبات عن الناس، فهي تكشف كذلك أن الأمور ليست دائماً على ظواهرها، وأن الله مظهر دينه وناصر أوليائه، وقد يكون ذلك بالرجل الفاجر.

ت) وإخباره ﷺ عن العبد (مدعم) أن الشملة التي أصابها يوم خبير لتشتعل عليه ناراً، على حين قال الناس له - حين جاءه سهم غائر^(٤) فقتله -: هنيئاً لك الشهادة؟^(٥).

ث) وإخباره ﷺ وإشعاره باستشهاد (عامر بن الأكوع) ﷺ وهم في طريقهم إلى خبير (كما سبق).

ألا إنها النبوة يكشف الله بها لنبيه ﷺ من (الغيبات) ما لا يعلمها إلا هو، ومن ارتضى من رسول، لتكون برهاناً على رسالته، وداعية لتصديقه.

(١) البخاري ح (٤٢٠٢، ٤٢٠٧)، ومسلم ح (١١٢)، والبيهقي: دلائل النبوة (٤/٢٥٢).

(٢) البخاري ح (٤٢٠٣)، ومسلم ح (١١١).

(٣) البخاري ح (٤٢٠٣)، ومسلم ح (١١١).

(٤) يعني: لا يدرى من رمى به (الفتح ٧/٤٨٩).

(٥) البخاري ح (٤٢٣٤)، ومسلم ح (١١٥)، ودلائل النبوة للبيهقي (٤/٢٦٩ - ٢٧٠).

لطيفة في حيلة الحجاج بن علاط:

أسلم الحجاج بن علاط رضي الله عنه وشهد خبير ولم تعلم زوجته وأهلها بذلك - وهم بمكة - فلما كان النصر للمسلمين في خيبر، استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الذهاب إلى مكة وهو في حل مما يقول، فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم، فذهب إلى زوجته (ولم تكن مسلمة) فأوهمها أن محمداً قد هُزم بخيبر، وطلب إليها أن تجمع له مالاً ليشتري به من غنائم محمد وأصحابه فإنهم قد استبيحوا، ففشا الخبر بمكة ففرح المشركون واشتد على المسلمين، فلما جمع (الحجاج) ماله - وكان ذا مال - وأراد الخروج من مكة أرسل إلى العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم أن الخبر غير ذلك وقال له: أبشر يا أبا الفضل، وأخبره بافتتاح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر، وغنائمه، وإنما قال ما قال ليجمع ماله، فأخف عني أبا الفضل ثلاثاً، ثم اذكر ما شئت، فلما كان بعد ثلاث أتى العباس امرأة الحجاج فأخبرها بما فتح الله على رسوله صلى الله عليه وسلم وقال: فإن كان لك حاجة في زوجك فالحقي به، ثم فشا الخبر (الصحيح) في قريش فحزنوا، وردَّ الله ما كان بالمسلمين من كآبة، وخرجوا يسألون العباس وهو يبشرهم^(١).

ومن فقه هذه الحادثة: جواز الكذب إذا لم يتضمن ضرراً على الغير، وبه يتوصل إلى حقه^(٢)، والحادثة من أدلة القائلين بتقدم إسلام العباس رضي الله عنه، وإن بقي بمكة لمصلحة، وكان يخفي إسلامه^(٣)، وأثر الشائعات في الأفراد والمجتمعات وأهمية التثبت من الأخبار، قبل اتخاذ المواقف، فذلك عقل ورشد.

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/١٣٨-١٣٩) بسند صحيح، وعبدالرزاق في مصنفه ح (٩٧٧١) والفسوي في المعرفة والتاريخ (١/٥٠٧-٥٠٨) والبيهقي في سننه (٩/١٥١)، ودلائل النبوة (٤/٢٦٦-٢٦٧)، وابن كثير: البداية والنهاية (٤/٢٣)، وقال سند أحمد على شرط الشيخين، وانظر: إبراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية (ص ٣٥٦-٣٥٨).

(٢) ابن القيم: زاد المعاد (٣/٣٥٠).

(٣) يُنظر: مرويات إسلام العباس د. سليمان العودة.

لا أدري بأيهما أفرح:

وكما فرح رسول الله ﷺ ومن حقه أن يفرح والمسلمون معه بفتح خبير، والنصر على اليهود، واستثمار غنائمهم، فقد فرح ﷺ بقدوم المجموعة الأخيرة من المهاجرين في الحبشة، وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب ﷺ، وقد عبر عن فرحته بقوله: (ما أدري بأيهما أسرّ، بفتح خبير أو بقدوم جعفر)^(١).

ومع الفرح قسم النبي ﷺ للذين قدموا من الحبشة، وأشركهم في غنائم خبير، ولم يقسم لأحد لم يشهد الفتح غيرهم^(٢)، ولعله تقدير لمن حبسهم العذر، ومكافأة لهؤلاء نفر من المسلمين الذين مكثوا في أرض البعداء والبغضاء (الحبشة) - كما عبّرت (أسماء بنت عميس) زوجة (جعفر)^(٣) رضي الله عنهما - ما يقرب من خمسة عشر عامًا، في سبيل الله بعيدًا عن الأهل والوطن.

محمد ﷺ رحمة وشفاء:

فهو رحمة للعالمين بدعوته ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، واستمر يمارس هذه الرحمة بدعوته للحق حتى في ساحات الوغى، ومع أشد الأعداء (اليهود)، فكانت وصيته لعلي ﷺ حين سلّمه الراية في خبير: (ادعهم إلى الإسلام)^(٤)، وفي رواية قال علي ﷺ: يا رسول الله، علام أقاتل؟ قال: حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله^(٥).

(١) رواه أبو داود في سننه (٣٩٢/٥)، وابن هشام: السيرة (٧/٤)، والحاكم في مستدركه (٢٢١/٣) وصححه وقال الذهبي مرسل، ومال إلى تحسينه الألباني في تعليقه على فقه السيرة للغزالي (ص ٣٦٧)، د. مهدي رزق: السيرة (ص ٥٠٨).

(٢) البخاري ح (٤٢٣٣)، ومسلم ح (٢٥٠٢).

(٣) البخاري ح (٤٢٣٠)، ومسلم ح (٢٥٠٣).

(٤) البخاري ح (٤٢١٠)، ومسلم ح (٢٤٠٦).

(٥) مسلم ح (٢٤٠٥)، وابن سعد: الطبقات (١١٠/٢).

ومحمد ﷺ شفاء في ريقه ونفثه، وحين اشتكى (علي ﷺ) عينيه، بصق فيهما رسول الله ﷺ ودعاه، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع^(١).

وسلمة بن الأكوع ﷺ رأى في ساقه أثر ضربة، فقيل له: ما هذه؟ قال: هذه ضربة أصابتها يوم خيبر، فأتيت النبي ﷺ فنفث فيه ثلاث نفثات، فما اشتكيت حتى الساعة^(٢).

وهكذا جمع الله لنبيه محمد ﷺ في هذه الغزوة (خيبر) من صنوف المغانم والنعم والآلاء ما أكد له وللمسلمين أن (صلح الحديبية) كان فتحًا مبيّنًا، ففي هذه الغزوة خُضدت شوكة اليهود وقضى على وجودهم السياسي في مركز تجمعهم الكبير (بخيبر)، وهم الجيب الذي طالما آذى المسلمين وأغرى وألب أعداءهم عليهم، وتحقق من نصر الله وغلبة الحق وزهوق الباطل، واجتماع شمل المسلمين، وارتفع عَلم النبوة، وكثرت دلائلها، وزاد أمن المسلمين من مكر الأعداء، وطاب عيشهم، ونما اقتصادهم، وكفَّ أيدي الناس عنهم وهداهم صراطًا مستقيمًا، فلله الحمد في السراء والضراء، وعشيًا وحين تصبحون.

وفي حديث أبي موسى ما يؤكد فرح المسلمين وشكرهم وذكرهم لخالقهم، وهم عائدون من غزوة خيبر، حيث أشرفوا على وادٍ فرفعوا أصواتهم بالتكبير والتهليل (الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله)، فأرشدهم أن (اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمًّا ولا غائبًا، إنكم تدعون سميغًا بصيرًا، وهو معكم)، وزادهم رسول الله ﷺ كثرًا من كنوز الجنة (لا حول ولا قوة إلا بالله)^(٣)، وقد أكد ابن حجر أن ذلك وقع حال رجوع المسلمين من خيبر^(٤).



(١) البخاري ح (٤٢١٠)، ومسلم ح (٢٤٠٦).

(٢) البخاري ح (٤٢٠٦).

(٣) البخاري ح (٤٢٠٥، ٦٦١٠)، ومسلم ح (٢٧٠٤).

(٤) الفتح (٧/٤٧٠، ١١/٥٠١).



عمرة القضاء^(١)

وهي العمرة التي قضاها النبي ﷺ والمسلمون عن العمرة التي صُدّوا عنها في الحديبية^(٢)، وكانت في ذي القعدة سنة سبع^(٣)، ولم يتخلف أحد من المسلمين الذين شهدوا الحديبية عن هذه العمرة، إلا من استشهد بخيبر أو مات، وخرج معه قوم من المسلمين عُمَارًا، فكانوا في عمرة القضية ألفين^(٤)، وحيث اشترطت قريش عليهم عدم حمل السلاح إلا السيف في القرب، وألا يقيم بها إلا ما أحبوا، ودخلها ﷺ كما صالحهم، وخرج بعد أن أقام بها ثلاثًا^(٥).

ماذا حمل من السلاح؟

قال ابن سعد: وحمل رسول الله ﷺ السلاح البيض والدروع والرماح، وقاد مائة فرس، وحين نزل رسول الله ﷺ (بمر الظهران) قدّم السلاح إلى (بطن يأجج) حيث يُنظر إلى أنصاب الحرم، وخلف عليه (أوس بن خولي الأنصاري) في مائة رجل، وخرجت قريش من مكة إلى رؤوس الجبال، وخرج رسول الله ﷺ على راحلته (القصوى) والمسلمون متوشحون السيوف محدقون برسول الله ﷺ يُلبّون، فدخل من الثنية التي تطلعه على الحجون، وعبد الله بن رواحة أخذ بزمام راحلته ويقول:

(١) وتسمى كذلك: القضية، والقصاص، والصلح (ابن حجر: الفتح ٧/٥٠٠).

(٢) ابن هشام: السيرة (٤/١٩).

(٣) ابن هشام السيرة (٤/١٨) وهذا رأي جمهور أهل السير، ورواه الفسوي بإسناد حسن (الفتح ٧/٥٠٠).

(٤) ابن سعد: الطبقات (٢/١٢٠).

(٥) البخاري (٤٢٥٢).

خلوا بني الكفار عن سبيله
 خلوا فكل الخير مع رسوله
 نحن ضربناكم على تأويله
 كما ضربناكم على تنزيله
 ضرباً يُزيل الهام عن مقيله
 ويذهل الخليل عن خليله
 يارب إني مؤمن بقبيله^(١).

وقد خاف المسلمون على رسول الله ﷺ حين اعتمر هذه العمرة من المشركين
 وغلمانهم، فستروا رسول الله ﷺ مخافة أن يؤذوه^(٢).

الرمل في الأشواط الثلاثة لماذا؟

كما احتاط الرسول ﷺ والمسلمون من تهمة قريش ودعواهم (أنه يقدم عليكم
 وقد هنتهم حمى يثرب)، فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة وأن يمشوا ما
 بين الركنين، ولم يمنعه أن يأمرهم بالرمل في الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم، وإنما
 رملوا لأن المشركين من قِبَلِ (قُعَيْقَعَانَ)^(٣)، وعند مسلم: فجلس المشركون مما يلي
 الحِجْرِ^(٤).

(١) الطبقات: (١٢١/٢).

(٢) البخاري ح (٤٢٥٥).

(٣) البخاري (٤٢٥٦)، وقُعَيْقَعَانَ: جبل بمكة شمال الكعبة، قال ابن حجر في الفتح: ومن كان به لا
 يرى من بين الركنين.

(٤) مسلم ح (١٢٦٦).



فلما رأت قريش ذلك منهم قالوا: ما وهنتهم^(١)، وفي رواية مسلم: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم، هؤلاء أجلد من كذا وكذا^(٢).

طلب المشركين من المسلمين مغادرة مكة بعد ثلاث:

ولا شك أن المشركين باتوا ينتظرون الثلاثة الأيام (المتفق عليها) بفارغ الصبر، فلما انتهت، جاؤوا^(٣) إلى علي عليه السلام وقالوا: قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج النبي صلى الله عليه وآله وتبعته ابنة حمزة تنادي يا عم، يا عم، فتناولها عليٌّ فأخذ بيدها وقال لفاطمة رضي الله عنها: دونك ابنة عمك حمليها، واختصم فيها علي، وزيد، وجعفر، ثم قضى بها لجعفر - حيث خالتها تحته - وقال: الخالة بمنزلة الأم، وقال للثلاثة خيراً^(٤).

وعند ابن سعد: أن رسول الله صلى الله عليه وآله دخل الكعبة فلم يزل بها إلى الظهر، ثم أمر بلالاً عليه السلام فأذن على ظهر الكعبة، وأقام بمكة ثلاثاً، وتزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية^(٥).

الزواج بميمونة رضي الله عنها:

أما زواجه بميمونة في عمرة القضاء، فقد اتفق عليه الشيخان عن ابن عباس، فعند البخاري تزوج بها وهو محرم، وبنى بها وهو حلال، وماتت بسرف^(٦).

(١) ابن سعد: الطبقات (٢/١٢٣).

(٢) ح (١٢٦٦).

(٣) يقال الذي جاءه: حويطب بن عبدالعزيز في نفر من قريش (ابن هشام: السيرة ٤/٢٢) ويُقال سُهيل بن عمرو، وحويطب (ابن سعد: الطبقات ٢/١٢٢).

(٤) البخاري ح (٤٢٥١).

(٥) الطبقات (٢/١٢٢).

(٦) ح (٤٢٥٨)، وماتت ميمونة رضي الله عنها سنة ثلاث وستين، ويقال سنة ستين (كما قال ابن كثير في البداية والنهاية).

وعند مسلم: تزوجها وهو محرم - من رواية ابن عباس -^(١)، ومن حديث ميمونة أنه تزوجها وهو حلال^(٢).

قال ابن القيم: وأما قول ابن عباس أن رسول الله ﷺ تزوج ميمونة وهو محرم وبنى بها وهو حلال، فمما استدرك عليه، وعُدَّ من وهمه، ما تزوجها إلا بعدما حلَّ، قال: وحُمل قوله (وهو محرم) على أنه تزوجها في الشهر الحرام، لا في حال الإحرام^(٣).

وهكذا أتم الله لنبيه وعده، وعوّض المسلمين في هذه العمرة ما فاتهم في صلح الحديبية، قال ابن هشام: فأنزل الله ﷻ عليه: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُخْلِقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧]، يعني خبير^(٤).



(١) ح (١٤١٠).

(٢) ح (١٤١١).

(٣) زاد المعاد: (٣/٣٧٢-٣٧٤).

(٤) ابن هشام: السيرة (٢٣/٤).



بين غزوة خيبر وعمرة القضاء

لم تتوقف حركة رسول الله ﷺ والمسلمين عن الدعوة ونشر الإسلام، فهي رسالتهم وهدفهم منذ نزل على النبي ﷺ ﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّثِرُ ﴿١﴾ فَمُ قَأَنْذِرُ﴾ [المدثر: ١، ٢]، ولكن هذه الحركة والدعوة نشطت أكثر بعد صلح الحديبية - كما سلف - والمتأمل في سياقات السيرة وأحداثها يقف على عدد من السرايا والأحداث في هذه المدة، أكتفي بالوقوف على حدثين مهمين:

سرية أبي بكر الصديق ﷺ إلى (نجد):

ففي صحيح مسلم من حديث سلمة بن الأكوع ﷺ قال: غزونا (فزارة) وعلينا أبو بكر ﷺ أميراً، فلما كان بيننا وبين الماء ساعة أمرنا فعرّسنا (نزلنا آخر الليل)، ثم شنّ الغارة فورّد الماء، فقتل من قتل عليه وسبى، وأنظر إلى عُنق من الناس (جماعة) فيهم الذراري (نساء وصبية) فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل، فرميت بسهم بينهم وبين الجبل، فلما رأوا السهم وقفوا، فجئت أسوقهم، وفيهم امرأة من بني فزارة ومعها ابنة لها من أحسن العرب، فسقتهم حتى أتيت بهم أبا بكر، فنفلني أبو بكر ابنتها، فقدمنا المدينة وما كشفتُ لها ثوباً، فلقيني رسول الله ﷺ في السوق، فقال: يا سلمة هب لي المرأة، فقلت: يا رسول الله، والله لقد أعجبتني، وما كشفتُ لها ثوباً، ثم لقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق فقال: يا سلمة هب لي المرأة لله أبوك، فقلت: هي لك يا رسول الله، فوالله ما كشفتُ لها ثوباً (يعني لم أواقعها)، فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، ففدى بها ناساً من المسلمين كانوا أسرى بمكة (في أيدي المشركين)^(١).

(١) مسلم ح (١٧٥٥).

وهكذا أورد الخبر ابن سعد، وحدد زمنها (في شعبان سنة سبع للهجرة)، ومكانها (بنجد ناحية ضريه)، ومن أرسلت إليه (بني كلاب بنجد)^(١).

وحين يعجبك تنازل (سلمة) عن هذه الجارية الجميلة مع تعلقه بها، لأجل رسول الله ﷺ وابتغاء الأجر من الله، يعجبك أكثر تصرف رسول الله ﷺ فلم يختص بها لنفسه، بل أدرك وعاش هموم المسلمين المأسورين بمكة وسعى في خلاصهم من المشركين، حيث بعث هذه الجارية إليهم ففدى بها ناساً من المسلمين، وكذلك يعيش رسول الله ﷺ هم أصحابه، ويحرص على فك الأسير منهم مهما كان بعده عنهم، أو انشغاله بغيرهم، إنه الرحمة المهداة، فأين من يتأسى به ويُتقذ أو يفكر في أسرى المسلمين أيًا كان موقعهم، ومهما كانت معاناتهم؟

بعث أسامة إلى الحُرقات من جهينة:

روى البخاري ومسلم من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى (الحُرقة) فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشينا قال: لا إله إلا الله، فكفَّ الأنصاري فطعنته برمحي حتى قتلتها، فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ فقال: يا أسامة أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟ قلت: كان متعوذاً (خوفاً من السلاح)، فما زال رسول الله ﷺ يكررها عليّ حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم^(٢).

قال ابن حجر: وهذه السرية يقال لها سرية غالب بن عبد الله الليثي، وكانت في رمضان سنة سبع فيما ذكره ابن سعد عن شيخه، وابن إسحاق في المغازي^(٣).

(١) الطبقات (١١٧/٢ - ١١٨).

(٢) البخاري ح (٤٢٦٩ - ٦٨٧٢)، ومسلم ح (٩٦ - ٩٧).

(٣) الفتح (١٢/١٩٥).



وقال ابن سعد: بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله إلى بني عُوال، وبني عبد بن ثعلبة وهم بـ(الميفعة) وهي وراء بطن نخل إلى (النقرة) قليلاً بناحية نجد، في رمضان سنة سبع من مهاجره ﷺ^(١).

ومن أعظم دروس هذه السرية: حرمة الدماء، وعدم التساهل بالقتل حتى وإن ظهر للقاتل عدم إسلام المقتول، فالمسلم مكلف بالعمل بالظاهر، وأما القلب فلا سبيل لما فيه^(٢).

وإذا ورد نهي النبي ﷺ عن قتل من قاتل المسلمين وأوجع فيهم، حيث ورد عند مسلم: (كان رجل من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين قصد له فقتله، فلما قصده أسامة قال: لا إله إلا الله، وقال أسامة للنبي ﷺ: إنما قتلته لأنه أوجع في المسلمين وقتل فلاناً وفلاناً، وسمى له نفرًا، وحينها قال له النبي ﷺ: وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟!)^(٣)، فكيف بمن هو دون ذلك؟ ممن يُقتل بالظن أو الريية أو نحوها من تأويلات فاسدة؟ وقد تحسر وندم أسامة ﷺ على فعلته حتى طلب من النبي ﷺ أن يستغفر له، وقال: تمنيت أني أسلمت يومئذ^(٤).

قال ابن بطال: كانت هذه القصة سبب حلف أسامة ألا يقاتل مسلمًا بعد ذلك، ومن ثم تخلف عن عليّ في الجمل وصفين^(٥).

ولا شك أن قضية الدماء عظيمة عند الله، (فأول ما يقضى بين الناس في الدماء)^(٦)، وثمة سرايا أخرى - في هذه المدّة - أعرضت عنها بغية الاختصار.

(١) الطبقات (١١٩/٢).

(٢) الفتح (١٩٦/١٢).

(٣) مسلم ح (٩٧).

(٤) البخاري ح (٤٢٦٩)، ومسلم ح (٩٦، ٩٧).

(٥) ابن حجر: الفتح (١٩٦/١٢).

(٦) البخاري ح (٦٨٦٤)، ومسلم ح (١٦٧٨).

إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد رضي الله عنهما:

هذان رجلان عظيمان، ولهما مكانتهما في قريش - وإن كانا في عداد شبابها لا شيوخها - وشاء الله وقدر أن يتأخر إسلامهما لكنهما عوضاً عما فاتهما من السبق بالإسلام بعدما أسلما.

١ - عمرو وإسلامه:

قال الذهبي عن (عمرو): داهية قريش، ورجل العالم، ومن يُضرب به المثل في الفطنة والدهاء والحزم، هاجر إلى رسول الله ﷺ مسلماً في أوائل سنة ثمان، مرافقاً لخالد بن الوليد، وصاحب الكعبة عثمان بن طلحة، وفرح النبي ﷺ بقدمهم وإسلامهم، ثم قال: وكان من رجال قريش رأياً، ودهاءً، وحزماً، وكفاءةً، وبصراً بالحرب، ومن أشرف ملوك العرب، ومن أعيان المهاجرين، والله يغفر له ويعفو عنه، ولولا حبه الدنيا ودخوله في الأمور لصلح للخلافة، فإن له سابقة ليست لمعاوية، وقد تأمر على مثل أبي بكر وعمر لبصره بالأمور ودهائه^(١).

أما قصة إسلام عمرو فيرويها ابن إسحاق وعنه أحمد، وخلاصتها: أن عمراً بعد ما انصرف من الخندق أحسّ بأن أمر محمد ﷺ يعلو، فجمع رجالاً من قريش فعرض عليهم اللحوق بالنجاشي فوافقوه وجمعوا هدايا للنجاشي فقدموا عليه، وعنده (عمرو بن أمية الضمري) بعثه النبي ﷺ من أجل (جعفر) وأصحابه، فطلب (عمرو) من النجاشي أن يأذن له بقتل رسول رسول الله ﷺ، فغضب النجاشي وضرب أنفه حتى ظننت أنه كسره، ولو انشقت لي الأرض لدخلتها فرقاً منه، ثم قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله؟ فقلت: هو كذلك أيها الملك؟ قال: ويحك يا عمرو! أطعني واتبعه، فوالله إنه لعلى الحق، وليظهرنّ على من

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٥ - ٥٩).



خالفه، قلت: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يده فبايعته على الإسلام، وكتمت عن أصحابي إسلامي، ثم خرجت عامدًا إلى رسول الله ﷺ لأسلم، فلقيت خالد بن الوليد - وذلك قبيل الفتح - وهو مقبل من مكة، فقلت: أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المنسِم (أي استبان الطريق)، وإن الرجل لنبِي، أذهب لأسلم، فحتى متى؟ فقلت: وأنا ما جئت إلا لأسلم، فقد منا المدينة على رسول الله ﷺ، فتقدم خالد فأسلم وبايع، ثم دنوت فقلت يا رسول الله، إني أبايعك على أن يُغفر لي ما تقدم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخر، قال: يا عمرو بايع فإن الإسلام يجب ما قبله، والهجرة تجب ما كان قبلها، فبايعته ثم انصرفت^(١).

وهنا رفع ملامة، ودفع طعون يرمى بها (عمرو) ﷺ من أقوام لا خلاق لهم وقد جعلوا من الطعن في الصحابة دينًا لهم، فقد أثنى عليه رسول الله ﷺ وشهد له بالخيرية، فقال ﷺ حين بعثه على جيش وقال له: إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك، وإني أرغب لك من المال رغبة صالحة، فقال عمرو: يا رسول الله، ما أسلمت من أجل المال، بل أسلمت رغبة في الإسلام، فقال ﷺ: يا عمرو (نعم بالمال الصالح للمرء الصالح)^(٢).

كما شهد له بالإيمان، فقد أخرج أحمد والنسائي بسند حسن عن عمرو قال: فزع أهل المدينة فزعًا فتفرقوا، فنظرتُ إلى سالم - مولى أبي حذيفة - في المسجد عليه

(١) انظر: السيرة لابن هشام (٣/٣٨٤ - ٣٨٦)، والمسند (٤/١٩٨)، مغازي الواقدي (٢/٧٤١ - ٧٤٥)، ورجاله ثقات خلا راشد مولى حبيب فلم يوثقه غير ابن حبان، كما قال محقق سير أعلام النبلاء (٣/٦٠)، وأخرج البغوي نحوه بسند جيد كما قال ابن حجر في الإصابة (٧/١٢٣)، وفي مسلم قصة إسلامه ومبايعته دون ذكر النجاشي ح (١٢١)، وروى بعضه الحاكم في مستدركه (٣/٢٩٨).

(٢) أخرجه أحمد (٤/١٩٧ - ٢٠٢)، بسند حسن كما قال ابن حجر: الإصابة (٧/١٢٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٩)، والحاكم في مستدركه وصححه ووافقه الذهبي (٢/٢).

سيف مخفياً، ففعلت مثله، فخطب النبي ﷺ فقال: ألا يكون فزعكم إلى الله ورسوله؟ ألا فعلتم كما فعل هذان الرجلان المؤمنان؟^(١).

وشهد له بالصدق ودعا له فقال - في سرية خرج بها-: يرحم الله عمرًا، فتذاكرنا كل من اسمه (عمرو)، ثم نعس أخرى وقال: يرحم الله عمرًا، ثم نعس الثالثة فاستيقظ وقال: رحم الله عمرًا، فقلنا يا رسول الله: من عمرو وهذا؟ قال: عمرو بن العاص، قلنا: وما شأنه؟ قال: كنت إذا ندبت الناس إلى الصدقة جاء فأجزل منها، فأقول يا عمرو: أنى لك هذا؟ فقال: من عند الله، قال: وصدق عمرو، إن لعمر و عند الله خيراً كثيراً^(٢)، ويكفي عمرًا منقبة أن رسول الله ﷺ ولاه - بعد إسلامه - غزاة ذات السلاسل، وأمدته بأبي بكر وعمر وأبي عبيدة بن الجراح ﷺ، وكان عليهم أميراً^(٣).

فمن يكون أميراً على مثل أبي بكر وعمر وأبي عبيدة ﷺ؟

٢- خالد سيف الله:

أما خالد بن الوليد ﷺ فسيف الله المسلول كما وصفه النبي ﷺ^(٤)، وقد سلّه الله على الكافرين والمنافقين كما أخبر النبي ﷺ^(٥).

وقال الذهبي عن خالد: سيف الله تعالى، وفارس الإسلام، وليث المشاهد،

(١) المسند (٢٠٣/٤)، الإصابة (١٢٤/٧)، وانظر: سير أعلام النبلاء (٦٥/٣).

(٢) أخرجه أحمد، وعنه الذهبي في السير (٦٥/٣)، وقال محققه: رجاله ثقات، والفسوي (٥١٢/٢)، وذكره البخاري في تاريخه (٤٠/٧) والحاكم في مستدركه (٤٥٥/٣) وصححه ووافقه الذهبي، وأورده ابن حجر في الإصابة (٤٧/٧).

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٥٩/٣) ابن حجر: الإصابة (١٢٣/٧).

(٤) البخاري ح (٤٢٦٢، ٣٧٥٧).

(٥) رواه أحمد في مسنده ح (٤٣)(٨/١)، والحاكم في مستدركه وصححه (٢٩٨/٣)، وقال الهيثمي:

رواه أحمد والطبراني بنحوه ورجالهما ثقات (مجمع الزوائد ٩/٣٤٨ - ٣٤٩).

السيد الإمام الأمير الكبير، قائد المجاهدين أبو سليمان القرشي، وابن أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث^(١).

وقد سبق بيان إسلامه مع عمرو بن العاص - قبيل الفتح - وإن كان الحاكم ذكر رواية تفيد إسلامه قبل خيبر^(٢).

وقال ابن حجر: أسلم سنة سبع بعد خيبر، وقيل قبلها، ووهم من زعم إسلامه سنة خمس^(٣).

وعن سبب إسلام خالد وهجرته قال ابن عبد البر: والصحيح أن أخاه (الوليد بن الوليد) شهد مع النبي ﷺ عمرة القضية، وكتب إلى أخيه (خالد)، وكان خالد قد خرج من مكة فأرًا حتى لا يرى رسول الله ﷺ وأصحابه بمكة كراهة الإسلام وأهله، فسأل رسول الله ﷺ الوليد عن خالد وقال: لو أتانا لأكرمناه، ومثله يجهل الإسلام؟ فكتب بذلك الوليد إلى أخيه خالد، فوقع الإسلام في قلب خالد، وكان سبب هجرته^(٤).

وعن فرحة النبي ﷺ بإسلام عمرو، وخالد، واستثماره لهما، وثقته بقيادتهما الحربية، قال عمرو: ما عدل بي رسول الله ﷺ وبخالد أحدًا في حربه منذ أسلمنا^(٥).

وملاحمه الجهادية مع الفرس والروم وحروب المرتدين لا تخفى، وقد أشغله الجهاد عن القرآن - كما قال -^(٦).

(١) سير أعلام النبلاء (١/٣٦٦).

(٢) المستدرک (٣/٢٩٧).

(٣) الإصابة (٣/٧٠).

(٤) الاستيعاب بهامش الإصابة (١١/٣٧-٣٨) والإصابة (١٠/٣١٦) ونسبه للواقدي.

(٥) رواه الطبراني في الأوسط والكبير ورجاله ثقات كما قال الهيثمي (مجمع الزوائد ٩/٣٥٠)، والذهبي: سير أعلام النبلاء (١/٣٦٩).

(٦) رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي: (مجمع الزوائد ٩/٣٥٠) وابن حجر: المطالب العالية (٤٠٤١)، والإصابة (٣/٧٣).

وقد تعلق قلب خالد بالجهاد، وصدق سيفه، وعلت همته في الجهاد حتى قال: ما من ليلة تُهدى إلى بيتي فيها عروس أنا لها محبٌّ، وأُبشر فيها بـغلام، بأحبّ إلي من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أُصَبِّحُ بها العدو^(١).

وشهود خالد (مؤتة) وقيادته للجيش فيها - بعد استشهاد الأمراء الثلاثة - في جمادى الأولى سنة ثمانٍ، يؤكد ثقة النبي ﷺ فيه بعد إسلامه، ولهذا قال الذهبي: هاجر مسلماً في صفر سنة ثمانٍ، ثم سار غازياً، فشهد غزوة مؤتة، وتأمّر بعد موت الثلاثة، إلى قوله: ولم يبقَ في جسده قيد شبر إلا وعليه طابع الشهداء^(٢).

وبرغم عزل عمر رضي الله عنه لخالد رضي الله عنه عن قيادة الجيش في الشام، فقد برر ذلك بقوله: لأنزِعَنَّ خالدًا حتى يُعَلِّمَ أن الله إنما ينصر دينه بغير خالد^(٣).

وزكّاه بعد وفاته فقال: لو أدركت خالدًا ثم وليته فقدمت على ربي لقلت: سمعت عبدك وخليلك يقول: خالد سيف من سيوف الله سلّه الله على المشركين^(٤).



(١) رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح: (مجمع الزوائد ٩/ ٣٥٠)، والذهبي: سير أعلام النبلاء (١/ ٣٧٥)، وابن حجر: المطالب العالية (٤٠٣٩).

(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٦٦ - ٣٦٧).

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١/ ٣٧٨)، وانظر أسباباً أخرى لعزله، ابن حجر: الإصابة (٣/ ٧١ - ٧٤).

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١/ ٣٧٢ - ٣٧٣) ورجاله ثقات خلا أبا العجماء.. كما قال محققا السير، والحديث مرفوع أخرجه أحمد ح (٤٣).



سرية أو غزوة مؤتة^(١)

وكانت في جمادى سنة ثمان^(٢)، ويُقال إن سببها أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي إلى ملك بصرى بكتاب، فلما نزل (مؤتة) عرض له (شرحبيل بن عمرو الغساني) فقتله، ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ وندب الناس للخروج^(٣).

ولعل إخضاع القبائل العربية والدويلات الموالية للروم، وتوسيع رقعة الدولة الإسلامية، وسبق الروم للتحرك في المنطقة، وإشعارهم بقوة المسلمين، أسباب أخر وبعُد عميق لهذه السرية^(٤).

لماذا ثلاثة أمراء؟

ونظرًا لبعُد الشُّقة، وقوة الروم، وكثرة الموالين لهم، فقد عين النبي ﷺ ثلاثة أمراء لمؤتة وقال: أمير الناس زيد بن حارثة، فإن قُتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قُتل فعبد

(١) سُميت سرية لأن النبي ﷺ لم يشهدا، وهكذا سماها ابن سعد في الطبقات (١٢٨/٢)، وسماها بعضهم (غزوة) كما صنع البخاري في تبويبه للغزوة ونص عليه في الحديث رقم (٤٢٦١)، ومسلم ح (١٧٥٣) وكذلك ابن إسحاق: ابن هشام: السيرة (٢٣/٤) والواقدي في المغازي (٧٥٥/٢)، وابن القيم: زاد المعاد (٣٨١/٣)، وجمع بينهما ابن كثير في السيرة (٤١٢/٦)، وإنما سُميت غزوة خلافاً لغيرها من سرايا بسبب كثرة عدد الجيش، وتعدد الأمراء وحصول القتال فيها (صحيح الأثر من سيرة خير البشر: د. السلمي وزملاؤه ص ٢٤٥).

(٢) ابن هشام: السيرة (٢٣/٤)، وابن سعد: الطبقات (١٢٨/٢)، قال ابن حجر: وهو قول عروة وموسى بن عقبة وغيرهم من أهل المغازي، إلا ما ذكر عن خليفة في تاريخه أنها سنة سبع (الفتح ٥١١/٧).

(٣) الواقدي: المغازي (٧٥٥/٢)، وابن سعد: الطبقات (١٢٨/٢)، وابن حجر: الفتح (٥١١/٧).

(٤) انظر: د. أكرم العمري (المجتمع المدني: الجهاد ضد المشركين ١٦٥).

الله بن رواحة^(١)، وزاد الواقدي وابن سعد: فإن قُتِلَ ابن رواحة فليترص المسلمون بينهم رجلاً فيجعلوه عليهم^(٢).

وهل يُعَدُّ ذلك من دلائل نبوته ﷺ كما قال اليهودي (النعمان بن فُنْحُص): أبا القاسم، إن كنت نبياً فسميت من سميت قليلاً أو كثيراً أصيبوا جميعاً، إن الأنبياء من بني إسرائيل كانوا إذا سَمُوا الرجل على القوم فقالوا: إن أصيب فلان ففلان، فلو سَمُوا مائة أصيبوا جميعاً، ثم جعل اليهودي يقول لزيد: اعهد فإنك لا ترجع أبداً إن كان محمد نبياً، فقال زيد: أشهد أنه نبي صادق بار؟^(٣).

وداع وبكاء:

وَدَّعَ المسلمون أمراء وجيش مؤتة، وبكى عبد الله بن رواحة ﷺ، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أما والله ما بي حبُّ الدنيا ولا صباة بكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله ويذكر فيها النار: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مریم: ٧١]، فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود؟ فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين، فقال عبد الله بن رواحة:

لكني اسأل الرحمن مغفرة

وضربة ذات فَرْعٍ تقذف الزبدا

أو طعنة بيدي حران مُجْهزة

بحربة تُنفذا الأحشاء والكبدا

(١) البخاري ح (٤٢٦١) وابن هشام: السيرة (٢٤/٤).

(٢) المغازي (٧٥٦/٢) والطبقات لابن سعد (١٢٨/٢).

(٣) الواقدي في المغازي (٧٥٦/٢)، وعنه البيهقي في دلائل النبوة (٣٦٢/٤)، والذهبي: تاريخ الإسلام (السيرة ص ٤٨٢)، وابن كثير: البداية والنهاية (٤١٣/٦).

حتى يقال إذا مروا على جدثي

أرشدته الله من غاز وقد رشدا^(١).

فارق العدد بين الجيشين؟

وتحرك الجيش المسلم باتجاه (مؤتة) وهي بأدنى البلقاء، والبلقاء دون دمشق، كما قال ابن سعد^(٢)، وهم ثلاثة آلاف^(٣)، حتى إذا بلغوا (معان) من أرض الشام، بلغهم أن (هرقل) قد نزل (مآب) من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من لحم، وجذام، والقَيْن، وبَهْرَاء، وبلي، مائة ألف منهم عليهم رجل من بلي يقال له (مالك بن زافلة)، فأقاموا بـ(معان) ليلتين يفكرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا، فيما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له، فشجع الناس عبد الله بن رواحة وقال: يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون، الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسينين: إما ظهور وإما شهادة، فقال الناس: صدق ابن رواحة، فمضوا حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية يُقال لها (مشارف) ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى قرية يُقال لها (مؤتة) فالتقى الناس عندها، وجعلوا على ميمنتهم (قُطبة بن قتادة) ﷺ، وعلى يسرتهم (عُباد بن مالك) ﷺ، فقاتل (زيد) ﷺ) براية رسول الله ﷺ حتى شاط في رماح القوم (استشهد) ثم أخذها (جعفر) ﷺ) فقاتل حتى إذا لحمه القتال اقتحم عن

(١) السيرة لابن هشام (٤/٢٤ - ٢٥)، والواقدي (٢/٧٥٦ - ٧٥٧)، وابن كثير: البداية والنهاية (٤١٣/٦).

(٢) الطبقات: (٢/١٢٨).

(٣) ابن هشام: السيرة (٤/٢٤)، وابن سعد: الطبقات (٢/١٢٨).

فرسه فعقرها، فقاتل حتى قُتل (استشهد)، وهو أول رجل من المسلمين عقر فرسه، ثم أخذها (ابن رواحة رضي الله عنه) فتقدم وهو على فرسه، ثم جعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد ثم قال:

أقسمت يا نفسُ لتنزلنَّه
لتنزلنَّ أو لتُكرهنَّه
إن أجلب الناس وشدوا الرِّنة
مالي أراك تكرهين الجنة
إلى قوله:

يا نفس إلا تقتلي تموتي
هذا حمام الموت قد صليتني
وما تمنيت فقد أعطيت
إن تفعلي فعلهما هُديت

ثم قاتل حتى قُتل (استشهد)، ثم أخذ الراية (ثابت بن أقرم) فقال: اصطلحوا على رجل منكم؟ قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فدافع القوم وحاش بهم، ثم انحاز وانحيز عنه، حتى انصرف الناس^(١).

(١) ابن هشام: السيرة (٤/٢٦، ٣٢) عن ابن إسحاق بسند بعضه حسن كما قال أكرم العمري (الجهاد ضد المشركين ١١٧) وانظر ابن سعد: الطبقات (٢/١٢٩) وابن حزم: جوامع السيرة (ص ٢٢٠-٢٢٢) والطبراني ورجاله ثقات كما قال الهيثمي: مجمع الزوائد (٦/١٥٨ - ١٥٩).

الرسول ﷺ يخبر عن شهداء مؤتة وهو في المدينة:

وفي البخاري: أن رسول الله ﷺ أخبر عن الواقعة وقتل الأمراء الثلاثة وهو في المدينة، فقد نعى زيداً، وجعفر، وابن رواحة قبل أن يأتيهم خبرهم، وقال: أخذ الراية زيداً فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب، -وعيناه تذر فان- ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم^(١).

بلاء المسلمين ولمن كانت الغلبة؟

لقد أبلى المسلمون -في هذه الحادثة- بلاءً حسناً، وسطروا بدمائهم من ضروب الشجاعة وقوة الإيمان والثبات ما يُعد معجزة في التاريخ، وحيث وجد في جسد (جعفر) ﷺ بضغاً وتسعين من طعنة ورمية^(٢)، ودُق في يدي خالد ﷺ تسعة أسياف وصبرت في يده صحيفة يمانية^(٣)، فذلك دليل البلاء الحسن ومؤشر للنصر والفتح، أيًا كان نوع هذا النصر بين قوتين غير متكافئتين، وإذا كان مجرد (الانحياز) الذي عبّر عنه ابن إسحاق بقوله: (فلما أخذ الراية خالد دافع القوم وحاش بهم، ثم انحاز وانحيز عنه حتى انصرف بالناس^(٤))، نوعاً من النصر، فإنَّ عددًا من أصحاب السير صرّحوا بانتصار المسلمين في مؤتة أمثال: موسى بن عقبة، والواقدي، والزهري^(٥)، ورجحه البيهقي^(٦)، ومال إليه وعظّمه ابن كثير وهو يشير إلى قلة عدد شهداء المسلمين (اثنا عشر شهيداً)، حيث قال: وهذا عظيم جداً أن يتقاتل جيشان متعاديان في الدين، وعدة

(١) ح (٤٢٦٢).

(٢) البخاري ح (٤٢٦١).

(٣) البخاري ح (٤٢٦٥ - ٤٢٦٦).

(٤) ابن هشام: السيرة (٣٢/٤).

(٥) ابن حجر: الفتح (٥١٣/٧)، وإبراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية (ص ٣٩٢).

(٦) دلائل النبوة (٤/٣٧٥).

المؤمنين ثلاثة آلاف، وعدوهم مائتا ألف، ثم لا يُقتل من المسلمين إلا اثنا عشر رجلاً، وقد قُتل من المشركين خلق كثير^(١).

وهو ما يُفهم من رواية البخاري: (حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم)^(٢).

أما ابن سعد فهو وإن كان أشار إلى هزيمة المسلمين بقوله: (وانكشف الناس وكانت الهزيمة، ونقل عن أبي عامر رضي الله عنه قوله: ثم انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتها قط حتى لم أر اثنين جميعاً)^(٣)، إلا أن ذلك يمكن أن يُفسر قبل تسلّم خالد للقيادة، ولذا أورد ابن سعد نفسه في بقية الرواية قول (أبي عامر): (فأخذ خالد اللواء ثم حمل على القوم فهزمهم أسوأ هزيمة رأيتها قط حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاؤوا)^(٤).

وتؤكد رواية ساقها مسلم أن المسلمين غنموا من الروم، وقتلوا فيهم - بعد ولاية خالد على الجيش - حتى إن خالدًا استكثر سلب القاتل ومنعهم إياه، حتى شكّا (عوف بن مالك) خالدًا للنبي صلى الله عليه وسلم فأمره برد سلبه له، فلما لمز (عوف) خالدًا بذلك ورسول الله يسمع، قال: لا تعطه يا خالد، وعظم حقوق الأمراء^(٥).

من معاني النصر:

على أن ثمة نصرًا آخر - فوق الماديات - فالثبات على الحق ثم الشهادة لمن قُتل من المسلمين في سبيل الله نصرٌ وفضل، وحيث أورد أصحاب المغازي والسير أن

(١) البداية والنهاية (٦/ ٤٦٠ - ٤٦١).

(٢) ح (٤٢٦٢).

(٣) الطبقات: (٢/ ١٢٩ - ١٣٠).

(٤) الطبقات: (٢/ ١٣٠).

(٥) مسلم ح (١٧٥٣).

(جعفر) قُطعت يمينه، ثم شماله، وهو ممسك اللواء، فلما فقدهما احتضنه حتى قُتل وهو كذلك^(١).

وعند البخاري: كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا حيّا ابن جعفر قال: السلام عليك يا ابن ذي الجناحين^(٢)، ويستنبط منه عمق الوعي الإسلامي في تلك المرحلة^(٣).

وعن الأمراء الثلاثة (زيد، وجعفر، وابن رواحة) قال ﷺ - وهو ينعاهم للمسلمين -: وما يسرني أو قال: ما يسرهم أنهم عندنا^(٤).

وحين قال بعض المسلمين لجيش (مؤتة): يا فرّار، فررتم في سبيل الله؟ أجابهم النبي ﷺ بقوله: ليسوا بالفرّار، ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى^(٥).

من آثار مؤتة ونتائجها:

وثمة فوائد مستقبلية لهذه الغزوة (مؤتة)، فقد اكتسب المسلمون خبرة ودراية بقتال الروم، فكانت هذه الغزوة تجربة وبداية لفتح الإسلامي لبلاد الشام فيما بعد.

كما شكلت هذه الغزوة هيبة للمسلمين في قلوب القبائل العربية المناوئة للمسلمين، فإذا تجرأ المسلمون على مقابلة الروم وقتالهم رغم قوتهم وكثرة عددهم وعدتهم - فغيرهم من باب أولى - ما جعل العديد من القبائل العربية تدخل في الإسلام بعد ذلك^(٦).

(١) ابن هشام: السيرة (٣١/٤)، والواقدي: المغازي (٧٦٢/٢).

(٢) البخاري ح (٤٢٦٤)، ولذا لُقّب بد(الطيّار)، والحديث عند الحاكم ولم يتعقبه الذهبي.

(٣) د. أكرم العمري: المجتمع المدني ص ١٦٨.

(٤) البخاري (٦٠٦٣).

(٥) ابن هشام: السيرة (٣٧/٤)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣٧٤/٤)، وحسن إسناده إلى عروة العمري

في المجتمع المدني (ص ١٦٨).

(٦) د. زيد الزيد: فقه السيرة (ص ٥٨٢).



وأخيراً فعلم ظاهر من أعلام نبوة محمد ﷺ وهو يخبر عن المسلمين في مؤتة
واستشهاد الأمراء الثلاثة، وتسلم خالد للراية - قبل أن يأتيه خبرهم -^(١).

أجل إن (مؤتة) تذكّر أجيال المسلمين - عبر القرون - أن هذا الدين إنما بلغ
المغرب والمشارك بعون الله ثم بصدق المؤمنين، وهمم المقاتلين، وكانت دماؤهم
وجثثهم الطاهرة جسوراً عبر عليها الفاتحون وذلك لإعلاء كلمة الله، وتخليص البشر
من عبودية البشر إلى عبودية رب البشر.



(١) ابن حجر: الفتح (٧/٥١٣).

سرية ذات السلاسل^(١)

حدد ابن سعد مكانها وزمانها فقال: وهي وراء وادي القرى، وبينها وبين المدينة عشرة أيام، وكانت في جمادى الآخرة سنة ثمانٍ من الهجرة^(٢).

وعن سببها قال: إن جمعًا من قضاة قد تجمعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ عمرو بن العاص ﷺ وعقد له لواءً أبيض، وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار^(٣).

وعند ابن إسحاق: أن رسول الله ﷺ بعث (عمرو بن العاص) يستنفر العرب إلى الشام ويستألفهم لذلك^(٤)، ويضيف ابن حجر: يستنفر الناس إلى الإسلام ويستألفهم بذلك^(٥).

وقد ذكر البخاري ومسلم هذه السرية مختصرة، وذكر فيها سؤال عمرو للنبي ﷺ: أي الناس أحب إليك يا رسول الله؟^(٦).

وتُفصّل كتب الطبقات والسير أن رسول الله ﷺ طلب من عمرو أن يستعين بمن يمرُّ به من بلي، وعُذره، وبلقين (وذلك أن أم العاص بن وائل كانت من بلي)، فسار

(١) سميت بذلك لأن عمروًا نزل على ماء بأرض جذام يسمى السلسل فسميت به (ابن هشام: السيرة ٣٥٩/٤ - ٣٦٠)، وقيل سميت بذلك لأن المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض مخافة أن يفروا (ابن

حجر: الفتح ٧٤/٨).

(٢) الطبقات (١٣١/٢).

(٣) السابق (١٣١/١).

(٤) ابن هشام: السيرة (٣٥٩/٤ - ٣٦٠).

(٥) الفتح (٧٥/٨).

(٦) البخاري ح (٤٣٥٨)، ومسلم ح (٢٣٨٤).



الليل وكمن النهار، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعًا كثيرًا فبعث رافع الجهني إلى رسول الله ﷺ يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في مائتين - فيهم أبو بكر وعمر - وأمره أن يلحق بعمر و أن يكونا جميعًا ولا يختلفا، فلما وصل أبو عبيدة أراد أن يؤم الناس، فقال عمرو: إنما قدمت عليّ مددًا وأنا الأمير، فأطاعه أبو عبيدة، وكان رجلًا لينًا سهلًا، وسار عمرو حتى وطىء بلاد بلي ودوّخها حتى أتى إلى أقصى بلادهم وبلاد عُذرة وبلقين، ولقي في آخر ذلك جمعًا فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرقوا وقفل عمرو بالمسلمين^(١).

وقد انفرد ابن إسحاق في ذكر أحداث لم يذكرها ابن سعد مثل حديثه عن رافع الطائي، وعوف بن مالك الأشجعي.

ومن أعظم دروس هذه السرية ما عليه الصحابة رضوان الله عليهم من التطاوع وعدم الخلاف، كما وقع من أبي عبيدة لعمر و رضي الله عنهما - وإن اختلفت مراتبهما - وجواز تأمير المفضول على الفاضل إذا امتاز المفضول بصفة تتعلق بتلك الولاية، ومنقبة لعمر و لتأميره على جيش فيهم أبو بكر وعمر، وإن كان ذلك لا يقتضي أفضليته عليهم لكن يقتضي أن له فضلًا في الجملة، وكان أهل الشام يفتخرون بهذه الغزوة^(٢).

وأين من يطعن في عمرو بن العاص ﷺ وقد ولاه النبي ﷺ على جيش فيه أمثال أبي بكر وعمر وأبي عبيدة ﷺ؟

وفيها من العبر: يُسر الشريعة ورفع الحرج وفقه عمرو ﷺ رغم حداثة إسلامه، وكريم خلقه ﷺ وحسن تعامله مع أصحابه، ففي هذه السرية احتلم عمرو في ليلة باردة قال: فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيمنت، ثم صليت بأصحابي الصبح فذكروا

(١) ابن سعد: الطبقات (٢/ ١٣١)، وابن هشام: السيرة (٤/ ٣٥٩-٣٦١).

(٢) ابن حجر: الفتح (٨/ ٧٥).

ذلك للنبي ﷺ فقال: يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب؟ فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال وقلت: إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً^(١).

وعلق ابن حجر على الحديث بجواز التيمم لمن توقع من استعمال الماء الهلاك، سواء كان لأجل برد أو غيره، وجواز صلاة المتيتم بالمتوضئين، وجواز الاجتهاد في زمن النبي ﷺ^(٢).

وقال ابن القيم: فلما علم النبي ﷺ فقه عمرو لم يُنكر عليه^(٣).



(١) صحيح سنن أبي داود (٦٨/١) وذكره البخاري معلقاً، وقواه ابن حجر (الفتح: ٤٥٤/١).

(٢) الفتح: (٤٥٤/١).

(٣) زاد المعاد: (٣٨٩/٣).



فتح مكة^(١)

يلحظ المتأمل أن نشاط المسلمين العسكري - بعد صلح الحديبية - كان متجهًا نحو الشمال، حيث توقف عن الجنوب والغرب، وكل ذلك كان استثمارًا ناجحًا لصلح الحديبية، لكن ذلك لم يدم طويلًا حين لم تُقدَّر قريش وحلفاؤها نعمة السلام والأمن، فلماذا عاد النبي ﷺ والمسلمون معه إلى مكة وما حولها؟ ولماذا وكيف فُتحت مكة؟

لقد ارتكبت قريش خطأ فادحًا حين أعانت حلفاءها (بني بكر) على (خزاعة) حليفة المسلمين، بالخييل والسلاح والرجال، على ماء يقال له (الوتير) بأرض خزاعة حتى قدم (عمرو بن سالم الخزاعي) المدينة واستنجد بالرسول ﷺ وبالمسلمين وقال:

يارب إني ناشد محمدًا

حلف أبينا وأبيه الأتلدا

إلى أن قال:

هم بيتونا بالوتير هُجدًا

وقتلونا ركعًا وسجدًا

(١) قال عنه ابن القيم: هو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عزه علو مناكب الجوزاء (زاد المعاد ٣/ ٣٩٤).

فقال رسول الله ﷺ: نصرت يا عمرو بن سالم^(١).

وسمى ابن سعد نفرًا من قريش أعانوا بكرًا على خزاعة، وأحصى من قتل من خزاعة: عشرين رجلًا^(٢).

وحيث إن ذلك نقض صريح من قريش لمعاهدة الحديبية، فقد تجهز النبي ﷺ وخرج في رمضان من المدينة ومعه عشرة آلاف، على رأس ثماني سنين ونصف^(٣) من مقدمه المدينة، فسار هو ومن معه من المسلمين إلى مكة يصوم ويصومون حتى بلغ الكديد - بين عسفان وقديد - أظفر وأظفروا^(٤).

أبو سفيان يأتي للمدينة:

ولم تُفلح مساعي أبي سفيان في قدومه للمدينة وطلبه من النبي ﷺ أن يجدد العهد ويزيد في المدة^(٥)، وحرص النبي ﷺ على أن يباغت قريشًا، وأخفى أمره وأخذ بالأنقب^(٦) وقال: اللهم خذ على أبصارهم فلا يروني إلا بغتة^(٧).

حتى بعد أن أعلم الناس أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجدة والتهيو قال ﷺ: (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها^(٨))، ونجحت الخطة وبلغ رسول الله ﷺ

(١) ابن هشام: السيرة (٤/٤٥، ٥٢-٥٣)، وابن سعد: الطبقات (٢/١٣٤)، وصححه إبراهيم العلي في صحيح السيرة ص (٤٠١ - ٤٠٢).

(٢) الطبقات (٢/١٣٤).

(٣) قال ابن حجر: وهو وهم، والصواب: على رأس سبع سنين ونصف (الفتح ٨/٤).

(٤) البخاري ح (٤٢٧٦)، ومسلم ح (١١١٣) ولم يذكر عدد المسلمين ولا تاريخ الفتح وإنما قال: (سافر في رمضان).

(٥) ابن هشام: السيرة (٤/٥٥ - ٥٦)، وابن سعد: الطبقات (٢/١٣٤).

(٦) الأنقب: أي مداخل أبوابها وفوهات طرقها (تفسير غريب الحديث: ابن حجر ص ٢٤٤).

(٧) ابن سعد: الطبقات (٢/١٣٤).

(٨) ابن هشام: السيرة (٤/٥٧) وسنده صحيح كما قال إبراهيم العلي في صحيح السيرة النبوية (ص ٤٠٤).

والمسلمون معه (مرَّ الظهران)^(١)، وقد عميت الأخبار عن قريش ولم يأتهم عن رسول الله ﷺ خبر ولم يدروا ما هو فاعل^(٢).

رسالة حاطب ﷺ:

أما رسالة حاطب بن أبي بلتعة ﷺ إلى قريش لإخبارهم بمسير رسول الله ﷺ فلم تصل إليهم، فقد بعث النبي ﷺ علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، والمقداد وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ^(٣) فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوا منها، فلما أتوا الروضة إذا هم بالظعينة، قالوا لها: أخرجي الكتاب، فأنكرته، فقالوا: لتخرجن الكتاب أو لننزعن الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتوا به النبي ﷺ، ثم كان الحوار مع حاطب ونزول القرآن - كما سيأتي -^(٤).

ومع رغبة النبي ﷺ مباغته قريش لعدم استعدادها للقتال - كخطة حربية - فقد كان النبي ﷺ راغباً كذلك ألا يحصل قتال بمكة تعظيماً لما عظمه الله^(٥).

عدد جيش الفتح:

تحرك النبي ﷺ وقد استنفر القبائل حول المدينة (أسلم، غفار، مزينة، جهينة، أشجع، سليم)، فمنهم من وافاه بالمدينة، ومنهم من لحقه بالطريق، فكانت عدة

(١) مرَّ الظهران: أحد أودية الحجاز شمال مكة على مسافة ٢٢ كيلاً، ومن قُراه: الجموم، بحرة (المعالم الأثرية في السنة والسيرة ص ٢٥٠).

(٢) مجمع الزوائد (٦/١٦٥).

(٣) روضة خاخ: موضع قرب حمراء الأسد جنوب المدينة، بينها وبين المدينة اثنا عشر ميلاً (محمد شراب: المعالم الأثرية ص ١٠٧)، وأكرم العمري: المجتمع المدني (ص ١٧٣).

(٤) البخاري ح (٣٠٠٧، ٤٢٧٤، ٤٨٩٠)، ومسلم ح (٢٤٩٤)، وابن هشام في السيرة (٤/٥٨)، وقد سمى المرأة وقبيلتها، وقال: جعلت الخطاب في رأسها وفتلت عليه قرونها.

(٥) صحيح الأثر من سيرة خير البشر/ د. السلمي وزملاؤه (ص ٢٥٠).

المسلمين عشرة آلاف^(١)، وهذا العدد مؤشر لزيادة عدد المسلمين ما بين الحديبية (أقل من ألفين) وفتح مكة (عشرة آلاف).

إسلام بعض زعامات المشركين قبل الفتح:

وفي طريقه ﷺ إلى مكة (وبين المدينة ومكة) قدم بعض زعماء المشركين معلنين إسلامهم، منهم أبو سفيان بن الحارث (ابن عم وأخو الرسول ﷺ من الرضاعة)، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة (أخو أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها من الرضاعة)، وكان الرجلان شديدي العدواة للمسلمين من قبل، فالتمسا الدخول عليه، وكلمته أم سلمة رضي الله عنها وقالت: يا رسول الله ابن عمك، وابن عمتك، وصهرك، فقال: لا حاجة لي فيهما، أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال، ثم استعطفاه وقال أحدهما (أبو سفيان) - وكان معه ابن له -: ليأذن لي رسول الله ﷺ أو لآخذن بيد ابني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً أو جوعاً، فَرَّقَ لهما النبي ﷺ فدخلا عليه، وأنشده أبو سفيان قوله في إسلامه، واعتذاره مما كان مضى منه وقال:

لعمرك إني يوم أحمل راية

لتغلب خيل اللات خيل محمد

لكالمدلج الحيران أظلم ليله

فهذا آوان الحق أهدي وأهتدي

إلى قوله:

هدائي هادٍ غير نفسي ودلني

إلى الله من طردت كل مطرد

(١) البخاري ح (٤٢٧٦)، وابن سعد: الطبقات (٢/ ١٣٤ - ١٣٥).

وحينها ضرب رسول الله ﷺ في صدره فقال: أنت طردتني كل مطردي^(١).

وقد أشار مسلم في صحيحه إلى عداوة أبي سفيان، واستئذان حسان من النبي ﷺ ليهجوه^(٢).

عمه العباس يلقاه في الطريق:

كما لقيه ﷺ ببعض الطريق (بالجحفة مهاجرًا بعياله) العباس بن عبد المطلب عمه، وقد كان قبل ذلك مقيمًا بمكة على سقايته، ورسول الله ﷺ عنه راضٍ كما ذكر الزهري^(٣) (والعباس) ﷺ يقال: إنه كان مقيمًا بمكة يكتم إسلامه، بأمر النبي ﷺ وقد اختلفت الروايات في زمن إسلامه^(٤).

حتى إذا وصل النبي ﷺ (مرَّ الظهران) عسكرَ عشاء، وأمر أصحابه أن يوقدوا النار، فأوقدوا عشرة آلاف نار^(٥)، الأمر الذي لفت أنظار قريش - وهم لم يعلموا بمجيئه - وتساءل نفرٌ من زعاماتهم خرجوا يتجسسون الأخبار (وهم أبو سفيان بن حرب، وبديل بن ورقاء)، وأحدهما يقول لصاحبه: ما رأيت كالليلة نيرانًا قط ولا عسكرًا؟ فقال بديل: هذه والله (خزاعة) حمشتها الحرب، قال أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من ذلك، وفي تلك الأثناء سمع العباس بن عبد المطلب صوتهما، وقد خرج - كما يقول - لعله يجد حطابًا، أو صاحب لبن، أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبر قريشًا بمقدم رسول الله ﷺ إلى مكة، ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة^(٦).

(١) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي: المستدرك (٣/٤٣ - ٤٤)، وأصل القصة عند ابن إسحاق (ابن هشام: السيرة ٤/٦١ - ٦٢).

(٢) مسلم ح (٢٤٨٩)، والبخاري ح (٣٥٣١) ولم يذكر البخاري أبا سفيان.

(٣) ابن هشام: السيرة (٤/٦٠ - ٦١).

(٤) انظر: د. سليمان العودة: مرويات إسلام العباس ﷺ.

(٥) ابن سعد: الطبقات (٢/١٣٥)، وعند البخاري: (كأنها نيران عرفة) أي: من كثرتها (ح ٤٢٨٠).

(٦) ابن هشام: السيرة (٤/٦٣).

أبو سفيان يُحمل إلى معسكر رسول الله ﷺ وكيف أسلم؟

فلما عرف العباس صوت أبي سفيان - في محاورته لبديل - قال: أبا حنظلة، فعرفه أبو سفيان وقال: أبو الفضل؟ قال: نعم، مالك؟ فقال العباس: ويحك أبا سفيان، هذا رسول الله ﷺ في الناس، وأصباح قريش والله؟ قال: فما الحيلة؟ قال العباس: والله لأن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك، فركب خلفه، ومرَّ به العباس على نيران المسلمين، حتى إذا مرَّ على نار عمر ﷺ قال: من هذا؟ فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله؟ الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ وتسبق هو والعباس، فسبق العباس إلى رسول الله ﷺ، ودخل عمر في إثره، وطلب من رسول الله ﷺ أن يقتله فأجاره العباس، وطلب من النبي ﷺ أن يرسله معه، فقال ﷺ: اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به، فبات عنده وأتى به الصباح فقال له النبي ﷺ: ويحك أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ قال: بأبي وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد، قال: ويحك أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه ففي النفس منها حتى الآن شيء، فقال له العباس: ويحك، أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تُضرب عنقك، قال: فشهد شهادة الحق فأسلم، قال العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئاً؟ قال: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ثم أمر النبي ﷺ أن يُحبس بمضيق الوادي لتمر به جنود الله، حتى مرَّ رسول الله ﷺ في كتيبة خضراء فيها المهاجرون والأنصار ﷺ، ولا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، فقال: من هؤلاء يا عباس؟ قال: هذا رسول الله ﷺ معه المهاجرون والأنصار، قال أبو سفيان: ما لأحد

بهؤلاء قبَل ولا طاقة، والله لقد أصبح مُلكُ ابن أخيك الغداة عظيمًا؟ قال العباس: إنها النبوة يا أبا سفيان، قال: فنعَم إذا^(١).

مقولة سعد بن عبادَة تُثير أبا سفيان:

وعند البخاري أن الذي أخذ أبا سفيان حرس رسول الله ﷺ فأتوا به رسول الله، فأسلم أبو سفيان، فلما سار قال للعباس: احبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين، فحبسه العباس، فجعلت القبائل تمرُّ، حتى أقبلت كتيبة لم يرَ مثلها، قال: من هذه؟ قال هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادَة معه الراية، فقال سعد بن عبادَة ﷺ: يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، فقال أبو سفيان: يا عباس، حبذا يوم الذَّمار^(٢)، ثم مرَّت كتيبة وهي أقلُّ الكتاب فيهم رسول الله ﷺ وأصحابه، ورايته مع الزبير بن العوام، فلما مرَّ رسول الله ﷺ بأبي سفيان قال: ألم تعلم ما قال سعد بن عبادَة؟ قال: ما قال؟ قال: قال كذا وكذا، فقال ﷺ: كذب سعد، ولكن هذا يوم يُعظم الله فيه الكعبة، ويوم تُكسى فيه الكعبة^(٣).

مَن حمل الراية بعد سعد؟

أما من استلم الراية بعد أن نزعها النبي ﷺ من سعد بن عبادَة، فثمة عدة آراء جمع ابن حجر بينها بقوله: والذي يظهر في الجمع أن (عليًا) أرسل بنزعها -يعني من سعد- وأن يدخل بها، ثم خشي تغير خاطر (سعد) فأمر بدفعها لابنه (قيس)، ثم إن (سعدًا) خشي أن يقع من ابنه شيء ينكره النبي ﷺ فسأل النبي ﷺ أن يأخذها منه، فحينئذ أخذها

(١) ابن هشام: السيرة (٤/٦٣، ٦٦)، ورواه الطبراني وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٦/١٦٧).

(٢) فسرة ابن حجر بعدة تفسيرات منها: الهلاك، ومنها: هذا يوم يلزمك أن تحفظني وتحميني حتى لا يصيبني مكروه (الفتح ٨/٨).

(٣) البخاري/ح (٤٢٨٠).

الزبير، قال ابن حجر: رواه البزار بإسناد على شرط البخاري^(١).

وعند مسلم تفصيل عن الرايات والقادة، وضعف قريش عن المقاومة: وأن رسول الله ﷺ حين قدم مكة قَسَمَ الجيش وعَيَّن القادة، فبعث الزبير ﷺ على إحدى المجنبتين^(٢)، وبعث خالدًا ﷺ على المجنبة الأخرى، وبعث أبا عبيدة ﷺ على الحُسْر^(٣) فأخذ بطن الوادي، ورسول الله ﷺ في كتيبته، وطلب النبي ﷺ من الأنصار فأطافوا به، ووبَّشت قريشًا أوباشًا لها وأتباعًا، فقالوا: نُقدِّم هؤلاء، فإن كان لهم شيء كنا معهم، وإن أصيبوا أعطينا الذي سُئلنا، ثم قال النبي ﷺ لأصحابه: (حتى توافوني بالصفاء)، فما شاء أحد منا أن يقتل أحدًا إلا قتله، وما أحد منهم يوجه إلينا شيئًا، حتى قال أبو سفيان: يا رسول الله أبيضت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم، ثم قال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن^(٤).

أوباش قريش تُحصد:

وعند مسلم أيضًا: قال لهم ﷺ انظروا إذا لقيتموهم (أوباش قريش) غدًا أن تحصدوهم حصدًا، فما أشرف لهم يومئذ أحد إلا أناموه (قتلوه)، حتى أقبل رسول الله ﷺ على الحجر فاستلمه، ثم طاف بالبيت، وحطَّم الأصنام فيه وهو يقول: (جاء الحق وزهق الباطل) فلما فرغ من طوافه أتى الصفا، فعلا عليه، حتى نظر إلى البيت ورفع يديه فجعل يحمد الله ويدعو بما شاء أن يدعو^(٥).

(١) الفتح (٩/٨).

(٢) هما الميمنة والميسرة.

(٣) هم الذين لا دروع لهم، وفي رواية أخرى عند مسلم: جعل خالد على الميمنة والزبير على الميسرة، وأبا عبيدة على البياذقة (الرجالة) وبطن الوادي (مسلم ٣/١٤٠٧).

(٤) مسلم ح (١٧٨٠).

(٥) المصدر السابق.

تخوف الأنصار وتطمين رسول الله ﷺ لهم:

وهنا موقف للأنصار تداركه النبي ﷺ بعد أن نزل عليه الوحي، وكأنهم أحسوا بميل رسول الله ﷺ إلى عشيرته (قريش) وبلده (مكة)، وقالت الأنصار: أما الرجل فقد أخذته رافة بعشيرته ورغبة في قريته، فنزل الوحي على رسول الله ﷺ وجمع الأنصار، وقال: قلتم ما قلت، قالوا: قد كان ذلك، قال ﷺ: كلا، إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، والمحيا محياكم والممات مماتكم، فأقبلوا إليه ويكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضنَّ (الشح) بالله ورسوله، فقال ﷺ: إن الله ورسوله يُصدقانكم ويعذرانكم^(١).

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ دخل مكة يوم الفتح من كداء التي بأعلى مكة^(٢).

وتحقق ما قاله شاعر رسول الله ﷺ حسان بن ثابت، وهو يهجو قريشاً - قبل

الفتح - ويقول:

ثكلتُ بُنيتي إن لم تروها

تثير النقع من كنفى كداء

يبارين الأعنة مُصعدات

على أكتافها الأسل الضماء

تظل جيانا متمطرات

تلطمهن بالخمير النساء^(٣).

(١) مسلم ح (١٧٨٠، ٣/١٤٠٦-١٤٠٧).

(٢) البخاري ح (٤٢٩٠)، ومسلم ح (١٢٥٨)، وأحمد في المسند كما في الفتح الرباني (٢١/١٥٠).

(٣) مسلم ح (٢٤٩٠).



وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما دخل رسول الله ﷺ عام الفتح رأى النساء يلطمن وجوه الخيل بالخمُر، فتبسم إلى أبي بكر وقال: يا أبا بكر: كيف قال حسان؟ فأنشده (الآبيات السابقة) فقال: ادخلوها من حيث قال حسان^(١).

مَنْ أَهْدَر دَمَهُ عام الفتح؟

كما ثبت أنه ﷺ دخلها عام الفتح عنوة، فأسلم الناس طائعين وكارهين، وعلى رأسه المغفر، فلما نزعه، جاء رجل فقال: ابن أخطل متعلق بأستار الكعبة، فقال: اقتله^(٢).

ولم يكن ابن أخطل وحده أهدر دمه -عام الفتح- بل أهدر دم: عكرمة بن أبي جهل، ومقيس بن صبابه، وعبد الله بن أبي السرح، وامراتين^(٣).

ويضيف ابن سعد أنه ﷺ أمر بقتل ستة نفر، وأربع نسوة، وسمى -غير ما سبق- هبار بن الأسود، والحويرث بن نُقيد، وهند بنت عتبة، وسارة مولاة عمرو بن هشام، وفرتنا، وقريبة^(٤).

قتال وقتلى في الخدمة:

ويُفيدنا ابن سعد بضعف مقاومة قريش -وإن قتل منهم عدد- ويقول: وكل الجنود لم يلقوا جمعًا غير (خالد) لقيه (صفوان بن أمية) و(سهيل بن عمرو)

(١) أخرجه البيهقي بإسناد حسن كما قال ابن حجر في الفتح (١٠/٨)، وانظر دلائل النبوة للبيهقي وعنده (عُدمت) بدل (تكلت) (٦٦/٥).

(٢) البخاري ح (٤٢٨٦)، ومسلم (١٣٥٧)، وابن سعد: الطبقات (١٣٦/٢).

(٣) أبو داود ح (٢٦٨٣)، والنسائي ح (٤٠٦٧)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي: المستدرک (٤٥/٣).

(٤) الطبقات: (١٣٦/٢).

و(عكرمة بن أبي جهل) في جمع من قريش بـ(الخدمة) فمنعوه من الدخول، وشهروا السلاح، ورموا بالنبل فصاح خالد في أصحابه فقاتلهم فقتل أربعة وعشرين رجلاً من قريش وأربعة نفر من هذيل، وانهزموا أقبح الإنهزام، فلما ظهر رسول الله ﷺ على ثنية أذاخر رأى البارقة فقال: ألم أنه عن القتال؟ فقليل: خالد قوتل فقاتل، فقال: قضاء الله خير، وقُتل من المسلمين رجلان أخطأ الطريق: كرز بن جابر الفهري، وخالد الأشقر الخزاعي^(١).

ويؤكد ابن إسحاق هزيمة المشركين وفرار قادتهم، على لسان (حماس بن قيس) حين فرَّ إلى بيته، وقال لامرأته: أغلقتي عليَّ بابي، قالت: فأين ما كنت تقول (إني سأخدمك أحد أصحاب محمد)؟ فقال:

إنك لو شهدت يوم الخدمة^(٢)

إذ فرَّ صفوان وفرَّ عكرمة

وأبويزيد قائم كالموتمة

واستقبلتهم بالسيوف المسلمة

يقطعن كل ساعد وجمجمة

ضرباً فلا يُسمع إلا غمغمة

لهم نيت خلفنا وهممة

لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة^(٣).

(١) الطبقات: (١٣٦/٢).

(٢) اسم جبل بمكة.

(٣) ابن هشام: السيرة (٤/٧١-٧٢) صحيح الأثر من سيرة خير البشر د. السلمي وزملاؤه (ص ٢٥٣).

ويظهر أن رسول الله ﷺ كان حريصًا على عدم قتل من لم يقاتل -تعظيمًا للبلد الحرام- ولذا قبل إجارة أم هانئ في ابن هبيرة، وقال: قد أجرنا من أجرنا يا أم هانئ^(١). واستنبط ابن القيم من إجارة أم هانئ ومحاولة علي قتله أن مكة فُتحت عُونة^(٢).

تعظيم مكة وحرمتها:

وقد جاء ما يؤكد تعظيمه للبلد الحرام في خطبة الفتح -الغد من يوم الفتح- حيث قال: إن مكة حرمتها الله ولم يحرمها الناس، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد بها شجرًا، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فيها، فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس^(٣)، كما جاء منع غزوها إلى يوم القيامة، قال ﷺ: (لا تُغزى هذه بعد اليوم إلى يوم القيامة)^(٤).

ماذا بعد الفتح؟

شكّل فتح مكة مرحلة جديدة في حياة النبي ﷺ خاصة، وفي حياة المسلمين وفي مدّ الإسلام وانتشاره بشكل أعم، فهو وإن جاء في أواخر حياة النبي ﷺ في المدينة، فقد خلف آثارًا عظيمة، وحفلت أحداث الفتح بدروس ووقفات مهمة، أقف على شيء منها بالنقاط الآتية:

(١) كان الفتح (فتح مكة) مؤشرًا على قرب أجله ﷺ كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ

نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ

(١) البخاري ح (٣٥٧)، ومسلم (٤٩٨/١).

(٢) زاد المعاد: (١٢١/٣).

(٣) البخاري ح (٤٢٩٥)، ومسلم ح (١٣٥٤).

(٤) رواه الترمذي، وقال حسن صحيح، وصححه الألباني: صحيح سنن الترمذي (١٢٠/٢)، وأحمد ح (١٥٤٠٥).

وَأَسْتَعْفِرُهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿ [النصر: ١ - ٣] ^(١) فعن ابن عباس رضي الله عنهما
- في تفسيرها - قال: أجل، أو مثل ضُرب لمحمد ﷺ نُعيت له نفسه ^(٢).

وهي آخر سورة نزلت جميعًا، قاله ابن عباس رضي الله عنهما في صحيح مسلم ^(٣): وقد كان ﷺ يكثر من الاستغفار والتسبيح بعد نزول هذه السورة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما صلى النبي ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ إلا يقول: سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي ^(٤).

(٢) وكان فتح مكة سببًا وإيدانًا بدخول الناس في دين الله أفواجًا، وفي البخاري: كانت العرب تلوم (أي: تنتظر) بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه، فإن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم ^(٥).

(٣) وبفتح مكة انتهى زمن الخرافة، وصبوة العقول التي كانت تقدر أحجارًا وأصنامًا لا تضر ولا تنفع في مكة وحول الحرم خصوصًا، حيث كان حول البيت ستون وثلاثمائة نُصب، فجعل رسول الله ﷺ يطعنها بعود في يده ويقول: جاء الحق وزهق الباطل ^(٦).

وكما أزهق الباطل في مكة فقد بادر النبي ﷺ لإزهاقه خارج مكة، فبعث النبي ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى (نخلة) حيث أعظم الأصنام (العزى) وكانت لقريش وجميع

(١) سورة النصر (١-٣).

(٢) البخاري ح (٤٩٦٩-٤٩٧٠، ٤٢٩٤).

(٣) مسلم ح (٣٠٢٤)، وانظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (٢٠/٢٢٩)، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٤/٩٤٢).

(٤) البخاري ح (٤٩٦٧)، ومسلم ح (٤٨٤)، وتفسير القرطبي (٢٠/٢٣١).

(٥) ح (٤٣٠٢).

(٦) البخاري ح (٤٢٨٧)، ومسلم ح (١٧٨١).

بني كنانة، فما رجع حتى حطمها، ولم تُعبد بعد ذلك^(١).

كما بعث (عمرًا) لهدم (سواع) وكانت لهذيل فهدمه، وبعث (سعد الأشهلي) إلى (مناة) بالمشلل فهدمها، وبذلك أزيلت أكبر مراكز الوثنية التي جاء الإشارة إليها في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكَّ وَالْعُرَّىٰ ۖ وَمَنْوَةَ الْغَالِيَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]^(٢).

٤) وبفتح مكة انتهت مرحلة فرض (الهجرة) من مكة إلى المدينة التي يؤجر المهاجر عليها، حيث البلاء والشدة بمكة، والنصرة للنبي ﷺ بالمدينة، أما بعد أن فُتحت مكة ودخل الناس في دين الله أفواجًا، فلم يكن ثمة حاجة للهجرة للمدينة ونُصرة النبي ﷺ فقد عز الإسلام بمكة ودخل الناس في دين الله أفواجًا ولهذا قال ﷺ: (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية)^(٣)، وإن كانت الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام باقية إلى قيام الساعة في حق من أسلم في دار الكفر، وقدر على الخروج منها.

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان المؤمن يفر بدينه إلى الله ورسوله مخافة أن يُفتن عليه، فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام، فالمؤمن يعبد ربه حيث شاء، ولكن جهاد ونية^(٤).

٥) يلفت النظر نزول النبي ﷺ بعد الفتح^(٥) في الحجون (خيف بني كنانة) وهو

(١) ابن سعد: الطبقات (٢/١٤٥ - ١٤٦).

(٢) انظر: الطبقات لابن سعد (٢/١٤٦)، وأكرم العمري: المجتمع المدني (ص ١٨٢ - ١٨٣).

(٣) البخاري ح (٤٣٠٥، ٤٣١١)، ومسلم ح (١٣٥٣).

(٤) البخاري ح (٤٣١٢).

(٥) ورد أنه قال ذلك حين أراد حنينًا (البخاري ٤/٢٤٦ - ٢٤٧) وورد أنه قالها حين فتح مكة: البخاري (٢/١٥٨)، ومسلم ح (١٣١٤) كما ورد أنه قالها في حجة الوداع (البخاري ٤/٣٣)، ومسلم ح (١٣١٤) قال ابن حجر: ويحتمل التعدد (الفتح ٧/١٩٣، ٨/١٥).

المكان الذي تعاقدت فيه قريش على مقاطعة بني هاشم والمسلمين فيما عُرف (بحصار الشعب)، وعنه قال النبي ﷺ: منزلنا إن شاء الله إذا فتح الله الخيف حيث تقاسموا على الكفر^(١).

والحكمة في ذلك كما قال ابن حجر: قيل: إنما اختار النبي ﷺ النزول في ذلك الموضوع ليتذكر ما كانوا فيه، فيشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه من الفتح العظيم^(٢).

٦) كما يلفت النظر موقف حاطب بن أبي بلتعة ؓ - وقد سبقت الإشارة إليه - فلئن كان حاطب من أهل بدر، ويُستغرب منه فعلاً أن يكتب إلى قريش ويُفشي سر رسول الله ﷺ بمباغثة قريش بالفتح، ولكن حاطباً اعتذر - وهو صادق - بقوله: يا رسول الله، لا تعجل عليّ إني كنت امرأةً ملصقاً في قريش - حليفاً - ولم أكن من أنفسها، ومن معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن اتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال ﷺ: أما إنه قد صدقكم، فقال عمر ؓ: دعني أضرب عنق هذا المنافق يا رسول الله؟ فقال ﷺ: إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرًا فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، وأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المتحنة: ١]^(٣).

وفي هذا الموقف تأكيد بشرية الصحابة، ووقوع الخطأ منهم، وفيه كذلك صدق حاطب في الاعتذار وتصديق النبي ﷺ له، وإن الحسنات يُذهبن السيئات، وأثر السابقة في الدين وفضل أهل بدر، والغيرة لدين الله وحرماته، ونزول الحكم القرآني

(١) البخاري ح (٤٢٨٤)، ومسلم ح (١٣١٤).

(٢) الفتح (١٥/٨).

(٣) انظر البخاري ح (٤٢٧٤)، ومسلم ح (٢٤٩٤).

بعدم الولاء للكفار وإلقاء المودة لهم، وهو درسٌ للمسلمين في زمن النبوة ويستمر للمسلمين من بعدهم، فالولاء للمؤمنين والبراءة من الكافرين من محكمات الدين^(١).

(٧) وبعد الفتح حُرمت مكة - كما سبق - فلا يُسفك بها دمٌ، إلخ، وأضيف هنا سابقة ولاحقة الخليلين (إبراهيم ومحمد ﷺ) على تحريمها إلى يوم القيامة، قال ﷺ: اللَّهُمَّ إن إبراهيم حرم مكة فجعلها حرامًا، وإني حرمت المدينة حرامًا^(٢)، وحرمتها إلى يوم القيامة^(٣).

(٨) في فتح مكة درس في الوفاء بالعهود - حتى مع الكفار - فلم ينقض المسلمون عهدهم مع قريش - وقد يكون المسلمون أقوى في هذه المرحلة - فلما نقضت قريش العهد، تحرك المسلمون إلى مكة فاتحين.

(٩) وفيه نُصرة المظلوم، فخرافة حين ظلمت واستنصرت بالمسلمين نصر واهم، وانتصروا لهم ممن ظلمهم.

(١٠) وفيه إنزال الناس منازلهم وإكرام كرام القوم تأليفاً لهم، كما صنع النبي ﷺ مع أبي سفيان حين قال: (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن).

(١١) التواضع في مواقع العزِّ والانتصار، فرغم أن رسول الله ﷺ فتح مكة عنوة، وذلت له قريش إلا أنه ﷺ دخل مكة متواضعًا مُتخشعًا متذللًا لله^(٤)، وفرق بين هذا الموقف منه ﷺ وموقف بني إسرائيل حين أمروا أن يدخلوا بيت المقدس وهم ساجود - أي (ركع) - يقولون (حطة)، فدخلوها يزحفون على

(١) وللمزيد انظر: ابن القيم: زاد المعاد (٣/٤٢٤).

(٢) مسلم ح (١٣٧٤).

(٣) ابن القيم: زاد المعاد (٣/٤٤٢ - ٤٤٣).

(٤) انظر: المستدرک للحاکم (٣/٤٨، ٧٨) وصححه ووافقه الذهبي.



أستاهم وهم يقولون (حنطة في شعير)، (أو حبة في شعرة)^(١) بدل أن يقولوا (حطة)^(٢).

(١٢) الوفاء والسماحة وحسن الأخلاق والعفو والصفح وأمثالها من كرائم السمائل، فمن ذلك عفوّه عن المشركين، وإعطاؤه مفتاح الكعبة لآل شيبه، وغير ذلك.

على أن ثمة وقفات ودروسًا وأحكامًا ولطائف لفتح مكة، أفاض وأجاد فيها ابن القيم رحمه الله^(٣).



(١) البخاري ح (٤٠٤١)، ومسلم ح (٣٠١٥).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (٦/٥٤٨ - ٥٤٩).

(٣) انظر زاد المعاد: (٣/٤١٩، ٤٦٥).

غزوة حنين^(١)

أقام النبي ﷺ بمكة عام الفتح تسعة عشر يوماً^(٢)، وحين علم أن (هوازن وثقيف) أجمعوا المسير إليه ﷺ وقد حشدوا قواهم وبغوا، وجعلت الأمداد تأتي إليهم، خرج النبي ﷺ إليهم من مكة لست خلون من شوال (سنة ثمان) في اثني عشر ألفاً، من أهل المدينة عشرة آلاف، وألفان من أهل مكة (الطلقاء)، وقد خرج معه ﷺ ناس من المشركين كثير، منهم صفوان بن أمية، وبعث ﷺ عبد الله بن حدرد الأسلمي ﷺ، فدخل عسكرهم وجاءه بأخبارهم^(٣).

وكان زعيم المشركين: مالك بن عوف النصري، الذي تخوف من مسير رسول الله إليه، فجمع من حوله، واجتمعت له هوازن وثقيف كلها، كما اجتمع له: نصر، وجشم كلها، وسعد بن أبي بكر، وناس من بني هلال - وهم قليل - وغاب عنهم: كعب وكلاب، وهم الذين قال عنهم دريد بن الصمة: غاب (الحد، والجذ)^(٤).

وكان عدد هوازن وثقيف ومن لحق بهم كبيراً حتى اعتبرهم ابن حجر ضعف عدد المسلمين - غير الطلقاء - أو أكثر^(٥)، ونص الواقدي على أنهم عشرون ألفاً^(٦).

(١) قال ابن سعد: حنين وإد بينه وبين مكة ثلاثة أميال (الطبقات ٢/١٤٩) وهو شرقي مكة على بُعد عشرين كيلاً عنها، وتُعرف اليوم بالشرائع (الفتاوى لابن تيمية ٢٨/٤٢٩)، وأكرم العمري: المجتمع المدني (ص ١٩٧).

(٢) البخاري ح (٤٢٩٨).

(٣) ابن سعد: الطبقات (٢/١٥٠).

(٤) ابن هشام: السيرة (٤/١١٤).

(٥) الفتح (٨/٢٩).

(٦) المغازي (٣/٨٩٣).

النبي ﷺ يبعث من يعلم حال عدوه:

وأراد النبي ﷺ أن يستكشف عدوه وعُدتهم فبعث (عبد الله بن أبي حدرم الأسلمي) ﷺ وقال له: اذهب فادخل في القوم حتى تعلم لنا من علمهم، فدخل فمكث فيهم يوماً أو يومين، ثم أقبل فأخبره الخبر، وكذبه عمر ﷺ، فردَّ على عمر، وكان رسول الله ﷺ صدَّق ابن أبي حدرم وآزره وبعث إلى صفوان بن أبي أمية يسأله أدراعاً عنده (مائة درع) وما يصلحها من عدتها، فقال: أغصباً يا محمد؟ قال: بل عارية مضمونة حتى تؤديها إليك^(١).

جاسوس المشركين يُقتل:

وفي المقابل جاء رجل يتحسس أخبار المسلمين فقد أناخ بعيه وقيده، ثم تقدم يتغدى مع القوم (المسلمين) وجعل ينظر، وفي المسلمين ضعف ورقة في الظهر، وبعضهم مشاة - كما يقول سلمة بن الأكوع ﷺ - ثم خرج الرجل يشتد، فأطلق جملة، واشتد به الجمل، وتبعه رجل على ناقة ورقاء - وكانهم شكوا فيه - قال سلمة: وخرجت أشد، فكنت عند ورك الناقة، ثم تقدمت حتى كنت عند ورك الجمل ثم تقدمت حتى أخذت بخطام الجمل فأنخته، فلما وضع ركبته في الأرض اخترطت سيفي فضربت رأس الرجل فندر (سقط) ثم جئت بالجمل أقوده عليه رحله وسلاحه، فاستقبلني رسول الله ﷺ والناس معه، فقال: من قتل الرجل؟ قالوا: ابن الأكوع، قال: له سلبه أجمع^(٢).

(١) أبو داود ح (٣٥٦٢)، وأحمد ح (١٥٣٠٢)، والحاكم في مستدركه (٤٨/٣)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني بمجموع طرقه كما في: إرواء الغليل (٣٤٤/٥)، وانظر: أكرم العمري: المجتمع المدني (ص ١٩٦).

(٢) البخاري ح (٣٠٥١) مختصراً، ومسلم ح (١٧٥٤)، وابن سعد: الطبقات (١٥٠/٢) مختصراً.



استعداد المشركين والغنيمة الباردة:

وقد استعد الفريقان للمعركة، أما مالك بن عوف النصري فقد سبق إلى أرض المعركة (حنين) ورتب جيشه بأحسن صفوف - كما عبّر أنس رضي الله عنه - حيث صفّ الخيل، ثم صفّ المقاتلة، ثم صفّ النساء من وراء ذلك، ثم صفّ الغنم، ثم صفّ النعم ^(١).

وحين أنكر على مالك سوقه لأموال الناس وأبنائهم ونسائهم، قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم، فقيل له: وهل يردّ المنهزم شيء؟ إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضحت في أهلك ومالك ^(٢).

وأيّ ما كان الرأي فيظهر أن (مالكًا) أرادها معركة فاصلة له أو عليه، وقد كانت هذه الخطة غنيمة باردة للمسلمين كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم قبل المعركة، ووقع الأمر كما أخبر بعد المعركة ^(٣).

استعداد المسلمين:

أما استعداد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين للمعركة، فقد خرج المسلمون من فتح مكة نشيطين حيث لم يلقوا عتًا ولا شدة من قريش، وكان فتحهم لمكة - عاصمة الوثنية - مشجعًا لهم لغزو من سواهم، ومع ذلك فقد أعمل النبي صلى الله عليه وسلم الأسباب لمواجهة وهزيمة (هوازن وثقيف) فأرسل عينه ابن أبي حدرد ليعلمه خبرهم - كما سبق - وبعث خالد

(١) صحيح مسلم (٧٣٦/٢) ح (١٠٥٩)، وفي سبق المشركين إلى أرض المعركة انظر: ابن هشام: السيرة (١٢١/٤).

(٢) ابن هشام: السيرة (١١٥/٤).

(٣) رواه أبو داود ح (٢٥٠١)، والنسائي - كما في تحفة الأشراف - ح (٤٦٥٠)، والبيهقي في دلائله (١٢٦/٥) وحسن ابن حجر سند أبي داود: الفتح (٢٧/٨).

بن الوليد رضي الله عنه مقدمة على الخيل ومعه بنو سليم، وانحدر رسول الله صلى الله عليه وسلم في وادي حنين على تعبئة، وركب بغلته البيضاء (دُلْدُل) ولبس درعين والمغفر والبيضة^(١).

وفي ليلة المعركة طلب النبي صلى الله عليه وسلم من يتبرع لحراستهم، فتبرع (أنس بن مرثد الغنوي رضي الله عنه) وطلب منه النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون في أعلى الشعب، وقال له: لا نُغز من قبلك الليلة، فقام (أنس) بالمهمة حتى الفجر خير قيام، ولذا أثنى عليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال: قد أوجبت، فلا عليك ألا تعمل بعدها^(٢).

خلل في جيش المسلمين:

وبرغم أن عدد جيش المسلمين في حنين كان كبيراً (اثنا عشر ألفاً)، وبرغم وجود خيار الصحابة من المهاجرين والأنصار فيه، إلا أن الجيش فيه كذلك (ألفان من الطلقاء) وهؤلاء فيهم حديث عهد بجاهلية - وإن أعلنوا إسلامهم - وفيهم كفار لم يسلموا، ولذلك حين مروا في طريقهم إلى حنين بشجرة تُعرف بـ(ذات أنواط) قالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط؟ فأنكر عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك وقال: هذا كما قال قوم موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آله، لتركن سنة من قبلكم؟^(٣).

أسباب الهزيمة في بداية المعركة:

ولذلك كان هؤلاء أحد أسباب هزيمة المسلمين في الجولة الأولى من المعركة، إضافة إلى السبب الآخر المتمثل في إعجاب المسلمين بكثرتهم، وهو الذي نص عليه القرآن بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

(١) ابن سعد: الطبقات (٢/١٥٠).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٢/٤٧٤ - ٤٧٥).

(٣) سنن الترمذي (٣/٣٢١) وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/٢٣٥)، وأحمد ح (٢١٨٩٧)، وانظر السيرة لابن هشام (٤/١٢٠).

وقد ساق البيهقي بسنده أن رجلاً قال يوم حنين: لن نُغلب من قلة، فشق ذلك على رسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥] (١)، واختلف في اسم هذا القائل على أكثر من قول (٢).

وجاء أن أهل مكة والمدينة حين اجتمعوا -يوم حنين- وأعجبتهم كثرتهم، فقال القوم: اليوم والله ما نقاتل حين اجتمعنا، فكره ﷺ ما قالوا، ما أعجبهم من كثرتهم (٣).

أما هزيمة المسلمين -في الجولة الأولى- فقد ثبت من حديث أنس قوله: وكان على مُجَنَّبَةٍ (٤) خيلنا خالد بن الوليد، فجعلت خيلنا تلوي خلف ظهورنا، فلم نلبث أن انكشفت خيلنا، وفرت الأعراب، ومن نعلم من الناس، حتى نادى رسول الله: يا للمهاجرين، يا للمهاجرين ثم قال: يا للأنصار، يا للأنصار (٥).

وكان من أسباب الهزيمة للمسلمين في هذه الجولة أن عدوهم سبقهم إلى الوادي، فكمنوا لهم في شعابه ومضايقه وكانت هوازن رماة، فخرجت كتائبهم من مضيق الوادي، وحملوا حملة واحدة فرشقت المسلمين ففرّ من فرّ منهم سرعان القوم (٦).

(١) دلائل النبوة (٥/١٢٣ - ١٢٤)، ولا يصح أن قائل ذلك رسول الله ﷺ فقد أورده ابن إسحاق بسند منقطع (انظر: ابن هشام: السيرة ٤/١٢٤).

(٢) للمزيد والتحقيق: مهدي رزق الله: السيرة في ضوء المصادر الأصلية (ص ٥٨٤) هامش (٢٠)، د. قلعجي، في تعليقه على دلائل النبوة (٥/١٢٤) هامش (٢٣).

(٣) رواه الحاكم وصححه، وابن المنذر وابن مردويه، وأبو الشيخ وغيرهم -كما في الفتح الرباني- (٢١/١٦٩)، ونقله إبراهيم العلي في صحيح السيرة النبوية (ص ٤٣٥).

(٤) المجنبية: هي الكتيبة من الخيل تأخذ جانب الطريق، وقوله: تلوي: أي جعلت فرساننا يشنون أفراسهم ويعطفونها خلف ظهورنا (هامش صحيح مسلم - تعليق: محمد فؤاد عبد الباقي (٢/٧٣٧) هامش (١)، (٢)).

(٥) صحيح مسلم (٢/٧٣٧ ح ١٠٥٩)، الطبقات (٢/١٥١).

(٦) البخاري ح (٤٣١٥ - ٤٣١٦)، ومسلم ح (١٧٧٦)، وابن هشام: السيرة (٤/١٢١)، ابن سعد: الطبقات (٢/١٥١).



ويُفَصِّلُ في مشهد الهزيمة شاهد عيان (البراء) ﷺ - وهو ممن شهد حين-
 وسُئِلَ: أكنتم وليتم يوم حنين يا أبا عمارة؟ فأجاب بقوله: أشهد على نبي الله ﷺ ما
 ولي، ولكنه انطلق أخفاءً من الناس، وحسّر إلى هذا الحي من هوازن، وهم قوم رماة،
 فرمواهم برشق من نبل كأنها رجل من جراد، فأنكشفوا، فأقبل القوم إلى رسول الله
 ﷺ وأبو سفيان بن الحارث يقود به بغلته، فنزل، ودعا، واستنصر وهو يقول: (أنا النبي
 لا كذب، أنا ابن عبد المطلب) اللَّهُمَّ أنزل نصرك، قال البراء: كنا والله إذا احمر البأس
 نتقي به، وإن الشجاع منا للذي يُحاذي به، يعني النبي ﷺ (١).

وتُضَيِّفُ رواية صحيحة أخرى أن من أسباب هزيمة المسلمين، انكبابهم
 على الغنائم، ويقول البراء ﷺ: وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكبنا على الغنائم
 فاستقبلونا بالسهام (٢).

ثبات رسول الله ﷺ والمؤمنين معه:

وحيث صح ثبات رسول الله ﷺ في حنين، وعدم توليه، فقد اختلف في العدد
 الذي ثبت معه، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لقد رأيتنا يوم حنين وإن الناس
 لمولين، وما مع رسول الله ﷺ مائة رجل (٣).

قال ابن حجر: وهذا أكثر ما وقفت عليه من عدد من ثبت يوم حنين (٤).

وعن ابن مسعود ﷺ قال: ثبت معه ﷺ ثمانون رجلاً من المهاجرين والأنصار (٥).

(١) صحيح مسلم ح (١٧٧٦).

(٢) البخاري ح (١٣١٧)، ومسلم ح (١٧٧٦).

(٣) رواه الترمذي ح (١٦٨٩)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وحسنه ابن حجر في الفتح
 (٢٩/٨).

(٤) الفتح (٣٠/٨).

(٥) الفتح (٣٠/٨).

وعدَّ ابن إسحاق، وابن سعد أسماء من ثبت مع رسول الله ﷺ في حنين، فلم يزيدوا عن عشرة^(١)، ومال إليه ابن حجر فقال: ولعل هذا هو الثبت، ومن زاد على ذلك (العشرة) يكون عَجَل في الرجوع فَعُدَّ فيمن لم ينهزم^(٢).

الجولة الثانية في حنين وعوامل النصر:

ورغم الهزيمة والتولي - في هذه الجولة - إلا أن الجولة الثانية كانت للمسلمين، فكيف وقع ذلك؟ لا شك أن ثبات رسول الله ﷺ كان عاملاً مهمًا لثبات المسلمين وعودتهم لميدان المعركة مرة أخرى، وقد أمر عمه العباس ؑ - وكان جهوري الصوت - أن ينادي في المسلمين: يا أصحاب السمرة (أهل بيعة الرضوان)، فانعطفوا إلى رسول الله ﷺ حيث سمعوا الصوت كعطفة البقر على أولادها وقالوا: يا لبيك يا لبيك، فاقتتلوا والكفار، ثم كانت الدعوة في الأنصار: يا معشر الأنصار، ثم قُصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج: يا بني الحارث بن الخزرج، فتناول رسول الله ﷺ على بغلته ينظر إلى قتالهم وقال هذا حين حمي الوطيس، ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: انهزموا ورب محمد، يقول العباس - وكان يقود بغلته - فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدَّهم كيلاً، وأمرهم مدبراً^(٣).

وإذا كان ثبات رسول الله ﷺ ومن ناداهم، ورميه ﷺ بحصيات في وجوه الكفار عاملاً من عوامل النصر في حنين، فإن تشجيع النبي ﷺ للمسلمين على القتال ووعدهم بأن من قتل قتيلاً فله سلبه شكلاً عاملاً آخر في إقدام المسلمين، وحين قتل أبو قتادة ؓ

(١) ابن هشام: السيرة (٤/١٢٢)، ابن سعد: الطبقات (٢/١٥١).

(٢) الفتح (٨/٣٠).

(٣) صحيح مسلم ح (١٧٧٥، ١٧٧٧)، وبنحوه ابن هشام: السيرة (٤/١٢٧).

رجلاً من المشركين أُعطي سلبه^(١).

كما كان الرعب الذي أصاب المشركين عاملاً في هزيمتهم^(٢)، والسكينة التي نزلت على المسلمين عاملاً في نصرهم ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٢٦].

وكذا (جنود السماء) من الملائكة ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٢٦] قال ابن سعد: وكان سيماء الملائكة يوم حنين عمائم حُمر قد أرخوها بين أكتافهم^(٣).

وعند ابن إسحاق: مثل البجاد الأسود (يعني الكساء) أقبل من السماء، حتى سقط بيننا وبين القوم، فنظرت فإذا نمل أسود مبعوث قد ملأ الوادي، لم أشك أنها الملائكة، ثم هُزم القوم^(٤)، وتلك عوامل نصر إلهية، ينصر بها من يشاء من عباده الصادقين.

كما أمر النبي ﷺ بمطاردة الكافرين وطلبهم ومتابعة الفارين وجزهم - وأوماً بيده إلى حلقة - لإضعاف شوكتهم وحتى لا يعودوا للاجتماع والقتال^(٥).

الهزيمة الساحقة وعدد القتلى والأسرى:

وأسفرت هذه الجولة الثانية عن هزيمة ساحقة لهوازن وثقيف، وولوا الأذبار مخلفين عدداً من القتلى والأسرى، وقدراً عظيماً من الغنائم والسبي، حتى ذكر ابن

(١) انظر: البخاري ح (٣١٤٢)، ومسلم ح (١٧٥١)، ابن هشام: السيرة (٤/١٣٠)، ابن سعد: الطبقات (١٥١/٢).

(٢) ابن سعد: الطبقات (١٥١/٢).

(٣) الطبقات (١٥١/٢).

(٤) ابن هشام: السيرة (٤/١٣١).

(٥) الطبقات (١٥١/٢)، مجمع الزوائد (٦/١٨١) ورجاله ثقات، أكرم العمري: المجتمع المدني (ص ٢٠٤).

إسحاق سبعين قتيلاً من بني مالك من ثقيف^(١).

وصحَّ أن أبا قتادة رضي الله عنه قتل وحده - يوم حنين - عشرين رجلاً وأخذ سلبهم^(٢).

وعند ابن سعد من حديث ابن عباس عن أبيه رضي الله عنهما قال: قُتل من هوازن في حنين مثل ما قُتل من قريش يوم بدر^(٣).

وحين فرَّ المشركون ولحقهم المسلمون وقاتلوهم في (أوطاس)^(٤) فقد قتلَ (أبو عامر الأشعري) رضي الله عنه وحده تسعة إخوة^(٥).

وعند البزار بسند حسن: أن (الزبير) رضي الله عنه وجماعة من المسلمين معه، قتلوا ثلاثمائة فيهم دريد بن الصمة انحاز ومعه ستمائة إلى أكمة، فقصدهم الزبير ومن معه فقتلوا نصفهم^(٦).

أما السبي فبلغ ستة آلاف رأس، والإبل أربعة وعشرين ألف بعير، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة^(٧).

وقال عروة: ويزعمون أن ذلك السبي الذي أصاب يومئذ من هوازن كانت عدته ستة آلاف من نسائهم وأبنائهم^(٨).

(١) ابن هشام: السيرة (٤/١٣٢).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٢/٥١٩)، وأحمد ح (١٢١٣١)، والدارمي ح (٢٥٢٧).

(٣) الطبقات: (٢/١٥٤ - ١٥٥).

(٤) أوطاس: واد بين الطائف وحنين (انظر: المناسك للحربي، تعليق: حمد الجاسر (ص ٣٤٦)، وأكرم العمري: المجتمع المدني (ص ٢٠٧) هامش وهو غير وادي حنين كما رجح ابن حجر (الفتح ٨/٤٢).

(٥) ابن هشام: السيرة (٤/١٤٢).

(٦) ابن حجر: الفتح (٨/٤٢).

(٧) ابن سعد: الطبقات (٢/١٥٢)، وعبدالرزاق: المصنف (٥/٣٨١).

(٨) الطبري (٣/٨٢)، وحسن إسناده العمري: المجتمع المدني (ص ٢٠٦) هامش (١).

خسائر المسلمين في حنين:

وأمر النبي ﷺ بجمع هذه الغنائم والسبي في (الجعرانة) حتى يفرغ لقسمتها^(١) -كما سيأتي- وفي مقابل هذه الخسائر في الأرواح والممتلكات التي أصيبت بها هوازن وثقيف، فقد كانت خسائر المسلمين قليلة، وقد سمي ابن إسحاق وابن سعد منهم أربعة شهداء وإن اختلفوا في تسمية واحد منهم هل هو (يزيد بن زمعة) أو (رقيم بن ثعلبة)^(٢).

وعند البخاري ومسلم خبر استشهاد (أبي عامر الأشعري) في غزوة (أوطاس) وطلبه من النبي ﷺ أن يستغفر له، فقد أوصى ابن أخيه (أبا موسى الأشعري) رضي الله عنهما وقال: أقرئ النبي ﷺ السلام وقل له: استغفر لي، فلما بلغ أبو موسى رسالة (عمه) دعا رسول الله ﷺ بماء فتوضأ ثم رفع يديه فقال: اللَّهُمَّ اغفر لعبيد أبي عامر، اللَّهُمَّ اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس، فقلت (أبو موسى): ولي فاستغفر، فقال: اللَّهُمَّ اغفر لعبد الله بن قيس (أبو موسى) ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً^(٣).

وكم هم عظماء هؤلاء الصحابة في حياتهم، وحين احتضارهم، واستثمارهم للفرص التي ترفع موازينهم، وأعظم منهم نبهم ﷺ الذي كان يشجعهم ويدعو لهم! وهناك وقفات وتعليقات على (غزوة حنين) أرجى الحديث عنها حتى أستكمل (غزوة الطائف) للعلاقة بين الحديثين.



(١) ابن هشام: السيرة (٤/١٤٥).

(٢) ابن هشام: السيرة (٤/١٤٥)، وابن سعد: الطبقات (٢/١٥٢).

(٣) البخاري ح (٤٣٢٣)، ومسلم ح (٢٤٩٨).



غزوة وحصار الطائف:

ترتبط هذه الغزوة بحنين؛ وذلك أن المشركين في حنين حين انهزموا أتوا (الطائف) ومعهم قائدهم: مالك بن عوف، وعسكر بعضهم بـ(أوطاس)^(١)، وقد سبق محاصرة المسلمين لأوطاس وهزيمتهم، وقتل دريد بن الصمة^(٢).

بعث الطفيل لهدم ذي الكفين:

وقبل أن يسير رسول الله ﷺ إلى الطائف بعث (الطفيل بن عمرو الدوسي) إلى (ذي الكفين) صنم (عمرو الدوسي) ليهدمه، وليستمد قومه ويوافيه بالطائف، فخرج (الطفيل) مسرعاً وهدم (ذي الكفين) وهو يقول:

يا ذا الكفين لست من عبادكا

ميلادنا أقدم من ميلادكا

إني حشيت النار في فؤادكا

ثم انحدر مع قومه وهم أربعمائة سراعاً، فوافوا النبي ﷺ بالطائف بعد مقدمه بأربعة أيام، وقدم بدبابة ومنجنيق^(٣).

خروج النبي ﷺ وعلى مقدمته خالد ﷺ:

وقد خرج النبي ﷺ من (حنين) إلى (الطائف) في شوال سنة ثمان، وقدم خالد

(١) انظر: ابن هشام: السيرة (١٣٦/٤).

(٢) البخاري ح (٤٣٢٣)، ومسلم ح (٢٤٩٨).

(٣) ابن سعد: الطبقات (١٥٧/٢).



بن الوليد ﷺ على مقدمته، وقد تحصنت (هوازن) في حصنهم في الطائف، وأغلقوه وتهيؤوا للقتال، وأدخلوا فيه ما يصلحهم لسنة، ونزل رسول الله ﷺ قريباً من حصنهم وحاصرهم ثمانية عشر يوماً^(١)، وعند مسلم -من حديث أنس- ثم انطلقنا إلى الطائف فحاصرناهم أربعين ليلة^(٢)، ونقل ابن سعد عن مكحول: أن النبي ﷺ نصب المنجنيق على أهل الطائف أربعين يوماً^(٣).

مقاومة ثقيف وشهداء المسلمين:

ومع هذا الحصار فلم ينالوا من أهل الطائف شيئاً^(٤)، بل قاومت (ثقيف) ورمت المسلمين بالنبل وقتلت منهم رجالاً^(٥)، وقد سمي ابن إسحاق اثني عشر شهيداً من المسلمين، سبعة من قريش، وأربعة من الأنصار ورجلاً من بني ليث^(٦).

كما أصابت (ثقيف) آخرين من المسلمين بجراح، ولهذا قال النبي ﷺ: إنا قافلون إن شاء الله، فقتل ذلك على المسلمين وقالوا: نذهب ولا نفتح، فقال: اغدوا على القتال، فغدوا فأصابهم جراح، فقال: إنا قافلون إن شاء الله، فأعجبهم، فضحك النبي ﷺ^(٧).

أساليب إضعاف ثقيف:

وقد استخدم النبي ﷺ قبل قفوله من الطائف عدة أساليب لإضعاف ثقيف، ومن ذلك أنه ﷺ أمر بتحريق بساتينهم في ضواحي الطائف، ومنها العنب والنخيل -وكان

(١) ابن سعد: الطبقات (١٥٨/٢).

(٢) مسلم ح (١٣٦/١٠٥٩).

(٣) الطبقات (١٥٩/٢).

(٤) البخاري ح (٤٣٢٥).

(٥) ابن سعد: الطبقات (١٥٨/٢).

(٦) ابن هشام: السيرة (٤/١٨٠، ١٨٢).

(٧) البخاري ح (٤٣٢٥)، ومسلم ح (١٧٧٨).

لها أثر في إضعاف معنوياتهم— لكنهم ناشدوا النبي ﷺ أن يدعها لله وللرحم، فأجابهم ﷺ إلى ذلك^(١).

كما استخدم أسلوباً آخر حيث نادى منادي رسول الله ﷺ: أيما عبد نزل من الحصن (حصن الطائف) وخرج إلينا فهو حرٌّ، فنزل إلى النبي ﷺ ثلاثة وعشرون، منهم أبو بكر (نفيح بن الحارث) ﷺ، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة^(٢).

الدعاء لثقيف:

ولم يؤذن لرسول الله ﷺ في فتح الطائف، وكما كان القتل والقتال قليلاً في فتح مكة ومع أهل مكة—ولحكمة يعلمها الله— فقد كان القتال قليلاً في حصار الطائف ومع (ثقيف)، وحين قيل للنبي ﷺ: ادعُ على ثقيف، قال ﷺ: اللَّهُمَّ اهدِ ثقيفًا وائتِ بهم^(٣).

وتلك معدودة في شمائله ﷺ وكريم خلقه، ورحمته بالخلق ودعوتهم لما يحييهم.

من الطائف إلى الجعرانة لماذا؟

وعاد رسول الله ﷺ من الطائف إلى (الجعرانة) حيث ترك غنائم حنين قبل تحركه للطائف، فلما عاد لم يقسمها في المسلمين مباشرة، بل استأنى—يعني أنظر وفد هوازن بضع عشرة ليلة لعلمهم يُسلمون— فلما قدم وفد (هوازن) مسلمين، خيرهم رسول الله ﷺ بين إحدى الطائفتين (السبي أو المال)، فاختروا (السبي)، فقام النبي ﷺ في

(١) ابن سعد: الطبقات (٢/١٥٨)، ابن هشام: السيرة (٤/١٧٧)، البيهقي: السنن الكبرى (٩/٨٤)، الشافعي: الأم (٧/٣٢٣).

(٢) البخاري ح (٤٣٢٦ - ٤٣٢٧)، ابن القيم: زاد المعاد (٣/٤٩٧).

(٣) أخرجه أحمد (٣/٣٤٣)، والترمذي (٣٩٣٧) وقال: حديث حسن غريب، وانظر: زاد المعاد (٣/٤٩٧)، ابن هشام: السيرة (٤/١٨٣).

المسلمين وأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد، فإن إخوانكم قد جاؤوا تائبين، وإنني رأيت أن أرد إليهم سييهم، فمن أحب منكم أن يُطيب ذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يُفِيء الله علينا فليفعل، فقال الناس: قد طيبتنا ذلك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: إنا لا ندرى من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم، فرجع الناس، فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيَّبوا وأذنوا^(١).

قسمة غنائم حنين:

وفي قسمة غنائم حنين وقعت أحداث ومواقف وعبر، أشير إليها باختصار بما يأتي:

فقد أعطى ﷺ الطلقاء والمهاجرين، ولم يعطِ الأنصار شيئاً، وطيب خواطرهم بقوله: (أما ترضون أن يذهب الناس بالشاء والبعير وتذهبون برسول الله ﷺ)، وقال لهم: (لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار شعباً لاخترت شعب الأنصار)^(٢).

وقد ثبت أن النبي ﷺ أعطى قوماً حديثي عهد بجاهلية ومصيبة مائة من الإبل لكل واحد مثل الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، وأعطى ناساً أراد أن يجبرهم ويتألفهم^(٣).

وعند مسلم: أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، كل إنسان منهم مائة من الإبل، وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك، فقال عباس بن مرداس:

(١) البخاري ح (٤٣١٨ - ٤٣١٩) وللمزيد راجع: ابن حجر: الفتح (٣٣ / ٨ - ٣٤).

(٢) البخاري ح (٤٣٣٣، ٤٣٣٧)، ومسلم ح (١٠٥٩ / ١٣٥).

(٣) البخاري ح (٤٣٣٤، ٤٣٣٦).

أَجْعَلْ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعُبَيْدِ
 بَيْنَ عَيْنِنَا وَالْأَقْرَعِ
 فَمَا كَانَ بَدْرٌ وَلَا حَابِسٌ
 يَفُوقَانِ مَرْدَاسَ فِي الْمَجْمَعِ
 وَمَا كُنْتُ دُونَ أَمْرِي مِنْهُمَا
 وَمَنْ تَخَفَضَ الْيَوْمَ لَا يُرْفَعُ

فَأْتَمَّ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِائَةَ (١).

وكان ﷺ يهدف من وراء إعطاء هؤلاء تأليف قلوبهم وترغيبهم في الإسلام، وقد تحقق ذلك حتى قال أحدهم (صفوان بن أمية): والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يُعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ (٢).

وإزاء هذه القسمة النبوية استغرب الأنصار وتساءلوا وقالوا: إذا كانت شديدة فنحن نُدعى، ويُعطى الغنيمة غيرنا (٣)، وقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يُعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم (٤).

فما زال رسول الله ﷺ يتحدث إليهم ويقول: ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والإبل وتذهبون برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟ الأنصار شعار والناس دثار (البطانة

(١) ح (١٠٦٠).

(٢) مسلم ح (٢٣١٣).

(٣) البخاري ح (٤٣٣٧)، ومسلم ح (١٠٥٩/١٣٥).

(٤) البخاري ح (٤٣٣١)، ومسلم ح (١٠٥٩).



والخاصة)، وما زال يحدثهم حتى قالوا: رضينا يا رسول الله^(١).

وهكذا حين علم الأنصار الحكمة في التوزيع رضوا وسلموا، أما غيرهم فقد لَجَّ في غيه وتفوه بكلمات لا تليق بمقام النبوة مثل: (إنها قسمة ما عدل فيها، وما أريد بها وجه الله)، ومن هنا غضب الرسول ﷺ غضبًا شديدًا ثم قال: قد أوذى موسى بأكثر من هذا فصبر^(٢).

وفي رواية أخرى كشفت القائل وأتباعه وأنه زعيم الخوارج، فقد قال: اتق الله يا محمد؟ فقال: فمن يطع الله إن عصيته... إلى قوله ﷺ: إن من ضئضي هذا قومًا يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لأن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد^(٣).

وكذلك تختلف المواقف وردود الأفعال حسب ما فيها من علم ويقين، أو جهل ونفاق، ويبقى رسول الله ﷺ حكمًا عدلاً ومربيًا متفوقًا، وداعيًا ومؤلفًا للقلوب.

من فقه حُنين وماذا عن هوازن وثقيف؟

هناك علاقة نسب وعلاقة مصالح مشتركة بين قريش وهوازن وما تفرع عنها مثل (ثقيف)، ولذلك وقفت (هوازن) مع (قريش) فكريًا في عدائها للإسلام والمسلمين، منذ الفترة المكية، واستمرت حتى بعد فتح مكة - كما سبق البيان - ولكن الالفت للنظر أن (هوازن) وقفت بعيدًا عن الصراع العسكري الكبير بين قريش والمسلمين

(١) البخاري ح (٤٣٣١)، ومسلم ح (١٠٦١).

(٢) البخاري ح (٤٣٣٦)، ومسلم ح (١٠٦٢).

(٣) مسلم ح (١٠٦٣ - ١٠٦٤) وقد سماه ابن إسحاق (ذو الخويصرة التميمي)، ابن هشام: السيرة (١٩٦/٤)، وجاءت تسميته بذئ الخويصرة (وهو رجل من بني تميم) عند البخاري ح (٦٩٣٣)، ومسلم ح (١٠٦٥)، ففيهما: وهو يقسم قسمًا أتاه ذو الخويصرة...

-بعد الهجرة للمدينة- فليس لهم ذكر في (بدر)، (وأحد) و(الخدق) ونحوها، وظهرت مشاركة أحد أفرادهم في السلم، حين كان (عروة بن مسعود الثقفي) أحد المفوضين عن قريش في (صلح الحديبية)، ويُعلل د. العُمري عدم اشتراك ثقيف في الأحداث التي جرت حتى فتح مكة بأنه يرجع إلى اعتمادها على قريش، وضعف تصورهما لحقيقة القوة الإسلامية، كما يُعلل (العُمري) عدم نجدة هوازن وثقيف لقريش -حين توجه المسلمون لفتح مكة- لنجاح خطة المسلمين في كتمان هدف تحركهم، كما كانت (هوازن) تظن أنها مستهدفة من قبل المسلمين لذلك لم تدافع عن مكة وقريش^(١).

ويذكر ابن القيم (رحمه الله) كلامًا جميلًا في تعليقه لتأخر إسلام (هوازن)، إلى أن حكمة الله اقتضت أن أمسك قلوب (هوازن) ومن تبعها عن الإسلام حتى قاتلهم رسول الله ﷺ وقاتلوه في (حنين والطائف)؛ وذلك ليظهر أمر الله وتمايم إعزازه لرسوله ﷺ ونصره لدينه، ولتكون غنائمهم شكرًا لأهل الفتح، وليُظهر قهرهم لهذه الشوكة العظيمة التي لم يلقِ المسلمون مثلها، فلا يُقاومهم بعدُ أحدٌ من العرب^(٢).

واستطرد ابن القيم في ذكر عدد من الحُكم لتأخر إسلام (هوازن) ومما قال: أن الله سبحانه افتتح غزو العرب بغزوة (بدر) وختم غزوهم (بحنين)، وبهاتين الغزوتين طُفئت جمره العرب لغزو رسول الله ﷺ، ف(بدر) خوَّفتهم وكسرت من حدَّتهم، و(حنين) استفرغت قواهم واستنفدت سهامهم ولم يجدوا بُدًا من الدخول في الإسلام، ولذا يُقرن بين الغزوتين ويُذكر الشبه بينهما (نزول الملائكة فيهما، ورميه ﷺ وجوه المشركين بالحصباء)^(٣).

(١) د. أكرم العُمري: المجتمع المدني، الجهاد ضد المشركين (ص ١٩٢).

(٢) زاد المعاد (٣/٤٧٧).

(٣) زاد المعاد (٣/٤٧٩).

على أن من دروس (حنين) أن أذواق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكسرة مع كثرة عددهم وعدتهم وقوة شوكتهم، وذلك لِيُطامن رُؤوساً رُفعت بالفتح، وليبين سبحانه لمن قال (لن نُغلب اليوم من قلة) أن النصر من عند الله، فلما وُلّوا مدبرين وانكسرت قلوبهم أرسلت خلع الجبر مع بريد النصر، وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم يروها^(١).

وقد ثبت أن النصر في النهاية للمسلمين، (فاقتتلوا بحنين فنصر الله دينه والمسلمين)^(٢).

وحيث سبق مجيء وفد (هوازن) مسلمين، ورد عليهم رسول الله ﷺ سباياهم، فقد تأخر أهل الطائف (ثقيف) في إسلامهم حتى عاد رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، وقدم وفداهم إليه في المدينة برئاسة عبد ياليل بن عمرو، ومعه ثلاثة من بني مالك، واثنان من الأحلاف، فكان الوفد ستة فأسلموا، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً، وأمر عليهم عثمان بن أبي العاص الثقفي - وكان أحدثهم سنّاً - وذلك أنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن^(٣).

وقد سبقهم إلى الإسلام (عروة بن مسعود الثقفي) ورجع إلى الطائف لدعوة قومه، وأذن في أعلى منزله فرماه بعضهم بسهام فأصابوه، فطلب من قومه أن يدفنه مع شهداء المسلمين في حصار الطائف^(٤).

(١) ابن القيم: زاد المعاد (٣/ ٤٧٧ - ٤٧٨).

(٢) مسلم ح (٢٣١٣).

(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٩٩ - ٥٠٠)، وفي مسلم (أن النبي ﷺ أمر عثمان الثقفي أن يؤم قومه ح (٤٦٨)).

(٤) السيرة لابن هشام (٤/ ٣٤٦ - ٣٤٧).

أما زعيمهم مالك بن عوف النصرى فقد سأل النبي ﷺ عنه قومه: ماذا فعل مالك؟ قالوا: هو بالطائف، فقال لهم ﷺ: أخبروه أنه إن أتاني مسلماً رددت إليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل، فأتى إليه مالك على خوفٍ من قومه أن يحبسوه، وأدرك النبي ﷺ بالجعرانة أو مكة، فردَّ عليه أهله وأعطاه ما وعد^(١).

وعند ابن إسحاق: وأسلم مالك وحسن إسلامه، واستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه، فكان يُقاتل بها ثقيفاً^(٢).

وكذلك عاد (مالك) داعياً ومدافعاً عن الإسلام بعد أن كان عدواً مقاتلاً لأهل الإسلام، والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، وفضل الله عظيم ورحمته أوسع لمن اهتدى.

دروسٌ أُخرٌ وعبرٌ من حنين:

على أن دروس (حنين، وحصار الطائف) كثيرة، وتحدث عنها المتقدمون والمتأخرون وأذكر منها غير ما سبق ما يأتي:

(١) تقديم المصالح الكبرى على ما دونها، وإن لم تظهر حكمتها لأول وهلة، وإلى هذا أشار بن تيمية رحمه الله في حكمة تقسم غنائم حنين، حيث أعطاه لمن في تأليفهم على الإسلام مصلحة عامة للمسلمين، ولو كان العطاء للحاجة مقدماً على العطاء للمصلحة لم يُعط النبي ﷺ هؤلاء الأغنياء السادة المطاعين في عشائهم ويدع إعطاء من عنده من المهاجرين والأنصار الذين هم أحوج وأفضل^(٣).

(١) رواه الطبراني ورجاله ثقات مجمع الزوائد (٦/١٨٩)، وانظر: ابن هشام: السيرة (٤/١٨٧)، وابن حجر: الإصابة (٩/٦٥، ٦٤).

(٢) ابن هشام: السيرة (٤/١٨٧ - ١٨٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/٥٧٩ - ٥٨٠) باختصار.

(٢) يلحظ أن النبي ﷺ لم يُعنف من فرّ من المسلمين في حنين، ولما قيل له: تقتل الطلقاء، قال: (إن الله قد كفى وأحسن)^(١)، واللوم والتعنيف لأمر مضت ولا سبيل إلى تداركها - لا سيما في ساحات القتال - لا معنى له، بل يحسن التماس العذر والتجاوز والإقلال من الثريب، ذلك منهج نبوي، وخلق عظيم من أخلاق رسول الله ﷺ^(٢).

(٣) قال ابن كثير عن حكمة تأخير فتح الطائف: وكانت الحكمة أن يؤخر الفتح عامئذ لئلا يُستأصلوا قتلاً، وأن يُؤخر الفتح ليقدموا بعد ذلك مسلمين في رمضان من العام المقبل^(٣).

(٤) حقوق الإنسان، ورعاية الضعفاء من الشيوخ والنساء والأطفال، لا تكاد تخطئ عين الناظر في أحداث السيرة النبوية، وفي غزوة حنين رأى النبي ﷺ امرأة مقتولة فنهى عن ذلك وقال: ما كانت هذه تقاتل^(٤).

(٥) كما نهى عن قتل الذراري، وحين قيل له: إنهم أولاد المشركين، قال: وهل خياركم إلا أولاد المشركين، والذي نفس محمد بيده ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يُعرب عنها لسانها^(٥).

فهل بلغت حضارة قديمة أو حديثة ما بلغه الإسلام في تكريم النفس البشرية، وصيانة حقوق المرأة غير المقاتلة، والذراري المسالمة؟

(١) رواه مسلم ح(١٨٠٩)، وفيه خبر أم سليم رضي الله عنها واتخاذها (خنجرًا) في حنين، وحين سألها النبي ﷺ لماذا تحمله؟ قالت: إذا دنى مني أحد من المشركين بقرت بطنه، فضحك رسول الله ﷺ.

(٢) د. زيد الزيد: فقه السيرة (ص ٦١٧) بتصرف.

(٣) البداية والنهاية (٧/ ٨١، ٨٢) باختصار.

(٤) أبو داود في سننه (٤٩/٢ - ٥٠)، وابن ماجه ح(٢٨٤٢)، وأحمد ح(١٥٩٩٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢/ ٥٠٧).

(٥) مسند أحمد (٣/ ٤٣٥)، وانظر: د. أكرم العمري: المجتمع المدني (ص ٢٠٤).

ونحن اليوم نشهد الحصار والتدمير واستهداف الشيوخ والنساء والأطفال فيالي
الله المشتكى، ولا تعني هزيمة الشعوب وأذاهم هزيمة حضارتهم وتجاهل قيم
تاريخهم.

(٦) قال ابن القيم: ومن فقه غزوة حُنين أن الإمام له أن يستعير سلاح المشركين
وعدّتهم لقتال عدوه كما استعار رسول الله ﷺ أذراع صفوان وهو يومئذ
مشرك^(١)، على ألا يكون في ذلك أي تأثير على صبغة الحرب^(٢)، وأن يكون
كيان الإسلام راسخًا، ولا تفرض على المسلمين شروط تُخلّ بالتزامهم
العقدي^(٣).



(١) زاد المعاد (٣/٤٧٩).

(٢) د. مهدي رزق الله: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٦٠٢).

(٣) د. أكرم العمري: المجتمع المدني (ص ١٩٦).

غزوة تبوك^(١) أو (العسرة):

سميت بـ(تبوك) لحديث النبي ﷺ: (ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك)^(٢)، وتُسمى (العسرة) لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧]، ولأنهم خرجوا في عُسرة من الماء، وعسرة من الظهر، وعسرة من النفقة^(٣)، ولهذا كانت الغزوة في زمن بلاء وشدة على المسلمين ولشدتها وبُعد الشُّقة في تبوك أخبر النبي ﷺ المسلمين بمسيرهم إليها دون أن يُوري كما كان يُوري غيرها، (والتورية أن يخبرهم أنه يُريد غير الوجه الذي يقصده)^(٤)، وتسمى الفاضحة، لفضحها المنافقين^(٥).

وكانت في شهر رجب من سنة تسع قبل حجة الوداع بلا خلاف^(٦)، وهي آخر غزوة غزاها النبي ﷺ^(٧).

سبب الغزوة:

وعن سببها قال ابن سعد وشيخه الواقدي: بلغ رسول الله ﷺ أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة وأجلبت معه لخم، وجُدام،

(١) تبوك: مكان معروف هو نصف الطريق من المدينة إلى دمشق، وبينه وبين المدينة أربع عشرة مرحلة (ابن حجر: الفتح ٨/١١١)، وهي شمال الحجاز وتبعد عن المدينة ٧٧٨ كيلاً، حسب الطريق المعبدة في زماننا (د. أكرم العمري: المجتمع المدني ص ٢٢٩).

(٢) مسلم (٤/١٧٨٤)، (ح ٧٠٦).

(٣) ابن سعد: الطبقات (٢/١٦٧).

(٤) ابن هشام: السيرة (٤/٢١٦).

(٥) المواهب اللدنية للزرقاني (٣/٦٢).

(٦) السيرة لابن هشام (٤/٢١٥)، ابن سعد: الطبقات (٢/١٦٥)، ابن حجر: الفتح (٨/١١١).

(٧) ابن سعد: الطبقات (٢/١٦٧).

وعاملة، وغسان، وقدموا مقدماتهم إلى اللقاء فندب رسول الله ﷺ الناس للخروج وأعلمهم بالمكان الذي يريد ليتأهبوا له^(١).

بينما يرى اليعقوبي أن تبوك ثار لجعفر بن أبي طالب ﷺ^(٢).

ولا يخفى ما في هذا السبب من تكلف ونزعة مذهبية.

وثمة سبب ذكره ابن كثير ومال إليه وصححه د. العمري وقال: ولكن الصحيح أنها (أي تبوك) استجابة طبيعية لفريضة الجهاد، وقد نبه عليه ابن كثير بقوله: فعزم رسول الله ﷺ على قتال الروم لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله، وقد قال الله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَتَلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾^(٣).

وينفي (العمري) أن يكون سببها مشورة يهود على النبي ﷺ بالذهاب إلى أرض الروم وأنها أرض المحشر وأرض الأنبياء^(٤).

عدد جيش المسلمين في تبوك مقارنة بعددهم في حنين:

وكان عدد جيش المسلمين في تبوك ثلاثين ألفاً^(٥).

وحين نقارن بين هذا الرقم وعدد جيش المسلمين في حنين (وهي قبيل تبوك)

(١) الطبقات (٢/١٦٥)، المغازي للواقدي (٣/٩٩٠).

(٢) تاريخ اليعقوبي (٢/١٦٥).

(٣) انظر د. أكرم العمري: المجتمع المدني (ص ٢٢٧)، ابن كثير: البداية والنهاية (٧/١٤٤ - ١٤٥).

(٤) المجتمع المدني (ص ٢٢٧ - ٢٢٨).

(٥) الواقدي: المغازي (٣/٩٩٦)، ابن سعد: الطبقات (٢/١٦٦)، وفي البخاري ح (٤٤١٨)، ومسلم

ح (٢٧٦٩) عن كعب: والمسلمون مع رسول ﷺ كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ وقيل أكثر من ثلاثين

ألفاً وجمع ابن حجر بينها ومال إلى رأي أهل السير أنهم ثلاثون ألفاً (الفتح: ٨/١١٧ - ١١٨)،

وانظر: د. مهدي رزق: السيرة النبوية (ص ٦٢٣ - ٦٢٤).

(اثنا عشر ألفاً)، ندرك انتشار الإسلام في هذه المدّة، ونجاح خطة النبي ﷺ في زيادة عدد المسلمين في إثر صلح الحديبية وفتح مكة^(١).

صدق المؤمنين في المشاركة أو الاعتذار في تبوك:

ولا شك أن غزوة تبوك كانت امتحاناً لأهل الإيمان وكاشفة لأهل النفاق، حيث تسابق المؤمنون للنفقة رغم شدة الحال، وكان لعثمان بن عفان ﷺ اليد الطولى في النفقة في تبوك، فقد قال النبي ﷺ: من جهز جيش العسرة فله الجنة، فجهزه عثمان ﷺ^(٢). وقد ورد أنه جهزهم بثلاثمائة بعير^(٣)، كما ورد أنه جاء بألف دينار فوضعها في حجر النبي ﷺ فقال ﷺ: ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم^(٤).

وأسهم عبد الرحمن بن عوف ﷺ بألفي درهم أو أربعة آلاف درهم، وهي نصف ماله؛ لتجهيز جيش العسرة^(٥)، كما أسهم عاصم بن عدي الأنصاري ﷺ في صدقات تبوك، وهو وعبد الرحمن بن عوف ممن لمزهم المنافقون ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩]^(٦).

بل بلغ الحال في تسابق المؤمنين للصدقة أن بعضهم (أبو عقيل ﷺ) لا يجد إلا نصف صاع وآخر أكثر منه، فيلمزهم المنافقون^(٧).

(١) انظر: صحيح الأثر/ د. السلمي وزملاؤه (ص ٢٦٩).

(٢) البخاري ح (٢٧٧٨).

(٣) الفتح (٤٠٨/٥).

(٤) رواه الترمذي ح (٣٧٠١)، وأحمد في مسنده (٦٣/٥) بسند حسن كما في صحيح سنن الترمذي (٣/٢٠٩)، والحاكم في مستدركه (٣/١٠٢)، وصححه ووافقه الذهبي، وانظر: ابن حجر: الفتح (٤٠٨/٥).

(٥) انظر تفسير الطبري (٦/٤٣٠ - ٤٣١)، وابن حجر: الفتح (٨/٣٣٢).

(٦) انظر: تفسير الطبري (٦/٤٢٩، ٤٣١).

(٧) البخاري ح (٤٦٦٨)، ومسلم ح (١٠١٨)، وانظر تفسير الطبري (٦/٤٣١).

وعند مسلم: أن (أبا خيثمة الأنصاري) تصدق بصاع فلمزه المنافقون^(١).

وأعجب من ذلك من لا يملك شيئاً يتصدق به، فيقوم الليل مصلياً ثم يبكي ويقول: اللَّهُمَّ إنك أمرت بالجهاد ورجبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسول الله ﷺ، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها من مال أو جسد أو عرض، ثم يأتي الخبر إلى النبي ﷺ فيقول: أين المتصدق البارحة؟ فلم يَقم أحد، حتى قصده النبي ﷺ وهو (عُلبة بن زيد ؓ)، وقال له: أبشر، فوالذي نفسي بيده لقد كُتبت في الزكاة المتقبلة^(٢).

شَحَّ المنافقين ولمزهم المؤمنين:

وفي مقابل هذا الإنفاق والكرم كان المنافقون يقفون على الطرف الآخر، فهم لم يكتفوا بعدم النفقة بل سخرُوا من المتصدقين، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩]، فكانوا يقولون: إن الله لغني عن صدقة هذا (للفقراء)، وما فعل الآخر (أي الموسرون) إلا رياء وسمعة^(٣).

صدق المؤمنين في المشاركة أو الاعتذار في تبوك:

وكما علا كعب الإيمان والمؤمنين في النفقة، فقد كانوا كذلك في المشاركة في الغزوة رغم شدة الحال وشدة الحر، فلم يتخلف عن المشاركة في تبوك إلا من عذره

(١) ح (٢٧٦٩).

(٢) حديث صحيح ورد مسنداً موصولاً كما قال ابن حجر في الإصابة (٧/٤٢)، وصححه الألباني في تعليقه على السيرة للغزالي (٤٣٩)، وانظر: ابن القيم: زاد المعاد (٣/٥٢٨ - ٥٢٩)، وإبراهيم العلي: صحيح السيرة (ص ٤٦٦).

(٣) أخرجه البخاري ح (٤٦٦٨)، ومسلم ح (١٠١٨).

الله، ولذا عدَّهم الرسول ﷺ مشاركين في تبوك وإن بقوا في المدينة وقال عنهم: (إن بالمدينة أقوامًا ما سرتهم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة حسبهم العذر)^(١).

وحين طلب النبي ﷺ من علي ﷺ أن يخلفه في أهله، قال: يا رسول الله، تُخلفني في النساء والصبيان؟ حتى قال له النبي ﷺ: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ غير أنه لا نبي من بعدي^(٢).

وعند ابن إسحاق: أن المنافقين رجفوا بعلي ﷺ، وقالوا: خلفه استثقلاً له، فلما طمأنه النبي ﷺ رجع إلى المدينة^(٣).

وبعض من تخلف من المؤمنين في البداية لحق بالنبي ﷺ كأبي خيثمة الأنصاري ﷺ، وهو الذي رآه النبي ﷺ بعدما تحرك من المدينة يزول به السراب فقال ﷺ: كن أبا خيثمة، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري^(٤).

وحين تخلف أبو ذر وأبطأ به بغيره، فأخذ متاعه فجعله على ظهره حتى لحق برسول الله ﷺ في بعض منازلهم، وحينها قال ﷺ: رحم الله أبا ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده، وقد مات ﷺ بالربذة وحده^(٥).

(١) البخاري ح (٤٤٢٣)، ومسلم ح (١٩١١) باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر.

(٢) البخاري ح (٤٤١٦)، ومسلم ح (٢٤٠٤).

(٣) السيرة لابن هشام (٢٢١/٤).

(٤) مسلم ح (٢٧٦٩)، وانظر: ابن هشام: السيرة (٢٢٢/٤).

(٥) أخرجه الحاكم في مستدرکه (٣/٥٠ - ٥١)، وصححه ووافقه الذهبي مع إرساله، وحسنه السندي

في: الذهب المسبوك في غزوة تبوك (ص ٣٠٧ - ٣٠٩)، وانظر: ابن هشام: السيرة (٢٢٧/٤)

وحسنه ابن كثير وزاد قول ابن مسعود ﷺ: صدق رسول الله ﷺ (البداية والنهاية ٧/١٥٩)، وحكم

ابن حجر على ضعف سند ابن إسحاق في قصة تخلف أبي ذر في تبوك (الإصابة: ١١/١٢٢).

الثلاثة الذين خلفوا:

أما الثلاثة الذين خلفوا (هلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وكعب بن مالك رضي الله عنه)، فلهم شأن آخر، وقصة عظيمة، كفاهم فخراً أن الله أنزل بشأنهم وتوبتهم قرآناً يتلى إلى يوم القيامة، ووصفهم الله بالصادقين ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿التوبة: ١١٨، ١٩٩﴾^(١).

وقد جاءت قصتهم مفصلة في كتب السنة والسيرة وغيرها^(٢)، وفي قصة الثلاثة دروس وعبر ووقفات تستحق النظر^(٣).

المنافقون في غزوة تبوك:

وحيث صدق المؤمنون - من سار مع النبي ﷺ أو تخلف عنه - فقد انكشف المنافقون، وتثاقلوا وأبدوا أعداراً واهية لعدم الخروج إلى تبوك، وقد كشفهم القرآن وفضحهم ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿التوبة: ٨١﴾. وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أُنذِرَنِي وَلَا تُنذِرَنِي وَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿التوبة: ٤٩﴾، وذهب بعضهم مبدين أعداراً كاذبة للنبي ﷺ فأذن لهم، وعاتبه الله بقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكٰذِبِينَ ﴿التوبة: ٤٣﴾.

(١) التوبة (١١٨-١١٩).

(٢) انظر: صحيح البخاري ح (٤٤١٨)، ومسلم ح (٢٧٦٩)، ابن هشام: السيرة (٢٣٨/٤، ٢٤٥)، وابن سعد: الطبقات (١٦٦/٢).

(٣) يراجع: الفتح (١٢١/٨، ١٢٤).



ويرى ابن القيم أن عدم قتل النبي ﷺ للمنافقين وقد بلغه عنهم الكفر الصريح كان تأليفاً للقلوب، وجمعاً للكلمة، وعدم تنفير الناس، وهذا أمر خاص بحياة النبي ﷺ^(١). وبلغت بهم الوقاحة والجرأة والكذب على الله ورسوله أن بنوا مسجداً قبيل غزوة تبوك، وذلك ليكون مركزاً لاجتماعهم وتأميرهم على المسلمين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله (أبو عامر الفاسق)، وزعموا أنهم بنوه للمنفعة والتوسعة على من عجز عن الوصول إلى مسجد رسول الله ﷺ، وكشف القرآن أنهم بنوه (ضاراً، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله، وتفريقاً بين المؤمنين) وقد طلبوا من النبي ﷺ أن يصلي لهم فيه قبل تحركه إلى تبوك، فأرجأهم النبي ﷺ إلى حين عودته من الغزوة، حتى إذا نزل عليه قول الحق سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ لا تقم فيه أبداً لمسجد أُسس على التقوى من أول يومٍ أحق أن تقوم فيه... ﴿ [التوبة: ١٠٧، ١٠٨]، أمر النبي ﷺ بإحراقه، فكان هذا المسجد رمزاً (للضرار) لكل عمل ظاهره الصلاح وباطنه الكفر البواح^(٢)، وهو كما قال ابن كثير: صورة مسجد وهو دار حرب في الباطن^(٣) وكل مكان هذا شأنه فواجب على الإمام تعطيله إما بهدم وتحريق، وإما بتغيير صورته وإخراجه عمماً وضع له^(٤).

وحيث خرج نفرٌ من هؤلاء المنافقين مع رسول الله ﷺ إلى تبوك، فقد كانوا بلاءً وفتنة، بل بلغ بهم الحال إلى محاولة قتل النبي ﷺ في طريق عودته من تبوك فقد نادى مناديه

(١) زاد المعاد (٣/ ٥٦٧ - ٥٦٨).

(٢) عن مسجد الضرار انظر: تفسير الطبري (٦/ ٤٦٩، ٤٧٢)، والذهب المسبوك د. السندي وصحح إسناده (ص ٣١٤ - ٣١٩)، ومهدي رزق الله: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٦٢٠).

(٣) البداية والنهاية (٧/ ٢٣٠).

(٤) ابن القيم: زاد المعاد (٣/ ٥٧١).

ﷺ إن رسول الله أخذ بالعقبة فلا يأخذها أحد، ثم أقبل رهط متلثمون فغشوا (عمارًا ﷺ) وهو يسوق برسول الله ﷺ، فضرب (عمار) وجوه رواحلهم، فلما نزل الوادي قال ﷺ لعمار: هل عرفت القوم؟ وهل تدري ما أرادوا؟ قال: عرفت الرواحل والقوم متلثمون، فقال ﷺ: أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ فيطرحوه، وهم أربعة عشر رجلًا أو خمسة عشر، وعذر ﷺ منهم ثلاثة، قالوا: ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ ولا علمنا ما أراد القوم، أما بقيتهم فقد قال عمار ﷺ: (أشهد أن الاثني عشر الباقيين حربٌ لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد)^(١).

ومن دروس غزوة تبوك:

وثمة أحداثٌ آخر ودروس وعبر وقعت في غزوة تبوك أذكر منها ما يأتي:

(١) لما نزل النبي ﷺ الحجر في غزوة تبوك أمر المسلمين ألا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها، وأمرهم بطرح عجينهم الذي عجنوه، ويهرقوا الماء الذي استقوه منها، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة (ناقة صالح)^(٢).

والحكمة من ذلك كما قال ﷺ: (لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، حذرًا أن يصيبكم مثل ما أصابهم)^(٣)، وفي رواية للبخاري ومسلم: (ثم قَنَّع ﷺ رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي)^(٤).

(١) مسند أحمد (٤٥٣/٥) ورجاله ثقات كما قال الهيثمي: مجمع الزوائد (٦/١٩٥)، وانظر: صحيح مسلم (٤/٢١٤٤، ح ٢٧٧٩).

(٢) البخاري ح (٣٣٧٩)، ومسلم ح (٢٩٨١).

(٣) البخاري ح (٣٣٨٠)، ومسلم ح (٢٩٨٠).

(٤) البخاري ح (٤٤١٩)، ومسلم ح (٢٩٨٠).



واستنبط ابن القيم (رحمه الله) من هذا: أن من مرَّ بديار المغضوب عليهم والمعذبين لم ينبغ له أن يدخلها ولا يقيم بها، بل يسرع السير، ويتقنع بثوبه حتى يجاوزها، ولا يدخل عليهم إلا باكيًا معتبرًا^(١).

كما أخبر النبي ﷺ أنها ستهب عليهم ريح شديدة، فلا يقوم من أحد، فهبت الريح فقام رجل فألقته بجبل طيء^(٢) وعند ابن إسحاق: خرج رجلان من بني ساعدة، فخنق أحدهما، وألقت الريح الآخر بجبل طيء^(٣).

٢) وفي قصة الثلاثة الذين خَلَفُوا امتحان وبلاء للمؤمنين وتنبية لغيرهم من الوقوع في الخطأ، قال الحسن البصري (رحمه الله): يا سبحان الله ما أكل هؤلاء الثلاثة مالا حرامًا، ولا سفكوا دمًا حرامًا، ولا أفسدوا في الأرض، أصابهم ما سمعتم، وضأقت عليهم الأرض بما رحبت، فكيف بمن يواقع الفواحش والكبائر؟^(٤).

وفي قصة الثلاثة درس في الصدق والتحذير من الكذب، حتى قال كعب -بعد نزول توبتهم-: فوالله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط -بعد أن هداني للإسلام- أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ ألا أكون كذبتة فأهلك كما هلك الذين كذبوا^(٥).

(١) زاد المعاد (٣/ ٥٦٠).

(٢) البخاري ح (١٤٨١)، ومسلم ح (١٣٩٢).

(٣) السيرة لابن هشام (٤/ ٢٢٤).

(٤) ابن حجر: الفتح (٨/ ١٢٣).

(٥) البخاري ح (٤٤١٨)، ومسلم ح (٢٧٦٩).

على أن ابن كثير ذكر أن المتخلفين في غزوة تبوك كانوا أربعة أقسام:

(أ) مأمورون مأجورون كعلي بن أبي طالب، ومحمد بن مسلمة^(١)، وابن أم مكتوم رضي الله عنه.

(ب) معذورون وهم الضعفاء والمرضى والمُقلُّون وهم البكاؤون.

(ت) عصاة مذنبون وهم الثلاثة وأبو لبابة^(٢) وأصحابه المذكورون.

(ث) وآخرون ملومون مذمومون وهم المنافقون^(٣).

(٣) لم يقع قتال مع الروم في غزوة تبوك، ولم يلق جمعاً من الروم ولا من القبائل العربية المنتصرة رغم بقاءه بتبوك عشرين ليلة^(٤)، وعند ابن إسحاق: بضع عشرة ليلة^(٥).

لكنه صالح صاحب (آيلة) واسمه (يُحَنَّة بن رُؤبة)، ودفع الجزية وكتب له النبي ﷺ كتاباً وبعث خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى (أكيدر دومة) وهو (أكيدر بن عبد الملك) وكان نصرانياً، فجاء به خالد، وحقن له النبي ﷺ دمه، وصالحه على الجزية^(٦).

(١) ذكر ابن القيم: أن محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه هو الذي خلفه النبي ﷺ على المدينة استخلافاً عاماً، أما علي رضي الله عنه فخلفه على أهله (زاد المعاد: ٣/ ٥٦٠).

(٢) أبو لبابة ممن تخلف عن تبوك وربط نفسه بسارية وقال: لا أحل نفسي منها ولا أذوق طعاماً ولا شرباً حتى يتوب الله عليّ أو أموت، فمكث سبعة أيام حتى خر مغشياً عليه، ثم تاب الله عليه... ابن عبد البر: الاستيعاب بهامش الإصابة (١٢/ ١٠٩ - ١١٠).

(٣) البداية والنهاية (٧/ ٢٠٠).

(٤) موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان (ص ١٤٥)، وصحح إسناده د. العمري: المجتمع المدني (ص ٢٤١).

(٥) ابن هشام: السيرة (٤/ ٢٣٢).

(٦) ابن هشام: السيرة (٤/ ٢٣٠، ٢٣٢)، وأصل القصة في الصحيحين، البخاري ح (١٤٨١)، ومسلم ح (١٣٩٢).



ونقل ابن القيم عن موسى بن عقبة أن النبي ﷺ دعا (يُحْنَةُ) و(أَكِيدِر) إلى الإسلام فأبىا، وأقرا بالجزية، فقاضاهما رسول الله ﷺ على قضية دُومة، وعلى تبوك، وعلى آيلة، وعلى تيماء^(١).

٤) في هذه الغزوة ذهب النبي ﷺ يقضي حاجته، فتأخر عن المسلمين (صلاة الفجر)، فصلى بالمسلمين عبد الرحمن بن عوف ؓ، فلما سلم الناس -وقد أدرك النبي ﷺ معهم الركعة الثانية- أعظموا ما وقع، فقال لهم رسول الله ﷺ: أحستتم وأصبتتم^(٢).

وفيه منقبة لعبد الرحمن بن عوف ؓ حيث أمَّ بالنبي ﷺ، وما عليه الرسول ﷺ من حسن الخلق حيث خفف على الناس ما فعلوا حين تأخر ولم يُعنفهم، بل قال: أحستتم وأصبتتم.

وفي الحديث كذلك مسحه ﷺ على العمامة والخف، وذلك من يسر الشريعة، ومن أدلة جواز المسح على الخفين والعمامة.

٥) في قصة كعب أنه حين سمع البُشرى بتوبته خرَّ لله ساجداً^(٣)، ومشروعية سجود الشكر والاستباق إلى البشارة بالخير وإعطاء البشير أنفُس ما يحضر لمن بشره، وتهنئة من تجددت له نعمة، والقيام إليه إذا أقبل^(٤).

٦) وقعت معجزات ودلائل نبوة للنبي ﷺ، فعين تبوك تجري بماء منهمر حين غسَّل النبي ﷺ يديه ووجهه، وقال لمعاذ ؓ: يوشك يا معاذ إن طالت بك

(١) زاد المعاد: (٣/٥٣٩).

(٢) صحيح مسلم (١/٢٣٠)، ابن كثير: البداية والنهاية (٧/١٩٠).

(٣) البخاري ح (٤٤١٨)، ومسلم ح (٢٧٦٩).

(٤) انظر: ابن حجر: الفتح (٨/١٢٤) وذكر فوائد أخرى للغزوة فليراجعه من شاء.

حياة أن ترى ما هاهنا قد ملئ جنائناً^(١).

(٧) على الرغم من عدم وقوع القتال مع الروم في هذه الغزوة، فقد كانت غزوة تبوك تمهيداً لقتال الروم فيما بعد، وبوابة لفتح بلاد الشام - في زمن الراشدين - فقد توطد الإسلام في شمال الجزيرة، وكُسرت هيبة الروم وتهيأت نفسية المسلمين لمجابهتهم وقد كان^(٢).

وبعد فهناك دروس وفوائد أخرى من غزوة تبوك أطال ابن القيم وأفاد في عرضها^(٣).



(١) مسلم ح (٧٠٦).

(٢) انظر للمزيد: د. العمري: المجتمع المدني (ص ٢٤٤).

(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٥٨، ٥٩٢).



عام الوفود

يُسمى العام التاسع عام الوفود لكثرة الوفود على النبي ﷺ في المدينة، وإن كان ثمة وفود قدمت على النبي ﷺ قبل هذا العام^(١) - كما سيأتي بيان ذلك - ويعدُّ ابن سعد في كتابه (الطبقات) أكثر مَنْ فصَّل واستوعب في ذكر الوفود^(٢)، وسبقه ابن إسحاق^(٣) وإن لم يستوعب كما استوعب ابن سعد.

لكن يلحظ على هذين المصدرين - في سياق الوفود - أن معظم مروياتهما دون إسناد، أو بأسانيد لا يخلو معظمها من طعن وضعف في الرواة لها^(٤).

وإذا كان هذا الضعف - في مرويات الوفود - يمكن أن يتجه إلى (تفاصيل) أخبار هذه الوفود، فقد ثبت في النقل الصحيح أخبار عدد من الوفود، ولعلي أكتفي بذكر نماذج من هذه الوفود التي صح نقلها، مع بيان شيء من فقهها ودروسها:

١ - وفد مزينة:

وكانوا أول من وفد على النبي ﷺ، وذلك في رجب سنة خمس - كما نقل ابن

(١) ذكر ابن حجر أن ابتداء الوفود كان بعد رجوع النبي ﷺ من الجعرانة في أواخر سنة ثمان وما بعدها (الفتح ٨/٨٣).

(٢) فقد أحصى ما يزيد على سبعين وفدًا (٧٢) وفدًا، وجاء حديثه عنها في قرابة سبعين صفحة (٦٨) صفحة، وقد استدرج ابن كثير على من سبقه في الوفود، وقال: ونذكر ما وقع لنا مما أهملوه (البداية والنهاية ٧/٢٣٣) وقد سردهم الشامي في سيرته فزادوا على (١٠٠) مائة وفد (انظر: د. مهدي رزق الله: السيرة النبوية (ص ٦٣٩)، أما ابن حجر فقال: ومجموع ما ذكر من الوفود يزيد على الستين (الفتح ٨/٨٣).

(٣) انظر: السيرة لابن هشام (٤/٢٧٣-٣٢٧).

(٤) د. أكرم العمري: المجتمع المدني (ص ٢٤٩ - ٢٥٠).

سعد عن شيخه الواقدي - (١)، وهم من مُضَر، وعددهم أربعمائة، فجعل لهم الرسول ﷺ الهجرة في دارهم وقال لهم: أنتم مهاجرون حيث كنتم، فارجعوا إلى أموالكم، فرجعوا إلى بلادهم (٢).

وعند أحمد - بسند حسن - عن النعمان بن مقرن المزني ﷺ أنهم كانوا أربعمائة من مُزينة، وأن رسول الله ﷺ حين أرادوا الانصراف أمر عمر ﷺ أن يزودهم، فقال ما عندي إلا شيء من تمر ما أظنه يقع من القوم موقعا، فانطلق بهم عمر إلى منزله، فإذا فيه مثل الجمل الأورق، فأخذ القوم منه حاجتهم، يقول النعمان: وكنت في آخر من خرج، فالتفت فإذا فيها من التمر مثل الذي كان (٣).

٢ - وفد عبد القيس (٤):

وقد روى البخاري وفادتهم، فعن ابن عباس ﷺ قال: قدم وفد عبد القيس على النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إننا هذا الحي من ربيعة وقد حالت بيننا وبينك كفر مضر، فلسنا نخلص إليك إلا في شهر حرام، فمُرنا بأشياء نأخذ بها وندعو إليها من وراءنا، قال: أمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: الإيمان بالله - شهادة أن لا إله إلا الله - وعقد واحدة، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم، وأنهاكم عن: الدِّبَاء (٥)، والنقير، والحتم، والمزفت (٦).

(١) الطبقات (١/٢٩١).

(٢) الطبقات (١/٢٩١).

(٣) المسند (٥/٤٤٥) وقال مهدي رزق: إسناده حسن ورجاله ثقات: السيرة (ص ٦٤٠) هامش (٩)، ورواه البيهقي، وذكر أن عددهم ثلاثمائة رجل (دلائل النبوة ٥/٣٦٥) وهو خلاف ما جاء عند ابن سعد وأحمد.

(٤) قبيلة كبيرة يسكنون البحرين ويُنسبون إلى عبد القيس (ابن حجر: الفتح ٨/٨٥).

(٥) الدِّبَاء - وما بعدها - أوعية يوضع فيها (النيذ) وإنما خصت هذه بالنهي لأنه يُسرع إليها الإسكار فيها، فيصير حراما (محمد فؤاد عبد الباقي، هامش صحيح مسلم ٤٦/١ هامش (٧)).

(٦) ح (٤٣٦٩)، ومسلم ح (١٧).



وفي الرواية الأخرى قال لهم: مرحبًا بالقوم غير خزايا ولا ندامى، وأنه أمرهم: بالإيمان بالله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن يُعطوا الخُمس من المغانم، ونهاهم عن (النبيذ) في الدباء، والحتتم والمزفت^(١).

ويرى ابن حجر وابن كثير أنه كان لعبد القيس وفادتان إحداهما كانت قبل الفتح، ولهذا قالوا: (بيننا وبينك هذا الحي من مضر)، وذلك في سنة خمس أو قبلها، وكان عددهم ثلاثة عشر رجلًا، وكان معهم (الأشج) الذي قال له النبي ﷺ: إن فيك خصلتين يحبهما الله (الحلم والأناة)، والوفادة الثانية في سنة الوفود (التاسعة)، وكان عددهم حينئذ أربعين رجلًا، وكان فيهم (الجارود العبدي) الذي كان نصرانيًّا فأسلم، ثم قال ابن حجر: ويؤيد تعدد وفادتهم أن النبي ﷺ قال لهم: مالي أرى ألوانكم تغيرت، ففيه إشعار لرؤيتهم من قبل^(٢).

ولعل ما يؤكد قدم وفادة عبد القيس أن أول جمعة جُمعت بعد جمعة مسجد رسول الله ﷺ كانت في مسجد عبد القيس (بجواثي) قرية في البحرين^(٣).

٣- وفد بني تميم:

فعند البخاري من حديث عمران بن حصين ﷺ قال: أتى نفرٌ من بني تميم النبي ﷺ فقال: اقبلوا البشرى يا بني تميم، قالوا: يا رسول الله قد بشرتنا فأعطنا، فرئي ذلك في وجهه، فجاء نفرٌ من اليمن فقال: اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها بنو تميم، فقالوا: قبلنا يا رسول الله^(٤).

(١) ح (٤٣٦٨)، ومسلم ح (١٧).

(٢) انظر: الفتح (٨/ ٨٥-٨٦)، والبداية والنهاية (٧/ ٢٥١)، وانظر في خبر وفادتهم: مسلم (١/ ٤٦ ح ١٧)، وابن إسحاق: السيرة لابن هشام (٤/ ٢٩٣)، وقد ذكر قدوم الجارود وإسلامه، ولعلها الوفادة الثانية لهم، وابن سعد: في الطبقات (١/ ٣١٤ - ٣١٥). وقد ذكر وفادتهم عام الفتح، وفيهم الجارود، والأشج، وأن النبي ﷺ هو الذي كتب إليهم أن يفد إليه منهم عشرون رجلًا.

(٣) رواه البخاري ح (٤٣٧١).

(٤) ح (٤٣٦٥).

وعند البخاري كذلك أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما اختلفا في أميرهم، فقال أبو بكر: أمر عليهم القعقاع بن معبد بن زرارة، وقال عمر: أمر عليهم الأقرع بن حابس، فارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿يَسْأَلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١] (١).

ولبني تميم مناقب ثلاث أثنى عليهم فيها النبي ﷺ وقال أبو هريرة ؓ: لا أزال أحب بني تميم بعد ثلاث سمعتهن من رسول الله ﷺ يقول فيهم: هم أشد أمتي على الدجال، وكانت فيهم سبية عند عائشة فقال: اعتقيها فإنها من ولد إسماعيل، وجاءت صدقاتهم فقال: هذه صدقات قوم أو (قومي) (٢).

وقد فصل ابن إسحاق وابن سعد في وفادتهم وسببها وعددهم، ورفع أصواتهم ومناداتهم للنبي ﷺ: يا محمد اخرج إلينا، حتى نزل فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤]، ثم تبارى شاعرهم وخطيبهم مع خطيب وشاعر رسول الله ﷺ فغلبوا واعترفوا (٣).

٤ - وفد بني حنيفة:

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم مسيلمة الكذاب على عهد رسول الله ﷺ في بشر كثير من قومه، فجعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس ؓ، وفي يده قطعة جريد، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه فقال: لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتها، ولن تعدوا أمر الله فيك، وإن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أريت

(١) ح (٤٣٦٧).

(٢) البخاري ح (٤٣٦٦)، ومسلم ح (٢٥٢٥).

(٣) الطبقات (١/٢٩٣ - ٢٩٤)، السيرة لابن هشام (٤/٢٨٣ - ٢٧٤).

فيك، وهذا (ثابت) يجيبك عني، ثم انصرف عنه^(١).

وهذا الذي أرى رسول الله ﷺ في مسيلمة جاء بيانه في رواية أخرى: أن رسول الله ﷺ قال: بينا أنا نائم رأيتُ في يدي سوارين من ذهب، فأهمني شأنهما، فأوحي إليّ في المنام أن أنفخهما، فنفختهما فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان بعدي؛ أحدهما (العنسي) صاحب صنعاء، والآخر (مسيلمة) صاحب اليمامة^(٢).

وفي رواية ثالثة - عند البخاري - أن مسيلمة الكذاب قدم المدينة فنزل في دار بنت الحارث، وكانت تحته بنت الحارث بن كُرَيْز - وهي أم عبد الله بن عامر^(٣) -، فأتاه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس وهو الذي يُقال له خطيب رسول الله ﷺ وفي يد رسول الله قضييب، فوقف عليه فكلمه، فقال له مسيلمة: إن شئت خلينا بينك وبين الأمر، ثم جعلته لنا بعدك، فقال النبي ﷺ: لو سألتني هذا القضييب ما أعطيتكه، وإني لأراك الذي رأيت فيه ما رأيت، وهذا ثابت بن قيس سيجيبك عني، فانصرف النبي ﷺ^(٤).

وقال ابن إسحاق: وقدم على رسول الله ﷺ وفد بني حنيفة فيهم مسيلمة بن حبيب الحنفي الكذاب، وكان منزلهم في دار بنت الحارث - امرأة من الأنصار -، وإن بني حنيفة أتت بمسيلمة إلى رسول الله ﷺ تستره بالثياب... وإن رسول الله ﷺ كلمه وسأله ثم قال: له لو سألتني هذا العسيب ما أعطيتكه^(٥).

(١) ح (٤٣٧٣)، ومسلم ح (٢٢٧٣).

(٢) البخاري ح (٤٣٧٤ - ٤٣٧٥)، ومسلم ح (٢٢٧٤).

(٣) قال ابن حجر: قيل الصواب: أم أولاد عبد الله بن عامر، لأنها زوجته لا أمه.. (الفتح ٨/٩٢)، وكانت دار رملة بنت الحارث معدة للوفود كما يُفهم من رواية البخاري ح (٤٣٧٨) وكما ذكر ابن سعد في أكثر من وفد (الطبقات: ١/٢٩٩، ٣٠٠، ٣١٥، ٣١٦، ٣٢٤، ٣٣١، ٣٣٨، ٣٤٤، ٣٤٦).

(٤) ح (٤٣٧٨).

(٥) السيرة لابن هشام (٤/٢٩٤ - ٢٩٥).

ويضيف ابن سعد عن الواقدي أن عدد وفد بني حنيفة بضعة عشر رجلاً، فيهم رجال بن عنقوة، وسلمى بن حنظلة السحيمي، وطلق بن علي بن قيس، وحمران بن جابر من بني شمر... ومسيلمة بن حبيب، وأنهم أنزلوا في دار (رملة بنت الحارث) وأجريت عليهم ضيافة، فلما رجعوا إلى بلادهم ادعى (مسيلمة) النبوة وشهد له الرجال بن عنقوة أن رسول الله ﷺ أشركه في الأمر، فافتتن الناس به^(١).

٥- وفد نجران:

ثبت في الصحيحين أن (العاقب، والسيد) صاحبا نجران، جاءا إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يُلاعنا، فقال أحدهما للآخر: لا تفعل، فوالله إن كان نبياً فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قال: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً، فقال: لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، وقال: هذا أمين هذه الأمة^(٢).

وعند ابن سعد: أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل نجران فخرج إليه وفدهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم نصارى فيهم (العاقب) وهو عبد المسيح - وهو أميرهم وصاحب مشورتهم - (والسيد) وهو صاحب رحلتهم، ومعهم غيرهم، فدخلوا المسجد وعليهم ثياب الحبرة، وأردية مكفوفة بالحرير، فقاموا يصلون في المسجد نحو المشرق، فقال رسول الله ﷺ: دعوهم، ثم أتوا النبي ﷺ فأعرض عنهم ولم يكلمهم، فقبل لهم: ذلك من أجل زيكم هذا فانصرفوا، ثم غدوا عليه بزبي الرهبان فسلموا عليه، فردّ عليهم ودعاهم إلى الإسلام، فأبوا وكثر الكلام والحجاج بينهم، وتلا عليهم القرآن وقال: إن أنكرتم ما أقول لكم فهلتم أباهلكم، فانصرفوا على ذلك ثم غدا عليه عبد المسيح ورجلان من ذوي رأيهم فقالوا: قد بدا لنا أن لا نباهلك فاحكم

(١) ابن سعد: الطبقات (١/٣١٦ - ٣١٧).

(٢) البخاري ح (٤٣٨٠)، ومسلم ح (٢٤٢٠).

علينا بما أحببت نعطك ونصالحك، فصالحهم على ألفي حلة، ألف في رجب، وألف في صفر، وعلى عارية ثلاثين درعًا، وثلاثين رمحًا، وثلاثين بعيرًا، وثلاثين فرسًا، إن كان باليمن كيد، ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة رسوله ﷺ على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم، وغائبهم، وشاهدهم، وبيعهم، فرجعوا إلى بلادهم، فلم يلبث (السيد، والعاقب) إلا يسيرًا حتى رجعا إلى النبي ﷺ فأسلما وأنزلهما دار أبي أيوب الأنصاري، وأقام أهل نجران على ما كتب لهم به النبي ﷺ حتى قبضه الله^(١).

ويرى ابن إسحاق قدوم وفد النصارى من أهل نجران أو غيرهم على رسول الله ﷺ وهو بمكة، وهم عشرون رجلًا أو قريب من ذلك، فكلموه وسألهم، ثم تلا عليهم القرآن فآمنوا وصدّقوا، فلما قاموا من عنده اعترضهم (أبو جهل) فأتبهم وقال لهم: ما نعلم ركبًا أحق منكم^(٢).

ثم ذكر ابن إسحاق أمر (السيد، والعاقب) بنحو ما ذكر (ابن سعد) لكنه زاد خبر (أبي حارثة بن علقمة) أسقفهم وصاحب مدارسهم، وهو الذي كانت ملوك الروم من النصرانية قد شرفوه ومولوه، وبنوا له الكنائس، وأنه حين رجع إلى رسول الله ﷺ من نجران جلس على بغلة له موجهًا إلى رسول الله ﷺ وإلى جنبه (أخ له) يقال له (كوز بن علقمة)، فعثرت بأبي حارث بغلته فقال (كوز): تعس الأبعد - يريد رسول الله ﷺ -، فقال له (أبو حارثة): بل أنت تعست، فقال: ولم يا أخي؟ قال: والله إنه للنبي الذي كنا ننتظر، فقال (كوز): ما يمنعك منه وأنت تعلم هذا؟ قال: ما صنع بنا هؤلاء القوم (نصارى الروم)، شرفونا ومولونا وأكرمونا وقد أبوا إلا خلافه، فلوا فعلت نزعوا منا كل ما ترى، فأضمر عليها أخوه (كوز) حتى أسلم بعد ذلك^(٣).

(١) الطبقات (١/٣٥٧ - ٣٥٨).

(٢) ابن هشام: السيرة (٢/٣٦ - ٣٧).

(٣) ابن هشام: السيرة (٢/٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧).

ولعله يفهم من حديث ابن إسحاق عن الوفد أنهم قدموا مرتين^(١).



(١) انظر: د. مهدي رزق الله: السيرة النبوية (ص ٦٤٤).



من فقه الوفود ودالاتها

يطول بي المقام لو استعرضت الوفود كلها، وفيما وقفت عليه نماذج - والمهم ما فيها من الدلالات والعبر - ومن ذلك:

(أ) يظهر من حديث الوفود أن منها المتقدم في وفادته ومنها المتأخر، وليسوا سواء، قال ابن كثير (رحمه الله): فيجب التمييز بين السابق من هؤلاء الوافدين على زمن الفتح ممن يُعد وفوده (هجرة)، وبين اللاحق لهم بعد الفتح ممن وعده الله خيرًا وحُسنَى، ولكن ليس في ذلك كالسابق له في الزمان والفضيلة^(١).

(ب) ويلفت النظر أن هذه الوفود شملت الجزيرة كلها، وساد الإسلام في ربوعها كلها، وقد توحدت الجزيرة في زمن النبوة بشكل لم يسبق له مثيل في مدة وجيزة^(٢).

(ت) كان النبي ﷺ سيد الموقف في استقبال ومحاوره هذه الوفود، وقد ظهر من براعة حوارهِ، وحسن خلقهِ، وعلائم نبوته ما كان سببًا في تأثر هذه الوفود وإسلامها، إن عاجلاً أو آجلاً، إلا من كتب الله عليه الشقاء فيبقى كافرًا معاندًا.

(ث) ولم يكن صحابته رضوان الله عليهم بعيدين عن هذه الوفود، يستقبلون، ويضيّفون ويخطبون، ولا يعييبهم إن اختلفت وجهات نظرهم أحيانًا - كما

(١) البداية والنهاية (٧/٢٣٣).

(٢) انظر: أكرم العمري: المجتمع المدني (ص ٢٥٢ - ٢٥٣).

حصل بين أبي بكر وعمر - مع وفد (بني تميم)، فهم مجتهدون مأجورون، وبشرٌ يصيون ويخطئون.

ج) استنبط ابن القيم (رحمه الله) من قصة (وفد نجران) جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين، وتمكينهم من صلاتهم بحضرة المسلمين وفي مساجدهم أيضاً، إذا كان ذلك عارضاً ولا يُمكنون من اعتياد ذلك^(١).

ح) كما استنبط من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين للنبي ﷺ بالرسالة وأنه صادق، أن ذلك لا يُدخلهم في الإسلام، وأن الإسلام أمرٌ وراء ذلك، فليس هو المعرفة والإقرار فقط، بل المعرفة والإقرار والانقياد والالتزام بالدين ظاهراً وباطناً^(٢).

خ) في وفد بني حنيفة عَلِمَ من أعلام نبوته ﷺ، حيث أخبر عن كذب (مسيلمة) ودعواه النبوة - وقد كان - فلما تحركت جيوش حرب الردة وقتلت (مسيلمة) في زمن أبي بكر ﷺ كان ذلك منقبة لأبي بكر ﷺ وخلافته، وتأكيذاً لعلم من أعلام نبوته ﷺ.

د) يلفت النظر نزول عدد من الوفود دار (رملة بنت الحارث)، وهذا مع ما فيه من مشاركة المرأة في زمن النبوة، يثير تساؤلات، ولماذا دار رملة؟ ألسعتها؟ أم لموقعها؟ أم لخلوها؟ أم لأمر آخر؟^(٣).

(١) زاد المعاد (٣/٦٣٨).

(٢) زاد المعاد (٣/٦٣٩).

(٣) ذكرت بعض المصادر تعليلاً لذلك أن دار رملة واسعة وبها نخل حيث يُقدّم التمر للوفود (ذكره الكلاعي عن الواقدي)، وفي دار رملة كتب النبي ﷺ كتاباً بينه وبين اليهود تحت (العذق) (الواقدي: المغازي ١/١٩٢)، وفي هذه الدار كذلك سبقت نساء وذراري بني قريظة حين حكم فيهم سعد بن معاذ ﷺ (الواقدي: المغازي ٢/٥١٢، ٥١٨)، كما أودع في دار رملة سلاح وأثاث ومناجاة وثياب بني قريظة (السابق ٢/٥١٣)، وفي دار رملة حُبست النساء والصبيان من بني تميم (السابق ٣/٩٧٥)، كما أنزلت فيها أخت عدي بن حاتم - من سبي طي - (السابق ٣/٩٨٨).



(ذ) ط - إثبات الكرامات للأولياء والصالحين، وذلك أن تمر عمر ﷺ لم ينقص بعد أن أعطى منه وفد مزينة.

(ر) ي - إيجابية النبي ﷺ في ذكره محاسن من أمامه إذا كان هذا لا يطغيه، وربما حفز غيره للاقتداء به، فقد قال لأشج عبد القيس: (إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة).



حج أبي بكر الصديق ﷺ بالناس

يتفق البخاري مع ابن إسحاق وابن سعد على أن حجة أبي بكر ﷺ بالناس سنة تسع من مهاجره ﷺ^(١)، قال ابن إسحاق: ثم أقام رسول الله ﷺ بقية رمضان، وشوالاً، وذا القعدة، ثم بعث أبا بكر أميراً على الحج من سنة تسع، ليقوم للمسلمين حجهم، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم فخرج أبو بكر ﷺ ومن معه من المسلمين^(٢).

ويكشف لنا ابن سعد عدد من خرج مع أبي بكر ويقول: فخرج أبو بكر في ثلاثمائة رجل من المدينة، وبعث معه رسول الله ﷺ بعشرين بدنة، وساق أبو بكر خمس بدنان^(٣).

وجاء عند البخاري ومسلم أن أبا هريرة ﷺ قال: إن أبا بكر الصديق ﷺ، بعثه في الحجة التي أمره النبي ﷺ عليها - قبل حجة الوداع - يوم النحر في رهط يؤذن في الناس: لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان^(٤)، فليس يخفى أن المأمور بالبلاغ والأذان للناس في الحج هو علي بن أبي طالب ﷺ، فقد أرفد النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب، وأمره أن يؤذن بـ(براءة)، فأذن يوم النحر بمنى ببراءة، وألا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان^(٥).

(١) البخاري كتاب المغازي، باب: حج أبي بكر بالناس سنة تسع (ح ٤٣٦٣)، ومسلم ح (١٣٤٧) وليس فيه ذكر السنة وتاريخها، وابن هشام: السيرة (٤/٢٥٣)، ابن سعد: الطبقات (٢/١٦٨).

(٢) ابن هشام: السيرة (٤/٢٥٣).

(٣) الطبقات: (١/١٦٨).

(٤) البخاري ح (٤٣٦٣)، ومسلم ح (١٣٤٧).

(٥) البخاري ح (٤٦٥٥ - ٤٦٥٦).

ويوضح ابن إسحاق كيف أمر النبي ﷺ أبا بكر - في هذه الحجة - ثم كلف علياً بالبلاغ عنه للمشركين حين نزلت عليه (براءة) فقال: إنه لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي^(١)، فخرج علي على ناقه رسول الله ﷺ العضاء^(٢) حتى أدرك أبا بكر الصديق بالطريق^(٣)، فلما رآه أبو بكر قال: أأمير أم مأمور؟ فقال: بل مأمور، ثم مضيا.. حتى إذا كان يوم النحر قام عليٌّ فأذن الناس بالذي أمره به رسول الله ﷺ وقال: أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته، وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم^(٤).

وحجة أبي بكر - هذه - لها قيمتها ودلالاتها وآثارها وعبرها، ومن ذلك:

(أ) أن في هذه الحجة إعلانَ مفاصلة مع المشركين، ومنعاً لعوائدهم وشعائرهم الجاهلية، بل إنهاء لحجهم، (فلا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان).

(ب) وهذه البراءة من المشركين جاءت بها سورة التوبة ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١]، وبعث علياً ﷺ بأربعين آية من براءة فأعلمهم بها (بعرفة) بعد خطبة أبي بكر، ثم حين علم أنه لم يُسمع

(١) وذلك لأن العرب تعارفوا في عقد العهود ونقضها أن يتولى ذلك سيدهم أو رجل من رهطه (ذكره البغوي في التفسير ٤٩/٣)، وانظر: مهدي رزق الله: السيرة (ص ٦٧٦).

(٢) وعند ابن سعد: القصواء (الطبقات ١٦٨/٢)، ويقال: إن العضاء، والقصواء، والجداء اسم لناق (واحدة كانت لرسول الله ﷺ) (شرح النووي على مسلم ١٧٣/٨).

(٣) عند ابن سعد بـ(العرج) الطبقات (١٦٢/٢)، وعند ابن عائذ بـ(ضجنان)، زاد المعاد (٣/٥٩٣).

(٤) ابن هشام: السيرة (٢٥٦/٤)، وأخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٩٩) بنحوه، وساقه ابن كثير: البداية والنهاية (٢٢٦/٧) وجود إسناده، وأنكر بعض ألفاظه.

الجميع أعلمهم بها في (منى)^(١)(٢)، وكانت سورة التوبة آخر سورة نزلت كاملة^(٣)، وقد نزلت (براءة) بعدما بعث النبي ﷺ أبا بكر للحج - كما رواه ابن إسحاق -^(٤).

(ت) كان علي ﷺ هو المكلف بالبلاغ وإعلان البراءة، ولثقل المسؤولية وكثرة الحجيج من المشركين شارك علياً رهطٌ من الصحابة في البلاغ كأبي هريرة ﷺ.^(٥)

(ث) وقد انتهى حج المشركين، وانتهى معه الحج بالبيت (عراة)، وعاد الحج للمسلمين خاصة بعد ثنتين وعشرين سنة، بذل المسلمون كل جهد، وسلخوا كل طريق مشروع لتبليغ الدعوة^(٦).

وقد تحقق ذلك، فلم يحجَّ بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان^(٧).

(ج) قال ابن حجر: واستدل بحديث البخاري ومسلم في حجة أبي بكر على أن فرض الحج كان قبل حجة الوداع، وذهب جماعة إلى أن حج أبي بكر هذا لم يسقط عنه الفرض، بل كان تطوعاً قبل فرض الحج، ولا يخفى ضعفه^(٨).

(ح) ويرى ابن القيم أن المسقطة للفرض هي حجة الوداع مع النبي ﷺ، وأن النبي ﷺ لم يؤخر الحج بعد فرضه عامًا واحدًا، بل بادر إلى الامتثال، وهذا هو

(١) وعند ابن سعد: قرأ علي براءة على الناس يوم النحر عند (الجمرة) (الطبقات ٢ / ١٦٩).

(٢) الطبري: التفسير (١٠ / ٦٧)، وابن كثير: البداية والنهاية (٧ / ٢٢٨ - ٢٢٩).

(٣) البخاري ح (٤٣٦٤)، ومسلم ح (١٦١٨).

(٤) ابن هشام: السيرة (٢ / ٢٥٦).

(٥) البخاري ح (٣٤٦٣)، ومسلم ح (١٣٤٧).

(٦) أكرم العمري: المجتمع المدني (ص ٢٥٦).

(٧) ابن هشام: السيرة (٤ / ٢٥٧).

(٨) فتح الباري: (٨ / ٨٢).



اللائق بهديه وحاله ﷺ، وليس بيد من ادَّعى تقدم فرض الحج سنة ست، أو سبع، أو ثمان، أو تسع دليل واحد، وآية فرض الحج هي قوله تعالى: ﴿عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقد نزلت عام الوفود أو آخر سنة تسع^(١).

(خ) وقال ابن كثير: الصحيح أن من كان له عهد من المشركين أجله إلى أمده بالغاً ما بلغ، ومن ليس له أمدٌ بالكلية فله تأجيل أربعة أشهر^(٢).



(١) زاد المعاد (٣/ ٥٩٥).

(٢) البداية والنهاية (٧/ ٢٢٦).

حجة الوداع

اشتهر تسميتها بحجة الوداع^(١)، كما في حديث عائشة رضي الله عنها^(٢)، وابن عمر^(٣)، وابن عباس^(٤)، وزيد بن أرقم^(٥)، وجريير^(٦)، وسعد ابن أبي وقاص^(٧)، وعبد الله بن عمرو بن العاص^(٨).

وذلك لأن النبي ﷺ ودع الناس فيها ولم يحجّ بعدها^(٩)، وتسمى حجة (البلاغ)؛ لأنه ﷺ بلغ الناس شرع الله في الحج قولاً وعملاً^(١٠)، وكان المسلمون يسمونها (حجة الإسلام)^(١١).

وكانت في ذي القعدة لخمس بقين منها^(١٢) السنة العاشرة من مهاجره ﷺ^(١٣).

(١) ابن هشام: السيرة (٣٣٧/٤)، وابن سعد: الطبقات (١٧٢/٢، ١٨١، ١٨٥).

(٢) البخاري (٤٣٩٥)، ومسلم (٨٧٢/٢، ٨٧٣).

(٣) البخاري ح (٤٤١٠)، ومسلم ح (١٣٠٤).

(٤) البخاري ح (٤٣٩٩)، ومسلم ح (١٣٣٤).

(٥) البخاري ح (٤٤٠٤)، ومسلم ح (١٢٥٤).

(٦) البخاري ح (٤٤٠٥)، ومسلم ح (٦٥).

(٧) البخاري ح (٤٤٠٩)، ومسلم ح (١٦٢٨).

(٨) البخاري ح (٨٣)، ومسلم ح (١٣٠٦).

(٩) البخاري ح (٤٤٠٤)، ومسلم ح (١٢٥٤)، والطبقات (١٨٤/٢)، وابن هشام: السيرة (٣٣٧/٤).

(١٠) ابن هشام: السيرة (٣٣٧/٤)، وانظر: مهدي رزق الله: السيرة النبوية (ص ٦٨٠).

(١١) ابن سعد: الطبقات (١٧٢/٢).

(١٢) البخاري ح (١٥٤٥)، ابن هشام: السيرة (٣٣٠/٤).

(١٣) ابن سعد: الطبقات (١٧٢/٢).

قال ابن القيم: ولا خلاف أنها كانت سنة عشر^(١).

ولم يحج النبي ﷺ غيرها منذ تُنبئ إلى أن توفاه الله، وكان ابن عباس يكره أن يُقال: (حجة الوداع) ويقول: (حجة الإسلام)^(٢)، وكذلك كان يكره (طاووس) أن يقول: حجة الوداع، ويقول: حجة الإسلام^(٣).

وسُئل أنس رضي الله عنه: كم حجة حجها النبي ﷺ؟ قال: حجة واحدة^(٤).

عدد المسلمين في حجة الوداع:

وعن عدد المسلمين الذين خرجوا معه ﷺ لحجة الوداع قال جابر رضي الله عنه - في حديثه الطويل عن حجته ﷺ - حتى إذا استوت به ﷺ ناقته على البيداء نظرتُ إلى مدّ بصري بين يديه من راكب وماش، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك^(٥)، مما يُشعر بكثرة من خرجوا معه دون تحديد عددهم.

وقدّرهم أبو زرعة الرازي بـ (أربعين ألفاً) شهدوا معه ﷺ حجة الوداع^(٦)، وقيل: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً^(٧).

ويبدو أن ضبط العدد بدقة عزيز، فالصحابا - كما قال كعب بن مالك في غزوة تبوك -:

(والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان-) ^(٨).

(١) زاد المعاد (٢/١٠١).

(٢) ابن سعد: الطبقات (٢/١٧٣).

(٣) الطبقات (٢/١٨٩).

(٤) ابن سعد: الطبقات (٢/١٨٩).

(٥) مسلم ح (١٢١٨).

(٦) انظر مقدمة ابن الصلاح (ص ١٤٨)، وابن كثير: اختصار علوم الحديث (ص ١٨٥)، وعبادة

الكبيسي: صحابة رسول الله ﷺ في الكتاب والسنة (ص ١١٨).

(٧) عبادة الكبيسي: صحابة رسول الله في الكتاب والسنة (ص ١١٩).

(٨) صحيح البخاري ح (٤٤١٨)، ومسلم ح (٢٧٦٩).

حديث جابر رضي الله عنه:

أما عن سياق حجته رضي الله عنه، فقد جاء مفصلاً في سياق حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه (١).
وعن هذا الحديث قال النووي (رحمه الله): وهو حديث عظيم، مشتمل على
جمل من الفوائد، ونفائس من مهمات القواعد، قال القاضي: وقد تكلم الناس على ما
فيه من الفقه وأكثروا، وصنف فيه أبو بكر بن المنذر جزءاً كبيراً، وخرج فيه من الفقه
مائة ونيفاً وخمسين نوعاً، ولو تقصى لزيد على هذا القدر قريب منه (٢).

وقفات من حجة الوداع:

وحيث إن مظنة تفصيل ما جاء في حديث جابر كتب الفقه، فإنني أعرض هنا
لبعض الوقفات والدروس في حجته عليه الصلاة والسلام، ومن ذلك:

(أ) كانت حجة أبي بكر رضي الله عنه بالناس سنة تسع، وإبلاغ علي رضي الله عنه وغيره من الصحابة
للناس البراءة من المشركين ومنعهم من الحج بعد هذا العام تمهيداً لحج
الرسول صلى الله عليه وسلم، والمقصود منه تطهير مكة من الشرك والمشركين، حتى إذا
حج رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجد بمكة شركاً ولا مشركاً، ولا عوائد وطقوساً
للجاهلية (٣).

(ب) يتبين من دلالات النصوص وواقع حاله صلى الله عليه وسلم أنه حج قارناً (٤)، وتمنى أنه
كان متمتعاً بالعمرة إلى الحج، وأمر أزواجه والمسلمين ممن لم يسبق هدياً

(١) وهو من أفراد مسلم ح (١٢١٨).

(٢) شرح النووي لصحيح مسلم (٧٠/٨).

(٣) د. زيد الزيد: فقه السيرة (ص ٦٥٣).

(٤) خالف السهيلي واعتبر حج النبي صلى الله عليه وسلم (مفرداً) وقال: وهذا هو الصحيح في حديث جابر (الروض
الأنف ٥٠٧/٧) ورد عليه المحقق عبد الرحمن الوكيل، ولكن السهيلي عاد ليقول: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما
كان بالعقيق صار (قارناً) بعد أن كان (مفرداً) الروض الأنف (٥٠٩/٧).



بالتمتع^(١).

وكان الناس معه - في حجته - ثلاثة أنواع، منهم من قرن بين عمرة وحج، ومنهم من أهل بالحج، ومنهم من أهل بالعمرة^(٢).

(ت) وأذهب النبي ﷺ ما في قلوب أصحابه رضوان الله عليهم حين أمرهم بفسخ الحج بالعمرة، وإنما فعل ذلك ليذهب من قلوبهم أمر الجاهلية في تحريم العمرة في أشهر الحج، إذ كانوا يرون العمرة في أشهر الحج من أكبر الكبائر، وأفجر الفجور^(٣).

(ث) وصل النبي ﷺ والمسلمون معه مكة لأربع خلون من ذي الحجة^(٤)، فإذا كان خروجه من المدينة لخمس بقين من ذي القعدة - كما سبق - فيكون مكثه في الطريق ثماني ليالٍ^(٥).

(ج) خالف النبي ﷺ قريشاً وعوائدها الجاهلية، فقد كانت قريش ومن دان بدينها يقفون بالمزدلفة وسائر العرب يقفون بعرفة، فلما جاء الإسلام وحج النبي ﷺ وقف بعرفات وأفاض منها، وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩]^(٦).

(١) البخاري ح (٤٣٩٥، ٤٣٩٨)، مسلم ح (١٢١٨)، ابن هشام: السيرة (٤/ ٣٣١)، ابن سعد: الطبقات (٢/ ١٧٥).

(٢) البخاري ح (١٥٦٢)، مسلم ح (١٢١١)، وابن سعد: الطبقات (٢/ ١٧٤، ١٧٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) السهيلي: الروض الأنف (٧/ ٥٠٩)، وانظر: البخاري ح (١٥٦٤)، ومسلم ح (١٢٤٠).

(٤) البخاري ح (١٥٤٥)، ومسلم ح (١٢٤٠)، وابن سعد: الطبقات (٢/ ١٧٥).

(٥) ابن حجر: الفتح (٨/ ١٠٤).

(٦) البخاري ح (١٦٦٥)، ومسلم ح (١٢١٩ - ١٢٢٠).

وكانت العرب يطوفون بالبيت عُراة، إلا أن تعطيهم (الحُمس) يعني (قريشًا) ثيابًا، فيعطي الرجال الرجال، والنساء النساء^(١)، فنهى ﷺ أن يطوف بالبيت عُريان - كما سبق -.

ح) دخل النبي ﷺ مكة من أعلاها (من كداء) حتى انتهى إلى باب (بني شيبية)^(٢)، فلما رأى البيت رفع يديه وقال: اللَّهُمَّ زد هذا البيت تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا ومهابةً، وزد من عظمه ممن حجه واعتمره تشريفًا وتكريمًا ومهابةً وتعظيمًا وبرًّا^(٣).

ولا نزال نشهد - بحمد الله - إلى يومنا هذا تعظيم هذا البيت وتشريفه وتكريمه ومهابته.

خ) تمثل ﷺ الإخلاص والزهد في حجته لتقتدي به أمته من بعده، فتليته ﷺ - وهي شعار الحج - بالتوحيد: (ليتك اللهم ليك، ليك لا شريك لك ليك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك)^(٤).

أما الزهد، فعن أنس ؓ قال: حج رسول الله ﷺ على رَحْلٍ رَثٍّ وقطيفة، قال وكيع: يستوي أو لا يستوي أربعة دراهم، فلما توجه قال: اللَّهُمَّ حَجَّةَ لا رثاء فيها ولا سمعة^(٥).

(١) البخاري ح (١٦٦٥)، ومسلم ح (١٢١٩).

(٢) واسمه الآن (باب السلام) وهو مقابل لباب الكعبة، وكان بجوار المقام، ومع التوسعة للحرم صار بابًا يدخل على المسعى - وإن كان بالاتجاه نفسه -.

(٣) ابن سعد: الطبقات (١٧٣/٢)، وقد ورد من طرق متعددة لكنها ضعيفة لا تصح.

(٤) البخاري ح (١٥٤٩) من حديث ابن عمر، ومسلم ح (١١٨٤).

(٥) ابن ماجه ح (٢٨٩٠)، وابن سعد: الطبقات (١٧٧/٢).



وكذلك ينبغي على المسلمين - في الحج - أن يجعلوا الإخلاص شعارهم والزهد دثارهم، ففي الحج تعظيم لحرمة الله، ويُعَدُّ عن زخارف الدنيا.

(د) وخطب النبي ﷺ في الحج، وأعلم المسلمين شعائر الدين وقواعده، وحقوقهم وواجباتهم، وذكرهم وودَّعهم، وطلب من حاضرهم أن يبلغ غائبهم.

وما قاله في خطبة عرفة: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ودماء الجاهلية موضوعة، وأول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأول رباً أضع من ربانا ربا العباس بن عبد المطلب، فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهنَّ بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله، وأنتم تُسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللَّهُمَّ اشهد، اللَّهُمَّ اشهد (ثلاث مرات)، ثم أذن ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ولم يصل بينهما شيئاً^(١).

وعند البخاري وابن سعد: إن دماءكم وأموالكم، وأعراضكم عليكم حرام، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضللاً، وفي رواية: كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض^(٢).

(١) مسلم من حديث جابر (ح ١٢١٨)، ابن هشام: السيرة ٤/٣٣٣.

(٢) ح (٤٤٠٦)، ح (٤٤٠٣) الطبقات: (٢/١٨٦).

(د) وإن عجبت أن الذي كان (يستنصت) الناس حتى يسمعوها خطبته ﷺ جرير بن عبد الله^(١)، حيث العدد كثير، ولا مُكبر للصوت حينها، فأعجب منه أن الذي كان يصرخ في الناس ويبلغهم كلام رسول الله ﷺ هو: ربيعة بن أمية بن خلف (كما قال ابن إسحاق)^(٢).

فسبحان من فرّق بين (أب) من صناديد قريش المشركين، وابنٍ هو في عداد الصحابة الأكرمين.

(ر) وثمة أمران - في حجة الوداع - لا بد من الإشارة إليهما:

أحدهما: أن الله أكمل الدين وأنزل على رسوله ﷺ في عرفة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]^(٣)، وهي التي قالت اليهود لعمر ﷺ: إنكم لتقرؤون آية لو نزلت فينا لا اتخذناها عيداً، فقال عمر: إني لأعلم حيث أنزلت وأين نزلت... يوم عرفة^(٤).

والآخر: أنه لم يبق أحد من ثقيف وقريش بمكة والطائف - في حجة الوداع - إلا شهدها مسلماً - كما قال ابن حجر^(٥).



(١) كما في البخاري ح (٤٤٠٥)، ومسلم ح (٦٥).

(٢) السيرة لابن هشام (٤/٣٣٥).

(٣) ابن هشام (٤/٣٣٣).

(٤) البخاري ح (٤٦٠٦)، ومسلم ح (٣٠١٧)، وابن سعد: الطبقات (٢/١٨٨).

(٥) الإصابة (٣/٢٥٩).

تجهيز جيش أسامة بن زيد

ثبت في الصحيح بعث أسامة وتأميره، وطعن بعض الناس في أمرته، وتأكيده محبة ﷺ لأسامة وأبيه^(١)، وقد اختصر ابن إسحاق الحديث عن تجهيز جيش أسامة فقال: ثم قفل رسول الله ﷺ من حجته، فأقام بالمدينة بقية ذي الحجة، والمحرم، وصفر، وضرب على الناس بعثاً إلى الشام، وأمر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة مولاه، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، فتجهز الناس، وأوعب مع أسامة بن زيد المهاجرون الأولون^(٢).

وفصّل (ابن سعد) وزاد على ابن إسحاق معلومات مهمة^(٣)، وسأشير إلى هذه الزيادات مع شيء من الوقفات على (بعث أسامة) ﷺ فيما يأتي:

(١) حدد ابن سعد تاريخ هذا البعث بدقة (يوم الاثنين، لأربع ليالٍ بقين من صفر سنة إحدى عشرة من مهاجره ﷺ)^(٤).

كما حدد أكثر القوم الجهة والسبب (إلى أهل أُنْبَى، وهي أرض السراة ناحية البلقاء... وقال ﷺ لأسامة: سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل)^(٥).

(١) البخاري ح (٣٧٣٠)، ومسلم ح (٢٤٢٦).

(٢) ابن هشام: السيرة (٣٣٧/٤) وجدت إضافة بعض المعلومات عند ابن إسحاق في ترميض رسول

الله ﷺ (ابن هشام ٣٩٦/٤).

(٣) الطبقات (١٨٩/٢، ١٩٢).

(٤) الطبقات (١٨٩/٢).

(٥) الطبقات (١٩٠/٢).

(٢) ويظهر من ذلك -والله أعلم- أن أحد الأسباب المهمة لهذا البعث (الثأر) لمصاب المسلمين في مؤتة، حيث استشهد أمراؤها الثلاثة، وفي مقدمتهم (زيد بن حارثة) رضي الله عنه، وعند الواقدي: لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر مقتل زيد بن حارثة وجعفر وأصحابه، ووجد عليهم وجداً شديداً، وأمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم، ثم دعا أسامة وأمره^(١).

واختيار أسامة رضي الله عنه لإمرة الجيش -رغم حداثة سنه^(٢) فيما يظهر- ليعلم الروم أنكم إن قتلتم أباه (زيد) فابنه (أسامة) مكانه، وليعلم المسلمين محبته للأب والابن من جانب، ولتأكيد مكانة (الشباب) في الإسلام، وقدرتهم وتدريبهم على القيادة من جانب آخر، ولهذا قام النبي صلى الله عليه وسلم في المسلمين خطيباً وقال: ما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة، ولئن طعنتم في إمارتي أسامة لقد طعنتم في إماره أبيه من قبله، وأيم الله إن كان للإماره لخليقاً وإن ابنه من بعده لخليق بالإماره، وإن كان لمن أحب الناس إليّ، وإنهما لمخيلان لكل خير واستوصوا به خيراً فإنه من خياركم^(٣).

وفي الصحيح أن أسامة بن زيد (حب رسول الله صلى الله عليه وسلم)^(٤)، بل في الصحيح ما يشعر بحب النبي صلى الله عليه وسلم لزيد وأمه أم أيمن وابنه أسامة، وما ولدوا^(٥).

وفي الصحيح كذلك تأكيد استحقاق أسامة وأبيه للإماره وحب النبي صلى الله عليه وسلم لهما ودفاعه عمّن طعن في إمرتهما^(٦).

(١) المغازي (٣/١١١٧).

(٢) قال الذهبي: كان عمره ثماني عشرة سنة (سير أعلام النبلاء ٢/٥٠٠).

(٣) ابن سعد: الطبقات (٢/١٩٠).

(٤) البخاري ح (٣٧٣٢)، ومسلم ح (١٦٨٨).

(٥) البخاري ح (٣٧٣٧)، وانظر ابن حجر: الفتح (٧/٨٨ - ٨٩).

(٦) البخاري ح (٣٧٣٠)، ومسلم ح (٢٤٢٦).

٣) كان حامل اللواء في بعث أسامة بريدة بن الحصيب رضي الله عنه، وعسكر بـ(الجُرف)^(١)، ولم يبقَ أحد من وجوه المهاجرين والأنصار إلا انتدب في هذا البعث كأبي بكر وعمر، وأبي عبيدة، وسعد، وسواهم، ولكن الجيش لم يتحرك من الجُرف بسبب ابتداء مرض النبي صلى الله عليه وآله^(٢).

وتأخر هذا البعث وإن كان رسول الله صلى الله عليه وآله حريصًا على خروجه، وكان يقول -والمرض يُثقله-: (أفعدوا بعث أسامة)، وقد زار أسامة رسول الله صلى الله عليه وآله وهو مريض، فدعا له وودعه، وبينما هو يريد التحرك من (الجُرف) إذ برسول أمه (أم أيمن) يجيء إلى أسامة ويقول له: إن رسول الله يموت! فأقبل أسامة ومعه عمر وأبو عبيدة، حتى انتهوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يموت فتوفي صلى الله عليه وآله^(٣).

ودخل المسلمون المعسكرون بـ(الجرف) إلى المدينة، ودخل بريدة بن الحصيب رضي الله عنه وهو حامل لواء أسامة، حتى أتى باب النبي صلى الله عليه وآله فغرز (اللواء) على باب رسول الله صلى الله عليه وآله، حتى إذا بُويع لأبي بكر رضي الله عنه بالخلافة أمر ببعث أسامة أن يتحرك تنفيذًا لوصية رسول الله صلى الله عليه وآله حتى وإن ارتدت العرب، وكلم أبو بكر في حبس جيش أسامة فأبى^(٤). وكان يقول: والله إن تخطفني الطير أحب إلي من أن أبدأ بشيء قبل أمر رسول الله صلى الله عليه وآله، فبعث أسامة واستأذنه في (عمر) أن يتركه عنده^(٥).

ومضى الجيش -بقيادة أسامة بن زيد رضي الله عنه- وتحرك في هلال ربيع الآخر سنة

(١) الجُرف: في النهاية: موضع قريب من المدينة (١/٢٦٢)، وعند ياقوت: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام (معجم البلدان ٢/١٢٨)، وقال عنه شراب: يقع شمال المدينة، وهو الآن حي من أحيائها (المعالم الأثيرة ص ٨٩).

(٢) الطبقات (٢/١٩٠).

(٣) ابن سعد: الطبقات (٢/١٩٠ - ١٩١).

(٤) ابن سعد: الطبقات (٢/١٩١).

(٥) سير أعلام النبلاء (٢/٥٠٣) عن عروة بن الزبير.

إحدى عشرة، إلى أهل أُنْبَى، وشنَّ الغارة عليهم، فقتل من أشرف له وسبى من قدر عليه، وأجال الخيل في عرصاتهم، وقتل أسامة قاتل أبيه وعاد إلى المدينة، وما أُصِيب من المسلمين أحد، وخرج أبو بكر في المهاجرين وأهل المدينة يتلقونهم سرورًا بسلامتهم^(١).

وكان لهذا البعث أثر في نفوس الروم وكسر معنوياتهم، فحين جاء الخبر إلى (هرقل) بموت النبي ﷺ وإغارة (أسامة) على أرضه في آن واحد، قالت الروم: ما بال هؤلاء يموت صاحبهم وأغاروا على أرضنا؟^(٢).

(٤) وبقي أن يقال: لا يدري المرء ممَّ يعجب، أمن عقد لواء يتجه إلى قوة كبرى (الروم) وقائده (شاب من شباب الصحابة الكرام) فذلك بُعد نظر، وحسن تدبير، وتفعيل للطاقات الشابة وتدريبهم على القيادة - لمستقبل الأيام - وكسر لهيبة الروم، وتحطيم لمعنوياتهم، واستمرار لجهادهم حتى وإن كان ﷺ في مرض الموت؟ أم يعجب من إصرار أبي بكر ﷺ على إنفاذ هذا الجيش^(٣) رغم الظروف والمخاطر التي أحاطت بالمدينة - بعد وفاته ﷺ - كل ذلك تأسيًا بالنبي ﷺ وتنفيذًا لوصيته، وقوة يقين وتوكل على الله من أبي بكر ﷺ، وحسن سياسةٍ أشعرت العدو بقوة المسلمين، وقالوا: لو لم يكن في المسلمين قوة لما بعثوا هذا البعث، في هذه الظروف العصيبة! فعاد الجيش ظافرًا غانمًا، والمدينة آمنًا وأيمانًا، فله درهم أجمعين.



(١) الواقدي: المغازي (٣/١١٢٣)، وابن سعد: الطبقات (٢/١٩١).

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء (٢/٥٠٣).

(٣) قيل إن عدد جيش أسامة ثلاثة آلاف، وقيل سبعمائة (ابن حجر: الفتح ٨/١٥٢)، الواقدي: المغازي (٣/١١٢٢).

مرضه ﷺ ووفاته

هنا يحق للقلم أن يتوقف، وللفؤاد أن يرتجف، فما موته ﷺ بالأمر الهويني، بل هو انقطاع الوحي من السماء، وختم رسالات الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، ولكن حكمة الله بالغة ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنَّ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٤، ٢٥]، ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠].

عاد رسول الله ﷺ من حجة الوداع إلى المدينة، وقد نزل عليه ما يؤذن بدنو أجله: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر: ١ - ٢]، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه^(١).

وقد عقد ابن كثير رحمه الله فصلاً في الآيات والأحاديث المنذرة بوفاته ﷺ^(٢).

أحداث قبل الوفاة:

وثمة أحداث مهمة وقعت للنبي ﷺ قبيل وفاته وعُدَّتْ كالمقدمات لوفاته ﷺ، كفتح مكة، وتتابع الوحي عليه في العام الذي قبض فيه أكثر ما كان^(٣)، وعرض جبريل عليه السلام في العام الذي قبض فيه^(٤)، واعتكافه ﷺ في العام الذي قبض فيه.

(١) البخاري ح (٤٤٣٠)، وعند ابن سعد قريب من هذا عن ابن عباس والحسن (الطبقات: ١٩٢/٢ - ١٩٣).

(٢) البداية والنهاية: (٢٤/٨).

(٣) البخاري ح (٤٩٨٢)، ومسلم ح (٣٠١٦).

(٤) البخاري ح (٤٩٩٨) من حديث أبي هريرة، ومن حديث عائشة عند البخاري ح (٢٦٢٣)، ومسلم ح (٢٤٥٠)، وابن سعد: الطبقات (١٩٤/٢).

قُبْضُ فِيهِ عَشْرِينَ يَوْمًا^(١)، وَتَخْيِيرُهُ ﷺ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاخْتِيَارَهُ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ^(٢).

وَقَدْ حَدَّدَ ابْنُ إِسْحَاقَ بِدَايَةِ شَكْوَى مَرَضِهِ الَّذِي تُوْفِيَ فِيهِ فِي لَيَالٍ بَقِيْنَ مِنْ صَفْرِ أَوْ فِي أَوَّلِ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ^(٣)، وَعَنْ الْيَوْمِ وَمُدَّةِ الْمَرَضِ قَالَ ابْنُ سَعْدٍ: أَوَّلُ شَكْوَاهُ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ، فَكَانَ شَكْوَاهُ إِلَى أَنْ قُبْضَ ﷺ ثَلَاثَةَ عَشْرَ يَوْمًا^(٤) وَهُوَ الْقَوْلُ الْأَكْثَرُ^(٥)، وَقِيلَ: عَشْرَةَ أَيَّامٍ وَسَنَدُهُ صَحِيحٌ^(٦)، وَقَدْ ثَبِتَ أَنَّ عَمْرَهُ ﷺ حِينَ تُوْفِيَ ثَلَاثَ وَسِتُونَ سَنَةً^(٧).

كَمَا ثَبِتَ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: يَا عَائِشَةُ: مَا أَزَالَ أَجْدَأَ أَلْمِ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتَ بِخَيْرٍ، فَهَذَا أَوْانٌ وَجَدْتَ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السَّمِ^(٨).

وَلِهَذَا كَانَ يُقْسَمُ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَاتَ شَهِيدًا^(٩).

وَحِينَ ثَقُلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاشْتَدَّ بِهِ وَجَعُهُ، اسْتَأْذَنَ أَزْوَاجَهُ أَنْ يُمَرِّضَ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَأَذِنَ لَهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا^(١٠) وَعُدَّ مِنْ مَنَاقِبِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ

(١) البخاري ح (٢٠٤٤ - ٤٩٩٨)، ومسلم ح (١١٦٧).

(٢) البخاري ح (٤٤٣٥ - ٤٤٣٦)، ومسلم ح (٢٤٤٤)، وأحمد (٤٨٩/٣)، وابن حجر: الفتح (١٣٧/٨).

(٣) ابن هشام: السيرة (٣٨٥/٤).

(٤) الطبقات (٢٠٦/٢).

(٥) الفتح (١٢٩/٨).

(٦) الفتح (١٢٩/٨).

(٧) البخاري ح (٤٤٦٦)، ومسلم ح (٢٣٤٩).

(٨) البخاري ح (٤٤٢٨).

(٩) مسند أحمد (٣٨٢/١)، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (٣٣٤/٥)، وانظر:

د. السلمي وزملاءه: صحيح الأثر (ص ٢٩٤).

(١٠) البخاري ح (٤٤٤٢).



عنها أن النبي ﷺ توفي في بيتها ورأسه ﷺ بين سحرها ونحرها^(١)، وفي رواية: بين حاقتي وذاقتي^(٢)، وهما بمعنى سحري ونحري^(٣).

وَعُغِّلَ ﷺ في ثيابه، غسله: العباس، وعلي، والفضل، وقثم ابنا العباس وشقران (مولاه) وأسامة بن زيد، وأوس بن خولي^(٤).

وكفنوه في ثلاثة ثياب بيض سحولية^(٥)، وصلى عليه الناس أرسالاً، لا يؤمهم أحد، وهذا أمر مجمع عليه كما قال ابن كثير^(٦).

وكانت وفاته عليه الصلاة والسلام يوم الاثنين بلا خلاف من ربيع الأول^(٧) سنة إحدى عشرة للهجرة، كما ثبت أن قبره ﷺ في بيت عائشة رضي الله عنها^(٨)، وقد علم ذلك بالتواتر دفنه بحجرة عائشة كما قال ابن كثير رحمه الله^(٩)، وتقع في شرقي مسجده في الزاوية الغربية القبلية^(١٠).



(١) البخاري ح (١٣٨٩ - ٤٤٥٠)، ومسلم ح (٢٤٤٣).

(٢) البخاري ح (٤٤٣٨ - ٤٤٤٦).

(٣) ابن حجر: الفتح (١٣٩/٨).

(٤) ابن هشام: السيرة (٤/٤١٥ - ٤١٦).

(٥) البخاري ح (١٢٦٤)، ومسلم ح (٩٤١).

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية (٨/١٣٤).

(٧) الفتح (٨/١٢٩).

(٨) البخاري ح (١٣٨٩).

(٩) البداية والنهاية (٨/١٥٣).

(١٠) المصدر السابق (٨/١٥٣).

وقفات في مرضه ووفاته ﷺ

على أن المرء لا يمكنه أن يتجاوز حادث مرضه ووفاته ﷺ دون أن يقف الوقفات

الآتية:

(١) اشتد المرض على رسول الله ﷺ حتى قال: هَرَيْقُوا عَلَيَّ مِنْ سَبْعِ قُرْبٍ لَمْ تُحَلَّلْ أَوْ كَيْتَهْنِ^(١)، وقالت عائشة رضي الله عنها: فلا أكره شدة الموت لأحد أبداً بعد رسول الله ﷺ^(٢)، ومعاشر الأنبياء يُضَاعَفُ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ وَيُضَاعَفُ لَهُمُ الْأَجْرُ^(٣)، وكفى بالموت واعظاً، ألا إن للموت سكرات^(٤).

(٢) وحين اشتد به المرض أرسل النبي ﷺ إلى أبي بكر أن يصلي بالناس، فصلى بهم أبو بكر تلك الأيام^(٥)، وتلك منقبة وفضيلة لأبي بكر ﷺ، قال أبو الحسن الأشعري: وتقديمه دليل على أنه أعلم الصحابة وأقرؤهم، ثم علق عليه ابن كثير بقوله: وهذا من كلام الأشعري رحمه الله مما ينبغي أن يُكتب بماء الذهب^(٦).

أما محاولة عائشة رضي الله عنها مراجعة النبي ﷺ في إمامة أبيها، فقد علته بالقول: وما حملني على كثرة مراجعته، إلا أنه لم يقع في قلبي أن يحب الناس بعده

(١) البخاري ح (٤٤٤٢).

(٢) البخاري ح (٤٤٤٦).

(٣) ابن سعد: الطبقات (٢/٢٠٨)، وابن حجر: الفتح (٨/١٤٠).

(٤) البخاري ح (٤٤٤٩).

(٥) البخاري ح (٦٨٧)، ومسلم ح (٤١٨).

(٦) البداية والنهاية (٨/٥٨).

رجلاً قام مقامه أبداً، ولا كنت أرى أنه لن يقوم أحدٌ مقامه إلا تشاءم الناس به، فأردت أن يعدل ذلك رسول الله ﷺ عن أبي بكر^(١).

(٣) وعُدَّ من علائم نبوته ﷺ أنه دعا فاطمة رضي الله عنها في مرض موته، فسارها بشيء فبكت، ثم دعاها فسارها بشيء فضحكت، فسئلت عن ذلك فقالت: سارني أنه يُقبض في وجعه فبكيت، ثم سارني فأخبرني أنني أول أهله يتبعه فضحكت^(٢)، فلما وقع ذلك كما أخبر عدَّ ذلك من علامات النبوة، وإخباره بما سيقع^(٣).

(٤) وكان في تقدم موته ﷺ رحمة للأمة، وهو القائل عليه الصلاة والسلام: إن الله ﷻ إذا أراد رحمة أمة من عباده قبض نبيها قبلها، فجعله لها فرطاً وسلفاً بين يديها، وإذا أراد هلكة أمة عذبها ونبيها حي، فأهلكها وهو ينظر، فأقرَّ عينه بهلكتها حين كذبوه وعصوا أمره^(٤). فاللهم لك الحمد على رحمتك، واجعل نبينا ﷺ لنا شفيعاً حين نلتاك.

(٥) أوصى النبي ﷺ أمته بعدد من الوصايا ومنها: الصلاة والصلاة وما ملكت أيمانكم^(٥)، وأوصى بإخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب، وإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم^(٦).

(١) البخاري ح (٤٤٤٥)، ومسلم ح (٤١٨).

(٢) البخاري ح (٤٤٣٣ - ٤٤٣٤)، ومسلم ح (٢٤٥٠).

(٣) ابن حجر: الفتح (١٣٥/٨ - ١٣٦).

(٤) مسلم ح (٢٢٨٨).

(٥) أبو داود ح (٥١٥٦)، وابن ماجه ح (٢٦٩٨)، وأحمد ح (٥٨٥)، وانظر: صحيح السيرة: إبراهيم

العلي (ص ٥٦٧).

(٦) البخاري ح (٣١٦٨)، ومسلم ح (١٦٣٨)، ورواه التيمي موصولاً إلى أنس ﷺ كما نقل الذهبي في

السيرة (ص ٥٥٧).

كما أوصى ﷺ قبل موته بثلاثة أيام بإحسان الظن بالله^(١)، وفائدة ذلك: أن العبد يُبعث على ما مات عليه^(٢).

(٦) كان ﷺ عَلَمًا ونموذجًا في الزهد في الدنيا، فقد مات وما ترك دينارًا ولا درهماً، ولا عبدًا ولا أمة، إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها، وسلاحه، وأرضًا جعلها لابن السبيل صدقة^(٣).

وصح عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ توفي ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير^(٤)، وفي ذلك -مع زهده ﷺ في الدنيا- احترام أموال أهل الذمة وصيانة حقوقهم^(٥).

أما الأشياء التي كان يملكها ﷺ من الدور والنساء، والإماء والعبيد، والخيول والإبل، والثياب والأثاث ونحوها، فلعله ﷺ تصدق بكثير منها في حياته منجزًا، وأعتق من أعتق من إمامه وعبيده -كما قال ابن كثير رحمه الله-^(٦).

(٧) كان لموته ﷺ أثر بالغ في حياة المسلمين، ولم لا يكون كذلك، ومصيبته أعظم مصاب في الأمة، فقد قال ﷺ: (فإنَّ أحدًا من أمتي لن يُصاب بمصيبة أشدَّ عليهم من مصيبتي)^(٧)، بل كان لبعضهم صدمة، حتى أنكروا وقوعها، كما حصل من عمر ؓ حين سمع بكاء الناس لموت رسول الله ﷺ فقام في

(١) مسلم ح (٢٨٧٧).

(٢) مسلم ح (٢٨٧٨).

(٣) البخاري ح (٤٤٦١).

(٤) البخاري ح (٤٤٦٧)، ومسلم ح (١٦٠٣).

(٥) د. زيد الزيد: فقه السيرة (ص ٦٨٠).

(٦) البداية والنهاية: (٨/١٨٤).

(٧) صحيح سنن ابن ماجه (١/٢٦٧).

المسجد خطيباً وقال: لا أسمعن أحداً يقول إن محمداً قد مات، ولكنه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى بن عمران، فلبث عن قومه أربعين ليلة^(١).

وحُسم الأمر بمجيء أبي بكر رضي الله عنه، فلما تأكد من موت رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج، وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس على أبي بكر وتركوا عمر، حيث قال أبو بكر: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر يتلوها فَعَقِرْتُ حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد مات^(٢).

وإذا بلغت الصدمة بعمر رضي الله عنه هذا المبلغ، فلا تسأل عن غيره من المسلمين، ويبقى أبو بكر رضي الله عنه صديق هذه الأمة وجبيلها حين الأزمات والشدائد، فرضي الله عن الصحابة أجمعين.

وقد عبّر أنس رضي الله عنه عن شدة المصاب فقال: لما كان اليوم الذي قبض فيه النبي صلى الله عليه وسلم أظلم من المدينة كل شيء، وما نفضنا عنه الأيدي من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا^(٣).
ومن فقه أم أيمن رضي الله عنها قولها للصحابة - حين بكت وأبكت الصحابة - لموت رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ولكن أبكي أن الوحي انقطع من السماء)^(٤).

(١) ابن سعد: الطبقات (٢/٢٦٦)، ومصنف عبدالرزاق (٥/٤٣٣).

(٢) البخاري ح (٤٤٥٤).

(٣) الترمذي ح (٣٦١٨) وقال: هذا حديث غريب صحيح، وابن ماجه ح (١٦٣١)، وأحمد ح (١٣٣١٢)، وابن سعد: الطبقات (٢/٢٧٤).

(٤) مسلم ح (٢٤٥٤).

٨) وحين حضر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال قال ﷺ: هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، فاختلفوا، حتى قال بعضهم: حسبنا كتاب الله^(١).

وفيه من الفقه اختلاف الصحابة في الاجتهاد، قال النووي: اتفق العلماء على أن قول عمر (حسبنا كتاب الله) من قوة فقهه ودقيق نظره...^(٢).

٩) إن دين الله والدعوة إلى الحق ليست مرتبطة بحياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإذا ماتوا فعلى أتباعهم وأنصارهم أن يحملوا الراية من بعدهم مقتدين بهديهم، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَيَّ آعْقِبِكُمْ...﴾ [آل عمران: ١٤٤] علق القرطبي بقوله: فأعلم الله في هذه الآية أن الرسل ليست بباقية في قومها أبداً، وأنه يجب التمسك بما أتت به الرسل وإن فقد الرسول بموت أو قتل... فهذه الآية من تنمة العتاب مع المنهزمين، أي لم يكن لهم الانهزام وإن قُتل محمد، والنبوة لا تدرأ الموت، والأديان لا تزول بموت الأنبياء^(٣).

وهو كلام نفيس إذ لا تعلق بالأشخاص ولو كانوا أنبياء، بل بالمنهج الحق، فهو أبقى.

١٠) لم يمُت محمد ﷺ إلا بعد أن أكمل الله الدين، وأتم النعمة على المسلمين، وبعد أن دخل الناس في دين الله أفواجا، وقد خيره ربه بين خزائن الدنيا والخلد فيها، والجنة، فاختار لقاء ربه والجنة^(٤).

(١) البخاري ح (٤٤٣١ - ٤٤٣٢)، ومسلم ح (١٦٣٧).

(٢) الفتح (٨/١٣٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٤/٢٢٢).

(٤) حديث تخييره ﷺ بين الدنيا وما عند الله، واختياره ﷺ ما عند الله أخرجه البخاري ح (٤٦٦)، ومسلم ح (٢٣٨٢) من حديث أبي سعيد، ورواه ابن إسحاق (السيرة لابن هشام ٤/٣٨٦)، وأحمد وغيرهم من حديث أبي مويهبة وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرک ٣/٥٥ - ٥٦).



فدين الإسلام أكمله الله وأتمَّ نعمته على المسلمين، ومحمد ﷺ أدَّى ما عليه من البلاغ والدعوة، وكذلك الأنبياء قبله، ومن أحبَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فليستنَّ بسنتهم، ويقتدي بهداهم، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين.

تلك وقفات عجلى، ووفاته ﷺ تحتمل المزيد^(١).



(١) وللمزيد: انظر: فقه السيرة: د. زيد الزيد (ص ٧٦٧-٧٩٥).

الخاتمة والتوصيات

الحمد لله الذي أعان ويسّر، وأسأله القبول والتسديد، وبعد:

ففي خاتمة هذا الكتاب أسجل النقاط والتوصيات الآتية:

- (١) رغم أنني أمضيت وقتاً وجهداً في كتابة هذا الكتاب (جمعاً للمعلومات من مصادرها وتوثيقاً لها قدر الإمكان، وتأليفاً لما تشابه أو تعارض منها، واستنباطاً للعبر والدروس)، فإنني سعيد مغتبط بذلك، وأشعر أن ذلك أقل الواجب تجاه سيرة الرسول ﷺ، وأشكره سبحانه على إعانه وتيسيره وتسديده، ثم شكري يمتد لكل من أسهم معي برأي أو معلومة أو ملاحظة أو مراجعة، وأجرهم على الله.
- (٢) ورغم الجهد البشري والاجتهاد المقدور عليه فإنني أعتذر سلفاً عن أي تقصير أو خلل وقع - وهو من طبيعة البشر - وأرجو أن يكون في حدود ما يُغتفر.
- (٣) وبرغم عيشي مع هذه السيرة قُرابة أربعين سنة (قراءة، وتدريساً، وكتابة)، فلا أكتم أنني أقف أحياناً على حدث أو موقف من مواقفها وكأنني لأول مرة أقف عليه، وهذا جزء من عظمة هذه السيرة وعمق أحداثها، وتعدد مصادرها، وكثرة الكتابة فيها قديماً وحديثاً.
- (٤) ولا أكتم - كذلك - أنني ربما تأثرت بالحدث وأنا أقرؤه أو أكتبه، وذلك دليل على أن هذه السيرة النبوية تجدد الإيمان كلما خلِق، وترقق القلوب، وتزكي العقول، وتدلل على الخير وترسم الطريق للفلاح والهدى.



- (٥) كما وجدت -دون تكلف- تشابهاً بين كثير من وقائع السيرة، وواقعنا المعاصر، يؤكد أن التاريخ يتجدد، وأن الأيام دول، وأن الابتلاء بالخير والشر قديم يتجدد، ومن هنا وجب قراءة السيرة والاستفادة من عبرها ودروسها.
- (٦) ومن تأمل في فقه السيرة النبوية وجد منها مخارج من الأزمات، ودروساً في الثبات والصبر، وبواعث للفأل والأمل، وطرائق للنصر والفتح، ودوافع للإنجاز والعمل في الحاضر، والاستشراف والتخطيط للمستقبل، وترك القنوط واليأس والإحباط.
- (٧) وإذا كان محمد رسول الله ﷺ عماد هذه السيرة وقطبها الأعظم، فصحابته رضوان الله عليهم مشاركون مشاركة فاعلة وإيجابية في رسم معالم هذه السيرة، وتنفيذ مشاهدتها، وقد بذلوا مهجهم وأموالهم في سبيل نصرته هذا الدين، وظهور هذه السيرة بقيم ومعالم أذهلت المتقدمين والمتأخرين من المسلمين وغير المسلمين.
- (٨) والذين يتذوقون جمال السيرة النبوية وعمق تأثيرها في التربية لا يترددون في تعليمها لأبنائهم وبناتهم وأسرهم وذويهم، ولا يتكاسلون عن قراءتها في بيوتهم ومدارسهم ومساجدهم، وإذا رأيت ثم رأيت وليّ أمرٍ، أو معلماً، أو إمام مسجد أو غيرهم يهتم بهذه السيرة ويعلمها لمن حوله ومن تحت يده، فاعلم أن ذلك رُشد وتوفيق للتربية بأعلى مقاصدها، فهل نجعل في بيوتنا ومدارسنا ومساجدنا حلقة لتعليم السيرة النبوية ونشر ثقافتها وتعميم قيمها؟
- (٩) وغني عن البيان أن السيرة النبوية تفقد الكثير من تأثيرها حين يتعاطاها المرابي أو المعلم أو الواعظ على أنها نصوص جامدة بعيدة عن الدروس والعبر والتعليق المفيد، وربطها بواقع الناس وهمومهم ومشكلاتهم، وهنا

يكون للسيرة معنى وجمال آخر فوق جمال نصوصها أو سرد أحداثها.

(١٠) أما حين نتقل إلى مستوى يهتم بإقامة الدروس والدورات والندوات والملتقيات لكيفية تدريس السيرة، وتأصيل أحداثها والعناية بصحتها وأسلوب تعليمها، والعناية بدروسها، فذلك تفوق وارتقاء بالسيرة إلى المستوى الذي تستحقه، والذي ربما غاب عن كثير من المؤسسات التربوية أو المراكز العلمية والهيئات الإسلامية.

(١١) وبعد، فسيرة محمد ﷺ أعظم سيرة، وحق هذه السيرة أن تُدرّس في الجامعات ولكل التخصصات، وأن تُفعل قيمها عبر وسائل التواصل وقنوات الإعلام المختلفة، فهي النور والرحمة، والعالم أجمع محتاج لهذه السيرة في زمن الظلم والظلمات، والإرهاب والتطرف، وفيها عصمة - بإذن الله - من أفكار الخوارج والمرجئة، وفيها جمع للكلمة وإنهاء للنزاع والفرقة والاختلاف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا لِرَسُولٍ وَأُوَلِي ءَأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَذُوهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِنَّ كُنْتُمْ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَيَوْمٍ ءَآخِرٍ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

اللَّهُمَّ اسلك بنا طريق الرشاد، وارزقنا الاقتداء بهدي الأنبياء، واملأ قلوبنا محبة لهم، واحشرنا في زمريهم.. إنك سميع الدعاء.

وصلى الله على محمد وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.





قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير الجزري: أبو السعادات المبارك بن محمد (ت ٦٠٦هـ):
- (١) جامع الأصول في أحاديث الرسول: تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، نشر: مكتبة الحلواني، مطبعة الملاح مكتبة دار البيان (١٣٨٩هـ).
- (٢) النهاية في غريب الحديث والأثر: تحقيق طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، نشر: دار الفكر، ط الثانية (١٣٩٩هـ).
- ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (ت ٦٣٠هـ):
- (٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: محمد البناء، محمد عاشور، مطبعة الشعب، القاهرة.
- ابن إسحاق: محمد بن إسحاق بن يسار المظلي (ت ١٥١هـ):
- (٤) كتاب المبتدأ والمبعث والمغازي: تحقيق محمد حميد الله، نشر: جمعية الوقف للخدمات الخيرية/ قونية، تركيا، ط ٢ (١٤٠١هـ).
- (٥) السير والمغازي: تحقيق: سهيل زكار، نشر: دار الفكر ط ١ (١٣٩٨هـ).
- الألباني: محمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠هـ):
- (٦) صحيح الجامع الصغير وزياداته: الناشر: المكتب الإسلامي.
- (٧) دفاع عن الحديث النبوي والسيرة: نشر: مؤسسة ومكتبة الخافقين / دمشق.

- ٨) تعليقه على فقه السيرة للغزالي: نشر مؤسسة ومكتبة الخافقين / دمشق.
- ٩) صحيح سنن ابن ماجه: الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، الطبعة الثالثة.
- ١٠) صحيح سنن الترمذي: نشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج / الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م.
- ١١) صحيح سنن أبي داود: نشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج / الرياض، ط: ١، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م.
- ١٢) صحيح سنن النسائي.
- ١٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها: الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى لمكتبة المعارف.
- ١٤) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: دار النشر: دار المعارف، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
- البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ).
- ١٥) الجامع الصحيح: المكتبة الإسلامية، محمد أوزدمير، إسطنبول، تركيا.
- ١٦) التاريخ الكبير: مطبعة دار المعارف العثمانية - حيدر أباد (الهند).
- ١٧) الأدب المفرد: حقق أحاديثه وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار الصديق للنشر والتوزيع، ط ٤، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.
- البيهقي: أحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي (ت ٤٥٨هـ):
- ١٨) دلائل النبوة: تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت ط ١، ١٤٠٥هـ).



- (١٩) السنن الكبرى: نشر: دار الفكر.
- (٢٠) شعب الإيمان: حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، الناشر: مكتبة الرشد بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.
- البلاذري: أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جبار البلاذري (ت: ٢٧٩هـ):
- (٢١) أنساب الأشراف: تحقيق المحمودي، والدوري، وإحسان عباس وآخرين.
- البغوي: أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن البغوي (ت: ٥١٦هـ):
- (٢٢) شرح السنة: تحقيق: شعيب الأرنؤوط - محمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- البوصيري: أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري (ت: ٨٤٠هـ):
- (٢٣) إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة: المحقق: دار المشكاة للبحث العلمي بإشراف أبو تميم ياسر بن إبراهيم، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.
- البلادي: عاتق بن غيث بن زوير بن زاير البلادي الحربي (ت: ١٤٣١هـ):
- (٢٤) معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية: الناشر: دار مكة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- باقشيش محمد:
- (٢٥) المغازي لموسى بن عقبة: جامعة ابن زهر، المغرب/ أغادير، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

- البوطي: محمد سعيد رمضان:
- (٢٦) فقه السيرة: نشر دار الفكر/ بيروت، الطبعة الخامسة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٩هـ):
- (٢٧) الجامع الصحيح: تحقيق وتصحيح عبد الوهاب عبد اللطيف، الناشر: مكتبة الرياض الحديثة.
- ابن تيمية: أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ):
- (٢٨) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: مطابع نجد التجارية.
- (٢٩) مجموع الفتاوى: جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن القاسم وابنه محمد، طبعة مصورة عن الطبعة الأولى (١٣٩٨هـ).
- (٣٠) التدمرية: المحقق: د. محمد بن عودة السعوي، الناشر: مكتبة العبيكان - الرياض، الطبعة: السادسة ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.
- المتقي الهندي: علي بن حسام الدين ابن قاضي خان الشهير بالمتقي الهندي (ت: ٩٧٥هـ):
- (٣١) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: المحقق: بكري حياني، صفوة السقا، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- التنوخي: المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم داود التنوخي (ت: ٣٨٤هـ):
- (٣٢) الفرج بعد الشدة: تحقيق: عبود الشالجي، الناشر: دار صادر، بيروت، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.



- الجاسر: حمد الجاسر:
- (٣٣) رحلة إلى طيبة مجموعة مقالات كتبها لمجلة العرب، تصدر عن دار الإمامة للبحث والترجمة والنشر-الرياض.
- (٣٤) المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة (إبراهيم بن إسحاق الحربي): تحقيق حمد الجاسر مطبعة المثنى-بيروت (١٣٨٩هـ).
- الحاكم: محمد بن عبد الله الحاكم (ت ٤٠٥هـ):
- (٣٥) المستدرک علی الصحیحین: نشر: دار الكتب العلمیة.
- ابن حجر: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ):
- (٣٦) فتح الباري: رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه واستقصى أطرافه: محمد فؤاد عبد الباري، وقام بإخراجه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب: نشر وتوزيع: رئاسة إدارات البحوث العلمیة والإفتاء، المملكة العربية السعودية.
- (٣٧) الإصابة في تمييز الصحابة: تحقيق الدكتور: طه محمد الزيني، نشر: مكتبة الكليات الأزهرية بالأزهر، ط ١ (١٣٩٦هـ).
- (٣٨) المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية: حققها مجموعة من الباحثين، تنسيق: د. سعد بن ناصر الشثري، ط: دار العاصمة، دار الغيث/السعودية، ط: ١. ١٤١٩هـ.
- ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم (٤٥٦هـ):
- (٣٩) جمهرة أنساب العرب: تحقيق وتعليق: عبدالسلام هارون، الناشر: دار المعارف، ط ٤.

- ٤٠) جوامع السيرة: تحقيق: د. إحسان عباس، د. ناصر الدين الأسد، ومراجعة: أحمد محمد شاكر، المطبعة العربية، لاهور (١٤٠١هـ).
- ابن حنبل: أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ):
- ٤١) المسند: تحقيق: أحمد شاكر، نشر: دار صادر، المكتب الإسلامي.
- الحموي: ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ):
- ٤٢) معجم البلدان، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ابن حمدون: أبو المعالي محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون (ت: ٥٦٢هـ).
- ٤٣) التذكرة الحمدونية: الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.
- الحميدي:
- ٤٤) التاريخ الإسلامي.
- الحكمي: حافظ محمد:
- ٤٥) مرويات غزوة الحديبية: رسالة ماجستير، مقدمة للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
- الحلبي: علي بن برهان الدين (ت ٩٧٥هـ):
- ٤٦) السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون: طبعة: دار الباز للنشر والتوزيع، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- الدارمي: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي (ت: ٢٥٥هـ):
- ٤٧) سنن الدارمي: طبع بعناية محمد دهمان، دار إحياء السنة النبوية، القاهرة.



- أبو داود: سليمان بن الشعث (ت ٢٧٥هـ):
- (٤٨) سنن أبي داود: المجلس العلمي إحياء التراث الإسلامي ط: الأولى ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- الذهبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ):
- (٤٩) سير أعلام النبلاء: أشرف على تحقيقه وخرج أحاديثه شعيب الأرنؤوط، وحقق أجزاء الكتاب: جماعة منهم حسين الأسد وصالح السمر، نشر: مؤسسة الرسالة ط ١ (١٤٠١هـ).
- (٥٠) السيرة النبوية: عني بتحقيق النص وتحليل الحواشي: حسام الدين المقدسي، نشر: دار مكتبة الهلال، بيروت.
- (٥١) تلخيص المستدرک على الحاكم (بذيله): نشر: الكتب العلمية.
- الزهري: محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري (ت ١٢٤هـ):
- (٥٢) المغازي النبوية، تحقيق: سهيل زكار، الناشر: دار الفكر، دمشق (١٤٠١هـ).
- الزرقاني: محمد بن عبد الباقي الزرقاني (ت ١١٢٢هـ):
- (٥٣) شرح على المواهب اللدنية: نشر: دار المعرفة، بيروت.
- الزيد: د. زيد بن عبد الكريم الزيد:
- (٥٤) فقه السيرة: دار التدمرية، الرياض، الطبعة التاسعة ١٤٣٦هـ.
- الساعاتي: أحمد بن عبد الرحمن بن محمد البنا الساعاتي (ت: ١٣٧٨هـ):
- (٥٥) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ومعه بلوغ الأمان من أسرار الفتح الرباني: الناشر: دار إحياء التراث العربي، ط: الثانية.

- السخاوي: أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي (ت: ٩٠٢هـ):
- (٥٦) المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة: المحقق: محمد عثمان الخشت، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ.
- ابن سعد: أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري (ت: ٢٣٠هـ):
- (٥٧) الطبقات الكبرى، نشر: دار صادر، بيروت.
- السهيلي: عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (ت: ٥٨١هـ):
- (٥٨) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق وتعليق: عبد الرحمن الوكيل، نشر: دار الكتب الحديثة، القاهرة.
- السعود: سليمان بن علي السعود:
- (٥٩) أحاديث الهجرة (جمع وتحقيق ودراسة) رسالة ماجستير في الجامعة الإسلامية عام (١٤٠١هـ).
- السعدي: عبد الرحمن بن ناصر:
- (٦٠) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: مكتبة الرشد.
- ابن سيد الناس: أبو الفتح محمد بن محمد (ت: ٧٣٤هـ):
- (٦١) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، نشر: دار المعرفة، بيروت.
- السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ):

- (٦٢) اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة: المحقق: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، الناشر: دار الكتب العلمية/ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- السرجاني: د. راغب الحنفي:
- (٦٣) الرحمة في حياة الرسول ﷺ: الناشر: المركز العالمي للتعريف بالرسول ﷺ ونصرتة، الرياض، ط: الثانية ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
- السلمي: د. محمد السلمي، د. عبد الرحمن قصاص، د. سعد الموسى، د. خالد الغيث:
- (٦٤) صحيح الأثر وجميل العبر من سيرة خير البشر: نشر: معهد البحوث العلمية بجامعة أم القرى/ مكة، ط: الأولى ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.
- السندي: أكرم حسين:
- (٦٥) مرويات تاريخ يهود المدينة: رسالة ماجستير في الجامعة الإسلامية بالمدينة، ١٤٠٠هـ.
- بن أبي شيبه: أبو بكر بن أبي شيبه، عبد الله بن محمد العبسي (ت: ٢٣٥هـ):
- (٦٦) الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار: المحقق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.
- الشامي: صالح أحمد الشامي:
- (٦٧) من معين السيرة: المكتب الإسلامي، ط ١. (١٤٠٥هـ).
- شراب: محمد محمد حسين شراب:

(٦٨) المعالم الأثيرة في السنة والسيرة: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت ط ١. (١٤١١هـ).

- الصالحي: محمد بن يوسف الشامي الصالحي (ت ٩٤٢هـ):

(٦٩) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق: د. مصطفى عبد الواحد وآخرين، نشر: إحياء التراث الإسلامي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر.

- ابن الصلاح: أبو عمر عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن الصلاح (ت ٦٤٣هـ):

(٧٠) مقدمة ابن الصلاح: المحقق: نور الدين عتر، الناشر: دار الفكر - سوريا، دار الفكر المعاصر، بيروت، سنة النشر: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

- الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ):

(٧١) جامع البيان في تفسير القرآن، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

(٧٢) تاريخ الأمم والملوك: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم نشر: دار المعارف بمصر.

- الطبراني: سليمان بن أحمد بن أيوب، أبو القاسم الطبراني (ت ٣٦٠هـ):

(٧٣) المعجم الكبير: المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة، الطبعة: الثانية.

(٧٤) المعجم الأوسط: المحقق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين - القاهرة.



- طرهوني: محمد رزق طرهوني:
- (٧٥) صحيح السيرة النبوية (السيرة الذهبية): نشر مكتبة ابن تيمية، القاهرة ط ١. (١٤١٤هـ).
- عبد الرزاق: أبي بكر عبد الرزاق بن همام (ت ٢١١هـ):
- (٧٦) مصنف عبد الرزاق: تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، طبعة المجلس العلمي/الهند، ط: ٢، ١٤٠٣هـ.
- ابن عبد البر: يوسف بن عبد البر النميري (ت ٤٦٣هـ):
- (٧٧) الاستيعاب في معرفة الأصحاب: (بذيل الإصابة لابن حجر) تحقيق: د. طه محمد الزيني، نشر: مكتبة الكليات الأزهرية.
- العقيلي: أبو جعفر محمد بن عمرو بن موسى العقيلي (ت ٣٢٢هـ):
- (٧٨) الضعفاء الكبير: حققه ووثقه: د. عبد المعطي أمين قلعجي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ط ١ (١٤٠٤).
- العلي: إبراهيم العلي:
- (٧٩) صحيح السيرة النبوية: نشر: دار النفائس، الأردن/عمان، ط: الثانية ١٤١٦هـ.
- القاضي عياض: أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي (ت: ٥٤٤هـ):
- (٨٠) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى: نشر: دار الكتاب العربي/بيروت، ط: ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م تحقيق: علي محمد البجاوي.
- (٨١) إكمال المعلم بفوائد مسلم: المحقق: الدكتور يحيى إسماعيل، الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ -



١٩٩٨ م.

- العمري: أ. د. أكرم ضياء العمري:
- (٨٢) السيرة النبوية الصحيحة: مكتبة العلوم والحكم، المدينة النبوية (١٤١٢ هـ).
- (٨٣) المجتمع المدني في عهد النبوة (خصائصه وتنظيماته الأولى): من مطبوعات الجامعة الإسلامية ط ١ (١٤٠٣ هـ).
- عرجون: محمد الصادق إبراهيم عرجون:
- (٨٤) محمد رسول الله ﷺ (منهج ورسالة، بحث وتحقيق) الناشر: دار القلم، دمشق ط ١ (١٤٠٥ هـ).
- عروة بن الزبير (ت ٩٣ أو ٩٤ هـ):
- (٨٥) مغازي رسول الله ﷺ برواية أبي الأسود عنه: جمعه وحققه: د. محمد مصطفى الأعظمي، نشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج بالرياض (١٤٠١ هـ).
- العثيمين: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت: ١٤٢١ هـ):
- (٨٦) شرح العقيدة الواسطية: خرج أحاديثه واعتنى به: سعد بن فواز الصميل، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط: السادسة، ١٤٢١ هـ.
- العودة: أ. د. سليمان بن حمد العودة:
- (٨٧) الهجرة الأولى في الإسلام: دار طيبة، الرياض ط ١. (١٤١٩ هـ).
- (٨٨) قضايا ومباحث في السيرة النبوية: نشر: دار المسلم/ الرياض، ط: الأولى ١٤١٦ هـ.



- ٨٩ المرأة والدعوة في عصر النبوة: من مطبوعات كرسي الشيخ عبد الله بن صالح الراشد لخدمة السيرة والرسول ﷺ بجامعة القصيم.
- ٩٠ السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق (دراسة مقارنة في العهد المكي): دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض ط ١. (١٤٢٣هـ).
- ابن العربي: أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي (ت ٥٤٣هـ).
- ٩١ أحكام القرآن: تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار الفكر، بيروت.
- العودة: سلمان بن فهد العودة:
- ٩٢ الغرباء الأولون: طبعة: دار ابن الجوزي، ط ١. ١٤١٠هـ.
- العوشن: د. محمد بن عبد الله العوشن:
- ٩٣ ما شاع ولم يثبت في السيرة: الناشر: دار طيبة.
- العمري: عبد العزيز بن إبراهيم العمري:
- ٩٤ المغازي من مصنف ابن أبي شيبة: دار إشبيلية/ الرياض ط: الأولى ١٤٢١هـ.
- الفسوي: يعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧هـ):
- ٩٥ المعرفة والتاريخ: تحقيق: أكرم العمري، مطبعة الإرشاد، بغداد (١٣٩٣هـ).
- الفيروزآبادي: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (ت: ٨١٧هـ):
- ٩٦ القاموس المحيط: تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط: الثامنة، ١٤٢٦هـ.



- القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١هـ):
- (٩٧) الجامع لأحكام القرآن، ط ٣. دار الكتب بالقاهرة (١٣٨٧هـ).
- ابن القيم: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ):
- (٩٨) زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عبد القادر الأرنؤوط، نشر: مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية ط ١. (١٣٩٩هـ).
- ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤هـ):
- (٩٩) البداية والنهاية، تحقيق محمد عبد العزيز النجار، نشر: مؤسسة دار العربي للنشر، الرياض.
- (١٠٠) تفسير القرآن العظيم: تحقيق: عبد العزيز غنيم، محمد أحمد عاشور، محمد إبراهيم البناء طباعة دار الشعب، القاهرة.
- (١٠١) اختصار علوم الحديث: دار الكتب العلميّة، بيروت، توزيع: دار الباز، مكة المكرمة.
- (١٠٢) السيرة النبويّة: تحقيق: مصطفى عبدالواحد، ط. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، (١٣٨٤هـ).
- الكبيسي: عيادة أيوب الكبيسي:
- (١٠٣) صحابة رسول الله ﷺ في الكتاب والسنة: دار القلم/دمشق، المنارة للطباعة/بيروت، ط: الأولى ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م.
- مسلم: ابن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ):



- (١٠٤) صحيح مسلم: تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية (١٤٠٠هـ).
- ابن معين: أبي زكريا يحيى بن معين (ت: ٢٣٣هـ):
- (١٠٥) سؤالات ابن الجنيد: المحقق: أحمد محمد نور سيف، دار النشر: مكتبة الدار - المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.
- مهدي رزق الله أحمد:
- (١٠٦) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية: ط ١. (١٤١٢هـ) نشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض.
- المبار كفوري: صفى الرحمن:
- (١٠٧) الرحيق المختوم: نشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية/ جدة، مؤسسة علوم القرآن/ دمشق، ط: السادسة ١٤١١هـ، ١٩٩١م.
- أبو نعيم: أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ):
- (١٠٨) دلائل النبوة: الناشر: عالم الكتب، بيروت، مكتبة المشنى، القاهرة، مكتبة سعد الدين، دمشق.
- (١٠٩) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.
- النووي: أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦هـ):
- (١١٠) شرح صحيح مسلم، ط. المطبعة المصرية ومكبتها، القاهرة.
- النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني (ت: ٣٠٣هـ):

- (١١١) السنن الصغرى: تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام (ت ٢١٣هـ):
- (١١٢) سيرة النبي ﷺ، تحقيق: همام، وأبي صعيليك، ط ١ (١٤٠٩هـ) نشر: مكتبة المنار، الأردن.
- الهيثمي: علي بن أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧هـ):
- (١١٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣ (١٤٠٢هـ).
- (١١٤) موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان: المحقق: محمد عبد الرزاق حمزة، الناشر: دار الكتب العلمية.
- همام: د. همام عبد الرحمن سعيد وابنه:
- (١١٥) موسوعة صحيح الشمائل النبوية: الناشر مجلة البيان/الرياض، ط: الأولى ١٤٣٢هـ.
- الواقدي: محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ):
- (١١٦) المغازي، تحقيق: مارسدن جونس، نشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
- الوادعي: مقبل بن هادي الوادعي:
- (١١٧) الصحيح المسند من دلائل النبوة، ط ١ (١٤٠٥هـ).



- أبو يعلى: أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي (ت: ٣٠٧هـ):

(١١٨) مسند أبي يعلى: المحقق: حسين سليم أسد، الناشر: دار المأمون للتراث- دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

- يحيى: يحيى بن عبد العزيز اليحيى:

(١١٩) المرأة في دواوين السنة النبوية: من مطبوعات كرسي الشيخ عبد الله بن صالح الراشد لخدمة السيرة والرسول ﷺ بجامعة القصيم.

- يحيى بن إبراهيم اليحيى:

(١٢٠) رسول الله في مكة بناء وتأسيس: طبعة: دار الخضير، ط ١. ١٤٣٢ هـ.

- يعقوبي: أحمد بن يعقوب (ت ٢٨٢هـ):

(١٢١) تاريخ يعقوبي: دار صادر/ بيروت ١٤٧٩ هـ، ١٩٦٠ م.





فهرس الموضوعات

الصفحة	العنوان
٥	بين يدي الكتاب
١١	تنويه وشكر
١٢	أطر السيرة وتقسيماتها
١٣	أولاً: الأخلاق والشمال المحمدية
١٧	١ - أخلاقه ﷺ مع أهل بيته
١٨	٢ - أخلاقه ﷺ مع أصحابه ﷺ
١٨	٣ - أخلاقه ﷺ مع أعدائه من المشركين
١٩	٤ - أخلاقه ﷺ مع أهل الكتاب
٢١	٥ - أخلاقه ﷺ مع المنافقين
٢٣	٦ - أخلاقه ﷺ مع المرأة
٢٥	٧ - أخلاقه ﷺ مع الطفل
٢٧	٨ - أخلاقه ﷺ مع السادة والأمراء



٢٨	٩ - أخلاقه ﷺ مع الضعفاء والأرقاء
٣٠	١٠ - أخلاقه ﷺ في السلم والحرب والصحة والمرض
٣٢	١١ - أخلاقه ﷺ ورحمته بالحيوان والطيور والجماد
٣٤	ثانياً: دلائل النبوة ومعجزات النبي ﷺ
٤٠	ثالثاً: السيرة والمغازي
٤٠	قبل البعثة
٤١	الحاجة إلى رسالة الرسل
٤٢	إرهاصات المولد
٤٤	ولادة محمد ﷺ
٤٥	نسبه الشريف وكنيته
٤٧	إرضاع حليلة وشق الصدر
٤٨	دروس الحادثة وعبرها
٤٨	وفاة أمه ﷺ واکتتمال اليتيم
٤٩	كفالة الجدّ وحبّ الحفيد
٥٠	العمّ وطول الكفالة
٥١	حياة محمد ﷺ وأعماله قبل البعثة
٥١	أ - رعيه الغنم وحكمة ذلك



- ٥٢ ب - ذهابه ورحلته الأولى للشام وقصة بحيرى
- ٥٢ ج - مشاركته ﷺ في بناء الكعبة وحفظه عن عوائد الجاهلية
- ٥٤ د - حفظه عن اللهو والغناء وقبيح الجاهلية
- ٥٥ هـ - مشاركته ﷺ في حلف الفضول
- ٥٥ و - المشاركة في التجارة والزواج بخديجة
- ٥٧ إرهاصات البعثة ومقدمات النبوة
- ٥٧ أ - أخبار أهل الكتاب وعلمهم ببعثة محمد ﷺ
- ٥٨ ب - أخبار الكهان من العرب
- ٥٨ ج - تسليم الحجر والشجر على النبي ﷺ
- ٥٩ د - الرؤيا الصادقة
- ٥٩ هـ - العزلة والتحنث
- ٦٠ و - شق صدره ﷺ
- ٦٢ نزول الوحي ودروسه والتكليف بالنبوة والرسالة
- ٦٦ الدعوة في مرحلتها السرية
- ٧١ أوائل المؤمنين
- ٧٦ الجهر بالدعوة



٧٩	أساليب قريش في محاربة الدعوة وإيذاء المؤمنين
٧٩	١ - التهم الباطلة والسب والشتم
٨٠	٢ - السخرية والاستهزاء والغمز واللمز
٨١	٣ - اللغو في القرآن والتشويش عليه وسبّه ومن أنزله
٨٢	٤ - التحريض على النبي ﷺ واستعداد القبائل على المؤمنين والتعذيب الجسدي
٨٤	٥ - الحصار الاقتصادي والاجتماعي
٨٥	٦ - الحرب الفكرية
٨٧	٧ - الحرب الإعلامية
٨٨	٨ - الأسئلة التعجيزية وطلب المعجزات
٨٩	٩ - المساومات والترغيب
٩٠	١٠ - محاولة قتل النبي ﷺ
٩٢	الهجرة إلى الحبشة
٩٢	بواعث الهجرة وأسبابها
٩٢	١ - الجهر بالدعوة وكثرة المسلمين
٩٣	٢ - شدة أذى المشركين للمسلمين في مكة وتوافر الأمن لهم في الحبشة
٩٤	٣ - خشية الفتنة في الدين

٩٥	٤ - نشر الإسلام ونقل الدعوة
٩٦	لماذا الحبشة؟
٩٩	المسلمون في الحبشة
١٠٠	عدد المهاجرين ومقامهم بأرض الحبشة
١٠٣	الهجرة الأولى إلى الحبشة
١٠٥	الهجرة الثانية إلى الحبشة
١٠٨	نتائج هجرتي الحبشة وآثارهما
١٠٩	إسلام حمزة <small>رضي الله عنه</small>
١١٠	العبرة في إسلام حمزة
١١٢	إسلام عمر <small>رضي الله عنه</small>
١١٢	متى أسلم عمر؟
١١٣	كيف أسلم
١١٥	أثر إسلام عمر
١١٧	خروج النبي <small>ﷺ</small> وأصحابه من دار الأرقم إلى المسجد الحرام
١٢٠	الحصار في شعب بني هاشم



١٢٢	فك الحصار ونقض الصحيفة الآثمة
١٢٤	وفاة عمه أبي طالب وزوجه خديجة رضي الله عنها
١٢٧	الخروج إلى الطائف
١٣١	العودة إلى مكة وجوار المطعم بن عدي
١٣٥	الإسراء إلى بيت المقدس، والمعراج إلى السماوات العلا
١٤٠	الدرس والعبرة
١٤١	العرض على القبائل
١٤٤	بيعة العقبة الأولى
١٤٧	بيعة العقبة الثانية
١٥٣	الهجرة إلى المدينة
١٥٨	المدينة لماذا؟ وأول من هاجر
١٥٩	هجرة آل أبي سلمة
١٦١	هجرة عمر بن الخطاب <small>رضي الله عنه</small> ومن معه وغيرهم من المهاجرين
١٦٣	أنصار مهاجرون



١٦٤	هجرة النبي ﷺ ورفقته إلى المدينة
١٦٤	زمن الهجرة
١٦٤	التخطيط والاحتياط
١٦٩	في طريق الهجرة وحديث الرحل
١٧٣	الوصول للمدينة وفرح الأنصار
١٧٤	الهجرة بداية التاريخ
١٧٤	نفر من أهل الكتاب يفرحون ويسلمون
١٧٥	أول نزول النبي ﷺ في المدينة وأول جمعة صلاها
١٧٧	أسس البناء في المدينة
١٨٤	تنظيمات نبوية وتشريعات إلهية في الدولة الإسلامية
١٨٥	عدد الغزوات وأولها
١٨٧	أولى الغزوات غزوة ودّان (الأبواء)
١٨٨	أولى السرايا
١٩٠	(سرية عبد الله بن جحش) ودعاوى قريش
١٩٣	تشريعات ربانية
١٩٣	أ- تحويل القبلة



١٩٤	ب- فرض صيام شهر رمضان
١٩٥	ج- فرض الزكاة
١٩٧	غزوة بدر (يوم الفرقان)
١٩٧	يوم الفرقان
١٩٧	معركة خيبر أهل الأرض والسماء
١٩٨	فارق عدد الجيشين
١٩٨	عدد المسلمين وكثرة الخزرج
١٩٩	زمن الغزوة
١٩٩	متى بدأ القتال؟
١٩٩	سبب الخروج إلى بدر
٢٠٠	الاستشارة والعزيمة
٢٠١	تنازع قريش واختلافهم
٢٠٢	ألوية المسلمين وشعارهم
٢٠٢	دعاء النبي ﷺ وتضرّعه لربه
٢٠٣	كيف بدأت المعركة؟
٢٠٣	ولكن الله رمى
٢٠٤	جبريل عليه السلام، ومدد السماء الثالثة

٢٠٤	عوامل نصرٍ أخرى
٢٠٦	قتلى وأسرى المشركين
٢٠٦	شهداء المسلمين
٢٠٧	من نتائج بدر
٢٠٧	من ضروب الشجاعة والمواقف الإيمانية
٢٠٨	يسألونك عن الأنفال
٢٠٨	أسرى بدر
٢٠٩	ذكرى بدر وعبرها
٢١٠	لن نستعين بمشرك
٢١١	فضل أهل بدر
٢١٢	غزوة أحد
٢١٣	زمن الغزوة وسببها
٢١٤	العدد والعدّة
٢١٤	استشارة النبي ﷺ وأصحابه وعدد جيشه وتنظيمه
٢١٥	النصر والمصيبة
٢١٦	مَنْ ثَبِتَ مِنَ الرَّمَاةِ
٢١٧	من ألوان الشجاعة



٢١٩	سبعة يستشهدون دفاعاً عن النبي ﷺ
٢١٩	الترفع عن القوميات
٢٢٠	غسيل الملائكة
٢٢٠	أهل الأعذار يُقاتلون
٢٢٠	المرأة المسلمة في أحد
٢٢١	شهداء أحد
٢٢٢	من دروس أحد
٢٢٢	حمراء الأسد
٢٢٣	المنافقون تخلف وشماتة
٢٢٤	النُعاس أمانة
٢٢٤	الصلاة على شهداء أحد بعد سنين
٢٢٦	البعثات الدعوية ورصد تحركات المشركين بعد غزوة أحد
٢٢٦	١ - سرية ماء الرجيع
٢٢٩	٢ - سرية بئر معونة
٢٣١	الغدر المشين
٢٣٢	مشاهد إيمانية في بئر معونة
٢٣٣	بين الكرب والدعاء



٢٣٤	وفاء فريد
٢٣٥	نقض العهود وقاتال اليهود
٢٣٥	غزوة بني قينقاع
٢٣٦	التقارب بين اليهود والمنافقين
٢٣٧	غزوة بني النضير
٢٣٨	المنافقون مرة أخرى حلفاء لليهود
٢٣٩	اليهود يتهمون المسلمين بالفساد
٢٤٠	يهود بني قريظة
٢٤١	جرائم يهود بني قريظة
٢٤١	سعد بن معاذ يحكم فيهم بحكم الله
٢٤٢	عدد من قتل من بني قريظة
٢٤٤	غزوة الخندق
٢٤٤	سبب الغزوة
٢٤٥	المشورة والاستعداد
٢٤٦	من دلائل النبوة في الخندق
٢٤٨	الشدة والزلزلة في الأحزاب
٢٤٩	هل وقع قتال؟ وما عوامل النصر الإلهية

٢٥٢	من نتائج غزوة الأحزاب
٢٥٤	غزوة ذات الرقاع
٢٥٥	أحداث وعبر في ذات الرقاع
٢٥٨	غزوة بني المصطلق (المريسيع).
٢٥٨	زمنها
٢٥٨	سببها
٢٦٠	أحداث جسام ومكر المنافقين
٢٦٠	١ - محاولة المنافقين إثارة العصبية الجاهلية بين المهاجرين والأنصار
٢٦٢	٢ - من مواقف أهل الإيمان
٢٦٣	٣ - قاصمة الإفك
٢٦٧	٤ - مواقف أهل الإيمان في حادثة الإفك
٢٧٠	٥ - من وقع في الإفك
٢٧٠	٦ - لا تحسبوه شرًّا لكم
٢٧٢	صلح الحديبية
٢٧٢	كيف خرج المسلمون للحديبية؟
٢٧٣	عدد أهل الحديبية



٢٧٤	مشاركة المرأة في الحديدية
٢٧٥	بيعة الرضوان
٢٧٦	سهيل بن عمرو وكتابة الصلح
٢٧٧	قلق المسلمين لشروط الصلح
٢٧٨	تفوق رسول الله ﷺ ومكاسب الصلح
٢٨٠	المستضعفون بمكة يفرحون
٢٨٠	المستضعفات يهاجرن
٢٨٢	الفأل الحسن، وحسن السياسة
٢٨٢	محبة الصحابة للنبي ﷺ
٢٨٣	مدة الهدنة تُنقض
٢٨٤	انتشار الدعوة، ومراسلة الملوك والأمراء
٢٨٤	دعوة الرسل والملوك في إثر صلح الحديدية
٢٨٥	تراتب إدارية لمصلحة الدعوة
٢٨٧	عالمية دعوة الإسلام
٢٨٨	نصُّ الكتاب النبوي
٢٩٠	غزوة خيبر
٢٩٠	الوعد بغنائم خيبر



٢٩١	لا قتال مع الأذان
٢٩٢	متى أغار النبي ﷺ على خيبر؟
٢٩٢	الطريق إلى خيبر وقطع الإمداد عن اليهود
٢٩٣	الرايات في خيبر
٢٩٣	علي يتسلم الراية
٢٩٤	اللواء إلى أبي بكر وعمر قبل علي ولم يُفتح عليهم
٢٩٤	من قتل اليهودي مرحب؟
٢٩٦	حصون خيبر وقتلى اليهود وشهداء المسلمين
٢٩٧	المرأة في غزوة خيبر
٢٩٩	من دلائل النبوة في خيبر
٣٠١	لطيفة في حيلة الحجاج بن علاط
٣٠٢	لا أدري بأيهما أفرح
٣٠٢	محمد ﷺ رحمة وشفاء
٣٠٤	عمرة القضاء
٣٠٤	ماذا حمل من السلاح؟
٣٠٥	الرمل في الأشواط الثلاثة لماذا؟
٣٠٦	طلب المشركين من المسلمين مغادرة مكة بعد ثلاث



٣٠٦	الزواج بميمونة رضي الله عنها
٣٠٨	بين غزوة خيبر وعمرة القضاء
٣٠٨	سرية أبي بكر الصديق ﷺ إلى (نجد)
٣٠٩	بعث أسامة إلى الحُرقات من جهينة
٣١١	إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد رضي الله عنهما
٣١١	١- عمرو وإسلامه
٣١٣	٢- خالد سيف الله
٣١٦	سرية أو غزوة مؤتة
٣١٦	لماذا ثلاثة أمراء؟
٣١٧	وداع وبكاء
٣١٨	فارق العدد بين الجيشين؟
٣٢٠	الرسول ﷺ يخبر عن شهداء مؤتة وهو في المدينة
٣٢٠	بلاء المسلمين ولمن كانت الغلبة؟
٣٢١	من معاني النصر
٣٢٢	من آثار مؤتة ونتائجها
٣٢٤	سرية ذات السلاسل
٣٢٧	فتح مكة

٣٢٨	أبو سفيان يأتي للمدينة
٣٢٩	رسالة حاطب <small>رضي الله عنه</small>
٣٢٩	عدد جيش الفتح
٣٣٠	إسلام بعض زعامات المشركين قبل الفتح
٣٣١	عمه العباس يلقاه في الطريق
٣٣٢	أبو سفيان يُحمل إلى معسكر رسول الله <small>ﷺ</small> وكيف أسلم؟
٣٣٣	مقولة سعد بن عبادَة تُثير أبا سفيان
٣٣٣	مَن حمل الراية بعد سعد؟
٣٣٤	أوباش قريش تُحصد
٣٣٥	تخوف الأنصار وتطمين رسول الله <small>ﷺ</small> لهم
٣٣٦	مَن أهدر دمه عام الفتح؟
٣٣٦	قتال وقتلى في الخندمة
٣٣٨	تعظيم مكة وحرمتها
٣٣٩	ماذا بعد الفتح؟
٣٤٤	غزوة حنين
٣٤٥	النبي <small>ﷺ</small> يبعث من يعلم حال عدوه
٣٤٥	جاسوس المشركين يُقتل

٣٤٦	استعداد المشركين والغنيمة الباردة
٣٤٦	استعداد المسلمين
٣٤٧	خلل في جيش المسلمين
٣٤٧	أسباب الهزيمة في بداية المعركة
٣٤٩	ثبات رسول الله ﷺ والمؤمنين معه
٣٥٠	الجولة الثانية في حنين وعوامل النصر
٣٥١	الهزيمة الساحقة وعدد القتلى والأسرى
٣٥٣	خسائر المسلمين في حنين
٣٥٤	غزوة وحصار الطائف
٣٥٤	بعث الطفيل لهدم ذي الكفين
٣٥٤	خروج النبي ﷺ وعلى مقدمته خالد
٣٥٥	مقاومة ثقيف وشهداء المسلمين
٣٥٥	أساليب إضعاف ثقيف
٣٥٦	الدعاء لثقيف
٣٥٦	من الطائف إلى الجعرانة لماذا؟
٣٥٧	قسمة غنائم حنين
٣٥٩	من فقه حنين وماذا عن هوازن وثقيف؟



٣٦٢	دروس آخر وعبر من حنين
٣٦٥	غزوة تبوك أو (العسرة)
٣٦٥	سبب الغزوة
٣٦٧	عدد جيش المسلمين في تبوك مقارنة بعددهم في حنين
٣٦٧	صدق المؤمنين في المشاركة أو الاعتذار في تبوك
٣٦٨	شح المنافقين ولمزهم المؤمنين
٣٦٨	صدق المؤمنين في المشاركة أو الاعتذار في تبوك
٣٧٠	الثلاثة الذين خلفوا
٣٧٠	المنافقون في غزوة تبوك
٣٧٢	ومن دروس غزوة تبوك
٣٧٧	عام الوفود
٣٧٧	١- وفد مُزينة
٣٧٨	٢- وفد عبد القيس
٣٧٩	٣- وفد بني تميم
٣٨٠	٤- وفد بني حنيفة
٣٨٢	٥- وفد نجران
٣٨٧	من فقه الوفود ودلالاتها



٣٨٨	حج أبي بكر الصديق ﷺ بالناس
٣٩٢	حجة الوداع
٣٩٣	عدد المسلمين في حجة الوداع
٣٩٤	حديث جابر ﷺ
٣٩٤	وقفات من حجة الوداع
٣٩٩	تجهيز جيش أسامة بن زيد ﷺ
٤٠٣	مرضه ﷺ ووفاته
٤٠٣	أحداث قبل الوفاة
٤٠٦	وقفات في مرضه ووفاته ﷺ
٤١٢	الخاتمة والتوصيات
٤١٥	قائمة المصادر والمراجع
٤٣٢	فهرس الموضوعات

